الدكتور أحمد فخري



مصر الفرعونية

بسم الله الرحمن الرحیم

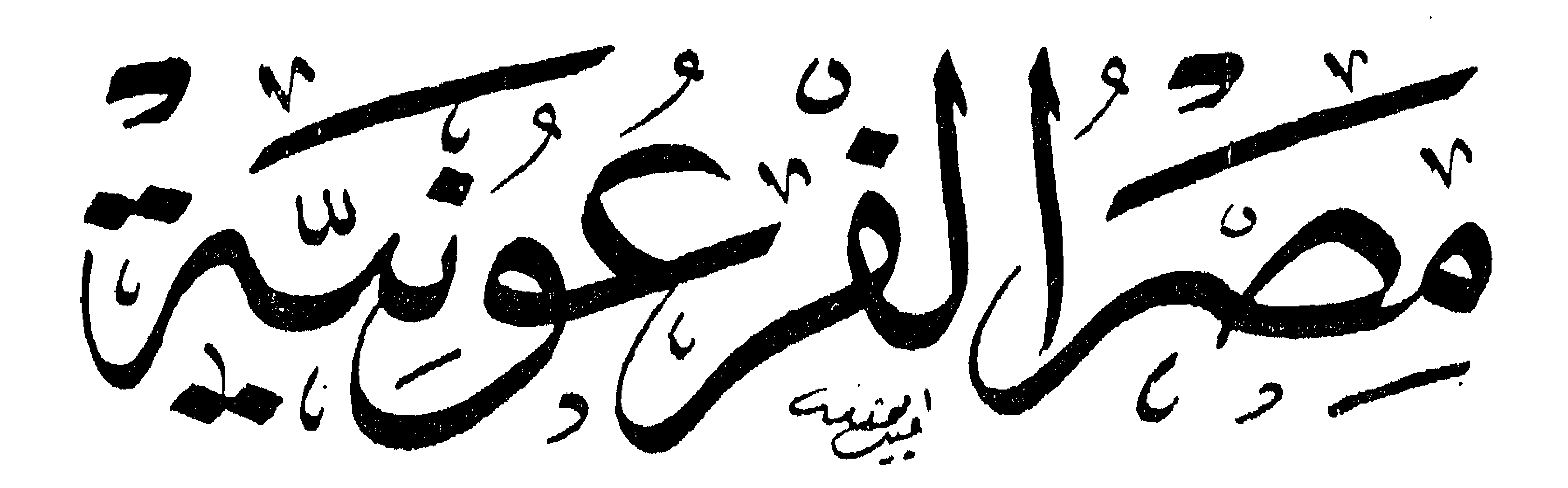


زوجة توت عنخ أمون تقدم له باقة من الزهور

إهـــــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة



موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد

تأليف

أحمد فخرى

أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب — جامعة القاهرة

(أكتوبر ١٩٥٧)

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)

دار عمفيس للطباعة

٥٦ شارع منصور - باب اللوق - القاهرة

ت ٢٦٨١٨

أبواب الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب

بسم الله والحمد لله وبعد :

فهذا كتاب عن « مصر الفرعونية » أحسست منذ وقت غير قصير بالحاجة إليه ، وها قد انتهيت منه ، وأقدمه للقارىء راجياً أن أكون قد قمت بعملي هذا بأداء جزء مما يفرضه على واجبي .

وربما سأل سائل أليست هناك كتب عن تاريخ مصر فى العهد الفرعونى باللغة العربية ، وإذا كان هناك شيء منها فما الذى دعا إلى كتابة مؤلف جديد ؟ . وجوابى على ذلك أن هناك أكثر من كتاب واحد ، كتبها أصحابها مشكورين أو قاموا بترجمتها عن اللغات الأجنبية مشكورين أيضا . ولكن القارىء العربى ما زال فى حاجة إلى كتب أخرى كثيرة تتناول مختلف نواحى الحضارة المصرية وتقدم نتائج أحدث الاكتشافات والأبحاث ، وتجلى بعض النقط الغامضة فى التاريخ المصرى قدر المستطاع .

ويعلم كل مشتغل بالتاريخ أن كتابة تاريخ مطول وجمع كل الوثائق ووضعها فى صلب الكتاب ، أسهل كثيراً من كتابة تاريخ مختصر يحوى خلاصة تلك الوثائق ويحسن استخدامها . وكان هدفى هو كتابة مؤلف لا يزيد فى حجمه عن أربعمائة صفحة من القطع المتوسط يجمع بين دفتيه أهم حوادث التاريخ ويسردها متمشياً مع العصور ، وفى الوقت ذاته لا يغفل ذكر الآثار الهامة أو مظاهر الحضارة فى مصر . وإنى أعترف أن ذلك لم يكن سهلا على ، كما أعترف أيضا بأنى ضحيت بذكر الكثير من المعلومات طالما أنها لم تكن ذات أثر جوهرى على سير الحضارة أو التاريخ .

وإنى مدين ، دون شك ، لأساتذتى الذين درست عليهم ومدين للمئات من علماء الآثار من جميع الجنسيات الذين نشروا آلاف الكتب والأبحاث

فى المـائة والخمسين سنة الأخيرة ، ومدين لزملائى الذين أمدونى بنصائحهم ، ولـكنى مدين أيضاً ، وإلى أبعـد الحـدود ، لتلاميذى الذين سـعدت بإلقاء محاضراتى عليهم فان مناقشاتهم لى ، وفى بعض الأحيان اعتراضاتهم أو إقبالهم على معرفة المزيد من بعض النقط ، كانت دائماً خير عون لى ، فإليهم جميعا أقدم الشكر والاعتراف بالجميل . وإذا كان قارىء هذا الـكتاب لا يجد بين دفتيه كل ما يريد الوقوف عليه والإلمـام به فأرجوه ألا ينسى أن لـكل كتاب هدفا ، وجوانب الحضارة المصرية متعددة ، وعسى أن يجد ما يبغيه فى المؤلفات الأخرى التى أشرت اليها أو فى المراجع الهامة التى ذكرتها .

وهناك كلمة أخيرة . إن تاريخ مصر طويل ومتشعب ، وكتب فيه الـكثيرون ، وبخاصة من غير المصريين ، وكان كل كاتب ينظر إليه من زاوية خاصة متأثراً بثقافته الخاصة ، وشعوره الشخصى . وكثيراً ما نجد فى كتابات بعض المؤرخين تحاملا ليس له مايبرره ، على شـعوب الشرق وحضاراتها ، ومن بينها مصر ، ويذهبون إلى القول بأن تلك الحضارات القديمة قد «تحجرت» وانتهت أيامها منذ آلاف السنين ، وأن تلك الأمم قد ضعفت وفقدت استقلالها منـذ أن فقدت تلك الحضارات قواها الدافعة ، وأصبحت من نصيب الغزاة الأجانب ، بل يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيشكك فى أن ساكنى هـذه البـلاد فى الوقت الحالى لا ينتمون بأى صـلة إلى القدماء . ولست أريد أن أرميهم كلهم بسوء القصد أو التعصب الأعمى ، والتمهيد للاستعمار بإضعاف الروح القومية بين تلك الشعوب ، فربمـا كان بعضهم مقلداً لغيره دون وعى أو قصد ، ولـكن الحقيقة هى غير ما يقولون ، وقـد آن الأوان لـكتابة تاريخ مصر من زاوية أخرى تتفق مع الحق وتتفق مع وجهة النظر المصرية ويجب أن يعرف أبناؤنا تاريخ بلادهم على حقيقته ولـكن دون تنميق رخيص أو اندفاع مع الشعور .

لقد كانت لمصر حضارة ومدنية منذ فجر التاريخ ، وكان لغيرها من شعوب الشرق حضارات ومدنيات ، وكما أعطت مصر لغيرها أخذت منهم أيضا ، ولكن بقي لمصر دائما طابعها الشخصي وبقيت لها ميزاتها لأنها نشأت وترعرعت في ثرى هذا الوادي الكريم وكان لنيلها الفضل الأول عليها . والمصريون اليوم وان اختلفت لغتهم وديانتهم عن لغة وديانة أجدادهم الذين عاشوا في أيام الفراعنة ، أو وفدت عليهم شعوب أخرى امتزجت بهم وتمصرت وأصبحت جزءاً من سكان البلاد ، ما زالوا يعيشون حيث عاش أجدادهم وما زالت تجري في عروقهم دماء الأقدمين .

إن روح مصر لم تمت في يوم من الأيام ، وإن خبت شعلتها يوما فقد كانت تعود ساطعة مضيئة يوما آخر .

لقد أثبت المصريون في كل زمن أنهم يدركون قدر أنفسهم ويدركون التبعات التي ألقاها على كاهلهم مركزهم الجغرافي في هذا الجزء من العالم ، وسيرى قارىء هذا الكتاب قصة تاريخ هذا الشعب منذ أقدم عصوره ، وسيدرك من تلقاء نفسه أن مصر لم تخضع يوما من الأيام لغزو أو استعمار أجنبي وترتضيه ، وإن غلبت على أمرها يوما من الأيام فلا تلبث إلا حينا حتى تجد الزعيم الوطني المخلص الذي يدعوها إلى العمل ويتقدم الصفوف ، فتلبي دعوته وتبدأ عهدا من عهودها الزاهرة .

وسيرى القارىء أيضا أنه مهما تقلبت على مصر الأحداث ، أو تعرضت لحلو الأيام ومرها فقد ظلت دائما سليمة العنصر ، وبقي شعبها حيا لأنه جدير بالحياة .

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق ؟

القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧

احمد فخري

أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الفصل الأول

مولد الحضارة ونشأتها

طبيعة أرض مصر — أقدم العصور والحضارات — أهم المصادر
لدراسة تاريخ مصر الفرعونية
(منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م)

عند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وحيث يتصل البحران الأبيض والأحمر يجرى نهر النيل ، ذلك النهر الكريم الوهاب ، وعلى شاطئيه يعيش المصريون منذ آلاف السنين يزرعون الأرض الخصبة المباركة ويتصلون بمن جاورهم من الشعوب .

ومنذ آلاف السنين أيضاً بدأ المصريون يخطون نحو المدنية ، وكانت خطاهم وئيدة فى البداية ، ثم أخذوا يسرعون فى تلك الخطى وكونوا حضارة هى ما نسميه الحضارة المصرية التى نشأت وترعرعت فى وادى النيل ، ولم يقتصر خيرها على المصريين وحدهم بل كان لها فضل غير قليل على من اتصل بالمصريين من الشعوب . ومن الخطأ أن يعتقد انسان أن المصريين

عاشوا فى وحدة ، أو أنهم لم يتأثروا بغيرهم من سكان الشرق القديم الذين كانوا معاصرين لهم ، ولكن ذلك الاتصال كان محدود الأثر . ويمكننا أن نتتبع تطور تلك الحضارة على مدى الأجيال ،ولكن قبل أن نتكلم عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة المصريين القدماء منذ أقدم العصور يحسن بنا أن نقف قليلا لنلم ببعض ما يجب الإلمام به عن طبيعة وادى النيل ، وبخاصة الجزء الأسفل منه ، وهو ما يسمى بأرض مصر .

طبيعة أرض مصر

يرتبط تاريخ أى شعب ارتباطاً كبيرا بطبيعة أرضه ، ولهذا وجب علينا أن نلقى نظرة على طبيعة الأرض المصرية لنعرف مدى أثرها على حضارة تلك البلاد ، إذ كان لطبيعة الأرض أثر عظيم على تطور حضارتها ، بل أن هذا الأثر ما زال مستمراً إلى يومنا هذا ، وله وزن كبير فى تطور أحداثها التاريخية .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة الجمهورية المصرية لوجدنا أنها تتكون من سبع مناطق جغرافية وهى :

١ — وادى النيل ، بما فيه الدلتا والصعيد .

٢ — مديرية الفيوم .

٣ — منطقة قنال السويس .

٤ — الصحراء الغربية .

٥ — الصحراء الشرقية .

٦ — شبه جزيرة سينا .

٧ — جزر البحر الأحمر .

ومجموع مساحتها كلها حوالى مليون كيلو متر مربع ، منها ٣٧,٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً ، هى الوادى الآهل بالسكان ، أما الباقى فهو صحارى ، وبعبارة أخرى لا تزيد مساحة الجزء العامر من الأراضى المصرية عن ٤٪ من مساحة مصر ، أما الباقى فهو صحارى تكاد تكون خالية من الزراعة .

ويسكن ٩٩٪ من المصريين الذين يبلغ عددهم أكثر من اثنين وعشرين مليونا فى هذا الجزء البسيط من الجمهورية أى بمعدل أكثر من ٥٠٠ شخص للكيلو متر المربع الواحد بينما لا يسكن فى الجزء الباقى وهو ٩٦٪ من مجموع المساحة أكثر من ١٣٠,٠٠٠ أى أن متوسط السكان فى الصحراء هو أكثر من سبعة كيلو مترات مربعة للشخص الواحد .

ولهذا يسهل علينا أن نفهم قيمة نهر النيل لمصر ، إذ لولا وجوده لكانت تلك الأراضى المنزرعة التى يعيش فيها أكثر السكان ، صحراء مثل التى على يمينها وعلى يسارها ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى حتى بلاد العرب ، لأن هذه المنطقة أصبحت الآن (أى خلال الستة آلاف سنة الأخيرة) قليلة الأمطار ولا يزيد متوسط كمية الأمطار فى بعض جهات شاطئ البحر الأبيض عن ٢٠ سنتيمترا فى السنة ، وفى القاهرة ٣ سم وفى أسيوط نصف سنتيمتر ،أى أنه لا يمكن أن تكفى لزراعة أى محصول بعيداً عن الشاطئ إذا كان الاعتماد على المطر وحده .

وطول القطر المصرى من الشمال إلى الجنوب ١٠٧٣ كيلو مترا وعرضه ١٢٢٦ كيلو مترا ، أى أن مساحة مصر تزيد على مساحة أى مملكة فى أوروبا ما عدا الروسيا ، ولكن الصحراء تكون الجزء الأكبر منها كما سبق القول .

ويشق النيل طريقه فى واديه ، فيسير بين هضبتين يختلف اتساع الوادى بينهما من آن لآخر (طول وادى النيل بأكمله ٦٦٧١ كيلو مترا منها ١٥٣٠

فى الأراضى المصرية) ، وهذا الوادى ضيق جداً بين الشلال الثانى وأسوان وعلى جانبيه بعض الصخور الجرانيتيه ، ولكنه يبدأ فى الاتساع بعد ذلك . ويضيق أحيانا ويتسع أحيانا أخرى ، وهو فى المتوسط ١٠ كيلو مترات منها ¾ كيلو متر للنيل نفسه . أما الدلتا فهى مكونة من طمى النيل، وهى تخلو من الجبال ومسطحها نحو ٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع ولا يزيد مساحة المنزرع منها عن النصف إلا قليلا .

العصور الجيولوجية

ومرت على مصر عصور چيولوچية متعددة قبل أن تصبح آهلة بسكانها . ففى عصر الإيوسين (Eocene) كانت تصل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبى إسنا، وحدث ارتفاع فى الأراضى فى عصر الأوليجوسين (Oligocene) أدى إلى ظهور أكثر القطر المصرى .

وفى عصر الميوسين (Miocene) كان النيل قد أخذ مجراه الحالى تقريبا واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، ولكن لم يأت آخر هذا العصر حتى انفصل البحران مرة أخرى عن بعضهما .

كان اتصال النيل بالبحر الأبيض عند موقع القاهرة تقريبا ، وكانت له عدة روافد فى الصحراء الشرقية لم يبق منها غير أثر مجراها فى الوديان هناك .

وفى عصر البليوسين (Pliocene) حدثت هزة أرضية كبرى أعادت اتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض . ولكن هذا الاتصال كان بواسطة جزء ضيق هو الذى بقى منه فى العصور التاريخية خليج السويس وبعض البحيرات .

وأخذ النيل يلقى برواسبه فى الفجوة التى كان يصب فيها ، وكون لنفسه فى تلك الأراضى الجديدة نحو عشرة فروع .

ولكن لم يأت العصر الپاليوليتي (Paleolithic) على مصر حتى كانت روافد النيل في الصحراء الشرقية قد جفت ، وانفصم خليج السويس عن البحر الأبيض وانكمش خليج العقبة إلى ما يقرب من شكله الحالي ، مع أن نهايته كانت عند منخفض البحر الميت في فلسطين ، وظهرت أيضا مديرية الفيوم إذ سار فرع من النيل إلى ذلك المنخفض ، وعدت عوامل الطبيعة فجففت فرعا للنيل كان يسير في الصحراء الغربية منذ عصر الميوسين وبقي حتى نهاية عصر البليوسين .

أما النيل نفسه ، فكان في البداية سريع الجرى ويملأ الوادى أثناء الفيضان ولكنه أخذ يعمق مجراه مع مرور الزمن ، كما أخذت تقل كمية الأمطار ، فأخذ عرضه يقل تبعا لذلك وكون مدرجات على مدى العصور . وعاش الإنسان القديم فوق تلك المدرجات ، وترك بعض أدواته الظرانية فوق الهضاب ثم أخذ ينزل تدريجيا ليكون على مقربة من النهر كلما تقدم به الزمن .

عصر ما قبل التاريخ

كان السكان الذين يعيشون على مقربة من نهر النيل يعتمدون على الصيد ، وكذلك فعل الذين كانوا يعيشون في الصحراء معتمدين على نزول الأمطار التي كانت تملأ بعض المنخفضات فتحيلها إلى بحيرات ، تنبت حولها الأشجار والأحراش ، وتغذيها مياه الأمطار التي تنزل فيها ومجارى الوديان المختلفة التي تصب في تلك المنخفضات .

وكثيرا ما يعثر الباحثون على أدوات ظرانية وأخشاب متحجرة داخل الصحراء ، ولكن لم يصل إلى أيدى العلماء حتى الآن أى عظام أو بقايا أخرى من ذلك الإنسان الذى عاش في العصر الحجرى القديم في تلك المناطق أو على

جانبى النيل ، ولهذا نعتمد فقط على تلك الأدوات الحجرية عند الكتابة عن هؤلاء السكان ومقارنة حضارتهم بحضارة غيرهم من الشعوب .

كان المصرى فى ذلك الوقت جامعا للقوت يحصل على حاجته مما يجده من ثمار الأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات . ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ، ولا تحتاج إلى ضرورة إقامة العائلات على مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلى أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه .

وجاء اليوم الذى عرف فيه الإنسان أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها على كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصرى يتحول تدريجيا من جامع للقوت إلى منتج له ، فأجبرته الزراعة على الإقامة فى مكان معين ليرعى حقله وليحصل على ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضا ، ويبنى له مستقرا يأوى إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضا يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته . وعند ما وصل الإنسان إلى هذه المرحلة ، أى بعد ترك اعتماده على حياة الصيد وجمع القوت اعتمادا كاملا ، أخذ يودع حياة العصر الحجرى القديم ، وأخذ يبدأ العصر الحجرى المتوسط الذى حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقى قليلا قليلا فى مدارج المدنية وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة ، وما جاء العصر النيوليتى أو العصر الحجرى الحديث حتى كان هذا الإنسان يعيش فى قرى صغيرة ، وعرف الملابس وبدأ يدفن موتاه فى قبور ، وبدأ يصنع بعض التماثيل وأدوات الزينة .

وأقدم الحضارات التى عثر عليها العلماء فى وادى النيل بوجه عام هى حضارة الخرطوم التى يرجع تاريخها إلى ما بين عامى ٥٠٠٠ ، ٤٧٠٠ ق.م وقد ظهرت بقاياها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى حضارة لاشك فى صلتها

بحضارة شمال الوادى ولكنها كانت متأثرة بطابع محلى أملته صلة السكان بغيرهم ممن كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم . وكان سكان الخرطوم القدماء على درجة من التقدم جعلتهم يصنعون أدوات مختلفة من الحجر ومن العظم ، ويتحلون بالخرز والعلاقات المصنوعة من بيض النعام. وعرفوا صناعة الفخار وزخرفته بواسطة أجزاء من السلسلة الفقرية لبعض الأسماك تشبه المشط يديرونه حول الإناء قبل أن يجف ، كما كانوا يزخرفون الأوانى بواسطة الحبال أو أصابع اليد ، وكان هؤلاء السكان يعيشون على مرتفع غير بعيد من النهر يقضون فيه جزءا من السنة فقط .

وليس لدينا دليل قاطع على أنهم مارسوا الزراعة رغم معرفتهم للفخار الذى يلازم الناس عند ما يتحولون للزراعة ويصبحون منتجين للقوت .

وهناك وجوه شبه عدة بين فخار الخرطوم وفخار البدارى وما عثر عليه المنقبون فى النوبة وفى غربى السودان مما يدل على انتشار ثقافة واحدة فى جزء كبير من هذا الجزء من العالم فى ذلك العهد .(١)

وتسمى الفترة بين بداية العصر النيوليتى (أى العصر الحجرى الحديث) وبين ظهور الأسرات فى مصر ، وتقرب من ألفى سنة ، العصر الحجرى النحاسى (Chalcolithic Period) أحيانا، ويعنينا منها فى هذه المرحلة ما كان فى مصر قبل عام ٤٠٠٠ ق . م . ونستطيع أن نقول أنه كان لكل من حضارتى الدلتا والصعيد مميزات خاصة ، ففى الدلتا تأثرت الحضارة بما كان فى شرقى مصر وغربها لاتصالها بأهل فلسطين وسوريا وجزر البحر الأبيض

---

(١) ARKELL, *Early Khartoum* (*Oxford, 1949*)
وانظر أيضا تلخيصا ونقدا لهذا المؤلف نشره مؤلف هذا الكتاب فى المجلة التاريخية المصرية عدد مايو ١٩٤٩ ص ٢٠٧ — ٢١٥

من ناحية وبشمال إفريقيا من ناحية أخرى . أما فى الصعيد فقد اتصلت عن طريق الشرق أى عن طريق البحر الأحمر ببعض الثقافات الأخرى الحامية والسامية كما اتصلت أيضا بالشعوب التى كانت إلى جنوبى مصر .

وأقـــدم حضارات الشمال (أى الدلتا) هى حضارة الفيوم التى كانت لقوم ربما نزحوا من الغرب واستقروا على حافة البحيرة ، ثم تليها حضارة مرمدة وكلاهما كان قبل عام ٤٠٠٠ ق . م .ثم تلتهما بعد ذلك حضارة جرزة ثم المعادى ، أما فى الصعيد فإن أقدم الحضارات هى حضارة تاسا ثم البدارى وبعدها حضارة العمرة [١] . ويكفينا أن نتكلم على مميزات حضارتى مرمدة فى غرب الدلتا والبدارى فى مديرية أسيوط لأنهما تمثلان بوجه عام شمالى مصر وجنوبها .

حضارة مرمدة

عثر الأستاذ هرمان يونكر على هذه الحضارة فى عام ١٩٢٨ ، ولم ينشر حتى الآن مؤلفه الكامل عنها ، وكل ما نعرفه مستمد من تقاريره السنوية التى نشرها بين أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٤٠ وهـذه المنطقة هى بقايا قرية نيوليتية على حافة الدلتا الغربية ، لا يزيد حجمها على ستة أفدنة (٦٠٠ × ٤٠٠ مترا) ، شيد أهلها أكواخهم المبنية بالطين على جانبى طريق رئيسى مستقيم .

وقد ثبت أن سكان مرمدة كانوا يعرفون الزراعة وكانوا متعاونين فيما بينهم ويخزنون غلاتهم فى صوامع مشتركة لهم جميعا ، وكان لديهم قطعان من الماشية والخنازير وقليل من الماعز والخراف .

---

(١) هذا هو الترتيب الذى اتفق عليه أكثر العلماء حديثا ، أما قبل الآن فكانوا يضعون حضارة نقادة الأولى فى العصر الذى تشغله العمرة ، ونقادة الثانية فى العصر الذى تشغله حضارة جرزة أى حوالى عام ٣٥٠٠ ق م . أنظر : FRANKFORT, *The Birth of Civilization in the Near East p. 42 Footnotes, 3 and 5.*

واستعملوا فى الزراعة شرشرة مستقيمة من الخشب ثبتوا فى حافتها قطعا من الظران ليقطعوا بها أعواد القمح التى كانوا يخزنونها فى صوامعهم التى صنعوها من الخوص ، وكانوا يضعونها فى حفر عميقة تحت مستوى سطح الأرض . وعرف أهل مرمدة فأس القتال كما عرفوا استعمال السهام وكان لديهم دبابيس للحرب وسكاكين من الظران .

ولا يخالجنا شك فى أن سكان مرمدة كانوا يلبسون الكتان بعد غزله ، وأن نساءهم كن يتحلين بعقود من المحار أو أسنان الخنزير البرى ، وبخواتم من العظم وحلقان من العاج . وكان لكل امرأة لوح من حجر الإردواز تصحن عليه التوتية الخضراء لتكحيل عينيها لأجل التجمل ولوقايتها من أشعة الشمس وربما أيضاً ضد بعض أمراض العيون . وفخارهم أسود خشن ، وشكله على هيئة قرب الماء ، ومنه بعض أنواع ذات قواعد وأوانى صغيرة على شكل فناجين ذات أرجل ، وأحيانا يتصل اثنان منها ببعضهما . وكان لديهم أوانى طويلة العنق تشبه القلة ، كما صنعوا أيضاً صوانى صغيرة من الفخار . ولم يزخرف سكان مرمدة أوانيهم ولم يصنعوا لها أيادى على جانبيها ولكنهم كانوا يعملون ثقوباً فى جوانبها لتعليقها .

ومن أهم ما عثر عليه يونكر فى منازل تلك القرية وجود أعمدة فى بعض المنازل لحمل السقف ، أقاموها فى وسط الحجرة ، كما عثر فى ركن إحدى الحجرات على عظمة كبيرة من فرس البحر كانت مثبتة لاستعمالها سلماً للصعود إلى السطح . وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم كما فعل كثيرون من سكان الشرق القديم دون أن يضعوا معهم أوانى أو أسلحة .

وقد ثبت من فحص بقايا الهياكل العظمية لهؤلاء السكان أنهم كانوا فرعا من جنس سكان البحر الأبيض المتوسط ذوى جماجم تميل إلى الاستطالة

وجباههم عريضة ، وهم فرع من حضارة انتشرت على شاطىء إفريقيا الشمالى ووصلت إلى أوروبا حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م .

ولم تتصل حضارة مرمدة بحضارة البدارى اتصالا مباشرا أو كان لها أثر مهم عليها ، بل استمرت فى الدلتا وكان لها أثر مباشر على حضارة العمرى فى حلوان .

حضارة البدارى

لم يكن سكان الصعيد ، فى ذلك الوقت ، قد استقروا فى مدن أو قرى كبيرة ثابتة ، بل كانوا يسكنون فى محلات أو نجوع متنقلة، ولكنهم اختاروا أماكن يدفنون فيها موتاهم وهى الجبانات. وإذا درسنا حضارة البدارى لرأينا فيها شبها كبيراً بحضارة سكان الصحراء الغربية وخاصة أهل العوينات ولرأينا أنها لم تخلو من التأثر بالحاميين. ولسنا نعرف حتى الآن أى مكان شمال مديرية أسيوط تأثر بهذه الحضارة ، بل كان انتشارها إلى الجنوب ، ونراها فى بلاد النوبة أيضاً بل وأبعد من ذلك .

كان الجو فى ذلك العهد أكثر أمطارا ودفئا عما هو عليه الآن ، وكان السكان يعيشون فوق المرتفعات التى تشرف على المساحات الواسعة من الأحراش والمستنقعات الملأى بالنباتات المختلفة وبخاصة نبات البردى . ولم يبق إلا القليل من القرية أو القرى التى عاشوا فيها ، وأكثر ما وصلنا من معلومات عن أهلها انما جاء من حفائر الجبانات الكثيرة . وكان البداريون أقرب إلى القصر منهم إلى الطول إذ لم يزيدوا فى المتوسط عن ١٦٠ سنتيمترا، وكانوا نحاف الجسم ، وتقاطيع وجوههم دقيقة ، وشعرهم متموج أسود ، وفى بعض الحالات القليلة كان لون شعورهم كستنائيا . وكان الرجال يرسلون شعورهم على أكتافهم ، بينما كان شعر النساء أقصر من شعر الرجال ولم يزد

طول شعر امرأة فيهم عن ٢٠ سنتيمترا يضفرنه فى غدائر ، وكان رجال البدارى يعنون بمظهرهم الخارجى ، فيحلقون لحاهم ، ويضعون طاقية فوق رؤوسهم . وعرف البداريون الملابس الكتانية ، كانوا يلبسونها رجالا ونساء وأطفالا ، وعند اشتداد البرد كانوا يلبسون الجلود وصوفها إلى الداخل ، كما عرفوا أيضاً دبغ الجلود .

وكانوا يحلون أعناقهم وأذرعهم بالعقود والأساور المصنوعة غالبا من حبات مزججة ، وكانوا يزينون شعورهم بوضع الريش فيها ، وأحيانا بوضع أمشاط طويلة من العاج زينت رؤوسها بأشكال الحيوانات ، كما كان يضع بعضهم حول شعورهم عصابات زاهية اللون محلاة بأصداف البحر الأحمر .

ومن أهم ما عثر عليه فى مقابرهم بعض حبات من النحاس المطروق ، كما استخدموا فى حليهم حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وحبات مصنوعة من قشر بيض النعام . وكان بعض النساء يحلين أنوفهن بوضع زر صغير يثبتون نتوءاً صغيرا فى أحد طرفيه فى ثقب داخل الأنف ، وعرفت النساء استعمال الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

أما مساكنهم فكانت بسيطة بدائية ، وضعوا فيها الأثاث البسيط ، مثل أسرة خشبية قليلة الارتفاع ، كما كانوا يستعملون وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن .

ومن بين أدواتهم عثر على عصى للرماية وشصوص لصيد السمك ، والحراب والسهام ، كما عثر أيضا على نماذج للقوارب .

ووضعوا موتاهم فى قبورهم أحيانا فوق الأسرة ، أو ملفوفة فى حصير ، ولم يقتصر الدفن على البشر بل أن بعضهم دفن معه غزلانا وقططا ، وكانوا

يضعون رؤوس الموتى فوق وسائد ، ويحرصون على أن تكون وجوهها نحو مطلع الشمس مهما كان مكان القبر أو اتجاهه فى الجبانة .

ويمتاز فخار البدارى بإتقانه وجمال زخارفه وصلابة مادته، ورقة جدران أوانيه. ولا شك أن البداريين آمنوا بالبعث، وكانوا يضعون معهم فى قبورهم بعض تماثيل قليلة للحيوانات وبخاصة فرس البحر . وهناك تماثيل أخرى للنساء وللطيور، ولكن ذلك لا يعنى أنهم كانوا حتما يعبدون تلك الحيوانات .

ولو أمعنا النظر فى هذه الحضارات لوجدنا أنها تشبه فى كثير من مظاهرها حياة بعض سكان شرق إفريقيا اليوم وبخاصة قبائل البشارية والهادندوة وبعض قبائل الصومال وكلهم من الجنس الحامى الأصل .

ولا تقتصر المقارنة على إفريقيا فقط بل إنها تمتد إلى جنوبى الجزيرة العربية ، ومتى أمكننا دراسة تلك الشعوب المختلفة دراسة كاملة أمكننا أن نحدد ما يربطها بالمصريين القدماء من صلات، ولكن هذه الدراسات مازالت فى بدايتها حتى الآن[1] .

نظرة عامة فى عصر ما قبل الأسرات

والآن وقد عرفنا شيئا عن حضارتى مرمدة والبدارى ، وكلاهما يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٤٤٠٠ ق.م ، يمكننا أن نلخص حياة المصريين القدماء فى ذلك العهد بأنهم كانوا قد عرفوا الزراعة واستخدام معدن النحاس ، ولو فى نطاق ضيق ، كما بدأوا حياة متحضرة بعض الشيء . وتقدمت الأيام ، وتقدم معها ارتقاء السكان، واضطرتهم حياة الاستقرار إلى التعاون فيما بينهم،

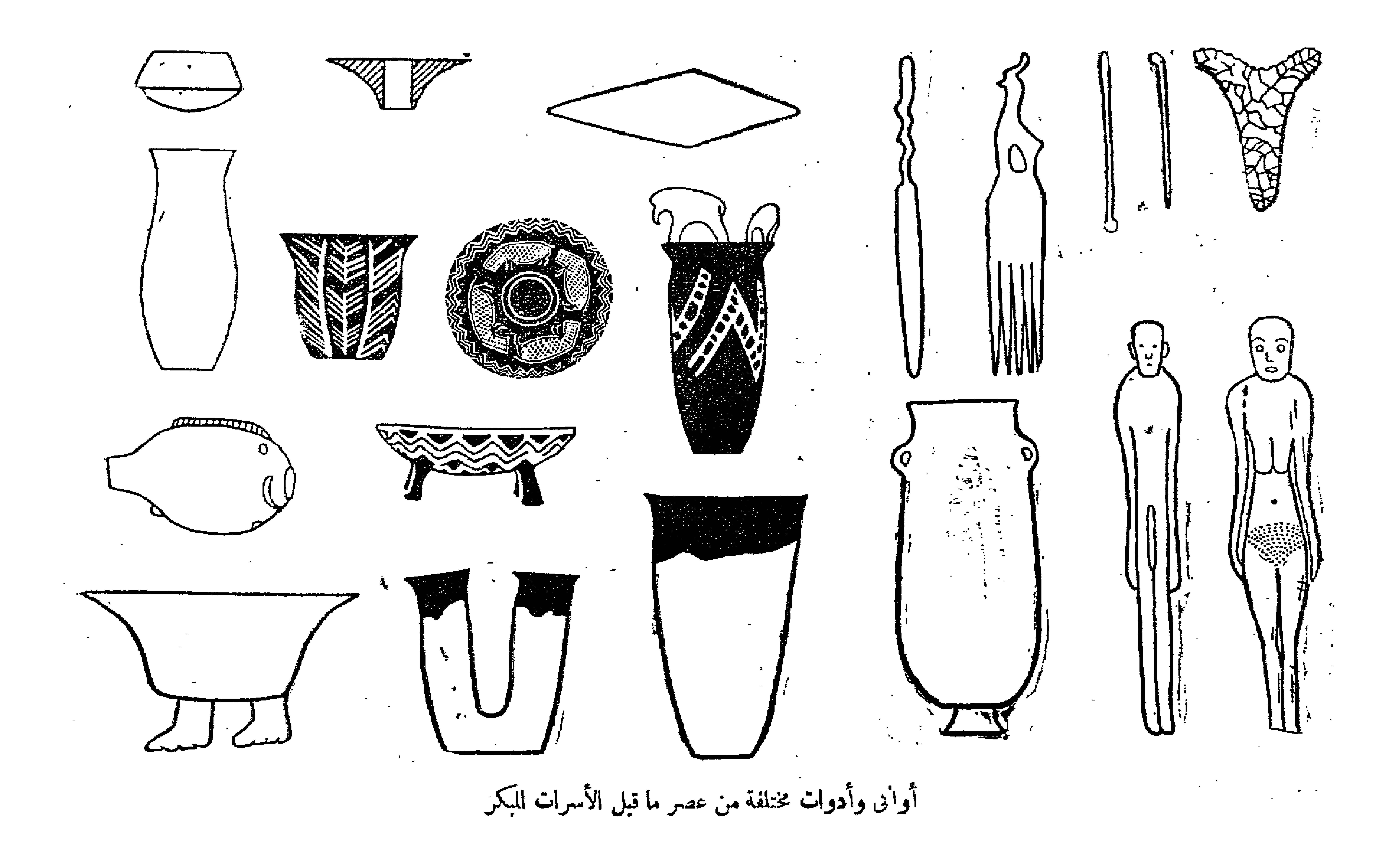
---

(١) اقرأ عن هذا الموضوع ما كتبته فى كتابى « اليمن ، ماضيها وحاضرها » . (القاهرة ١٩٥٧ — مطبوعات المعهد العالى للدراسات العربية) ص — ٦٣ وما بعدها .

فقد كان لزاما عليهم أن يشقوا القنوات ليوصلوا مياه النيل إلى الأماكن البعيدة عن النهر ، كما اضطروا أيضاً إلى تجفيف بعض المستنقعات وإخلائها من الأشجار ، كما اضطروا للتعاون على حماية أنفسهم وقراهم ومحاصيلهم من أخطار فيضان النيل . وكانت هذه الأعمال جميعاً تستلزم تعاون عدد كبير من الناس، وتستلزم أيضا وجود زعيم يحترم الجميع أوامره فينفذوها ويخاف الناس عقابه إذا لزم الأمر . وفرضت طبيعة أرض مصر أن يتجمع عدد كبير من السكان فى قرى قريبة من بعضها فى الأماكن التى يتسع فيها الوادى، فلم يمض وقت طويل حتى تكونت وحدات إقليمية كان لكل منها زعيم له السلطة على من حوله .

وحدث مثل ذلك فى الدلتا أيضا ، وكان العامل الأساسى فى تحديد الأقاليم المختلفة هو مجارى الأنهار ، أو بعض المظاهر الجغرافية الأخرى . وانتهى الأمر بتقسيم بلاد الصعيد إلى اثنين وعشرين إقليما ، وتقسيم بلاد الدلتا إلى عشرين إقليما ، ولكن حدود هذا التقسيم لم تكن ثابتة على الدوام . فمن حين لآخر كان يظهر زعيم قوى فى أحد الأقاليم يضم إليه شيئاً مما جاوره ، وأخيراً تجمعت أقاليم الدلتا تحت سلطة حاكم واحد وحدث الشىء نفسه فى أقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكان أحدهما للشمال وكان يتخذ النحله شعاراً له ويلبس تاجا أحمر اللون ، والآخر للجنوب ويتخذ نباتا يسمى « سوت » شعاراً له ويلبس تاجا أبيض اللون .

وفى وقت من الأوقات ، وربما كان ذلك حوالى عام ٣٤٠٠ ق . م . تغلبت الدلتا على الصعيد وتوحدت مصر تحت حكم الشمال ، ولكن لم يستمر هذا الاتحاد الأول وعاد كل من الشمال والجنوب إلى استقلاله . وحوالى عام ٣٢٠٠ ق . م . تقريبا أغار ملك الصعيد فأخضع الدلتا ووحد البلاد وأسس الأسرة الأولى المصريه .



أوانى وأدوات مختلفة من عصر ما قبل الأسرات المبكر

كانت القرون القليلة السابقة على الأسرة الأولى ،هى الفترة التى وضعت فيها مصر أسس حضارتها التى ظلت بعد ذلك آلاف السنين ، وضعت فيها أصول دياناتها ، ووضعت أسس أنظمتها المحلية ، ووضعت تقاليد الملكية ، وتفاعلت فيها الثقافات المختلفة . ولم تكن عزلة مصر الجغرافية مانعة لها من الاتصال بغيرها من أمم الشرق القديم وبخاصة بلاد الرافدين ، لأن تلك الفترة من تاريخ العالم القديم كانت فترة اتصالات تجارية واسعة،ولم تر مصر غضاضة فى أن تنقل من حضارة بلاد الرافدين بعض مظاهرها وأن تقبلها وتستخدمها، كما أقبلت على اقتباس بعض مظاهر الفن السومرى وبخاصة فى رسم الحيوانات .

ولا شك أن تلك المؤثرات وصلت عن طريق التجارة من البحر الأحمر وجاءت إلى الصعيد عن طريق وادى الحمامات، ولهذا نجد أثرها واضحا هناك. وقد أمدتنا جبانات الصعيد بأكثر معلوماتنا عن ذلك العصر مما احتفظت به آلاف السنين القبور التى كشفت عنها الحفائر فى مديريتى قنا وجرجا لأن تلك القبور كانت فى جبانات احتاط القدماء فى اختيار أمكنتها وجعلوها على حافة الصحراء فوق أعلى ما يمكن أن تصل اليه مياه الفيضان ، وكانوا يختارون أمكنتها بعيدة عن الأراضى المنزرعة فلا تصل اليها الرطوبة . وساعد جفاف الجو وندرة نزول الأمطار على بقائها سليمة حتى الآن ، وكانت الرمال الجافة خير حام لها خلال تلك الآلاف من السنين .

أما آثار ذلك العصر فى مدن الدلتا ، وهى دون شك لا تقل فى أهميتها عن آثار الصعيد ، فقد غطاها الطمى منذ زمن بعيد وأصبحت الآن تحت مستوى الزراعة اللهم إلا ما كان منها على حافة الدلتا أو فى أماكن مرتفعة فى وسطها ، ولهذا أثرت فيها الرطوبة ولم يعد لنا أمل كبير فى العثور على شىء فى حالة جيدة تحت الأراضى المنزرعة اللهم إلا إذا كان من الفخار أو من بعض أنواع الحجر التى لا تتأثر كثيراً بالرطوبة ، أو من الذهب .

ولا شك أن فقد آثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد التى على الناحيتين الشرقية والغربية من مصر ، ومتصلة كذلك بالبحر الأبيض ، قد تسبب فى ضياع كثير مما يهمنا الوقوف عليه سواء عن صلة مصر بغيرها من الشعوب أو عن أصل الحضارة المصرية .

ولهذا لم يبق لدينا إلا آثار الصعيد فقط لنتحدث عنها كآثار مصر بصفة عامة فى ذلك العصر ، ونعمم ما وقفنا عليه من مظاهر الحضارة فى الصعيد كأنه يمثل حضارة مصر كلها . وقد سبق أن رأينا وجوه الاختلاف الجوهرية بين حضارتى مرمدة والبدارى ولا جدال فى أنه كانت هناك اختلافات جوهرية بين مظاهر حضارتى الشمال والجنوب فيما تلا ذلك من عصور قبل أن تزداد الصلة بينهما ، وتعم البلاد كلها حضارة واحدة بعد اتحاد الشمال والجنوب ، ذلك الاتحاد السياسى والاجتماعى تحت حكم ملك واحد فى عصر الأسرات .

وعثر الباحثون على مئات الآلاف من الأوانى والآثار الصغيرة المختلفة وأكثرها فى قبور الجبانات وقليل منها فى منازل بعض القرى مثل قرية العمرى على مقربة من حلوان والهامية والمحاسنه والمعادى ، وهى كلها منازل بسيطة أقرب إلى الأكواخ بعضها مستدير أو بيضاوى وجدرانها من أعواد بعض النباتات بعد ضمها لبعضها وتثبيتها ثم لطسها بالطين ، أما السقف فكان أيضا من أعواد النباتات الجافة ومغطى بالقش .

ولدينا فى المعادى خير الأمثلة على منازل ذلك العصر ، فقد عثرت بعثة جامعة القاهرة التى بدأت حفائرها فى تلك المنطقة فى عام ١٩٢٨ ، وما زالت تعمل حتى الآن ، على آثار من أهم ماوصل إلى أيدينا حتى الآن ، وألقت ضوءا كبيرا على حضارة مصر فى الوقت الذى أخذت تودع فيه عصر ما قبل الأسرات القديم والمتوسط وتدخل فيما نسميه عصر قبيل الأسرات .

عثر الحفارون هناك على قرية كبيرة فيها المنازل التى سكنها هؤلاء القوم ، ويمكننا أن نقول إنه يمكن تمييز نوعين من المنازل أقدمهما كان مستديرا أو بيضاويا ، وكانت له قوائم مغروسة فى الأرض يملأون المسافات التى بينها بأغصان مضفورة ويلطسونها بعد ذلك بالطين . وفى داخل تلك المنازل البسيطة التى كانت على الأرجح غير مسقوفة ، كانوا يضعون المصطلى الذى يطهون فيه طعامهم ويمدهم بالدفء إذا ما اشتد عليهم البرد .

أما النوع الآخر من المنازل ، وهو أحدث عهدا من النوع السابق ، فكان مستطيلا ، وكان مشيدا بطريقة القوائم المغروسة كالنوع الأقدم ، أما بابه فكان يفتح فى منتصف الواجهة التى كانت فى إحدى الجهات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع من المنازل جدارا أمام المدخل يحمى من فى داخل المنزل من الريح ومن نظرات المارين فى الطريق .

وليست بقايا منازل القرى ، وهى لا تزيد فى الغالب عن الأساسات التى لا تعطينا أكثر من رسمها التخطيطى العام ، هى كل مصدرنا عن معرفة منازل ذلك العهد ، فلدينا مصدران آخران وهما بعض نماذج المنازل المصنوعة من الطين أو الفخار ورسوم بعضها على أيادى السكاكين كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

ولا يستطيع إنسان أن يضع تواريخا ثابتة معروفة لما نعثر عليه من آثار عصر ما قبل الأسرات ، ولكننا نعرف على وجه تقريبى أن بعضها أقدم من البعض الآخر ، ولكن لا يمكن أن نقول شيئا عن الفرق فى التاريخ بين الاثنين.

وأكثر العلماء نشاطا فى حفائر ذلك العصر كان فلندرز پترى الذى حفر جبانات متعددة تعد بالآلاف فى « نقادة » وفى «هو» (وكلاهما فى مديرية قنا) وغيرهما ووضع لها ترتيبا لم يبدؤه من ١ بل من رقم ٣٠ لعله تظهر حضارات

أقدم مما عثر عليه ، وانتهى عند ٨٠ ، وجعل پترى ظهور الملك « منا » عند رقم ٧٧ ولكن الأبحاث الحديثة تميل الآن إلى جعل بداية الأسرة الأولى عند رقم ٦٠ فقط .

فلما عثر برنتون على حضارة البدارى وضعها بين ٢٠ ، ٢٩ إذ يبدأ عصر ما قبل الأسرات بحضارة العمرة برقم ٣٠

وعلى أى حال فهناك مآخذ كثيرة على هذا الترتيب ، ولكنه مهما قيل فيه فانه خير من لا شيء ، ولم يقم أحد بعد پترى بوضع نظام آخر يحل مكانه إذا قررنا إهماله وعدم الأخذ به .

وأحدث الأبحاث تفضل التواريخ الآتية :

حضارة حلوان (العمرى)	حوالى	٥٠٠٠ ق.م
حضارة تاسا	حوالى	٤٨٠٠ ق.م
حضارة البدارى	حوالى	٤٥٠٠ ق.م
حضارة مرمدة	حوالى	٤٤٠٠ ق.م
حضارة العمرة	بين	٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق.م
حضارة جرزة وهى معاصرة للمعادى	بين	٣٩٥٠ ، ٣٤٠٠ ق.م
بدء الأسرة الأولى	حوالى	٣٢٠٠ ق.م [1]

---

(١) هنالك اختلاف بين علماء الآثار فى تحديد تاريخ بدء الأسرة الأولى ، وأنى شخصيا أفضل عام ٣٢٠٠ ق.م . ولو أن بعض الزملاء يفضل تاريخا آخر . فقد كان بورخارت يعتقد أن ذلك يقع بين عامى ٤٠٥٠ ، ٣٨٥٠ ق.م ، وما زالت مرجريت مرى تؤمن برأى پترى فى أن الأسرة الأولى تبدأ عام ٤٧٧٧ ق.م ، ولكن أبحاث إدوارد ماير نزلت بهذه التواريخ المرتفعة وتبعه فى ذلك أكثر العلماء . وما زلنا حتى الآن نرى بعض الباحثين يميلون إلى تواريخ أخرى مثل ٣٤٠٠ ، ٣٣١٥ ، ٣١٨٠ ، ٣١٠٠ ، ٣٠٠٠ بل أن بعض المؤرخين قد نزل ببدء الأسرة الأولى إلى عام ٢٨٥٠ ق.م .

ويكفينا هذا القدر من الحديث على الحضارات القديمة في عصر ما قبل الأسرات ولننتقل الآن إلى قبيـــل عصر الأسرات أو عصر ما قبل الأسرات المتأخر الذى هيأ مصر لبدء عصرها التاريخي .

قبيل الأسرات

حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما ، وقد أشرنا إلى هـذا التقدم وأشرنا إلى الأوانى الفخارية المزخرفة ذات الأشكال المتعددة التى ظهرت قبل ذلك الوقت كما أشرنا أيضا إلى وجود بعض تماثيل إنسانيه وخاصة للنساء وبعض أدوات الزينة وأهمها أمشاط الشعر المصنوعة من العـاج والتى صنعوا الجزء الأعلى منها على هيئة حيوانات مختلفـة ، كما أشرنا أيضا إلى الألواح المصنوعة من الإردواز على هيئة الحيوانات أيضا ، والتى كانت تستخدم لصحن الكحل . والمفهوم أن الدلتا فى ذلك الوقت البعيد كانت أكثر تقدما من الصعيد ، وأن مصر كانت قـد وصلت إلى تكوين مجموعتين من الأقاليم إحداهما فى الشمال وأصبح لهـا ملك ، وأخرى فى الجنوب وكانت أيضا تحت حكم ملك آخر .

وكان لملك الدلتـا تاج خاص به ذو لون أحمر وربمـا كان مضفورا من بعض النباتات ، ولملك الصعيد تاج مختلف قمعى الشكل تقريبا وربمـا كان من الجلد أو اللبـاد . وكان مركز عبادة الإله حورس (الصقر) فى أول الأمر فى غرب الدلتـا وكان هناك إله آخـر فى شرق الدلتـا وهو الإله « عنچتى » ولـكن لم يلبث حورس حتى تغلب عليه وأصبح إلها للدلتا كلها عند توحيدها . أما فى الصعيد فكان الإله « ست » هو الإله الذى يتغلب نفوذه على ما عـداه من الآلهة ، وكان مركز عبادته فى مدينة « نوبت » في مديرية قنـا عند بلدة طوخ الحالية شمال نقادة .

وفى وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة وأصبح للإله « حورس » مركز أهم من مركز « ست » وأصبحت مدينة « هيراقونپوليس » ومكانها الآن الكوم الأحمر (وكانت تسمى نخن) شمال إدفو مركزا رئيسيا لعبادته فى العصر الذى نسميه أواخر عصر ما قبل الأسرات أو قبيل عصر الأسرات .

ولم يصبح أمر الاتحاد الأول فى مصر فرضا من الفروض كما كان من قبل ، بل أصبح الآن حقيقة مقررة بعد دراسة حجر پالرمو وبخاصة إحدى قطعه الموجودة الآن فى متحف القاهرة وغيره من آثار ذلك العهد . وليس لدينا أى معلومات مؤكدة عن مكان عاصمة تلك المملكة الموحدة وإن كانت هليوپوليس (على مقربة من القاهرة الحالية) هى المدينة التى يكاد يجمع الباحثون على أنها كانت عاصمة تلك المملكة .

ولكن قبل ذلك الاتحاد كانت مدينة « بوتو » فى غرب الدلتا (ومكانها الآن تل ابطو) هى عاصمة مملكة الدلتا وكانت إلهتها تسمى «واچيت»، ويرمز لها بثعبان الكوبرا ، وكان ملكها يلبس التاج الأحمر وهو الذى كان فى أصله رمزاً للالهة « نيت » ، واتخذ له شعاراً نبات البردى وكان ملكه يشمل الدلتا وجزءاً قليلا من مدخل الصعيد،أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته فى الكاب وهى أمام الكوم الأحمر (نخن ـ هيراقونپوليس) التى كانت قبل ذلك مقر عبادة الإلهة « نخبت » ويرمز لها بالرخمة ويلبس ملكها التاج الأبيض واتخذ شعاراً له نباتا آخر يسمى « سوت » [1] ووصلت حدود هذه المملكة جنوباً إلى الشلال .

---

(١) اختلفت الآراء فى هذا النبات ففي رأي البعض انه فى الأصل نبات الحلفا وفى رأى البعض الآخر نبات الزنبق

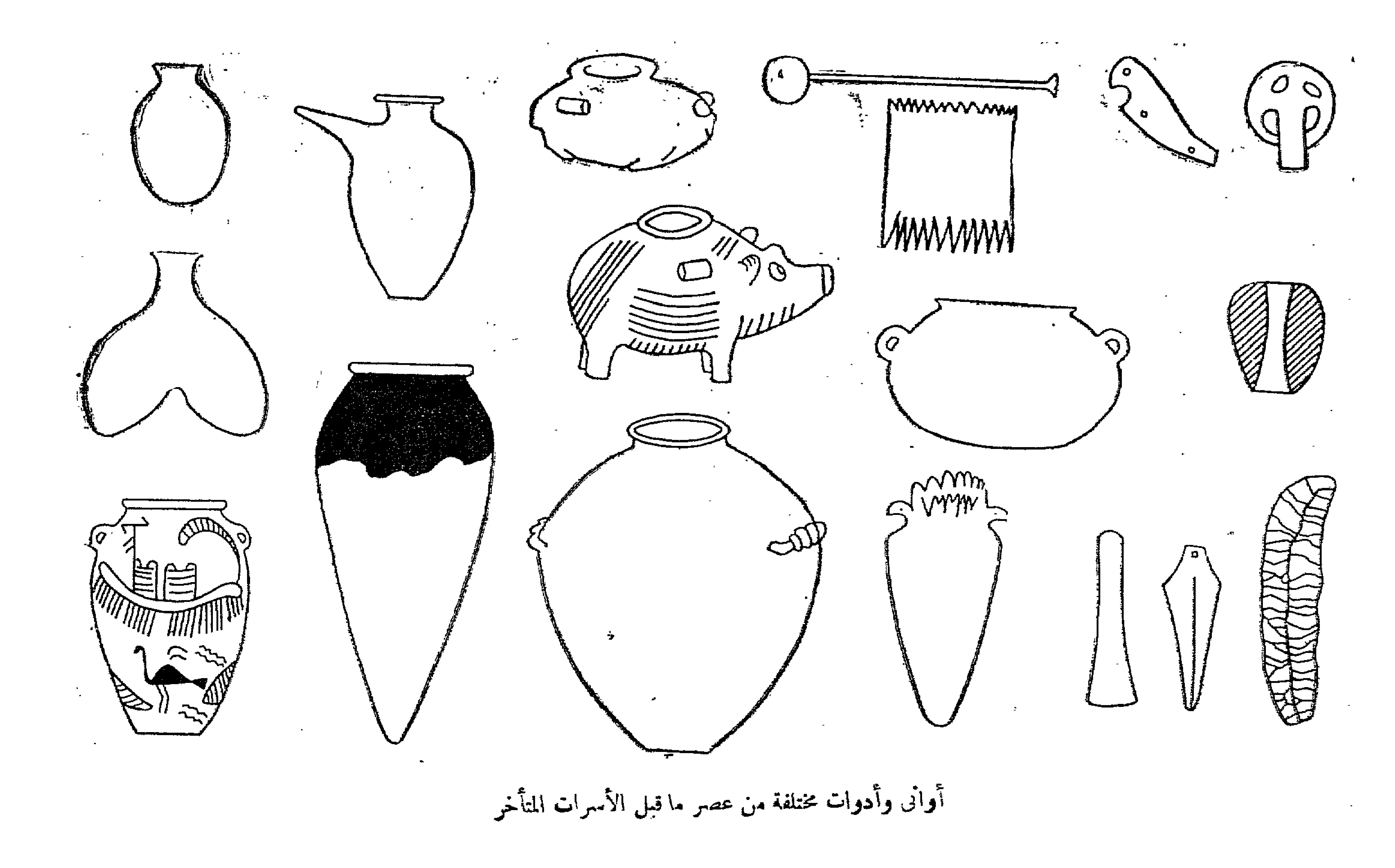
وأصبح الإله حورس هو الإله الرئيسي فى كل من المملكتين ، بل أصبح الملك فى كل منهما هو الممثل لحورس على الأرض أثناء حياته وكانوا يعطون للملك اسما آخر إلى جانب اسمه الأصلى عند توليه العرش وهذا الاسم الجديد يسمى الاسم الحورى وكان يكتب فى مستطيل يعلوه الإله حورس ، وكان يستخدم كلا الاسمين أو واحداً منهما ، فلما توحد الشمال والجنوب كان الملك يلبس تاجا يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج واحتفظ بلقب حورس كما كان يفعل الملوك من قبل .[1]

ولا شك أن حضارة الدلتا خلفت وراءها آثاراً وبخاصة فى العاصمة وفى المدن الرئيسية ، ولكن تلك المدن أصبحت الآن تحت مستوى الأراضى المنزرعة كما قلنا ولم تقم أى حفائر على نطاق واسع فى مدن الدلتا حتى الآن، ولهذا لم يكد يصل إلى أيدينا شيء من آثار ذلك العصر بينما وصل إلى أيدينا آثار كثيرة من الصعيد وبخاصة حول العاصمة القديمة فى هيراقونبوليس وفى بعض المناطق الأخرى .

ولا تقتصر آثار تلك الفترة على الأشياء التى عرفناها من قبل مثل الفخار وأدوات الزينة بل نرى تطوراً ظاهراً ، فلم تعد الأجزاء العليا من الأمشاط العاجية على هيئة حيوانات بل أصبحت تزخرف على وجهيها برسوم مختلفة لحيوانات متعددة ترسم صفوفا تحت بعضها نعرف من بينها الفيل الإفريقى والبجع والزرافة والأسد والضبع والغزال والثور الإفريقى والخنزير البرى ، كما نرى أيضاً أيادى للسكاكين الظرانية صنعت هى الأخرى من العاج أو صفائح الذهب وزخرفوا وجهيها إما برسوم حيوانات أو برسوم تشير إلى حوادث معينة وخاصة ما يتعلق بالانتصار على الأعداء .

---

(١) كان المصريون فيما بعد يشيرون الى هؤلاء الملوك سواء الذين حكموا فى الدلتا أو حكموا فى الصعيد بأنهم أتباع أو عبدة حورس وكانوا ينظرون اليهم نظرة تقديس خاصة .



أوانى وأدوات مختلفة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر

أما ألواح الإردواز التى تستخدم لصحن الكحل فقد تطورت هى الأخرى وأصبحت الألواح التى تصنع للملوك تزخرف برسم حيوانات مختلفة ، بعضها فى صفوف متراصة والبعض الآخر يمثلها أثناء الصيد، وصارت ألواح الملوك أكبر حجما وعلى صورة درع الحرب . وعُثر أيضا على عدد غير قليل من دبابيس القتال وهى مزخرفة بمناظر تمثل الحروب التى انتصر فيها أصحابها على أعدائهم ، ويظهر فيها الملك على هيئة ثور يقضى على أعدائه أو كأسد ينهش أجسادهم . وكثيرا ما نرى الأسرى مكبلين بالأغلال ، أو نرى الحصون التى استولوا عليها وقد كتبت أسماؤهم فى داخلها . وهناك أيضا تماثيل وأدوات منزلية ، بعضها من العاج ، ونماذج من الطين أو العاج لبعض الزوارق أو المنازل .

وإذا أمعنا النظر فى هذه الآثار المختلفة نرى أن المصريين بدأوا فى ذلك العهد البعيد يستقرون على الأوضاع الفنية الخاصة بهم فى الرسم وفى عمل التماثيل ، ونرى تقدما كبيرا فى جميع النواحى . ولا شك أيضا أن تلك النهضة جاءت على أثر التقدم فى الزراعة وعناية الملوك بحفر القنوات والترع إذ قلما نجد أثرا ملكيا دون أن نرى عليه صورة الملك وهو يقوم بالتقليد المعروف وهو إمساكه بالفأس يضرب به الأرض إيذانا بالبدء فى مثل ذلك العمل ، كما نرى أيضا على بعض أيادى السكاكين رسوما تمثل قصورا أو منازل مرتفعة ذات طابقين على الأقل .

ولم تكن مصر بمعزل عن غيرها من الأمم فقد وصلتها أيضا فى تلك الفترة الهامة فى تاريخها مؤثرات من بلاد الرافدين ومن الفن السومرى كما سبق القول ولكنها لم تلبث حتى تركت ذلك وعادت إلى فنها الأصيل فى زخرفة الأشياء . وربما كان أهم تأثيرين جاءا إلى مصر من حضارة سومر هما بعض مظاهر البناء بالطوب واستخدام الأختام الاسطوانية لأنهما كانا قبل ذلك

العهد مستخدمين فى سومر وتطورت صناعاتهما هناك بينما ظهرا فى مصر فجأة وقد استكملا تطورهما .

ووصلت مصر فى ذلك العهد إلى اختراع هام أحـــدث تطورا كبيرا فى حضارتها وذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار. حقيقة أن بلاد سومر كانت هى الأخرى قد وصلت إلى ذلك الاختراع إذ ذاك، ولكن مصر لم تتأثر ببلاد الرافدين فى هـذا الأمر ، ووجدت طريقتها الخاصة دون مؤثر خارجى بل أن النهضة الشاملة لجميع مرافق الحيـاة فى تلك الفترة جعلتها تصل فى وقت سريع إلى استكمال هذا الاختراع وذلك بما كان كامنا فيها من قوة وفتوة[1] .

توصلت مصر إلى الكتابة فى فترة قبيل عصر الاسرات وأدى استخدامها إلى معرفتنا الآن لبعض الحوادث التى جرت قبل الأسرة الأولى .

لقد أشرنا قبل الآن إلى انفصام عرى الاتحاد الأول واستقلال كل من الدلتا والصعيد عن بعضهما . ولـكن اتصالها ببعضهما لم يتأثر كثيراً بذلك إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة ، ولـكننا لا نملك من الوثائق ، التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، ما يجعلنا تحديد تلك الروابط أو تحديد أثر ذلك التبادل .

ويظهر أن الصعيد بدأ يرمى بناظريه نحو الشمال وأخذ حكامه يحاولون الاستيلاء على الدلتا ، ومن العبث أن نقول أن الاتحاد الذى تم عنـد ظهور

---

(١) عن الصلة بين حضارتى مصر العراق وأيهما أقدم ، أنظـر مقالا المؤلف عنوانه «الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم» : فى المجلة التاريخية المصرية المجـلد الثالث العـدد الثانى فى أكتوبر ١٩٥٠ ص ٦ — ١١ من ذلك البحث وما ذكره من مراجع .

الأسرة الاولى كان من تفكير أو عمل ملك واحد بل من المرجح جدا أن يكون غيره قد سبقه ممهدا لذلك ، كما تدلنا مناظر الحروب الكثيرة على آثار ذلك العهد[1] .

ولسنا نعرف أسماء أولئك الملوك المحاربين على وجه التحديد ، ولكن واحدا منهم وهو الملك « العقرب » — ربما كان آخر الملوك قبل الملك (نعرمر — مينا) مؤسس الأسرة الاولى — خلف لنا بعض آثاره فى هيراقونپوليس ، عثر عليها فى عام ١٨٩٨ ونرى فيها هذا الملك[2] مرسوما على دبوس للقتال وهو يمسك الفأس يضرب بها الارض وذلك إما قياما بأحد المراسيم الدينية الخاصة بأحد الاعياد الزراعية ، أو تسجيلا لشق ترعة من الترع . ونرى فى أعلى الدبوس أعلاما تقف فوقها رموز بعض أقاليم الوجه القبلى تتدلى من بعضها طيور الزقزاق ، ومن البعض الآخر أقواس وهذا تعبير عن انتصاره على أهل الدلتا وعلى بدو الصحراء . وعثر أيضا على أثر آخر لهذا الملك وهو إناء من الحجر الجيرى، عثر عليه فى هيراقونپوليس كما عثر أيضا على آثار باسمه فى أبيدوس ، كما وجد اسمه مكتوبا على جزء من إناء من الفخار فى منطقة طره على مقربة من القاهرة .

ونصل الآن إلى نقطة هامة . فهل كانت حروب الملك العقرب ومن سبقه من الملوك ضد الدلتا عند ما كان الصعيد خاضعاً للشمال فأرادوا التخلص

---

(١) نستطيع أن نقرأ عن حوادث الحروب فى تلك الفترة فيما بقى من أناشيد على ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بتسجيلها ضمن نصوص الأهرام ،وفى بعضها إشارات إلى تلك الحروب وإلى سكان الوجه البحرى وإلى ملوكهم الذين قاوموا ذلك الغزو ، وكان ينعتهم الجنوبيون بألفاظ قاسية .

(٢) يسمى هذا الملك « العقرب » لأننا غير متأكدين من نطق اسمه الحورى الذى كان يكتب برسم هذه الحشرة فقط . أما اسمه الشخصى فقد وجد مسطرا على قطعة من إناء وينطق « پى » .

من نيره لحاربوا وانتصروا واستقلوا بالصعيد كله ، أم أن الاتحاد الاول الذى تم حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد لم يدم طويلا وسرعان ما تفكك وعاد كل من شقى الوادى إلى استقلاله حتى بدأ ملوك الصعيد فى غزو الشمال وإخضاعه ؟ والجواب على هذا التساؤل لا يمكن إلا أن يكون اجتهادياً إذ لا يوجد دليل قاطع تحت أيدينا يساعدنا على إعطاء الجواب الحقيقى الذى لا يقبل الشك .

على أى حال فان هذا الموضوع لا يغير من حقيقة الأمر شيئا كبيرا، ولدينا الآن من الأدلة ما يكفى للقول بأن أقاليم الصعيد بدأت حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب تكون بينها اتحاداً ، وأنها كانت تحارب وكانت تستولى على مدن وحصون وأن آخر ملك من هؤلاء الملوك كان نشيطاً وتمكن من إخضاع بعض سكان الدلتا وأهل الصحراء لسلطانه كما ذكر على دبوس قتاله . وهنا نقف قليلا لنتساءل عن الدور الذى لعبه هــذا الملك فى إخضاع الدلتا ، فهل نعتبره ، كما أراد أن يثبت بعض الأثريين [1] ، أنه هو الذى تمكن من إخضاع الدلتا قبل « نعرمر — منا » وأنه هو صاحب الفضل فى توحيد مصر ؟ والجواب على ذلك هو أن هناك أكثر من عقبة واحدة تحول دون قبول مثل هــذا الرأى قبولا نهائياً . فربما انتصر الملك العقرب على جزء من الدلتا فقط، وربما انتصر أيضاً على بعض قبائل البدو فى الصحراء وأن النصر الكامل جاء على يد نعرمر الذى سمته النصوص المصرية فيما بعد باسم « منا » والذى اعتبرته المصادر المصرية أيضا مؤسس الأسرة الأولى المصرية، التى يبدأ بها عصر الأسرات المصرى

---

(١) VANDIER, *Manuel d'Archéologie, T. I* (1952) p. 600
وكذلك SCHOTT, *Hieroglyphen* (1952) p. 14

أو عصرها التاريخي كما يسميه بعض الأثريين لأن مصر كانت قد عرفت الكتابة وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها، وأصبح اعتمادنا الأكبر منذ ذلك الوقت على ما خلفه المصريون أنفسهم مسطراً على آثارهم .

ولكن قبل أن نتحدث عن الأسرة الأولى يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم مصادر التاريخ المصرى التى نستمد منها معلوماتنا التى نكون منها عناصر التاريخ الفرعونى منذ بدايته .

أهم مصادر التاريخ المصرى القديم

استكملت مصر ، إلى حد كبير ، كثيرا من مقومات حضارتها قبل ظهور الأسرة الأولى إذ كانت قد تقدمت فى أساليب الزراعة وعرفت الكثير من نظم الرى وبخاصة فى شــق الترع ، وانتصرت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها وحولته إلى أرض زراعية .

وعرفت أيضا اســتخراج بعض المعــادن وخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية وأتقنت الإتقان كله قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأوانى والقدور ، وعرفت صناعة التماثيل منذ عصر البدارى ، وكانت التجارة رائجة ليس بين المدن والأقاليم المصرية بواسطة النيل فحسب ، ولكنها عرفت أيضا التجارة مع آسيا بواسطة السفن التى كانت تسير على مقربة من الساحل فتصل إلى موانىء الشاطىء الفينيقى وبخاصة ميناء جبيل ، كما كانت هناك أيضا حركة ملاحية فى البحر الأحمر ، وكانت القوافل البرية تحمل منها وإليها السلع التجارية من جميع البلاد المجاورة حتى إيران والأناضول .

ولا شك فى أن مصر بلد حبته الطبيعة بشبه عزلة عما جاوره ، فالبحر فى شماله ، وإلى الشرق والغرب منه صحراء موحشة ، أما فى الجنوب فهناك شلالات فى النهر ، ولم تكن هناك ، أى فى الجنوب ، دولة قوية تخشى منها على نفسها ، ولكن رغم ذلك كله اتصلت تجارتها بما جاورها من بلاد كما كانت دروب الصحراء تحمل إليها كثيراً من المهاجرين الذين يأتون فرادى أو جماعات ليستقروا فيها .

وإذا أردنا التدقيق فى معرفة أصل المصريين أو أصل حضارتهم لما أمكننا إلا الوصول إلى نتيجة واحدة ، وهى أنها حضارة أصيلة دخلت عليها مؤثرات

من الساميين الذين فى الشرق والحاميين الذين فى الغرب والجنوب الشرقى ، كما دخلت عليها أيضاً بعض مؤثرات إفريقية من الجنوب . وقد أشرنا إلى حضارة بلاد الرافدين ورأينا أنه جاءت إلى مصر بعض مظاهرها فى العصر السابق للأسرة الأولى مباشرة ، ولكن كل هذه المؤثرات كانت تنصهر فى بوتقة التجربة فى مصر فى ذلك العهد ، وسرعان ما يأخذ منها السكان مايوافق حضارتهم فيمزجونه بما لديهم من ثقافة أو يعرضون عنه بعد حين لعدم ملاءمته لذوقهم . كانت لمصر فى ذلك العهد — أى عهد ما قبل الأسرات — تقاليد وطنية خاصة فى اختيار ملوكها كما كانت قد انتهت من وضع الأسس المختلفة فى الديانة ،ودانت بعقيدة ألوهية الجالس على عرشها ، ولكنها كانت قد توصلت أيضا إلى معرفة اختراع عظيم لا يمكن أن تتقدم الحضارة بدونه، وهو اختراع الكتابة .

كان المصريون يعيشون إذ ذاك فى منازل مبنية بالطين،وكانوا قد عرفوا استخدام الحجر وإن لم يستعملوه على نطاق واسع ، وتقدموا فى كثير من نواحى الفن ، وأتقنوا حسن استخدام مياه النيل وعمل الجسور التى تحميهم من عدوانه ، واستأنسوا بعض الحيوانات النافعة لهم وبعبارة أخرى كانت الحضارة المصرية قد استكملت كل ما يلزمها ولم يكن ينقصها غير القوة الدافعة فتتقدم وتسير نحو الأمام ، وتحققت هذه الأمنية عند ما ظهر زعيم قوى فى جنوبى مصر ، زعيم إقليم « ثنى » بين جرجا والبلينا الذى وحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر فى عهد الاتحاد الثانى ومؤسس الأسرة الأولى .

المصــــادر

يمكننا القول بوجه عام إن اعتمادنا الأساسى لدراسة تاريخ مصر وحضارتها على المصادر الثلاثة الآتية :

١ — الآثار المصرية وما تمدنا به من معلومات ، ويستوى فى ذلك ماهو مسطر على جدران المعابد والمقابر أو على التماثيل ولوحات القبور ، أو على

أوراق البردى أو التوابيت أو أى نوع من أنواع الآثار الأخرى سواء أكانت صغيرة أو كبيرة، مكتوبة أو غير مكتوبة، أى كل ماخلفه المصريون من معلومات ويشمل ذلك ما كتبه المؤرخ المصرى مانيتون .

٢ — ما ورد فى بعض المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية مثل ماجاء فى بعض المصادر البابلية أو الحيثية أوالأشورية وغيرها.

٣ — ما كتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر، وكتبوا وصفا لها وضمنوا كتاباتهم شيئا من تاريخها .

ولكن كلا من هذه المصادر الثلاثة فى حاجة إلى كثير من التحليل والتدقيق قبل الاعتماد عليها أو اتخاذ ما جاء فيها كحقيقة تاريخية . ففى النوع الأول من المصادر ، وهو المصادر المصرية الواردة على الآثار ، وهى أهم المصادر ، كثير من الأمور التى لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لأنها كتبت لغرض معين وفى وقت معين، واذا لم تؤيدها مصادر أخرى وما نعرفه من معلومات متعددة ، لا يمكننا أن نقبلها إلا كقرينة من القرائن أو كمادة علمية تدخل فى مناقشة الموضوع .

لم يكتب قدماء المصريين قبل عهد مانيتون بقصد تسجيل الحوادث التاريخية كما نفهم التاريخ الآن ، ولكنهم كتبوا ما كتبوه لغرض آخر وهو تسجيل حوادث معينة لغرض خاص ، وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل عند الحديث على جداول أسماء الملوك .

أما ثانى المصادر وهو ما نجده فى المصادر الأجنبية المعاصرة،فانه بدوره يمثل وجهة نظر معينة وخاصة إذا كان ذلك تسجيلا لنتائج معارك حربيةعلى آثار أقامها أولئك الملوك . فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى غيرها تقام للإعلاء من شأن الملوك فتخفى الهزائم وتحيلها إلى نصر ، وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا ولهذا يجب أن نحتاط الحيطة التامة

فى اعتمادنا عليها ، ويجب أن نقابلها بما جاء فى المصادر التى كتبها الجانب الآخر ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين هذا وذاك ويحاول الوصول إلى ما عساه أن يكون أقرب إلى الحق . فقد جرت العادة مثلا فى بعض الممالك حتى إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل بل وفى أوائل هذا القرن على اعتبار ما يأتى اليهم من هدايا من أى مملكة أخرى أنه جزية يرسلها ذلك الشعب ، واعتبار أى خطاب من خطابات المودة التى يرسلها رؤساء الدولة الأخرى أنه تقديم للطاعة والخضوع .

أما ثالث المصادر وهو ما كتبه رحالة اليونان والرومان فيجب ألا نثق فيه الثقة كلها لأن الغالبية العظمى من هؤلاء لم يزوروا مصر إلا وهى فى أيام ضعفها ، وكانوا يحكمون على مايرونه أو يسمعونه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وإدراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلا عن أنهم لم يعرفوا اللغة المصرية ونقلوا ما سمعوه من أفواه محدثيهم وبعضهم من صغار الكهنة أو عامة الناس الذين يقبلون على مرافقة الزوار الأجانب كمحترفين أو متطوعين .

ولا شك أن كثيرا منهم تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم مثل المؤرخ هيرودوت ، ولكن هناك أيضا كثيرين أساءوا فهم مارأوه أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه أو وقعت عليه أبصارهم .

وعلى من يريد الاعتماد على ما جاء فى بعض تلك المصادر خاصا بمصر ، أن يضع فى ذهنه أن بعضهم كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيرا ما كانت كتاباتهم فى أوقات اختلفت فيها مصالح بلادهم مع مصالح مصر أو كانت الثورات أو أسباب العداوة بين المصريين وغيرهم موغرة لصدور هؤلاء الناس ، فضلا عن أن بعض هؤلاء الكتاب نقل ما كتبه عن غيره ممن كانوا فى مصر أو ادعوا زيارتها . ولهذا يتحتم على المؤرخ ألا يأخذ ما فيها

من معلومات إلا بعد الحيطة الشديدة ليستخدمها قرينة أو قرائن عن حوادث معينة . وسيأتى ذكر هذه المصادر المختلفة فى كثير من المواضع عند الحديث على بعض حوادث التاريخ .

ويجب علينا أن نوضح فى هذه المرحلة من البحث أن مصدرنا الأكبر فى كتابة تاريخ مصر هو ما خلفه المصريون أنفسهم ، وإذا كانت بعض الوثائق ناقصة أو غير وافية فعلينا أن نسعى لتكملتها سواء من الوثائق الأخرى أو مما يستطيع المؤرخ أن يتصوره بعد دراساته المستفيضة لكل ما لديه من وثائق ومصادر ومعلومات تجعله يحس بإحساس العصر التى جرت فيه تلك الحوادث .

وربما سأل سائل هل عرف قدماء المصريين فكرة التاريخ ، وهل خلفوا لنا وراءهم وثائق دونوا فيها تاريخهم الصحيح ؟ والجواب على الشطر الأول من السؤال أن المصريين كغيرهم من شعوب العالم لم يفهموا التاريخ كما نفهمه الآن أو حتى كما فهمه اليونان ، وإذا كانت فكرة التاريخ كما نعرفها الآن لم يكن لها وجود فى تلك العصور القديمة فلا شك أنه كان لديهم ما يمكن أن نسميه احساسا بالتاريخ فانهم لم يفهموا حاضرهم الا فى ضوء ماضيهم كما انتشرت بينهم فكرة عامة وهى الإعلاء من شأن ما مضى من أيام واستلهام حضارتهم منها ومحاولة إحياء تقاليدها من آن لآخر .

وجوابنا على الشطر الثانى من السؤال أنهم خلفوا وراءهم وثائق بتاريخهم كما كانوا يتصورون التاريخ . فمنذ الأسرة الأولى نرى آثارا يسجلون عليها بعض أعمال الملوك كما تركوا لنا أيضا أكثر من وثيقة واحدة عليها جداول بأسماء الملوك مرتبة ترتيبا زمنيا ، ووصلت بهم الدقة فى بعضها أنهم لم يرتبوا الملوك فحسب بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم .

ولنذكر الآن أهم المصادر المصرية عن أسماء الملوك وترتيبهم :

١ – حجر پالرمو – فى أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما فى أوائل الأسرة السادسة[١] ، كان يقوم فى معبد من معابد العاصمة فى منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمترا نقش وجهاه بنقوش فى سطور كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى، مع مدة حكم كل منهم ، مقسما إلى سنوات وأهم ماحدث فى كل سنة . ولأمر ما حطم هذا الحجر إلى قطع صغيرة عثر حتى الآن على ستة منها أكبرها وأهمها موجودة فى صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلى متحف مدينة پالرمو فى عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتى الآن . (أنظر شكل رقم ١٢) ويوجد فى المتحف المصرى بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثة منها فى عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد على القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب فى منف ، أما القطعة السادسة فقد اشتراها فلندرز پترى من أحد تجار الآثار فى القاهرة حوالى عام ١٩١٠ أيضاً وهى فى لندن الآن فى متحف الجامعة . وسواء أكانت هذه القطع الستة من حجر واحد ، أو أنها من أكثر من حجر واحد ـ إذا كانت هناك حقيقة بضع نسخ متماثلة من حجر الديوريت أقيم كل منها فى أحد المعابد الهامة ـ فإن هذا الأثر كان يحوى أسماء الملوك مبتدئا فى الصف الأعلى بجدول أسماء الملوك الذين كانوا يحكمون كلا من شطرى مصر أى الدلتا والصعيد ، وتحت اسم كل منهم رسم ملك جالس وعلى رأسه

---

(١) تقسيم التاريخ المصرى الى أسرات ليس من عمل المؤرخين المحدثين بل يرجع الى العصور القديمة وربما كان متداولا بين المصريين أنفسهم قبل عهد الكاهن المصرى مانيتون الذى كتب تاريخا لمصر فى عهد بطليموس الثانى فى القرن الثالث قبل الميلاد وذكر فيه تلك الأسرات وملوكها وأهم أعمالهم . ومما يؤسف له أن النص الأصلى لتاريخه الذى كتبه باليونانية فقد ولم يبقى منه الا ما نقله بعض الكتاب القدماء سواء من اليونان أو من اليهود وبالرغم من أن بعض المؤرخين المحدثين ينقدون تقسيم مانيتون فى بعض المواضع إلا أن تقسيم الأسرات صالح بوجه عام وأصبح متأصلا فى الدراسات كلها منذ كتب مانيتون كتابه ولا يوجد تقسيم آخر أصلح منه .

تاج أحـــد البلدين ، وربمـا كان فى هـذا الصف ١٤٠ منهـم أو أكثر من ذلك[1]. وآخر اسم محفوظ على تلك القطع هو اسم الملك « نفر إر كارع » من الأسرة الخامسة . ونرى على إحدى القطع التى فى متحف القاهرة أن بعضهم يضع التاج المزدوج فوق رأسه ممـا جعل الباحثين فى التاريخ المصرى يؤمنون الآن بأنه كانت هناك مملـكتا الدلتا والصعيد عاشتا مستقلتين فـترة طويلة من الزمن إلى أن تمكن أحـــد ملوك الدلتا من إخضاع الصعيد وتوحيد مصر ، ولـكن هذا الاتحاد أصابه الوهن واستقل كل بنفسه ، أو ربما كان الملك الذى عرف فيما بعد باسم « مانا » حاكما لأحد أقاليم الصعيد وثار على الدلتا وحاربها واسـتقل بالصعيد ثم هجم على الدلتا فيما بعـد وأصبح أول ملك لمصر الموحدة فى عهدها الجديد . ولـكن ليس لدينا ما يثبت هذا أو ذاك ، وعلينا أن ننتظر حتى تصل الينـا معلومات أخرى . وعلى أى حال فإن المصريين اعتبروا أن أولئك الذين حكموا قبل الأسرة الأولى أنصاف آلهـة ، وأتباع حورس ، وأحيـانا يسميهم المصريون « المبجلون » كما جاء فى بردية تورين أو أنصاف الآلهة كما سماهم مانيتون ، وقد سبقهم حكم الآلهة على الأرض .

٢ — بردية تورين — حصل على هذه البردية الرحالة الإيطالى دروفتى Drovetti فى أوائل القرن التاسع عشر وقيل له إنه عثر عليهـا فى منف . وكانت البردية فى حالة جيدة عنـد ما تسلمها دروفتى ولـكنها تهشمت بعد

---

(١) كان حجر بالرمو الأصلى مقسما إلى صـفوف ونرى فى القطع المحفوظة أن عصر كل ملك كان يقسم الى سـنوات ويكتب فى خانة كل سنة أهم ما حدث فيها سواء من الحروب أو إقامة المعابد أو الأعياد الدينية أو التعداد أو عمل بعض الأشياء الهامة مثل إنشاء السفن أو إقامة التماثيل الـكبيرة ذات الأهمية الخاصة . وأهم مؤلف عن القطعة الكبيرة الهامة فى بالرمو هو بحث شيفر H. SCHAEFER *Ein Bruchstück altägyptischer Annalen* (*Abh. d. Kgl. preuss. Akad. der Wissenschaften, 1902*)
ونشر جوتييه القطع الأربع التى فى متحف القـاهرة H. GAUTHIER, *Qautres nouveaux fragments de la piérre de Palerme-Musée Egyptien* III, p. 29-35 Pl. 24-31
أما قطعة لندن فقد نشرها بترى فى مجلة . *Ancient Egypt*, 1916, p. 114 ff.

ذلك [1] ونقلت إلى ايطاليا عقب الحصول عليها ووضعت فى متحف تورين منذ ذلك الوقت .

وكانت تحتوى هذه البردية على أكثر من ثلاثمائة أسم من أسماء الملوك وتحت إسم كل منهم عدد سنوات حكمه . تبدأ هـــذه البردية بالآلهة الذين حكموا مصر وتستمر حتى نهاية عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس ، وتنتهى أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة . وقد نشرت محتويات هذه البردية أكثر من مرة ولكن تعديلات كثيرة فى ترتيب أجزائها جاءت عقب ترميمها بواسطة الدكتور «إبشر» مرمم متحف برلين ، وقد نشرها الأثرى فارينا بعد الترميم فى عام ١٩٣٨ ولكن الأثريين جاردنر (A. H. Gardiner) وشرنى (Jaroslav Cerny) راجعا الأصل وأصلحا بعض قراءات فارينا ونشرا نتيجة أبحاثهما فى نشرة خاصة وزعاها على بعض المتاحف والعلماء [2]. وهذه البردية هى دون شك من خير المصادر وأدقها ويعتمد عليها المؤرخون كثيرا فى ترتيب اسماء الملوك وعدد سنوات حكمهم ، وقد كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وإن كان لا يمكننا معرفة السبب الحقيقى الذى دعا إلى كتابتها .

٣ — تاريخ مانيتون : وإذا كنا لا نستطيع أن نذكر السبب فى إعداد كل من حجر پالرمو وبردية تورين أو وقت كتابتهما بالضبط فان هناك مصدرا آخر فى المرتبة الأولى من الأهمية نعرف اسم مؤلفه واسم الملك الذى طلب منه كتابته والسبب فى ذلك . كان مانيتون (وورد اسمه فى إحدى البرديات

---

(١) ينكر الأثرى الإيطالى فارينا قصة تهشيم هذه البردية بعد حصول دروفتى عليها وتحطيمها إلى قطع صغيرة عند ركوبه إلى القاهرة ويدعى أنها كانت مهشمة عند حصوله عليها .

(٢) كـــتاب فارينـــا هو G. FARINA, *Il papiro del re restaurato, Publicazioni egittologiche del R. Museo di Torino, Roma*
أما مانشره جاردنر وشرنى فى طبعة فوتوستات خاصة وزعاها على بعض الزملاء والمكتبات فهو تحت عنوان *The Turin Canon of Kings*, 1952

مانيثوس) كاهنا مصريا فى معبد فى سمنود فى مديرية الغربية واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها . وأراد بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق . م .) أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقى مصادره مما كان فى المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق . ومما يبعث على الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلى فقد فى حريق مكتبة الأسكندرية ولم يعثر حتى الان على أى نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلى أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابه الذى سماه الرد على ابيون Against Apion مدافعا فيه عن اليهود ضد ما كتبه ابيون الكاتب الأسكندرى والذى رمى فيه اليهود بكل شائنة ونقيصة فحاول يوسيفوس أن يمجد بنى جنسه فقال إن الهكسوس هم اليهود ونقل كثيرا من كتاب مانيتون مما اعتقد أنه يؤيد حجته .

وقد وصل إلينا أيضا من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سنى حكمهم فى مؤلفات بعض الكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقى Juluis Africanus (٢١٧ ميلادية) الذى نقل عنه الكاتب يوسيبيوس (٣٢٧ ميلادية) ، ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء فى الكتاب المسمى Chronographia الذى قام بجمعه جيورجيوس سينسلوس Georgius Syncellus . وبالرغم من جميع الأخطاء التى حدثت فى النقل وما أصاب أسماء الملوك من تحريف ، وما سقط دون شك من بعض النصوص ، فان ما وصل الينا من تاريخ مانيتون مصدر من أهم المصادر لتاريخ مصر ولا يمكن الاستغناء عنه .

وهناك عدة مؤلفات عن تاريخ مانيتون ولكن أحدثها هو مؤلف W. G. WADDELL, *Manetho (The Loeb Classical Library, Cambridge Mass.* 1940)

٤ ــ لوحة الكرنك : ولا تقتصر معلوماتنا عن ترتيب ملوك مصر على حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ، بل لدينا أربع لوحات مختلفة

أولاها لوحة الكرنك التى أقامها تحوتمس الثالث فى إحدى الحجرات الصغيرة إلى جانب بهو الأعياد فى معبد الكرنك وتوجد الان فى متحف اللوفر ، نقلها إلى فرنسا الأثرى الفرنسى بريس داڤن Prisse d'Avennes عام ١٨٤٤ . وليست هذه اللوحة جامعة لأسماء جميع الملوك بل تحوى مجموعة مختارة منهم عددهم ٦١ ملكا . وقد تحطم أول اسم فى اللوحة ولكن الاسم الذى يليه هو اسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ثم يليه بعض ملوك هذه الأسرة ثم الأسرات الخامسة والسادسة ثم أسقط كاتبها الأصلى ملوك عصر الفترة الأولى وعاد إلى ذكر بعض ملوك الأسرات الحادية عشرة ثم الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة ثم السابعة عشرة .

ولسنا نعرف السبب المقصود من إقامة هذه اللوحة . فإن تحوتمس الثالث أقامها دون شك لغرض خاص ولهذا لم يذكر ، أو لم يذكر الكهنة الذين أقاموها باسمه ، ملوك الأسرات الثلاثة الأولى وأغضى عن ذكر ملوك عصر الفترة الأولى وملوك الهكسوس ولكنه ذكر بالتفصيل اثنى عشر اسماً من ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعه عشرة ممن لم يشتهر اسمهم فى التاريخ . ومن المحتمل أن يكون لهؤلاء الملوك دون سواهم صلة مباشرة بتحوتمس الثالث وربما كانوا من أجداده الذين تنتسب اليهم عائلته [١] .

٥ — لوحة أبيدوس : وإذا كانت لوحة الكرنك غير كاملة وفيها بعض الاضطراب فان هناك لوحة ملكية أخرى فى معبد أبيدوس تزيد كثيرا فى أهميتها عن لوحة الكرنك . فعلى أحد جدران معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى عام ١٣٠٠ ق.م.) . نرى هذه اللوحة وقد وقف أمامها الملك رمسيس الثانى يقدم القرابين للملوك المذكورة أسماؤهم عليها وعددهم ستة وسبعون ملكا .

---

(١) تسمى هذه اللوحة احيانا « حجرة الأجداد » وقد نشرت عدة مرات . نشرها ابسيوس ونشرها بريس داڤن ولكن افضل النصوص هو ما نشره زيته : K. SETHE, *Urkunden IV*,608-610

وتبدأ الأسماء بملوك الأسرة الأولى فتذكر ثمانية ويتلوهم سبعة من الملوك الثمانية المعروفين لنا من الأسرة الثانية . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الثالثة نراه يذكر خمسة من ملوكها ثم يذكر بعد ذلك ستة من الملوك المعروفين فى الأسرة الرابعة ثم ثمانية من الملوك التسعة المعروفين فى الأسرة الخامسة ، ويليهم ملوك الأسرة السادسة . ولم يفعل الملك رمسيس الثانى مافعله تحوتمس الثالث إذ أسقط ملوك الأسرتين السابعة والثامنة بل نرى أسماء خمسة عشر ملكا منهم ، لم ترد أسماء بعضهم على أى أثر آخر ، ولكنه أهمل ملوك إهناسيا (الأسرتين التاسعة والعاشرة) ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ولكنه ذكر جميع ملوك الأسرة الثانية عشرة ما عدا الملكة « سبك — نفرو » آخر حكام هذه الاسرة .

ولم تذكر لوحة أبيدوس أى ملك من ملوك عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا فى نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، وبالتالى أنجاسا غير شرعيين . ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعا إلى أن يصل إلى الملك أمنحوتب الثالث فيتبعه بحورمحب آخر ملوك الأسرة وأسقط « اخناتون » و « سمنخ كارع » و « توت عنخ أمون » و « آى » لأنهم كانوا معتبرين ملوكا مارقين وخارجين على ديانة أمون ، وكذلك فعل بالملكة «حتشپسوت» إذ أسقط اسمها هى الأخرى لأن خروجها على التقاليد واغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية فى نظر الأجيال التالية . ولم تقف أسماء الملوك عند حورمحب بل ذكرت أيضا الملكين اللذين سبقا سيتى الأول فى الأسرة التاسعة عشرة وتنتهى اللوحة باسم سيتى نفسه[1] .

---

(١) هذه اللوحة منشورة فى مؤلفات عدة ويمكن فحص اسماء الملوك في بحث MEYER, *Aegyptische, Chronologie* 1904

انظر أهم المؤلفات عنها فى كتاب PORTER-MOSS, *Bibliograbhy, Vol. VI, p.* 25

وكانت هناك لوحة اخرى باسماء الملوك فى معبد الملك رمسيس الثانى فى أبيدوس ايضا ولكنها تحطمت وتوجد اجزاء منها الآن فى المتحف البريطاني . انظر كتاب بورتر — موس السالف الذكر صفحة ٣٥ حيث تذكر مؤلفتا الكتاب جميع المراجع التى بحثت هذا الموضوع .

٦ ــ لوحة سقارة : عثر على هذه اللوحة فى مقبرة أحد الكهنة فى سقارة واسمه « تنرى » الذى عاش فى أيام رمسيس الثانى ، وهى الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .

وهذه اللوحة مكتوبة على الجانبين وكان عليها أسماء ثمانية وخمسين ملكا يبدأون بالملك « مر ــ پى ــ با » سادس ملوك الأسرة الأولى وينتهون بالملك رمسيس الثانى.

فسر بعض الباحثين وجود هذه اللوحة وترتيب أسمائها على أساس صلتها بمدينة منف والملوك الذين بنوا فى معابد تلك العاصمة أو قدموا هبات لآلهتها . وربما كان الملك « مر ــ بى ــ با » هو أول ملوك الأسرة الأولى الذين أقاموا فى العاصمة الجديدة . وعلى أى حال فقد ورد اسم ملكين آخرين من ملوك الأسرة الأولى وثمانية من ملوك الأسرة الثانية وأربعة من الملوك الخمسة الذين حكموا فى الثالثة . ومما يسترعى النظر أنه من المرجح جدا أنه كان مذكورا على هذه اللوحة تسعة ملوك للأسرة الرابعة ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الأربعة الأخيرين قد تحطمت أسماؤهم . فإذا ماوصلنا إلى الأسرة الخامسة نرى أسماء ثمانية من ملوكها التسعة ولكنا لا نرى إلا أربعة فقط من ملوك الأسرة السادسة .

ولا يوجد على هذه اللوحة أثر لملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، ولا نجد عليها من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلا اسمى الملكين اللذين وردا فى لوحة أبيدوس، ولكنا نرى أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة كاملة بما فى ذلك الملكة التى حكمت فى آخر الأسرة ، وقد كتبوها هنا باسم العرش الخاص بها وهو « سبك ــ كاوو ــ رع » .

ولا شك أن الشخص الذى اختار أسماء ملوك هذه اللوحة كان متأثرا بما تأثر به زميله الذى اختار أسماء لوحة أبيدوس فانهما معاصرتان لبعضهما،

ولهـــذا نجد أنهم أسقطوا جميع ملوك عصر الفترة الثانية كما أسقطوا اسم حتشپسوت واخناتون ومن تلاه من عائلته وتنتهى اللوحة بأسماء الملوك الثلاثة الأول من الأسرة التاسعة عشرة وهم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى[1] .

٧ — نصوص الأنساب — وكثيرا ما تساعدنا النصوص التى يكتبها بعض الأفراد عن تاريخ حياتهم فى معرفة تتابع بعض الملوك فى العصور المختلفة ، ولكن هناك نوعا خاصا من النصوص أخذ يظهر فى العصر المتأخر من التاريخ المصرى .

ولدينا عدد غير قليل من هذه النصوص ولها كلها شيء من الأهمية ولكن أهمها جميعا ذلك النص الذى خلفه وراء الكاهن « عنخف — إن — سخمت » الذى كان كاهنا لكل من الإله پتاح وزوجته الالهة سخمت فى الأسرة الثانية والعشرين أى حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد .

كتب هذا الكاهن نسبا طويلا لعائلته على لوح من الحجر الجيرى كان فى متحف برلين (رقم ٢٣٦٧٣) ذكر عليه ستين جدا له كتب أمام الكثيرين منهم أسماء الملوك الذين عاشوا فى أيامهم ، وقد ثبتت صحة وجود الكثيرين منهم من مصادر أخرى . عاش ذلك الكاهن حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ولكنه رجع بأجداده إلى الأسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد أى خلال فترة لاتقل عن ١٣٥٠ سنة وقد فقد أسماء أقدم جدين لهذا الكاهن مع النقوش الأخرى الخاصة بهما ، ولكن اسم الجد الثالث محفوظ وعاش

---

(١) نشر دى روجيه هذه اللوحة فى مؤلفه
DE ROUGÉ, *Recherches sur les monuments des six premiéres Dynasties de Manethon, Pl. II*
وهى منشورة ايضا فى كتاب MEYER, *Aegyptische Chronologie, Pl. I*
وفى كثير من المؤلفات .

فى عهد الملك منتوحتب الثانى . وتستمر الأجيال واحدا بعد آخر ، ويذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة إذ عاش له جدان فى عهد أمنحوتب الثالث وتلاهم آخر فى عهد الملك آى الذى عبر صاحب النص على عدم رضاه عنه بكتابة اسمه دون وضعه فى خانة ملكية .

ولا يخلو هذا النص من كثير من المآخذ ، وقد أخطأ صاحبه فى أكثر من موضع كما ترك فجوات كثيرة فى بعض العصور ، ولكن ذلك كله لا يقلل من أهميته كمصدر تاريخى هام هو وغيره من نصوص الأنساب[1] .

تلك هى أهم المصادر المصرية لدراسة تتابع الملوك على العرش خلال آلاف السنين التى جمعها قدماء المصريين فى صورة جداول بأسمائهم ، ولكن الآثار المختلفة التى أقامها الملوك والأفراد الذين عاشوا فى أيامهم ، تمدنا بالكثير من المعلومات عن تعاقب الملوك وسنى حكمهم وصلة بعضهم ببعض .

ولا شك فى أهمية جميع هذه المصادر لدراسة التاريخ السياسى للبلاد ولكنها قلما تساعدنا على معرفة ما كان عليه الشعب أو ما كان يحدث من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون المختلفة ، أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى كلها على أكبر جانب من الأهمية لفهم الحضارة المصرية . ولدينا ولله الحمد مصادر لا حصر لها تساعدنا فى تلك الدراسة وتمدنا بالكثير من المعلومات . فالمتاحف فى جميع أرجاء العالم ملأى بما خلفته الحضارة المصرية فى جميع العصور من تماثيل ولوحات وتوابيت وحلى وأوانى وأدوات منزلية وأدوات الصناع وذوى الحرف المختلفة ، ولدينا التمائم والتعاويذ وأوراق البردى وغيرها وعليها الكتابات المختلفة بعضها قطع أدبية

---

(١) جمع بورخارت عددا من هذه النصوص ونشره فى كتابه LUDWIG BORCHARDT, *Mittel Zur Zeitlichen Festlegung von Punkten der aegyptischen Geschichte und ihre Anwendung* (*Cairo*) 1935, *pp.* 92-114

والبعض الآخر نصوص دينية أو سحرية وبعضها يحتوى على نصوص طبية أو رياضية . . . الخ .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل أن المصريين فى جميع العصور أبوا إلا أن يسجلوا مظاهر حياتهم على جدران قبورهم أيضا . فأينما ذهب الإنسان فى مصر سواء على مقربة من العاصمة القديمة منف ، أى فى سقارة والجيزة وما جاورهما ، أو ذهب إلى بلاد مصر الوسطى أو فى الصعيد وبخاصة فى طيبه عاصمة مصر فى عهد الإمبراطورية وجد مقابر عنى المصريون بتغطية جدرانها بمناظر الحياة اليومية حينا والحياة الأخرى حينا آخر ، ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها بل كثيرا ما نرى فى تلك المقابر أو على جدران المعابد مناظرا أو نصوصا تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية الذين اتصلت بهم مصر فنرى أصحابها يلبسون ملابسهم الوطنية ، وقد رسمت فى أيديهم أو على مقربة منهم مصنوعات بلادهم المختلفه مما كانوا يحضرونه إلى مصر كجزية أو هدية يقدمونها إلى الجالس على العرش أو للإتجار بها مع أفراد الشعب .

وهذه الملايين من الآثار الصغيرة ومئات الآلاف من التماثيل واللوحات والتوابيت وملفات البردى والأوستراكا وآلاف المقابر من جميع العصور هى مصادرنا الأصلية لدراسة الحضارة المصرية . وقد اهتمت المتاحف المختلفة بنشر المهم من مجموعاتها كما استطاع العلماء ترجمة أكثر النقوش المعروفة وأصبح كل ذلك تحت تصرف الباحثين فى تاريخ المصريين وحضارتهم[1] .

ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتى الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية لم يكد يمسسه أحد وبخاصة فى الدلتا وفى الصحراء ، كما أن أكثر المناطق الأثرية فى مصر الوسطى ما زالت تحتفظ بأكثر ما أبقى

---

(١) انظر اهم المؤلفات والمراجع المذكورة فى اخر الكتاب .

عليه الزمن من مخلفاتها ، حتى طيبه نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمى الكافى ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما امتد إلى أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون أنهم قد قالوا كلمتهم النهائية فى تاريخ مصر وأنه لم تعد هناك فجوات فى ذلك التاريخ .

يكفينا هذا القدر من الإشارة إلى مصادر التاريخ السياسى للعصر الفرعونى ومصادر التاريخ والحضارة بوجه عام ولننتقل الآن للحديث عن أقدم العصور التاريخية فى مصر وهو عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق .

الفصل الثانى

عصر الأسرات المبكر

أو

العصر العتيق

الأسرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠– ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

لم تمـــدنا الوثائق المصرية حتى الآن بما يكفى من أدلة لمعرفة ما حدث فى تلك الحروب التى كانت بين الجنوب والشمال وأدت إلى إعادة توحيد مصر، فإن كل معلوماتنا مستمدة فقط من تلك الآثار القليلة للملك العقرب وما ماثلها من آثار ذلك العصر .

وكان المصريون منذ أيام الدولة الحديثة يذكرون على آثارهم اسم ملك يسمى « منا » كأول ملوكهم ، وذكروا ذلك أيضا لهيرودوت ونص عليه مانيتون فى تاريخه كما كان المصريون أيضا يكتبون اسمه على جعارينهم تيمناً به ولكننا لم نعثر على مثل هـــذا الاسم على آثار الملوك الأوائل [1] ، وكل

---

(١) ظن بعض الأثريين فى وقت من الأوقات أنهم عثروا على اسم « من » على احدى اللوحات العاجية الصغيرة الخاصة بالملك « عحا » ثانى ملوك الأسرة الأولى ، ولكن إعادة فحص هذه اللوحة أثبت ان تلك القراءة لاتخلو مما يدعو إلى الاعتراض ، وأن تلك العلامة التى قرئت كاسم الملك « منا » ليست إلا رسم قاعدة التتويج فى أحد الاحتفالات المعروفة أنظر VIKENTIEV, *Annales du Service*, XXXIII (1933), p. 208-234, XXXIV (1934), p. 28-35.

ما يمكننا تقديمه من فروض هو أنه ربما كان اسما آخر للملك المعروف لنا باسم « نعرمر »[1] الذى عثر له على بعض الآثار الهامة فى هيراقونپوليس وفى أبيدوس وأشهرها لوحته الشهيرة التى توجد الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة . ويكاد يتفق جميع المؤرخين الآن على اعتبار « نعرمر » أول ملك فى الأسرة الأولى وأن « منا » ليس إلا إسما آخر لم نعثر عليه حتى الآن . ونرى على وجهى لوحته منظرين يختلفان فى تفصيلهما ولكنهما يتفقان فى الهدف وهو تسجيل انتصار هذا الملك على أعدائه . ففى أعلى اللوح — فى كل من الوجهين — نرى اسمه « نعرمر » مكتوبا داخل مستطيل يمثل واجهة القصر وعلى يمين الاسم ويساره رسم لرأس الإلهة حاتحور بوجه إنسانى وأذنى وقرنى البقرة . وعلى أحد الوجهين ، وهو الخلفى منهما ، نرى الملك واقفا وعلى رأسه تاج الجنوب ويقبض على ناصية عدو راكع أمامه اسمه « واع — شى » ، وقد رفع فى يده اليمنى دبوس قتاله ليهوى به على رأسه . وأمام الملك ، نرى الإله حورس على شكل صقر يقبض بيده على حبل يجر به رأس عدو له يعلوه ستة أعواد من نبات البردى يمثل كل منها عدد ألف أى أن الإله حورس مكنه من أعدائه وسلم إليه ستة آلاف أسيرا من بينهم . ويمشى خلف « نعرمر » أحد أتباعه وقد حمل فى يده اليمنى أناء وفى يده اليسرى خفى الملك . وفى أسفل اللوحة نرى اثنين من أعدائه وفوق كل منهما اسمه . أما الوجه الآخر فيختلف إذ يحتل الجزء الأوسط منه رسم حيوانين استطالت أعناقهما والتفت حول بعضها فتركت دائرة بينهما ، وقد أمسك بمقود كل من الحيوانين أحد الخدم ليجذبه بعيدا عن الآخر . وفى الجزء الأسفل من اللوحة نرى ثورا — وهو تمثيل أيضا للملك — يحطم بقرنيه أحد الحصون وقد ارتمى شخص يمثل أصحاب هذا الحصن تحت قدمى الثور . أما الثلث الأعلى من اللوحة فيملأ فراغه

---

(١) ورد اسمه على بعض آثاره مكتوبا « نعر » فقط ولهذا يتردد بعض المؤرخين فى نطق اسمه ، هل ينطقونه « نعر » فقط أم يتبعون النطق الأكمل والأشهر — وأيضا الأصح — « نعرمر » .

منظر آخر نرى فيه نعرمر وقد ارتدى تاج الشمال ويمشى وراءه ذات الموظف الذى نراه على الوجه الآخر ، ونرى موظفا آخر يسير أمامه وقد تقدمه أربعة من الأتباع يحملون أعلام أربعة من الآلهة ، وأمام تلك الأعلام خمسة صفوف فى كل واحد منها جثتان لشخصين قطعت رؤوسهما .

ولا شك فى أن المناظر التى على هذه اللوحة تسجل انتصار « نعرمر » فى الحرب ، وتسجل أيضا احتفاله بذلك النصر وقد وضع على رأسه تاج الشمال . وبالرغم من أن اسمه مكتوب فى أعلى هذا الوجه فإن الفنان أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى أن ذلك الذى يلبس تاج الشمال ليس إلا « نعرمر » فكتب اسمه مرة أخرى أمام وجهه .

لقد أشرنا إلى المناظر التى على رأس دبوس الملك العقرب وهى تسجل أيضا انتصاره فى حرب ضد أهل الدلتا وسكان الصحراء ولكننا رأيناه يلبس تاج الصعيد فقط ، فلعل « نعرمر » هو الذى أتم ما بدأه غيره من جهد وأنه أخضع الدلتا إخضاعاً تاما ، وكان بذلك أول من توج من ملوك الصعيد ملكا أيضا على الدلتا . ومما يرجح هذا الفرض أن الرسوم التى على دبوس قتاله ، الذى عثر عليه أيضا فى هيراقونبوليس ، ترينا مناظر الاحتفال بتتويجه ملكا على الدلتا إذ نراه يلبس تاج الشمال ويجلس على العرش وقد اصطف وراءه كبار الموظفين ، وتحلق فوق رأسه انثى النسر وهى إلهة الكاب لحمايته ، وقد وقف أمامه حملة أعلام الآلهة الأربعة كما نقرأ أيضا أعداد مئات الآلاف التى استولى عليها من الماشية والماعز ، وكذلك الأسرى من الناس .

وعثر على آثار أخرى لهذا الملك عند حفر مقابر أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ، ويثير هذا الأمر نقطة هامة فى التاريخ المصرى . فليس قبر نعرمر هو القبر الأوحد فى أبيدوس بل هناك مقابر أخرى لملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية مما يثبت لنا أن تلك العائلة التى نشأ منها

« نعرمر » اتخذت عاصمة لها على مقربة من ذلك المكان ، وأن العاصمة القديمة « نخن » أصبحت عاصمة دينية فقط . كانت العاصمة الجديدة على مقربة من أبيدوس وتسمى « ثنى » ومكانها يجب ألا يكون بعيداً من الجبانة الملكية ولكننا لا نعرفه على وجه التحقيق حتى الآن [١] .

كانت « ثنى » هى أول العواصم المصرية فى عهدها الجديد ، وظلت طيلة أيام الأسرتين الأولى والثانية عاصمة للبلاد والمقر الرسمى للملوك ولو أن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يقيمون من آن لآخر فى الشمال ، فى مدينة كانت تسمى « القلعة البيضاء » نسبوا إنشاءها فيما بعد إلى الملك « منا » وهى التى سماها المصريون فيما بعد مدينة « منف » .

وسواء أكانت تلك المدينة قد أنشئت حقا فى عهد « منا » أو أنها أنشئت فى عهد أحد خلفائه ، وسواء أصح ما زعمه المتأخرون من أن « منا » حول مجرى النيل لينشىء هذه العاصمة الجديدة أو أن الأمر لم يعدو حفر ترعة أو عمل مشروع صغير من مشروعات الرى ، فان اختيار الموقع كان ذا أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب إذ أن المكان الطبيعى لعاصمة مصر يجب أن يكون على مقربة من المكان الذى تلتقى فيه الدلتا بالصعيد ، وهو موقع أكثر عواصم مصر الهامة فى جميع العصور منذ عهد « منا » حتى الآن .

ومنذ أن حفر أميلينو (Amélineau) وبترى (Petrie) فى أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ووجدا فى مقابرها كثيراً من الآثار الهامة تحمل أسماء ملوك الأسرة الأولى كان الاعتقاد السائد حتى عام ١٩٢١ أن مقابر

---

(١) أراد بعض الأثريين منذ زمن بعيد أن يرى مكانها حيث توجد الآن قرية الطينة على مقربة من برديس ولكن هذا الرأى لم يلق قبولا من الأثريين الذين يميلون الى الاخذ بما قاله دارسى من أن مكانها يجب أن يكون فى مكان القرية المعروفة باسم البربا الآن DARESSY, *Receuil des Trav.* XVI (1894) p. 124 ولكن مكان البربا بعيد نسبيا عن ابيدوس ولم يعثر فيها على آثار هامة تؤيد مثل هذا الرأى .

أولئك الملوك كانت هناك . ولكن حدث بعد ذلك أن عثر الأثريون على أسماء أولئك الملوك أيضا فى مقابر فى طرخان وفى سقارة ثم أخذت مصلحة الآثار منذ عام ١٩٣٠ تحفر بانتظام فى المنطقة البحرية من سقارة فوجد فيرث (W. C. Firth) بعض المقابر ثم تولى إمرى (W. B. Emery) إتمام حفر تلك المنطقة منذ عام ١٩٣٥ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية ووجد عددا من مقابر الأسرة الأولى هناك وعثر فيها على أسماء جميع ملوك الأسرة ابتداء من «عحا» ماعدا مقابر «چت» و «قا ــ ع» و «سمرخت» ، كما عثر على مقابر بعض كبار الموظفين مثل «حماكا» . وهنا ظهرت المشكلة الرئيسية التى لم نصل إلى حل لها حتى الآن . لم يعثر پترى أو أميلينو على أى شىء فى أبيدوس يثبت أن ملوك الأسرة الأولى دفنوا حقا فى تلك المقابر كما اتضح أيضا أن مقابر سقارة أكبر جداً وأفخم من مقابر أبيدوس ، ففى أى المنطقتين دفن هؤلاء الملوك إن كانت مقابر سقارة قد أقيمت حقا لأولئك الملوك وليس لوزرائهم الذين كانوا يقيمون فى العاصمة الجديدة فى الشمال ؟ .

وأراد كثير من الأثريين وعلى رأسهم إمرى أن يرى فى مقابر سقارة المدافن الحقيقية لأولئك الملوك وأن مقابر أبيدوس لم تكن إلا أضرحة أو نوعا من المدافن التى تقام لتخليد الذكرى فقط فى جبانة عاصمة إقليمهم الذى نشأوا فيه .

وعاد إمرى مرة ثانية لاستئناف حفائره فى عام ١٩٥٣ وعثر على مقبرتين ملكيتين إحداهما فيها أشياء كثيرة من عصر الملك «چت» والأخرى فيها أشياء أخرى من عهد الملك «قا ــ ع» وكلاهما أكبر كثيرا من مقبرتيهما فى أبيدوس .

واستمرت حفائر إمرى حتى عام ١٩٥٥ وأمدتنا بالكثير من آثار الأسرة الأولى وألقت كثيراً من الضوء على تاريخ ذلك العصر وحضارته ، وجلت كثيراً من النقط الغامضة ، ولكن رغم كل هذا فان إمرى لم يجد سواء فى حفائره قبل عام ١٩٣٩ أو بين ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ أى دليل قاطع على

أن ملوك الأسرة الأولى كانوا يدفنون فى سقارة ، وفى آخر بحث ظهر له نراه يفضل ترك الباب مفتوحا ويختم مقاله بقوله « ولكننا لم نجد حتى الآن الدليل النهائى على أنها (أى المقابر) هى المدافن الحقيقية للملوك ولا بد من عمل حفائر أخرى قبل أن نتمكن من الوصول إلى التأكد الكامل »[1] .

وقبل أن نتحدث على ما ظهر من آثار ملوك الأسرتين الأولى والثانية وما وصلت إليه حضارة مصر فى ذلك العهد البعيد يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم ما نعرفه عنهم . فقد كان «نعرمر – منا» أول ملوك هذه الأسرة ، وقد عثر على قبر له فى أبيدوس ، وجاءت أهم آثاره من معبد نخن فى هيراقونبوليس (الكوم الأحمر) كما ذكرنا ثم تلاه على العرش الملك « عحا » (معناها المحارب) ، وقد عثر له على قبر فى أبيدوس وعلى آثار باسمه فى قبر آخر أكبر منه فى سقارة . ونرى على آثاره إشارات كثيرة إلى حروب ضد الليبيين والنوبيين وإلى احتفالات دينية وبخاصة ما يتعلق منها بمراسيم تتويجه ، وتشير كذلك إلى تشييد بعض المعابد للآلهة وبخاصة للإلهة «نيت» التى كان مقر عبادتها فى مدينة صا الحجر فى غرب الدلتا ، وكانت زوجه تسمى « نيت – حتپ » وربما كانت من أهل تلك المدينة .

وجاء بعد « عحا » ملك آخر وهو الملك « چر » وتمتاز آثاره بكثير من التقدم الفنى ، ولأمر ما اعتقد المصريون القدماء فى العصور التالية أن قبره فى أبيدوس هو قبر الإله أوزيريس وكانوا يحجون اليه ويقدمون القرابين له حتى كشفت عن حقيقته حفائر أميلينو فى أواخر القرن الماضى .

ويظهر أن « چر » لم يكن أقل من سلفه « عحا » فى نشاطه الحربى ، فقد عثر فى عام ١٩٤٩ على اسمه مكتوبا على صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة

---

(١) بحثه الذى نشره فى كتاب *Les grandes decouvertes archéologiques de 1954* الذى نشرته مجلة *Revue du Caire* عام ١٩٥٥ .

من بلدة بوهن أمام وادى حلفا وهو يسجل هناك انتصاره على أهل النوبة ، ويدل على اهتمام ملوك الأسرة الأولى بتأمين حدود مصر الجنوبية وفتحهم المنطقة الواقعة جنوبى الشلال الأول لأجل التجارة مع السودان(١) .

وفى عهد خلفه الملك « واجيت » أو « چت » نرى أن سياسة التوسع التجارى ، وربما أيضا استغلال المناجم ، لم تقل ، وأن أولئك الملوك اهتموا بدروب الصحراء وتأمين التجارة فيها إذ عثر على اسم هذا الملك مكتوبا على صخور أحد تلك الدروب التى كانت تربط بين إدفو وبين البحر الأحمر(٢) وهو الدرب المار بوادى مياه ، والذى ظل مستخدما فى جميع العصور سواء للتجارة أو للحصول على بعض معادن تلك المنطقة وبخاصة الذهب .

كانت مصر قد وصلت إلى حد غير قليل فى مضمار الحياة فى عهد الملك « چت » ، ولو دققنا فى فحص مخلفات عصره نرى أن كثيرا منها قد بلغ فيه الاتقان إلى حد يجعل منها تحفا فنية مثل لوحته التى توجد الآن فى متحف اللوفر . وقد عثر على قبر له فى أبيدوس وعلى قبر آخر فى سقارة ، أما المقبرة التى عثر عليها فى نزلة البطران على مقربة من أهرام الجيزه والتى ظهر فيها اسمه مكتوبا على بعض ما فيها من قطع أثرية فربما كانت لأحد أفراد عائلته أو كبار موظفيه .

أما خامس الملوك وهو الملك « دن »(٣) فقد عرفنا عنه الكثير ، ليس من مقابره أو مقابر معاصريه فحسب بل من حجر پالرمو أيضا ، ونرى أنه قد اتخذ لنفسه لقبا جديدا باستخدام نبات السوت رمزا للصعيد والنحلة رمزا للدلتا .

---

(١) A. J. ARKELL, *Varia Sudanica in JEA*, *Vol.* 36 (1950), p. 27-30.

(٢) J. J. CLÊRE, *Un Graffito du roi Djet dans le désert arabique*, *Annales du Service*, XXXVIII, p. 85-94.

(٣) كان اسمه ينطق دن ثم اراد العالم زيته الأثرى الكبير ان ينطقه «أوديمو» وظل هذا النطق الثانى معترفا به اكثر من عشرين عاما الى أن ظهرت أبحاث جديدة تفضل العودة الى النطق القديم .

كما نعرف أيضا أنه حارب البدو الذين فى شرق مصر ، كما نرى بعض تفاصيل احتفاله بعيد يسمى عيد « السـد » أو الاحتفال الثلاثينى الذى لعب دورا كبيرا فى حياة الملوك المصريين ، وعقيدة الألوهية الملكية .

كان هذا الاحتفال معروفا فى مصر دون شك قبل الأسرة الأولى بزمن كبير ، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتى الآن ، وهى تحديد ثلاثين سنة لحكم أى زعيم ، لأن رخاء الناس يتوقف على قوة ذلك الزعيم . فاذا امتد عمره إلى أكثر من ذلك قضوا عليه فى حفل دينى . وما زلنا نرى حتى اليوم بعض القبائل الإفريقية تضع حدا لحياة زعمائها ، كما تقدم البعض الآخر فى تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو له فيشترى بذلك سنوات أخرى من الحياة ، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد ، أو تقديم قرابين خاصة فى حفل خاص يثبت فيها هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة[1] .

ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة فى مصر فى وقت مبكر قبل عصر الأسرات ووصلت إلى مرحلتها الأخيرة وهى تجديد الحق فى البقاء فى الحكم قبل أن تنتهى فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك فى احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المبانى الخاصة ويقيم لبعض الآلهة معابد أو هياكل . وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولى حتى آخر أيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد وكثيرا ما نرى الإشاره اليه ، ونرى بعض مناظر مراسيمه على جدران المعابد فى جميع العصور حتى ما شيد منها فى أيام الرومان .

---

(١) كتب سيلجمان عدة ابحاث عن مشاهداته بين القبائل الافريقية لبعض العادات التى كانت معروفة فى مصر القديمة فى أقدم عهودها ، ويوجد له بحث خاص بنتيجة تلك المشاهدات وهو :
C. G. SELIGMAN, *Egypt and Negro Africa* (1934)

وأهم الآثار من عهد الملك « دن » هى مقبرة « حماكا » فى سقارة ومقبرة زوجته « مريت ــ نيت » فى أبيدوس ، وخلفه على العرش ابنه « عج - إب » الذى احتفظ لنا حجر پالرمو بالشيء الكثير عن حوادث عصره ومنها حروبه واحتفاله بعيد «السد» ثم أمره بعمل إحصاء شامل فى البلاد كان يتكرر كل عامين .

ونعرف أيضا من حجر پالرمو ومن الآثار الأخرى ، شيئا غير قليل عن « سمرخت » وأهم شيء يتصل باسم هذا الملك هو بدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك مما كان سببا لقرب انتهاء حكم هذه العائلة ، والأمر الثانى هو ترديد اسمه فى المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير فى وادى المغارة بسيناء ، ولكنى أعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى وإنما هو للملك « سخم ــ خت » الذى تولى الملك بعد زوسر فى الأسرة الثالثة والذى أراد تشييد هرم مدرج آخر فى سقارة عثر عليه عام ١٩٥٤

وآخر ملوك هذه الأسرة هو الملك « قا ــ ع » وقد عثر له أيضا على آثار فى قبر فى أبيدوس وكذلك فى مقبرة كبيرة فى سقارة كتب اسمه على كثير مما بقى من محتوياتها ، وتمدنا تلك الآثار بعدد وافر من أسماء موظفيه والوظائف التى كانوا يتولونها ، ومنها نعرف الشيء الكثير عن تنظيم الإدارة فى ذلك العهد .

ملوك الأسرة الثانية

ونحن نجهل تماما الأسباب التى دعت إلى تغيير هذه العائلة أو الحوادث التى جرت فى أيام « قا ــ ع » وانتهت بجلوس أسرة أخرى على العرش ، كما نجهل أيضا الصلة بين العائلتين إذا كان هناك حقيقة انتقال للملك من عائلة إلى أخرى ، ونحن نتبع مانيتون فى تقسيمه للأسرات ، ولا ريب أنه كانت لديه الوثائق الكافية التى تبرر ذلك التقسيم .

وفى الواقع لا نرى أى تغيير ، ولا نحس بأى أثر لانتقال فجائى ، فان كل شىء استمر فى سيره الطبيعى سواء من ناحية التطور الفنى أو فى تنظيم الحكومة بوجه عام .

وهناك اختلاف كبير بين المصادر القديمة عن ترتيب ملوك هذه الأسرة ، كما أن الأسماء التى وردت نقلا عن مانيتون فى صيغها المكتوبة باليونانية يصعب إرجاع بعضها إلى أصلها المصرى .

وعلى أى حال فلم يعثر أحد فى أبيدوس على مقابر أكثر ملوك تلك الأسرة مما يرجح أنهم كانوا يفضلون العاصمة الشمالية الجديدة ، وهى القلعة البيضاء ، لتكون مقاما لهم أثناء حياتهم ، وفضلوا أيضا تشييد مقابرهم على مقربة منها وربما عثر عليها فى سقارة فى المستقبل .

ونرى فيما تركه أولئك الملوك إشارات لقصور يشيدها الملوك بعد العام الرابع من حكمهم ، ومعابد يقيمونها للآلهة المختلفة وبخاصة « سكر » وهو من أعظم آلهة العاصمة الجديدة شأنا ، كما نرى أيضا من أختام موظفيهم اطراد تقدم التنظيم الحكومى ووجود الإدارات المختلفة . ونرى من دراسة جداول أسماء الملوك أننا نعرف منهم ثمانية على الأقل ، ولا شك فى ترتيب الثلاثة الأول منهم وهم « حتب سخموى » و « رع نب » و « نى نتر » كما نحن متأكدون من ترتيب آخر ثلاثة منهم وهم « پرى إب سن » و «خع سخم» و « خع سخموى » ونعرف أيضا أن الأمور فى تلك الأسرة لم تسر فى يسر وهدوء وانما كانت مقترنة بالكثير من المتاعب ولكننا لا نستطيع تحديد تلك المتاعب أو أن نذكر أشياء معينة اللهم إلا عند ما وصلت الأمور إلى درجة محاولة التغيير فى نظام المملكة العام ، والثورة على عبادة حورس .

فقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للإله « ست » مركز رئيسى فى الصعيد ولكن انتشار عبادة الإله حورس كادت تطيح به وبنفوذ كهنته ، وبخاصة عند ما أصبح الملوك قبل بداية الأسرة الأولى يمثلون الإله حورس ويعيشون

فى ظله ، وأصبح كل منهم ينسب نفسه إليه . وزاد الطين بلة ـ بالنسبة للصعيد ـ أن الملوك فضلوا العاصمة الجديدة عند ملتقى الدلتا بالصعيد ، ومن المحتمل أيضا أنهم أخذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بآلهتهم .

وفى كل زمان يوجد فئة من المحافظين الذين يتطلعون إلى القديم ويرون فيه المثل الأعلى ، وفى كل زمان أيضا يوجد الرجعيون الذين يعز عليهم إدخال أى تغيير طالما يؤثر ذلك على مصالحهم الشخصية ، ويوجد كذلك فى كل زمان بعض رجال الدين الذين يأبون أن يروا انصراف الناس عنهم ويحاولون استثارة كامن العواطف بين مختلف طوائف الشعب .

ومهما قلت معلوماتنا عن النصف الثانى من الأسرة الثانية فإننا نجزم بحدوث رد فعل شديد ضد الإله حورس وضد نفوذ العاصمة الجديدة . ونرى الملك « پرى ـ إب ـ سن » يعلنها حربا صريحة على حورس فيحذف اسمه من ألقابه ويضع بدلا منه منافسه القديم الإله « ست » . بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويفعل مالم يفعله أحد من قبله أو من بعده وهو وضع « ست » فوق اسمه المكتوب داخل رسم يمثل واجهة القصر ويعلن أنه هو رمزه وأنه تمثل فيه ويذكر فى بعض آثاره أن ست إله نوبت (مدينة أومبوس فى مديرية قنا) هو الذى سلم إليه البلاد .

ولم يقف « پرى ـ إب ـ سن » عند ذلك الحد بل عاد مرة أخرى إلى الصعيد وأبى إلا أن يعود إلى التقليد القديم وهو تشييد قبره فى أبيدوس ، وليس فى سقارة . ومن الأسف أننا لا نعرف رد الفعل الذى حدث فى الشمال فان ذلك العمل كان خروجا قويا على ما سارت عليه مصر من تقاليد منذ بداية الأسرة الأولى على الأقل ، فان تمثيل الملك بحورس أصبح متأصلا منذ أجيال خصوصا وأن حجر الزاوية فى استمرار الحضارة المصرية كان قائما على ألوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلاد هو حورس ، وكان يعبد من شعبه على هذا الأساس ، وأصبح واحدا من الآلهة لا يختلف

عن غيره من إخوانه ، بل ويمتاز عليهم ، بأنه كان يحكم الناس على الأرض ويقوم بحفظ النظام وإقامة العدل ويساعد الناس فى مصر على قيامهم بواجبهم لعبادته وعبادة إخوانه من الآلهة .

ثار « برى — إب — سن » على حورس وعلى القلعة البيضاء ، وما من شك فى أن الكثيرين من أهل الصعيد ، وكهنة ست خاصة ، رحبوا بهذا التغيير ولكننا لا ندرى شيئا عن حرب أو ثورة ضد ذلك الملك ، بل إن ما وصل من آثاره إلى أيدينا لا يكاد يوضح لنا شيئا اللهم إلا حذف اسمه من بعض جداول أسماء الملوك باعتباره خارجا على عبادة حورس كما فعل الكهنة بعد ذلك بمدة تزيد على ألف وثلاثمائة عام باخناتون ومن حكم بعده من أهله لمحاولته تغيير عبادة الإله أمون فى البلاد ، وتمجيد أتون بدلا منه ومن الآلهة الأخرى .

ولسنا نعرف أيضا على وجه اليقين كم بقى من سنين على العرش وكيف انتهت أيامه ولكننا نعرف أن ذلك التغيير لم يدم بعد وفاته وأن الملك الذى خلفه على العرش وهو « خع سخم » عاد إلى عبادة حورس وتمجيده ، وعاد أيضا إلى النشاط المعتاد وذلك بالقيام بحملات لإخماد ماعساه أن يكون قد قام من فتن فى الشمال لأننا نقرأ على قاعدة كل من تماثيله فى متحف القاهرة وأوكسفورد نقشا ينبئنا فيه عن انتصاره على أعدائه وقتله ٤٧٢٠٩ من الأعداء الشماليين الذين ربما يكونون قد هجموا على الصعيد ، كما نعرف من نقوش على بعض أوانيه .

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله عن صلة « خع سخم » بالملك « برى إب سن » وهل كان ابنه أو أنه كان أميرا من الأمراء أو كان زعيما من الزعماء ، اضطر لمواجهة ثورة عاتية فى الشمال ضد ما قام به « برى إب سن » ؟ والجواب على تلك الأسئلة لا يعدو حد التخمين لأن مالدينا من وثائق من ذلك العصر لا يساعدنا مطلقا على الإجابة ، واذا رجعنا إلى مانيتون

لا نجد فيه إلا قبساً ضئيلا ، فاذا صح أن « خع سخم » هو الذى سماه مانيتون « سيسو خريس » فانه كان فارع الطول إلى حد كبير[1]، وربما كان طول قامته مصحوبا بقوة بدنية ساعدته فى زعامته وفى حروبه التى شنها لإعادة النظام إلى البلاد ، وحربه ضد سكان ليبيا إلى الغرب من مصر .

ومن الجائز أن ما قام به من أعمال أحدث رد فعل جديد ، وشاءت الظروف أن يلى عرش مصر بعد « خع – سخم » ملك قوى حازم أراد أن يرضى كلا من الشمال والجنوب ويضع حداً لتلك الفتنة فاتخذ لنفسه شعارا الإلهين حورس وست مجتمعين ، وكان يضعهما سويا فوق اسمه ، ذلك هو الملك « خع سخموى » الذى تقدمت مصر فى عهده تقدما كبيرا عم فيه استعمال الحجر فى المبانى واستقرت مصر على أوضاعها الفنية الخاصة بها ، واستكملت أكثر مقوماتها .

امتاز عهده بالهدوء والتقدم فى جميع مرافق الحياة وكانت زوجته تسمى « نى حاپى معات » وهى أم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، ولكن قبل أن ننتقل إلى زوسر وإلى الأسرة الثالثة يحسن بنا أن نقف قليلا لنعرف مدى ما أحرزته مصر فى ذلك العهد من تقدم ، وإلى أى حد وصلت .

كشفت حفائر أبيدوس وهيراقونپوليس وسقارة وحلوان وطرخان وغيرها ،[2] عن كثير من آثار ذلك العهد ولهذا لا تعوزنا الآن المادة العلمية اللازمة لدراسة مدى تقدم فنون المصريين وصناعتهم فى تلك الأيام ، كما وصلت

---

(١) ذكر مانيتون أن طوله كان خمسة أقدام مصرية وثلاث قبضات ، فلو كان القدم فى ذلك العهد ٣٤ سنتيمترا فقط لكان طول « خع سخم » أكثر من مترين وربع . والقدم المصرى المعتاد هو ٥٢ سنتيمترا وكان يقسم إلى سبع قبضات وكل قبضة إلى أربع أصابع ، ولكن كان هناك أيضا قدم آخر أصغر منه استخدمه المصريون بكثرة فى أوائل أيام حضارتهم ، وربما كان هو المذكور في الوثائق القديمة التى كانت تحت يدى مانيتون .

(٢) أنظر المراجع العلمية الخاصة بهذا الفصل فى آخر الكتاب .

الينا أيضا بعض الآثار التى تحوى كتابات وأكثرها أختام أو طبعات أختام فوق سدادات الأوانى المصنوعة من الطين ، وهى لا تحتوى عادة إلا على أسماء أصحابها ووظائفهم ، وفى حالات قليلة تشير إلى بعض الضياع أو المبانى وغير ذلك من الأعمال التى تتصل بأعمال الموظفين أصحاب تلك الأختام . وهناك أيضا كمية كبرى من النقوش على تلك اللوحات الصغيرة المصنوعة من العاج والتى توجد إلى جانب بعض الأوانى فى مقابر الأسرة الأولى سواء فى أبيدوس أو فى سقارة ، وكذلك بعض الألواح الاردوازية الكبيرة ورؤوس الدبابيس الخاصة بهؤلاء الملوك ، وكذلك بعض الأوانى الحجرية زيادة عما هو مسطر على حجر بالرمو من معلومات عما أبقى عليه الزمن من أسماء هؤلاء الملوك .

ويمكننا من دراسة تلك الأشياء معرفة أسماء الملوك وأسماء بعض موظفيهم ووظائفهم ، ويمكننا أيضا معرفة أسماء بعض القصور والمعابد والآلهة الذين شيدت لأجلهم ، ومعرفة ما قام به بعض الملوك من أعمال خاصة مثل شق الترع أو إنشاء السفن أو الاستيلاء على بعض المدن والاحتفال ببعض الاعياد كما نرى فيها أيضا رسم بعض المعابد أو الهياكل التى أقامها الملوك فى ذلك العهد المبكر . وإذا أردنا الوقوف على مظاهر الفن أو الحضارة فى مصر ، أو أردنا الإلمام ببعض نواحى الحياة بين الشعب ، فإن هناك من القطع الأثرية مما ظهر فى حفائر حلوان وسقارة وأبيدوس ما يكفى لإعطاء صورة عن مدى التقدم الذى أحرزه الفنان المصرى منذ الأيام السابقة على ظهور الأسرة الأولى . فتلك الحلى وتلك الأوانى الجميلة الصنع ، وتلك الأدوات المنزلية المصنوعة من العاج أو قطع ألعاب التسلية أو الصناديق المزخرفة ، تثبت كلها ذلك التقدم فى الفن وفى مظاهر الحياة الخاصة .

وإذا درسنا مخلفات ذلك العصر نستطيع أن نعرف شيئا غير قليل عن بعض أعيادهم ومراسيمهم فى بعض الاحتفالات ، كما نستطيع أن نعرف أيضا ، ولو إلى مدى محدود ، شيئا عن ديانتهم . ونعرف أيضا الكثير عن

تنظيم إدارات الحكومة ، وإذا درسنا بعض المصادر التى كتبت فى عصور متأخرة نرى قدماء المصريين يشيرون إلى بعض ملوك الأسرتين الأولى والثانية ويربطون بين أسمائهم وبين القيام بكتابة بعض البرديات الهامة فى الطب أو فى الحكمة .

كانت الاجيال القليلة السابقة على بدء الأسرة الأولى ، وتلك القرون الأربعة التى حكم أثناءها ملوك الأسرتين الأولى والثانية هى الفترة التى تفاعلت فيها جميع عناصر الحضارة فى مصر ، كانت هى فترة التجارب والمحاولات التى قضاها شعب فتى فى مستهل أيام حضارته حتى استقر أخيرا على أوضاع خاصة ارتضاها لنفسه ووجد أنها تعبر تمام التعبير عما يريده ، سواء فى الدين أو فى الفن أو فى الحياة بوجه عام ، فاستمسك بها وحافظ عليها لأن أساسها كان قويا متينا ثابت الأركان . فلما تقدمت به مدنيته استطاع أن يرتفع بالبناء فوق ذلك الأساس فلم يخب ظنه فيه ، وعندما اتصل بغيره من الحضارات فيما بعد لم يجد من بينها ما يلائم حياته أو ذوقه خيرا مما كان لديه فزاده ذلك استمساكا به .

الفصل الثالث

الدولة القديمة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة

(٢٧٨٠ — ٢٢٧٠ ق . م)

كان لاضطراب الأمور فى النصف الثانى من أيام الأسرة الثانية أثر مباشر على مستقبل مصر ، فلا جدال فى أن ثورة « پرى إب سن » على عبادة حورس أثرت على سير الأمور ، ولا جدال أيضاً فى أن ما تبع ذلك من تطاحن فى البلاد كان ذا أثر سيء على تقدمها . ولكن لم يمض إلا وقت قليل بعد أن انكشفت تلك الغمة حتى نرى مصر وقد بدأت تعوض ما فاتها ، وكأنما كان ذلك التطاحن وعدم الاستقرار دافعاً لها فيما بعد ، فتقدمت فى شتى النواحى واستكملت مقومات مدنيتها التى أصبحت مميزاً لها على مر العصور كما أوضحنا فى نهاية الفصل السابق .

وفى هذا الوقت الحاسم فى تاريخ البلاد ، ذلك الوقت الذى كانت فيه مصر تتدفق شباباً وحيوية ، جلس على عرشها ملك قوى حازم ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد .

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ — ٢٦٨٠ ق. م)

وبالرغم من أن أول ملوك هذه الأسرة وهو الملك زوسر كان إبنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسساً لأسرة مالكة جديدة.

بدأ زوسر [١] حياته كغيره ممن سبقه من الملوك وبنى لنفسه مثلهم قبراً على شكل مصطبة كبيرة من الطوب اللبن (٩٥ متراً فى الطول × ٥٠ متراً فى العرض، وارتفاع ١٠ أمتار) ولكنه لم يشيدها فى أبيدوس بل شيدها فى المنطقة المعروفه الآن باسم بيت خلاف جنوبى قنا ، عثر فيها على كثير من الأوانى وعليها أختام تحمل إسم الملك وتحمل أسماء بعض موظفيه والإدارات المختلفة التى كانوا يتولون شئونها [٢] .

وشاء حسن حظ مصر أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثراً واضحاً فى تاريخ البشرية ، وقضت عناية الله أن يكون على عرشها ملك حصيف الرأى عرف قيمة نبوغ ذلك الشخص فمد له يد العون ومكنه من تحقيق آرائه ، فخلد إسم الملك زوسر وخلدت أعماله وتقدمت مصر فى عهده تقدما كبيراً فى جميع النواحى .

إيمحوتب : لسنا نعرف على وجه اليقين إن كان « إيمحوتب » بدأ حياته فى عهد الملك « حتب سخموى » وكان من بين موظفيه أو أنه ظهر فقط

(١) لم يرد إسم «زوسر» على أى أثر لهذا الملك قبل الأسرة الثانية عشرة ، أما إسمه المذكور داخل هرمه وعلى آثاره المعاصرة الأخرى مثل تماثيله ونقوشه ، فهو إسمه الآخر « إرى خت نثر » .

(٢) ربما كان هذا القبر هو القبر الأول لزوسر ، وربما كان أيضاً قبراً لزوجته أو غيرها من أهله .

فى أيام زوسر ، وعلى أى حال فان اسمه قد ارتبط باسم ذلك الملك الأخير وحده سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال ، فان المصريين خلدوا اسمهما معا وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى . واعتبر الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة « إيمحوتب » إماما وحامياً لهم وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله على إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له.

كان الملوك حتى ذلك العهد يدفنون فى قبور على هيئة مصاطب لا تمتاز فى شكلها العام عن قبور رعاياهم إلا بعظم حجمها وفخامتها ، و كانت تبنى من الطوب اللبن ، وإن كانت بعض أجزائها الداخلية أو حجرة الدفن تبنى بالحجر .

وبنى زوسر قبره الملكى فى الجنوب على نمط من سبقه من الملوك إن صحت نسبة قبر بيت خلاف إليه ، ولكن إيمحوتب فكر فى تشييد قبر آخر لسيده فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد قبل ذلك الوقت لأى ملك قبله ، وكانت الفكرة الجريئة الأولى فى تشييد ذلك القبر هى أن يكون مبنيا بكتل من الحجر بدلا من الطوب اللبن فشيد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ثم كسا جدرانه الخارجية بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر طرة فى الناحية الشرقية من النيل .

كانت تلك المصطبة دون شك أفخم وأعظم من أى قبر ملكى آخر فى المنطقة ، وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة استخدم فى تشييدها أحجار الجرانيت لتكون حجرة دفن الملك .

ولم يقنع إيمحوتب بذلك ، فعدل فى تصميمه الأول وفكر فى شىء جديد . إن سيده زوسر إله معبود من شعبه فيجب أن يمتاز قبره عن غيره ، ويجب أن يرتفع ويعلو ، ولهذا أخذ يبنى مصطبة فوق أخرى وكل منها يقل فى الحجم

عما تحتها حتى أصبح الشكل النهائى لقبر زوسر هرما مدرجا ذا ثمانية درجات كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض (انظر شكل رقم ١) ، وبذلك كان إيمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام . ولم يكتفى بذلك بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله من الحجر الجيرى المقطوع من طره وشيد داخل هذا السور مبان عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثينى والبعض الآخر كان قبرا رمزيا فى الناحية الجنوبية أو معابد تتصل أيضا بالأعياد كما شيد فى الناحية الشمالية من الهرم معبدا قامت فيه تماثيل للملك .

وليس من شأن مثل هذا الكتاب أن يصف تلك المبانى أو يسهب فى الحديث عنها ويكفينا أن نذكر أن مجموعة الهرم المدرج تعتبر من أهم ما أبقت عليه الأيام من آثار مصر ، نرى فى مبانيه الخطوات الأولى للمصريين عندما انتقلوا من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر . فكثيرا ما نرى المهندس القديم يبذل جهده ليجعل مبانيه شبيهة بمبانى الطوب مثل حجم الأحجار (٥٢ سم فى الطول مثل حجم الطوب فى ذلك العهد) أو فى تشكيل السقف الحجرى ليكون شبيها بالسقف الذى كانوا يستخدمون فيه فروع الأشجار ، ومثل الأبواب التى تظهر كأنها نصف مفتوحة ، والأعمدة الحجرية التى تمثل تلك الأعمدة التى كانت تصنع من أعواد النباتات وقد ضمت إلى بعضها .

ويميل أكثر الأثريين إلى قبول الرأى القائل بأن السور الخارجى الكبير الذى رسموا فى جوانبه شكل البوابات الثلاثة عشرة فى جهاته الأربع ليس إلا صورة من السور الذى كان حول قصر الملك فى الوادى على مقربة من العاصمة وأن المدخل الرئيسى فى الركن الشرقى الجنوبى (البوابة الرابعة عشرة) شبيه بمدخل القصر الملكى بأعمدته وأماكن حراسه ، وأن تلك المبانى المشيدة بالحجر قد أقيمت بمناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثينى للملك زوسر ، إذ أن هذا

الملك قد نقل عاصمة الملك بصفة نهائية إلى الشمال ، فى تلك المدينة التى أصبحت تسمى منف فيما بعد . ودفن زوسر فى هرمه هذا ، وفى الممرات المحيطة بحجرة الدفن كدسوا آلافا من الأوانى المصنوعة من المرمر وبعضها من الديوريت أو البرشيا أو الجرانيت أو البازلت وغير ذلك من الأحجار وبعضها صغير والبعض الآخر يزيد ارتفاعه عن متر ، وقد أمكن حتى الآن استخراج عدد من تلك الأوانى لا يقل عن عشرين ألفا ، وما زال الكثير منها باقيا فى الممرات وقد حطمه إلى أجزاء صغيرة سقوط الصخر فوقه .

عرف زوسر قدر مهندسه فكرمه وأراد أن يخلده معه فسمح بأن يكتب أسمه على تماثيله ونعرف من ألقابه أنه كان يتولى وظائف عدة فقد كان مشرفا على الأعمال الإنشائية للملك ، وكان مشرفا أيضا على إدارة قصره وكان حائزا على لقب رئيس المثالين ، ولكن أهم من ذلك كله فقد كان من القابه أنه الرجل الأول بعد الملك أى أنه كان حاكما لأحد الأقاليم وكان كبيرا لكهنة الشمس فى مدينة إيون « هليوبوليس » . وربما تولى فيما بعد (أى بعد عمل تلك التماثيل) وظيفة الوزير لأنها أصبحت لقبه الرئيسى فى العصور التالية .

وقد ذكر المؤرخ المصرى مانيتون أن زوسر حكم تسعة وعشرين عاما (ولكن بعض المصادر الأخرى تكتفى بتسعة عشر عاما فقط) وأضاف على ذلك قوله « عاش فى أيام حكمه « ايموش » (أى إيمحوتب) الذى يعتقد الأغريق أنه أسكليبوس (اله الطب) وذلك لمهارته فى الطب . وقد اكتشف هذا الشخص فن البناء بالأحجار المنحوته وكان يقبل إقبالا كبيرا ، وبحماس شديد ، على التأليف » .

(١) أصبح إسمها منف فى الأسرة السادسة عند ما شيد فيها الملك (بى — من نفر) حيا أطلقوا إسمه عليه فأصبح إسم ذلك الحى (من نفر) مع مرور الزمن يطلق على المدينة بأكملها ، وصار إسمها فى اليونانية « ممفيس » وذكرها العرب فى كتاباتهم باسم منف .

كان إيمحوتب واحدا من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم فى أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه على فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر فى الفن المصرى بل نبغ أيضا فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة . وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد فى أواخر أيام حضارتهم (وبخاصة فى العصر الفارسى أى فى القرن السادس قبل الميلاد وفى أيام البطالمة بعد ذلك) وأطلقوا عليه « ابن «الإله بتاح» [١] . ومن المحتمل أن يكون المصريون قد ألهوا إيمحوتب فى عصر مبكر [٢] ولكنهم لم يشيدوا له المعابد الكثيرة فى جميع أرجاء البلاد الا فى العصر المتأخر عندما رأى المصريون أن حضارات أخرى مثل حضارات الأغريق والفرس أخذت تغزو البلاد وتبهر أنظار بعض أبنائها فكان ردهم على ذلك شدة استمساكهم بحضارتهم القديمة التى كانت أصل المدنيات جميعا ، وأنهم كانوا المعلمين الأول للبشرية .

كان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد ، وبعد ذلك العهد أيضا حتى الأسرة الخامسة ، أن جميع الوظائف الكبرى لا يتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد من البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه ، فهل كان إيمحوتب ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تمثاله وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة

---

(١) هناك أبحاث كثيرة عن إيمحوتب ولكن أهمها هو البحث الذى كتبه زيته
SETHE, *Imhotep, in Untersuchungen,* IV

وباللغة الانجليزية اقرأ J. B. HURRY, *Imhotep, The Vizier and Physician of King Zoser* (*Oxford, 1926*)

أما عن وصف مجموعة الهرم المدرج فقد كتب عنها فيرث وكويبل ولاور وريكه وغيرهم أنظر المراجع الهامة فى آخر هذا الكتاب .

(٢) جاء فى بعض النصوص المتأخرة أن الملك منكاورع من ملوك الأسرة الرابعة بنى معابدا باسمه وأوقف عليها أرضا ، ولكنا لم نعثر فى الوثائق المعاصرة على ما يؤيد ذلك .

ملوك الدولة القديمة ؟ لم يكن إيمحوتب إلا فرداً من أبناء الشعب وكان مولده على الأرجح فى بلدة الجبلاين بين الأقصر وإسنا فى مديرية قنا ، أما أبوه فكان مثل ابنه مشرفا على الأعمال ويسمى « كانفر »،[1] وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده .

لقد أطلت فى حديثى عن « إيمحوتب » حتى كدنا ننسى الملك زوسر ، ولكن الرجل يستحق أكثر من ذلك فقد كان المحرك للنهضة التى شملت مصر كلها . ولكن مهما قلنا عن نبوغه وعبقريته ، فيجب ألا ننسى أنه لولا أن وجد من يقدره ويشد أزره ويدفع به إلى الأمام لضاع ذلك النبوغ سدى ، إذ كثيرا ما ييأس النابغون عندما يهملهم الناس أو يحاربونهم أو ينسبون إليهم الجنون . فلو لم يكن زوسر عظيما واسع التفكير لما تمكن إيمحوتب من تحقيق كل ما حققه .

وحكم زوسر أعواما طويلة رأت فيها البلاد نهضة عامة، ولم تقتصر آثاره على سقارة فقط بل شيد معابداً أخرى عثر على بقايا من واحد منها كان على مقربة من هربيط فى مديرية الشرقية ، كما نعرف أنه أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة سينا الذين كانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التى على مقربة من وادي المغارة هناك .

خلفاء زوسر :

كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه على العرش من نستطيع أن نقارنه به .

---

(١) عرفنا إسم أبيه وكذلك إسم أمه « خردوعنخ » وإسم زوجته « نفر رنبت » من نقش على صخور وادى الحمامات كتبه مدير للاعمال (حوالى ٤٩٥ — ٤٩١ ق . م) إسمه « خنوم إب رع) » عندما كان مكلفاً بقطع أحجار من ذلك الوادى وذكر فيه خمسة وعشرين جداً له عاشوا فى عصور مصر المختلفة ، وأقدمهم جميعاً « كانفر » وكان التالى له « إيمحوتب » نفسه ، الذى كان حفيده يعتز بالانتساب إليه .

ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا فى هذه الأسرة بينما لا نجد فى لوحة أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء .

وجاء بعد زوسر إبنه وكان اسمه ينطق حتى عهد قريب « سانخت ؟ » ولكن بعد اكتشاف هرمه المدرج فى سقارة فى صيف عام ١٩٥٤ صار نطقه « سخم خت » أكثر احتمالا ويسمى أحياناً زوسر الثانى .

أراد « سخم خت » أن يشيد بناء شبيهاً ببناء أبيه فاختار له مكاناً قريباً منه ، ولكنه مات دون أن يتمه ، وبدلا من أن نرى تقدماً فى العمارة عما بدأه إيمحوتب نرى أنهم كانوا يقلدون ما شيده تقليداً أعمى ونرى أيضاً من الشواهد ما يدل على أن خزانة الملك لم تعد تحتمل الإنفاق الكثير . لم يتم ذلك الملك هرمه ، لا فى تشييد المصاطب التى فوق بعضها ولا فى داخل الهرم ، كما عثر على تابوته فارغاً عند الكشف عنه ، ولكن مهما كانت نتيجة الحفائر حتى الآن فان هذا الهرم أضاف إلى معلوماتنا شيئاً غير قليل عن طريقة تشييد الهرم ، وتأكد لدينا الآن كيف كان المصريون منذ ذلك العهد البعيد يشيدون أهرامهم بواسطة عمل طريق صاعد طويل يجرون فوقه الأحجار اللازمة للبناء وأن ذلك الطريق الصاعد كان يطول ويرتفع كلما تقدم البناء ، فإذا ما تم كل شيء أزالوه من مكانه .

وبالرغم من أنه لم يعثر على جثة مشيدة فى التابوت فإن الأمل ما زال باقياً فى العثور عليه فى المستقبل ، ومع ذلك فقد عثر على عدد كبير من الأوانى الحجرية بعضها قد تم صنعه وأكثره لم يتم ، كما عثر أيضاً على بعض الحلى الذهبية القليلة التى ربما كانت من الأسرة الثالثة[1] .

---

(١) لم ينشر الأستاذ محمد زكريا غنيم مكتشف هذا الهرم التقرير العلمى النهائى عن حفائره حتى الآن ، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه فى بعض الصحف أو المجلات وبخاصه مقاله *La Nouvelle Pyramide à Degrés a Saqqara* المنشور فى مجلة *Reveue du Caire, Febr. 1955* ص ـ ١٨ : ٣١ وما كتبه عنه فى كتابه بالإنجليزية «الهرم الناقص» . (صدر الجزء الأول من كتابه *Sekhem Khet* عندما كان هذا الكتاب فى المطبعة)

لم يحكم « سخم خت » إلا سنوات قليلة ، وربما كان أهم أثر معروف له قبل العثور على هرمه فى سقاره هو ذلك النقش الذى تركه فى وادى المغارة على مقربة من نقش أبيه زوسر والذى كان يعتقد بعض الأثريين خطأ أن صاحبه هو الملك « سمر خت » من ملوك الأسرة الأولى .

ونعرف من أسماء الملوك الذين حكموا فى الأسرة الثالثة اسم حورس « خع با » واسم الملك « نب كاوو » أو « نب كاوو رع » وأولهما مشيد الهرم المعروف باسم الهرم ذى الطبقات فى منطقة زاوية العريان بين أهرام الجيزة وأبو صير ، أما ثانيهما فقد أراد أن يشيد هرماً على مقربة من هرم من سبقه أى فى منطقة زاوية العريان أيضاً ولكن العمل لم يتقدم أكثر من الانتهاء من الجزء الأسفل المحفور فى الصخر تحت الأرض ، وفيه التابوت المنحوت من الجرانيت .

وآخر ملوك تلك الأسرة هو الملك « حونى » (وينطقه بعض الأثريين « حو » فقط) الذى حكم أربعة وعشرين عاماً وقد تكرر ذكر اسمه فى جداول أسماء الملوك ونعرف من إحدى البرديات التى كتبت فى الدولة الوسطى أنه جاء إلى العرش بعد الملك « نب كاوو » وأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد تولى الحكم بعده .

وربما كان الملك « حونى » هو الذى بدأ هرم ميدوم ، ولكنه مات دون أن يتمه فأتمه الملك سنفرو بعد ذلك ، وربما كان ذلك أيضاً هو السبب فى صلة اسم سنفرو بذلك الهرم ، والذى جعل كثيراً من المصريين القدماء فى أيام الدولة الحديثة ينسبون هذا الهرم إليه فى كتاباتهم التى دونوها على أحجاره عندما كانوا يأتون لزيارته .

ومن الشخصيات الهامة التى عاشت فى أيام الأسرة الثالثة وامتد به العمر إلى أوائل أيام الأسرة الرابعة أحد كبار الموظفين ويسمى « متن » ومن نقوش مقبرته التى نقلت بأكملها إلى متحف برلين نعرف الشىء الكثير عن التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد ، والوظائف التى تدرج فيها .

الأسرة الرابعــــة

(٢٦٨٠ — ٢٥٦٠ قبل الميلاد)

كانت مدة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة ، وقـد بدأت بعهد زاهر وهو حكم زوسر ولـكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها على الصورة التي كنا نتوقعها . وقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عليها عشرات السنين بعد ذلك فلم تخطو الخطوة التالية وهي بناء الهرم الـكامل. لقد ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأسرتين الأولى والثانية على شـكل مصاطب مستطيلة الشكل حتى ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرما مدرجا . وظل تجديد إيمحوتب مثلا أعلى مدة تقرب من قرن كامل حتى انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة .

وليس في استطاعتنا حتى الآن معرفة العوامل أو الظروف التي أدت إلى ظهور الأسرة الرابعه ، كما تعوزنا أيضاً المعلومات الضرورية لتحديد صلة مؤسس الأسرة الرابعة بآخر ملوك الأسرة الثالثة بالرغم من أننا متأكدون أنها لم تـكن صلة عداء بل ربما كانت صلة مودة وقربى لاعتناء سنفرو بإتمام هرمه ومعبده في ميدوم . وكما رأينا وثبة كبيرة عند ظهور الأسرة الثالثة ، فإننا نرى أيضاً وثبة أخرى عند ظهور الأسرة الرابعـة ، ولنتحدث الآن عن مؤسسها .

سنفرو :

تزوج سنفرو من الأميرة « حتپ حرس » (ومن المحتمل جداً أنهـا إبنة حوني) وهي الأميرة التي كانت تحمل في دمها حق وراثة العرش ،

وبذلك أصبح مركزه شرعياً فى البلاد . ونحن نعرف أن أمه كانت تسمى « مرس عنخ » وأنهـــا كانت مدفونة فى ميدوم ولـكننا لا نعرف على وجه التأكيـــد صلته بحونى آخر ملوك تلك الأسرة ، ولو أن بعض الباحثين فى التاريخ المصرى يريدون أن يروا بينهما إحدى صلات القربى .

ومن دراسة حجر پالرمو (أنظر شكل رقم ١٢) نعرف الـكثير عن نشاط هـــذا الملك ونعرف العدد الـكبير من القصور والمعابد التى أقامها فى البلاد ، كما نعرف أيضاً أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب شجر الأرز من جبال لبنان ، وقد بقى حتى الآن كثير من تلك الأخشاب داخل هرمه القبلى فى دهشور (أنظر شكل رقم ٦) وما زالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة حتى الآن ، وما زالت تؤدى المهمة التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سـندها فى أماكنها رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة .

ويشتهر سنفرو أيضـاً بحملته التى أرسلها إلى الجنوب ليعيد الأمن والطمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من الثيران والأغنام .

ولم يقف نشاطه عنـد ذلك الحد بل نراه أيضاً يرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سـينا وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على صخور وادى المغارة على مقربة من مناجم النحاس والدهنج فى تلك المنطقة . وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجم سينا أو أرسل حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو ، فإن الأجيال القادمة اعتبرته إلهـا حامياً للمنطقة إلى جانب الإلهـة « حاتحور » والإله « سوپد » لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبح المثل الذى يحتذى به . وفى أحد النصوص التى كتبت هناك بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر

أحد الملوك بأعماله هناك ويؤكد لنا بأنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

وسرعان ما أتت سياسته فى التوسع التجارى مع الشاطىء السورى والنوبة واستغلال المعادن مع تنظيم الأمور الداخلية فى البلاد بأحسن النتائج وبدأت فى مصر نهضة عامة كان أوضحها أثراً ذلك التقدم الذى نراه ظاهرا فى الحياة الاجتماعية للشعب بوجه عام وفى الفنون بوجه خاص ومن بينها فن العمارة .

هرما سنفرو فى دهشور :

شيد هذا الملك قبره الملكى على مقربة من العاصمة ، وأراد المشرفون على بناء ذلك القبر أن يجعلوه هرما كاملا ، وأن يكون أعظم من أى أثر آخر بنى فى مصر قبل أيامه سواء فى حجم الجزء الظاهر للناس أو فى ممراته الداخلية وردهاته .

وبدأوا بناء الجزء الأسفل من الهرم ، وأتموا تشييد جميع ممراته الداخلية ، وجعلوا له مدخلا فى منتصف الواجهة الشمالية كغيره من الأهرام المدرجة التى بنيت قبله ، ويؤدى هذا المدخل إلى دهليز طويل ينحدر إلى أسفل ثم ينتهى بدهليز آخر ثم حجرة للدفن . وقد تم الكشف فى عام ١٩٥١ أثناء أبحاثى داخل هذا الهرم عن مدخل آخر فى الناحية الغربية وبذلك يتميز هذا الهرم بأنه وحده من بين أهرام مصر جميعاً له مدخلان فى واجهتين مختلفتين له . وارتفع بناء الهرم بزاوية تزيد قليلا عن أربعة وخمسين درجة حتى وصل ارتفاع البناء إلى ٤٩,٠٧ متراً ، وعند ذلك تغير التصميم الأصلى فراهم يغيرون زاوية البناء إلى ثلاثة وأربعين درجة وواحد وعشرين دقيقة فقط ، فلما تم البناء أصبح شكله غير منتظم لتغيير الزاوية وكأنه هرم كامل فوق هرم ناقص ، إرتفاعه الكلى ١٠١,١٥ متراً أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨,٦٠ متراً .

وإذا أردنا البحث عن تفسير عملى معقول لتغيير زاوية بناء هذا الهرم لما وجدنا إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن زاوية ٥٤° كانت كبيرة جداً وقدر المهندسون المعماريون ان ارتفاع الهرم سيكون كبيراً وربما سبب ذلك ما يؤثر على سلامة البناء ، خصوصاً وأنه قد بدأت تظهر بعض تشققات عالجوها بملئها بالجبس . كانت هذه المحاولة أولى تجارب المصريين فى بناء الهرم الحقيقى كما نعرفه ، وكان هرم دهشور القبلى ، إن صح استخدام مثل هذا التعبير ، المدرسة التى درسوا فيها هندسة تشييد الهرم دراسة كاملة ، ولهذا نراهم قد تعلموا من أخطائهم وفى الوقت الذى كان العمل جارياً فيه لإتمام الهرم القبلى بدأ المعماريون فى تشييد هرم آخر لسنفرو على بعد أقل من كيلو مترين إلى الشمال منه ، وجعلوا زاوية ميله مماثلة تقريباً لزاوية ميل الجزء العلوى من الهرم القبلى أى ثلاثة وأربعين درجة وأربعين ثانية ، وأدخلوا أيضاً تحسيناً آخر إذ اقتصروا على المدخل الذى فى الناحية الشمالية فقط ، وبدلا من أن يؤدى إلى حجرة واحدة نراه يؤدى إلى حجرات ثلاثة ، واحدة بعد الأخرى . وارتفاع الهرم البحرى ، وهو أول هرم حقيقى فى تاريخ العمارة المصرية ٩٩متراً وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ٢٢٠متراً أى لا يقل إلا نحو عشرة أمتار عن ضلع هرم الجيزة الأكبر .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل عن أى الهرمين دفن فيه الملك سنفرو وأصبح المقر الأبدى لجثمانه ؟ . ولست أريد هنا الدخول فى مناقشة تفصيلية ولكنى أعتقد أنه دفن فى الهرم القبلى إذ نراهم قد أتموا جميع الأجزاء المتممة له ، فبنوا فى الناحية الجنوبية منه ذلك الهرم الصغير الذى أراد أن يسميه بعض الأثريين هرم الروح أو هرم الطقوس ، ولكننا لا نعرف تماماً ماذا كانت وظيفته ولسنا متأكدين من شىء يختص به إلا من أنه لم يستخدم للدفن بل ربما كان مقاماً للقيام بشعائر خاصة متصلة بتقديم القرابين. وأقاموا حول الهرم سوراً كبيراً من الحجر وبنوا فى الناحية الشرقية منه معبداً

جنازياً صغيراً شبيهاً بمعبد هرم ميدوم ، كما بنوا طريقاً يوصل من الناحية الشمالية من السور إلى الوادى وانحرفوا به نحو الشرق حيث شيدوا هناك معبداً كبيراً على مسافة تزيد على سبعمائة متراً من الهرم (أنظر شكل رقم ٥) غطوا جزءاً كبيراً من جدرانه بنقوش تمثل الملك سنفرو (أنظر شكل رقم ٣ وشكل رقم ٤) يقوم ببعض المراسيم الدينية المعروفة وأهمها مناظر من العيد الثلاثيني . ومناظر تمثل زيارته للهيا كل فى عاصمتى الشمال والجنوب (بوتو ونخن) ، كما نرى فيه أيضاً مناظرا تمثل أقاليم مصر وأهم مدنها فى ذلك الوقت ورمزوا لكل منها بسيدة تحمل القرابين وكتبوا أمامها إسم البلد أو الإقليم . وظهرت أيضاً فى حفائر ذلك المعبد بين أعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٣ بعض تماثيل مهشمة للملك سنفرو وعدد كبير من تماثيل كهنة المعبد فى أيام الدولتين القديمة والوسطى إذ كان هذا المعبد قائماً ولم تمتد إليه يد التخريب إلا فى الدولة الحديثة .

وإلى الشرق من الهرم البحرى انتشرت مقابر عائلة سنفرو ، ومن بينهم بعض أبنائه وبناته وهى معروفة منذ أكثر من ستين سنة ، كما انتشرت أيضاً مقابر كثيرين من كهنته وموظفيه ، سواء فى أيامه أو فيما تلا ذلك من عصور . وما زال عدد كبير من تلك المصاطب والجبانات ينتظر الحفر . ولم أتمكن حتى الآن من حفر المنطقة حول الهرم البحرى حتى نستطيع القول إن كان له هو الآخر معبد جنازى إلى الشرق منه ومعبد فى الوادى أو أن المصريين القدماء اقتصروا على معبدى الهرم القبلى .

على أى حال فهناك حقيقة هامة وهى أن النصوص القديمة تذكر دائماً هرمى سنفرو[1] ، وتذكر المدينة التى كانت مركزاً لإدارة ممتلكات هذين

(١) لم يعد هناك مجال للقول بان هرمى سنفرو كان أحدهما فى ميدوم والثانى فى دهشور فقد ثبت الآن بشكل قاطع أن الهرمين اللذين كان يشار إليهما فى الوثائق والنصوص القديمة هما هرما دهشور .

الهرمين ، كما نعرف أيضاً أن المصريين فى الأسرة الثانية عشرة ألهوا سنفرو فأصبح واحداً من الآلهة يذكرونه ويقدمون له القرابين جنباً إلى جنب مع الآلهة الأخرى مثل أوزيريس ورع وسوكر وبتاح وغيرهم .

وقبل أن أعود إلى الحديث عن سنفرو أحب أن أذكر شيئاً قليلا عما بلغه الفن فى أيامه ، إذ يكفى أن يلقى الإنسان نظرة على نقوش معبده أو على نقوش المقابر التى شيدت فى عصره سواء فى منطقة دهشور أو فى ميدوم ليدرك مدى ما بلغه فن النحت سواء فى النقوش البارزة على الحجر أو فى الرسم بالألوان ، إذ وصل الفنان المصرى فى عهد سنفرو إلى حد لم يستطع أن يتفوق عليه فى العصور التالية إلا فى حالات قليلة .

الملكة حتب حرس :

ويقف زائر المتحف المصرى مذهولا أمام بعض آثار ميدوم مثل تمثال نفرت (أنظر شكل رقم ٧) وزوجها رع حتپ الذى كان أحد أبناء سنفرو ، أو أمام بعض رسوم مقبرة نفرمعات وخاصة رسم أوز ميدوم ، ولكن إعجابه يتضاعف عندما يقف فى القاعة التى صفت فيها محتويات مقبرة الملكة حتب حرس زوجة سنفرو يرى فى تلك القاعة حليها وسريرها المصفح بالذهب وكرسيها الكبير وخيمتها المتنقلة ذات الأعمدة المصفحة بالذهب ، ويرى محفتها كما يرى أيضاً بعض أدوات زينتها المصنوعة من الذهب أو النحاس . يقف الزائر حائراً موزع الإحساس ، لايدرى بأيهما يعجب أكثر من الآخر هل يعجب بما وصل إليه المصريون القدماء من حضارة ورفاهية فى حياتهم الشخصية قبل ٤٦٠٠ عاماً ، أم يعجب بالصانع المصرى وتفوقه فى ذلك العهد البعيد .

ولمحتويات مقبرة « حتپ حرس » قصة لا تخلو من الطرافة . ففى عام ١٩٢٦ عثرت بعثة هارفارد — بوستن الأمريكية على فوهة بئر أثناء حفائرها

شرقى الهرم الأكبر فى الجيزة ولم يكن لهذا البئر أى هيكل مشيد فوقه ، وكان مملوءاً بالأحجار المرصوصـــة . فلما وصل المكتشفون إلى نهايته وجدوا مدخل الحجرة الجانبية مسدوداً بالأحجار وخلفه كدست محتويات المقبرة فوق بعضها ، وكان فيها تابوت من المرمر وضع غطاؤه فوق صندوقه .

كان اسم الملكة حتب حرس واسم زوجها سنفرو مكتوباً على الأثاث ولهذا توقع المكتشفون أن يكون جثمانها داخل التابوت ، فلما رفعوا غطاءه لم يجدوا فيه شيئاً . كان داخل الحجرة يدل على أن وضع محتويات القبر تم فى سرعة وذون ترتيب ، بل أن بعض الأشياء كان يرمى رمياً فوق البعض الآخر ، وها هو التابوت خال من الجثة ، وزيادة على كل ذلك فأين هيكل المقبرة العلوى إن كان هذا المكان قد أعد ليكون المثوى الأبدى لزوجة سنفرو وأم خوفو ؟ ولم يعد هناك شك فى أن سراً قديماً يختفى وراء ذلك ، وتقدم « ريزنر » رئيس تلك البعثة بتفسير مقبول .

كانت حتب حرس مدفونة فى قبر فى دهشور على مقربة من هرم زوجها بالرغم من أنها عاشت إلى أيام خوفو الذى اختـــار منطقة الجيزة لتكون جبانة ملكية له ، فقلت العناية بمنطقة دهشور . وبعد دفنها بقليل تمكن بعض اللصوص من الوصول إلى المقبرة وأخذوا ما استطاعوا أخذه من الحلى إن كان هناك شىء آخر غير ما عثر عليه المكتشفون فى أحد الصناديق . وحملوا معهم جثة الملكة بما عليها من حلى أخرى كما جرت العادة . فلما اكتشف الحراس حقيقة ما حدث رأى المسئولون ألا يتركوا القبر فى مكانه بعد ذلك ونقلوا كل شىء إلى الجيزة وقطعوا إلى جانب طريق المعبـــد الجنازى الذى كانوا يعملون فيه إذ ذاك ذلك البئر العميق وكدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة .

ويعتقد مكتشفو المقبرة أن نقل التابوت ووضع غطائه فوقه دليل على أنهم أخفوا على « خوفو » حقيقة ما حدث من أخذ اللصوص لجثتها[1] . ولم يعثر حتى الآن فى دهشور أو فى ميدوم أو فى الجيزة على أى قبر أو بقايا من قبر يمكن أن ننسبه إلى هذه الملكة حتى نقول ونحن واثقون إنها كانت مدفونة فيه .

ذكرى سنفرو :

لم يكن سنفرو ملكا عظيما محباً للبناء فحسب ، بل كان شخصاً محبوباً ممن حوله ، عادلا بين رعيته ، وقد رأينا كيف أَلهه المصريون بعد وفاته بأكثر من ستمائة عام ، ونعرف أيضاً أن بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة اختاروا منطقة دهشور بالذات ليشيدوا فيها أهرامهم ليكونوا على مقربة منه ، تيمناً بقداسة المنطقة .

ولكن الأمر الذى يستلفت النظر هو ما كانت تكتبه الأجيال التالية عنه ، إذ قلما كان يرد إسمه فى أحد النصوص إلا وكانوا يشفعونه ببعض الأوصاف التى لم يكن يستخدمونها عند الإشارة إلى أى ملك آخر من ملوك الدولة القديمة مثل قولهم عنه « الرحيم ، الملك المحسن المحبوب » .

ونقرأ عنه فى بردية وستكار التى كتبت بعد ما يقرب من سبعمائة سنة بعد وفاته قصة حرص فيها كاتبها على إظهار وداعة أخلاقه وحلمه وعطفه على من حوله ، واستخدامه أرق الألفاظ عند الحديث معهم[2] .

---

(1) نشر ريزنر (G. Reisner) أكثر من تقرير عند العثور على هذه المقبرة فى عام ١٩٢٦ ، ونظراً لوفاة ريزنر فى أوائل سنى الحرب العالمية الثانية فقد أتم مساعده وليم ستيفنسون سميث عمله ونشر التقرير النهائى الكامل فى عام ١٩٥٥

GEORGE ANDREW REISNER, *The Tomb of Hetep Heres, Mother of Cheops* *(1955)*

(2) وردت هذه القصة فى بردية وستكار ، ويسميها بعض الكتاب قصة خوفو والسحرة ، بين بعض القصص الشعبية التى كانت يتداولها المصريون فى أيام الدولة الوسطى أى فى القرن=

وحكم سنفرو أربعة وعشرين عاما ، وكان أبناؤه يتولون جميع المناصب الهامة فى البلاد ، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم ، فلما جاء اليوم الذى ترك فيه أمور مصر إلى ابنه خوفو ، ترك له عرشاً ثابت الأركان ، وبلداً غنيا منظم الإدارة وترك له أيضا موظفين مدربين ، وفنانين اكتملت خبرتهم .

خوفو :

لم يعد لدينا الآن أى شك فى أن خوفو كان أحد أبناء سنفرو من زوجته الأولى الملكة « حتب حرس » وبالرغم من ذلك فما زال بعض المشتغلين بالتاريخ يرددون ما كتبه برستد منذ أكثر من خمسين سنة عن اعتقاده بأن خوفو كان زعيما من إقليم المنيا استناداً الى وجود بلد باسم « منعت خوفو » أى مربية خوفو ، ولكن الحقيقة الثابتة الآن فى ضوء ما جد لدينا من معلومات أن « منعت خوفو » ليست إلا إحدى الضياع التى ورثها عن أبيه وكانت تسمى « منعت سنفرو » فغير إسمها إلى « منعت خوفو » [1] أما عن أسمه فقد فضلت اتباع النطق القديم بالرغم من أن نطقه الأصح هو « خوف وى » وهو اختصار لاسمه الكامل « خنوم خوف وى » وذلك لاعتياد قراء العربية عليه منذ أجيال كثيرة .

= العشرين قبل الميلاد ، وسنعود إلى ذكر هذه القصة مرة أخرى عند الحديث عن الأسرة الخامسة ، وهى تتلخص فى أن الملك خوفو طلب من أولاده أن يقص عليه كل منهم قصة عن السحر وما يستطيع أن يفعله السحرة فأخذ كل منهم يتحدث عن أحد السحرة فى عهد كل ملك من الملوك إبتداء من الملك زوسر فذكروا بعده « نبكا » ثم « سنفرو » وأخيراً جاءوا إلى خوفو بساحر كان يعيش فى أيامه فأتى أمامه ببعض المعجزات ثم تنبأ له بما سيحدث فى المستقبل . أنظر ترجمتها العربية الكاملة فى كتاب سليم حسن : الأدب المصرى القديم الجزء الأول ص ٧٤ — ٨٧

(١) وردت بين بلاد الاقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد فى جدول الأقاليم والمدن فى معبد الوادى فى دهشور الذى تم الكشف عنه فى عام ١٩٥١ .

تولى خوفو عرش مصر وجنى ثمار إصلاحات أبيه ، وإذا ألقينا نظرة على أعماله المختلفة لأدركنا أن السياسة الإنشائية التى وضع سنفرو أساسها قد استمرت ، فقد عثر على اسمه فى كثير من بلاد مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد ، كما أرسل أيضا حملات إلى وادى المغارة لإحضار النحاس والدهنج من هناك .

وكانت تجارة مصر الخارجية ، وبخاصة مع الشاطىء الفينيقى مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصرية للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، واهتم سنفرو بتشييد سفنه من أخشاب الـ « مرو » ومن خشب الأرز ، واستخدمه فى مبانيه ولكن منذ عهد خوفو على الأقل قام فى وسط «جبيل» معبد مصرى أضاف إليه من جاء بعده ، حيث عثر على أحجار منه تحمل اسمه وأسماءهم .

ولكن هذه الأعمال المختلفة لم تكن هى السبب فى تخليد اسمه فى التاريخ على مدى الأجيال بل كان السبب فى ذلك هرمه الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر ، والذى ما زال شامخا سليم البنيان يتحدى الزمن ويغالبه ، ينتزع إعجابنا اليوم كما انتزع إعجاب الشعوب القديمة جميعا . ويعترف الناس اليوم كما اعترفوا بالأمس بأنه ليس واحداً من عجائب الدنيا السبع وحسب بل هو عجيبة العجائب لأنها زالت وبقى وحده على مر الأجيال[1] .

---

(١) يرجع ذكر عجائب الدنيا السبع التى اشتهرت عند اليونانيين إلى القرن الثانى قبل الميلاد ذكرها « انتيباتر الصيداوى » فى كتاباته ؟ وقد حدث فيها بعض التغيير الطفيف فيما بعد ، وها هى حسب أهميتها كما ذكرها « فيلو البيزنطى » :

١ — أهرام مصر . ٢ — حدائق سيميراميس فى بابل .

٣ — تمثال الإله زيوس فى أوليمبيا . ٤ — معبد الالهة أرتيمس فى أفسوس .

٥ — ضريح هاليكارناس . ٦ — التمثال الكبير فى رودس .

٧ — منارة الاسكندرية .

هرم الجيزة الأكبر :

قضى مهندسو « سنفرو » ما يقرب من ربع قرن فى تشييد أهرامه ومقابر أسرته وكبار موظفيه ، استكملوا خلالها خبرتهم العظيمة فى تشييد الأهرام . فلما جاء اليوم الذى بدأوا فيه فى تشييد هرم ابنه « خوفو » أرادوا أن يجعلوه أعظم من أهرام أبيه ليس فى الحجم فقط بل وفى التصميم ، والنسبة بين أجزائه ، وفى الإتقان الكامل لفن البناء .

وإذا أردنا وصف الهرم لطال بنا الأمر ، ويكفى أن نذكر أنه يشغل مساحة لا تقل عن ثلاثة عشر فدانا وأنهم قد استخدموا فى بنائه عدداً لا يقل عن ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة من الحجر قطعوها من محاجر فى الهضبة نفسها ، ويزيد وزن بعضها عن ثمانية أطنان ويقل وزن البعض الآخر (الجزء الأعلى من الهرم) عن طن واحد . وقد حسب أحد الرياضيين أنه لو تيسر تقطيع الكتلة الكاملة للهرم الأكبر إلى أحجار صغيرة كل منها قدم مكعب واحد ووضعنا هذه الأحجار إلى جانب بعضها لأصبح طول ذلك الخط ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء ، كما قدر البعض الآخر أنه لو استخدمت أحجار الهرم فى عمل سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متر واحد لكفت .

وارتفاع الهرم ١٤٦ متراً وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ متراً ولكن هذا كله يتضاءل أمام إعجابنا بدقة المصريين فى ذلك العهد البعيد وتفوقهم فى فن البناء ووصولهم إلى حد الإعجاز فى ضبط الزوايا والأبعاد . وسيزداد الزائر إعجابا إذا زار داخله واتخذ طريقه فى تلك الطرقات القليلة الارتفاع ثم وجد نفسه فى تلك الردهة المرتفعة ووقف أخيراً يتطلع إلى تابوت الملك خوفو فى حجرة الدفن .

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هـذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تـكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض . وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البـناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدولوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هـذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منـــذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعـدة للمراكب فى النـاحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريتين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بهـا المكان فكشفت عن أجزاء

مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ولم يتم حتى الآن تقوية أجزاء ذلك المركب قبل تجميعه فنعرف أبعاده على وجه التحقيق ، وإن كان مسلما به أن طول المركب لن يقل عن طول المكان الذى أعد له وطوله ٣٢ متراً .

لم تكن فكرة مراكب الشمس جديدة على الأثريين فقد كان معروفا لخوفو ، كما قلنا ، ثلاثة منها من قبل (إثنتين فى الناحية الشرقية والثالثة إلى جانب الطريق الموصل إلى معبد الوادى) . ونعرف أيضا أمكنة خمسة على الأقل على مقربة من هرم ابنه خفرع . وقد عثر على بعض مراكب خشبية على مقربة من هرم سنوسرت الثالث فى دهشور إثنتان منها فى المتحف المصرى بالقاهرة وثالثة فى أحد متاحف شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية ولكنها أقل كثيراً فى الحجم وجودة الصناعة ، كما أن مراكب خوفو ليست أقدم مانعرفه إذ نعرف وجود هذا النوع من المراكب إلى جوار مقابر الأسرة الأولى فى سقارة وحلوان .

ولكن بالرغم من أن الفكرة لم تكن جديدة على الأثريين فإن الاكتشاف الجديد ذو أهمية لا يمكن التقليل منها ، ولن يزيد هذا الاكتشاف من معلوماتنا عن صناعة السفن والنجارة فى ذلك العهد البعيد فحسب بل ستزداد معلوماتنا كثيراً من دراسة المواد المختلفة التى عثر عليها فى المكان واستخدموها مع السفينة[1] .

أما عن الوقت الذى استغرقه بناء هذا الهرم فنحن لا نعرف الا ماذكره المؤرخ اليونانى هيرودوت وقال بأنه سمعه من الكهنة المصريين وهو أن بناء

---

(١) لم ينشر عن هذا الاكتشاف حتى الآن أى تقرير علمى وكل ما لدينا هى أقوال الصحف عند الاكتشاف وما كتبه الأستاذ كمال الملاخ والأستاذ محمد زكى نور فى مجلة *Revue de Caire* عدد فبراير سنة ١٩٥٥ .

الأجزاء السفلى والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين عاما ، وكان عدد العمال مائة ألف يعملون ثلاثة أشهر فى السنة . وللمؤرخين العذر إذا شكوا فى صحة الرواية لأن هيرودوت لم يسمعها إلا بعد مضى أكثر من ألفى سنة بعد بناء الهرم ولم يكن محدثوه إلا من صغار الكهنة ، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم إن لم يقلوا عنهم فى المعرفة . وقد ذكر الكهنة له ما كان يردده الشعب من قصص ، وبعضها لا يمكن أن يصدقه العقل ، ولكن بالرغم من ذلك فقد درس المهندسون المعماريون هذا الموضوع وهم مقتنعون بأن بناء الهرم يحتاج على الأقل إلى مثل ذلك الوقت . أما الرقم الذى ذكره عن عدد العمال فربما كان صحيحاً وأنهم كانوا يأتون بهم فى وقت الفيضان بينما كان المختصون من عمال المحاجر والنحاتين يعملون طول العام . وذكر لنا هيرودوت أيضاً أن خوفو كان قاسياً على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه . وسواء أكان ذلك صحيحا أو غير صحيح فإننا لم نعثر فيما كشفت عنه الحفائر من نصوص ما يثبت ذلك . وكثيرا ما نقرأ لبعض الكتاب نقدا لاذعا عن أعمال السخرة أو الرق فى تشييد الهرم ، وعن الحكام الذين يستنزفون دماء الشعب فى سبيل تحقيق أشياء لا فائدة منها للناس بل كل فائدتها تعود إلى الحاكم نفسه ليتباهى بها . وأراد البعض الآخر أن يدافع عن قدماء المصريين فقال بأن خوفو وغيره من الملوك كانوا يشيدون الأهرام ليساعدوا المتعطلين عن العمل فى شهور الفيضان عندما تصبح الحقول مغطاة بالمياه ، فتقل فرص العمل ويندر وجود القوت للفقير الذى لم يستعد لتلك الأيام ، فكان تشييد الأهرام عملا إنسانيا لأنه يضمن لهم الطعام والشراب .

وكلا الرأيين بعيد عن الصواب لأننا لا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر ، أو بتعاليمه وآرائه . كان الملك فى مصر إلها معبودا

من شعبه ، إلها كغيره من الآلهه الذين فى السماء ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم . فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها ويمتعوا الطرف بالنظر الى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شيء لإلهم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة .

وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضا على بعض أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم الطعام لغير القادرين من العاملين ، والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة .

وقبل أن أترك موضوع هرم خوفو إلى نقطة أخرى أحب أن أشير إلى ما تطلع به علينا بعض الصحف من أن بعض الباحثين استطاعوا أن يتنبأوا بحوادث مقبلة من دراساتهم لمقاييس الردهات والحجرات الداخلية فى الهرم الأكبر ، ولست أدرى لماذا يختصون الهرم الأكبر من بين جميع أهرام

مصر فيقولون بأن حكماء المصريين القدماء أو من بنوه لهم من بنى إسرائيل كما يقولون — وقد تم تشييد الهرم قبل أن يظهر اسمهم فى التاريخ بقرون طويلة — جعلوه مستودعا لكل تلك الأسرار . ولقد قرأت بعض كتبهم وأكثرها منشور فى انجلترا ، أو فى أمريكا فى المدة الأخيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن جميع تلك الآراء قائمة على فروض خاطئة ومعلومات مغرضة غير صحيحة ، وأن مقاييسهم التى يبنون عليها نظرياتهم مقاييس أكثرها لا صحة له ، ويكفى أن يتذكر القارىء ما سبق أن ذكرته وهو حدوث تعديلات جوهرية فى تصميم الهرم أثناء تشييده . كما أرجو ألا ننسى أنه لم يقصد من الهرم عند بنائه إلا أن يكون قبرا ومنزلا أبديا لصاحبه وكان المفروض فيه أن يظل إلى الأبد مغلقا لا يدخله أحد من الناس .

جبانة الهرم الأكبر :

وسمح خوفو بأن تشييد مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار موظفيه على مقربة من هرمه ليكونوا حوله فى الحياة الأخرى ، كما كانوا حوله فى دنياهم ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الحياة الخالدة السعيدة . وخصصوا الناحية الشرقية من الهرم لأفراد عائلته فنرى فى أول صف قريب من ضلعه الشرقى ثلاثة أهرام صغيرة لثلاثة من زوجاته ثم نرى مقابر أبنائه وأخوته وغيرهم من عائلته فى صفوف متراصة حتى تصل المقابر إلى حافة الهضبة . وكان بعض أخوته (مثل « حم إيون » ، وهو ابن لسنفرو وكان مشرفا على تشييد هرم خوفو فى فترة من فترات تشييده — أنظر شكل رقم ٨) وغيره مع عدد كبير من رجال البلاط والموظفين مدفونين فى الناحية الغربية من الهرم فى صفوف بينها طرقات مستقيمة . وقد تم فحص الجزء الأكبر من الجبانتين الشرقية والغربية على يدى أعضاء بعثة هارفارد وبوستن وبعثة أكاديمية العلوم فى ڤينا ، وجاءت تلك الحفائر بنتائج علمية كبيرة جلت لنا

كثيرا من النقط الغامضة فى تاريخ وحضارة هذه الفترة الهامة فى التاريخ المصرى . وقد سطا اللصوص على أكثر هـــذه المقابر فى العصور القديمة والحديثة ولكن بقى رغم ذلك الكثير من الآثار الهامة وبخاصة النقوش والتماثيل وغيرها . وهناك ما يدل على أن الهرم نفسه قد تعرض لما تعرضت له الجبانة كلها ففتح ونهب فى فترة الضعف الذى أصاب مصر فى عصر الفترة الأولى ، أى فى أعقاب الدولة القديمة .

النزاع بين أفراد العائلة المالكة :

ونرى فى كل من الجبانتين وبخاصة فى الجبانة الشرقيه أثر النزاع المرير بين أبناء خوفو ، وبينها مقابر كثيرة لم يتم بناؤها أو لم يتم نقش جدرانها وبينها نقوش محيت أسماء أصحابها وصورهم . ويتلخص النزاع فى أن خوفو تزوج أكثر من زوجة وولد له أبناء من كل منها ، وظهر الصراع بين الأبناء تساندهم أمهاتهم وبعض رجال البلاط لتولى العرش . ومن إحدى مقابر الجبانة الشرقية ، وهى مقبرة الملكة «مرسعنخ الثالثة» نستطيع أن نلم ببعض نواحى تلك المأساة .

نرى مرسعنخ ووالدتها تلبسان فى رسوم هذه المقبرة ملابس تختلف عن ملابس المصريات كما يختلف أيضا لون شعرها إذ هو أشقر فيه شىء من الحمرة وعيونها زرقاء ، ولهذا أراد ريزنر أن يرى فيها دما شماليا أى أنها ربما كانت سليلة أحد البيوت التى استقرت على الشاطىء الإفريقى الشمالى فى ذلك العهد (قبائل التمحو) وكانت قد هاجرت الى هناك من مواطنها الأصلية فى شمال أوروبا .

وسواء أكان ذلك صحيحا ، أى أن تلك الملكة كانت من نسل ليبى عن طريق أمها أو لم تكن ، فإنا نعرف أن أمها الأميرة حتپ حرس الثانية كانت زوجة لولى العهد الأمير « كاوعب » الذى دبر أخ له يسمى « رع ددف »

أمر قتله ليتولى العرش . وكان « رع ددف » إبنا لزوجة ثانوية (ربما كانت من أصل ليبي من الفرع نفسه الذى ولدت فيه حتپ حرس الثانية وابنتها) . ونجح فى مؤامرته وتولى العرش واتخذ حتپ حرس الثانية زوجة « كا وعب » لتكون احدى زوجاته .

ولم تلد حتپ حرس ولدا للملك الجديد بينما ولد هـذا الولد من زوجة أخرى فارتفع شأنها وأصبحت حتپ حرس الثانية واحدة من الزوجات الثانويات .

ولم يكن باقى العائلة راضين عما حدث ، وكانت المؤامرات تحاك حول الملك الجديد وأخيرا ، وبعد مضى سنوات ثمانية يختفى « رع ددف » من مسرح الحوادث ويتولى عرش مصر أخ له يسمى « خفرع » كان قد تزوج من إبنة « كا وعب » و « حتپ حرس الثانية » وهى مرسعنخ الثالثة .

ولـكن النزاع بين فرعى العائلة لم ينته عند ذلك الحد إذ ندرك من دراسة بردية تورين ومن تاريخ مانيتون أن ذلك الفرع الآخر تمكن مرتين على الأقل من الاستيلاء على العرش فترة قصـيرة إحداها بعد موت خفرع وقبل أن يتمكن ابنه منكاورع من استعادة عرش أبيه ، والمرة الثانية فى أواخر أيام الأسرة بعد وفاة شپسسكاف آخر ملوكها المعترف بهم ، إذ أن أكثر نصوص تلك الأسرة والوثائق التى كتبت فى العصور التالية اعتبرت أولئك الملوك من الفرع الآخر مغتصبين للعرش فلم تذكر أسماءهم ، واقتصرت فقط على ذكر أسماء خفرع ومنكاورع وشپسسكاف .

وفى عام ١٩٥٠ اكتشف أحد المشتغلين بالآثار على أحد الصخور فى وادى الحمامات نقشا فيه جدول بأسمـاء بعض ملوك الأسرة الرابعة وقد وضع كل منها فى خانة ملكية . وبالرغم من أن تاريخ كتابة هذا النقش

لا يمكن أن يكون قبل الأسرة الثانية عشرة فإنه يصور لنا على الأقل ما كان معروفا من معلومات عن تتابع ملوك الأسرة الرابعة فى أيام الدولة الوسطى .

وترتيب أولئك الملوك فى نقش وادى الحمامات كما يأتى : خوفو ، رع ددف ، خفرع ، حور ددف ، وأخيرا با-اف-رع[1]. أى أنه فى الفترة بعد موت خفرع لم يتول العرش شخص واحد بل اثنان نعرف أولهما وهو حور ددف من كثير من الوثائق إذ كان ابنا لخوفو وكان مشهورا بحكمته وله مقبرة فى الجيزة ، أما الثانى فليست له مقبرة معروفة فى الجيزة . وهناك احتمال بأن يكون قد غير اسم الإله رع فى تركيب اسمه إذ نعرف اثنين من أبناء خوفو أحدهما يسمى با-اف-خنوم (والإله خنوم شديد الصلة بهذه العائلة واسم خوفو الكامل هو خنوم-خوف-وى كما ذكرنا) والثانى يسمى « با-اف-حور » . ونعرف من بردية وستكار (وهى من الدولة الوسطى مثل نقش الحمامات) أن ابن خوفو الذى قص على أبيه قصة كبير المرتلين زازا-إم-عنخ مع الملك سنفرو كان اسمه « باوفرع » وكان ترتيبه فى قص القصة بعد خفرع وقبل حور ددف .

يكفينا هذا القدر من قصة النزاع بين أمراء هذه العائلة ، ويكفى أن نعرف أن الملك « رع ددف » حكم ثمانية سنوات فقط وأنه لم يكن قد انتهى من تشييد هرمه عند وفاته . ولم يبنِ « رع ددف » هرمه على مقربة من هرم أبيه بل اختار له بقعة إلى الشمال من هضبة الجيزة فى موقع ممتاز يشرف على

---

(1) DEBONO, *Expedition archéologique Royale au Desert Orientale Annales du Service, Vol. Li* (1951), *p.* 89

اقرأ أيضاً عن النزاع بين أمراء العائلة المالكة ما كتبه ريزنر فى *Mycerinas* ص ٢٤٦

وما كتبه فدرن WALTER FEDERN *Zur Familiengeschichle der IV Dynaslie Agyptens, in Wiener Zeitschr. d: Morg.* **XL III**

الوادى على مقربة من قرية أبو رواش الحالية ، ولم يكن هرمه أول قبر يبنى هناك بل كانت المنطقة معروفة منذ أيام الأسرة الأولى وفيها جبانات عدة من الأسرتين الأولى والثانية .

وعلى مقربة من مبنى الهرم الذى لم يتم حفره حفرا علميا كاملا حتى الآن قطعت بعض المقابر فى الصخر كما بنى البعض الآخر لعدد من موظفيه .

خفرع وهرمه :

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان « رع ــ ددف » قد مات ميتة طبيعية أو أنه كان ضحية مؤامرة من المؤامرات . وتلاه على العرش أخوه خفرع الذى طال حكمه فزاد عن حكم أبيه إذ من الثابت أنه لم يقل عن خمسة وعشرين عاما بل ربما وصل إلى تسعة وعشرين . واختار لبناء هرمه ربوة خلف هرم أبيه ، ولا شك فى أن مجموعة خفرع الهرمية من أعظم ما تم عمله من مبانى فى الدولة القديمة ، ولكننا نلاحظ أن مهندسيه وصناعه لم يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم فى عهد خوفو .

وهو لا يقل فى ارتفاعه إلا أمتارا قليلة عن هرم أبيه إذ كان ارتفاعه الأصلى ١٤٣,٥ مترا وطول ضلع قاعدته المربعة ٢١٥,٥ مترا أما داخله فبسيط إذا قيس بالهرم الأكبر ، وله مدخلان من الناحية الشمالية .

وكان هذا الهرم كغيره من الأهرام مكسوا من الخارج بأحجار جيرية من النوع الممتاز نزعت منه ومن غيره فى العصور الوسطى ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى لاستخدامها هى وغيرها مما بقى من أحجار المقابر والمعابد فى الجيزة وهليوبوليس ومنف وجباناتها وغيرها من الآثار لبناء أسوار القاهرة

وبعض مساجدها ومنازل عظمائها، بل إن أخذ الأحجار من الأهرام و المعابد لأجل البناء كان مستمرا حتى القرن التاسع عشر[1].

ولم يبق من الكساء الخارجي إلا جزء بسيط في أعلى الهرم ، أما باقي المجموعة الهرمية فهي لحسن الحظ في حالة أفضل من مثيلتها في هرم خوفو ويستطيع زائر المنطقة أن يرى بقايا معبده الجنائزي ، ومعبد الوادي ، وبقايا الطريق الصاعد الموصل بين الاثنين كما يستطيع أن يرى حول الهرم الأماكن التي كانت توضع فيها المراكب اللازمة لرحلة الشمس ، وقد عثر منها على خمسة على الأقل ، كما يستطيع أيضا أن يرى بقايا مدينة العمال في الجهة الغربية منه وهي مقسمة إلى ١١٠ قاعة وتتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ ، ٤٠٠٠ عاملا .

ويعطينا المعبد الجنائزي لهذا الهرم فكرة عما وصلت اليه هندسة بناء المعابد بوجه عام في ذلك الوقت كما يعطينا أيضا فكرة عما كان عليه قصر الملك أو غيره من الأثرياء القادرين .

يدخل الزائر من بابه الشرقي عند آخر الطريق الصاعد ، فيمر في دهليز ضيق يؤدي إلى بهوين كبيرين كان يحمل سقف كل منهما أعمدة من الجرانيت ، ثم يرى بعد ذلك بهوا كبيرا لا سقف له وعلى جوانبه بواكي محملة على أعمدة كبيرة الحجم ، ويلي ذلك خمس حجرات صغيرة ، يرجح أن كل واحدة منها أقيمت لأجل اسم من أسماء الملوك الخمسة ، وأن جدرانها كانت مزخرفة برسوم للملك .

---

(١) كان عمال محمد بك الدفتردار صهر الوالي محمد على باشا يحطمون كساء الهرم القبلي اسنفرو في دهشور ومعبد الوادي هناك للحصول على الأحجار اللازمة لبناء قصره في القاهرة ، بل ومن المعروف أنه كانت هناك فكرة في عهد محمد على لهدم الهرم الأكبر واستخدام أحجاره في بناء القناطر الخيرية لولا أنهم وجدوا أن ذلك يكلف حكومة مصر إذ ذاك أكثر من قطع الأحجار اللازمة من محاجرها .

ويأتى بعد ذلك جزء خاص من المعبد كان لا يسمح بزيارته إلا للكهنة القائمين على خدمته ، وكان فيه الهيكل والمخازن التى كانوا يضعون فيها الأدوات التى تلزمهم فى تقديم القرابين أو عمل الصلوات للملك — الإله .

وكان الطريق الموصل بين هذا المعبد ومعبد الوادى مسقوفا ، [1] ونرى بعض بقايا جدرانه عند معبد الوادى الذى شيدوا جدرانه وأعمدته من جرانيت اسوان وبنوا بعض حجراته وأرضيته من كتل المرمر التى أتوا بها من محاجر حاتنوب .

وكان هذا المعبد يستخدم فى بعض الطقوس الدينية الخاصة بغسل الجثة وتطهيرها ثم تحنيطها وكان فى الوقت ذاته مدخلا للمجموعة الهرمية . وله بابان يوصلان إلى بهو مستطيل ثم إلى قاعة محمولة على أعمدة جرانيتية مربعة تمتد فى وسطها فتكون بهوا آخر (الاثنان يكونان شكل حرف T) كان يقوم إلى جانب كل عمود فى الجزء المستطيل تمثال للملك .

كانت تماثيل خفرع منتشرة فى أرجاء هذا المعبد وبعضها من حجر الديوريت ، ومن بينها ذلك التمثال الشهير الذى يعتبر آية من آيات الفن المصرى ويمثل صاحبه وقد جلس على عرشه ووقف خلف رأسه ليحميه الإله حورس على شكل صقر (انظر شكل رقم ٩) ، وقد نجا هذا التمثال وغيره من تماثيل هذا الملك لأن كهنة المعبد حفروا فى وقت من الأوقات حفرة عميقة فى البهو الشرقى المستطيل أودعوها تلك التماثيل التى بقيت فى ذلك المكان حتى عثر عليها عند تنظيف مصلحة الآثار لذلك المعبد فى القرن الماضى.

وصل فن النحت إلى قمته فى عهد خفرع وأصبح فى استطاعة الفنان المصرى أن يسيطر سيطرة تامة على أقسى أنواع الحجر ، ويكفى أن يقف

(١) أثبتت حفائر هولشر فى هذه المنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى أن هذا الممر كان مسقوفا ، ولكن طريق هرم ميدوم وطريق هرم سنفرو القبلى كانا غير مسقوفين ، أما طريق هرم خوفو فيرجح أنه كان مسقوفا لأن هيرودوت ذكر عند وصفه له أن جدرانه كانت مغطاة بالنقوش .

الإنسان أمام هذا التمثال المصنوع من الديوريت وهى مادة أصلب من الجرانيت والبازلت [1] ويرى نجاح الفنان فى التعبيرات التى ظهرت على وجهه ودقته فى إظهار عضلات الجسم ، ومظهره بوجه عام ، ليدرك مدى تقدم الفنان المصرى فى فنه ، ذلك التقدم الذى لم يتفوق عليه هو نفسه فى العصور التالية .

تمثال أبو الهول :

ولا يمكن أن يذكر الإنسان منطقة أهرام الجيزة إلا ويجد نفسه مضطرا لذكر « أبو الهول » ذلك التمثال الضخم الرابض على حافة الصحراء والذى احتل مكانة كبرى فى آداب العالم ، وكتب عنه الكتاب منذ أيام الرومان كثيرا من القصائد وحاكوا حوله الأساطير ، وطالما تساءلوا عما يخفيه من أسرار .

والحقيقة أنه لم يعد هناك سر يخفيه . فقد كشفت حفائر مصلحة الآثار فى عام ١٩٢٦ ، ومرة أخرى فى عام ١٩٣٦ ، عن كل ما هناك وأصبحنا متأكدين الآن أن هذا التمثال الكبير المقطوع فى صخر الجبل على هيئة أسد رابض وله رأس إنسان ليس إلا تمثالا للملك خفرع بانى الهرم الثانى ، وأن الصخرة التى هيأوها كانت جزءا فى محجر من المحاجر التى أخذ منها عمال خوفو بعض الأحجار اللازمة لبناء الهرم الأكبر وتركوا هذه الصخرة لأنها ليست من الحجر الجيد اللهم إلا فى طبقتها العليا .

---

(١) كان ملوك الدولة القديمة إبتداء من أيام خوفو يجلبون كتل الديوريت من أحد المحاجر فى الصحراء الغربية على مسافة ٤٠ كيلو مترا من النيل جنوب غربى أبو سمبل فى النوبة ، وكان هناك طريق خاص بين تلك المحاجر وبين النيل عند بلدة توشكه وكانوا يحضرون حجر المرمر من أيام خوفو أيضا من محاجر حاتنوب فى قلب الصحراء الشرقية خلف تل العمارنه ، أما حجر الجرانيت فكانوا يأتون به من محاجر أسوان فى أغلب الحالات .

فلما استقر رأى خفرع على تشييد هرمه على مقربة من هرم أبيه اضطر للانحراف بالطريق الموصل بين المعبدين ليتفادى هذا المحجر وجعل طريقه يسير على حافته وانتهى أخيرا بمعبد الوادى الذى أشرنا إليه .

ولا شك أن وجود تلك الصخرة كان يشوه المكان ولهذا رأى المشرف على العمل أن يستفيد منها لعمل تمثال لسيده الملك ، جسده على صورة أسد وهو أقوى الحيوانات ورأسه على صورة لرأس خفرع نفسه ، ثم أصلح أنحاء المحجر وبنى معبدا أمامه[1].

منكاورع :

استطاع الحزب المعارض فى الأسرة المالكة أن يستولى على السلطة بعد وفاة خفرع وقد تحدثنا عن ذلك النزاع فيما قبل ، ولا تساعدنا معلوماتنا القليلة على الخوض فى هذا الموضوع أو معرفة المدة التى استغرقتها فترة عدم الاستقرار أو القول عن يقين إن كان قد حكم بين خفرع ومنكاورع ملك واحد من إخوة خفرع أو حكم ملكان .

ونرى بعد ذلك ، وقد عادت البلاد إلى حالتها الطبيعية أن الملك منكاورع أخذ يشيد هرمه على مقربة من هرمى أبيه وجده وقد وضع المهندسون تصميمه على أن يكون أقل منهما كثيراً فى الحجم (ارتفاعه

(١) لم يعتبر المصريون هذا التمثال للاله « حور إم اخت » (حور ماخيس) إلا فى الأسرة الثامنة عشرة أى بعد عصر خفرع بأكثر من ألف ومائة سنة . غير أن الاهتمام بأبو الهول زاد فى العصور المتأخرة جداً من التاريخ المصرى وكان يقام له فى العهد الرومانى أعياد كانت تمتاز بما يجرى فيها من الرقص والغناء والموسيقى ومواكب السرور ، ويحمل فيها الناس الأزهار وجريد النخل وأمام صدر أبو الهول نرى حتى الآن لوحة تحوتمس الرابع المعروفة باسم لوحة الحلم ، كما ظهر فى الحفائر فى عام ١٩٣٦ عدد كبير جدا من اللوحات الصغيرة ، وكانوا يشيرون إلى أبو الهول كإله معبود يسمونه « بوحول » وهو على الأرجح أصل الإسم الحالى ، كما كانت تقيم على مقربة من المكان فى أيام الدولة الحديثة جاليات أسيوية من أسرى الحروب كانت تقدم له العبادة ، وتقدم له اللوحات قربانا له ، مثل المصريين .

٦٦٫٥ مترا وطول ضلع قاعدته ١٠٨٫٥ مترا) ولو أنهم كانوا يقصدون أن يكسوه كله من حجر الجرانيت بدلا من الحجر الجيرى الأبيض ، ولكن لم يتمموا إلا نصفه فقط .

وقد ذكر الكهنة لهيرودوت الشيء الكثير عن ظلم كل من خوفو وخفرع للشعب وكيف كرههما الناس ومقتوهما ، ويذكر أيضاً كيف خالف منكاورع أساليب من سبقه وأبطل الظلم وفتح المعابد فأحبه الناس .

وربما كانت هذه القصة تحمل بين ثناياها شيئا من الصدق ، فلا شك أن تشييد المجموعتين الهرميتين لخوفو وخفرع ومقابر موظفيهما كان عبئا كبيرا على كاهل البلاد والخزانة ، زاد من شدته ذلك التناحر بين فرعى البيت المالك الذى لم تستطع الأيام أن تخفف من حدته .

وبالرغم من أن منكاورع حكم أكثر من واحد وعشرين عاما (وربما امتد حكمه إلى ثمانية وعشرين عاما) فإنه لم يستطع أن يتم تشييد هرمه الصغير أو معبده الجنازى أو معبد الوادى الخاص به وقد قام ابنه شپسسكاف بذلك الواجب . ومعبد الوادى لهذا الهرم مشيد من الطوب اللبن وليس فيه شيء مشيد بالحجر إلا بعض الأرضيات والأعمدة وعتبات الحجرات ، وقد عثر ريزنر فى هذا المعبد عند حفره له على عدد من مجموعات التماثيل المصنوعة من حجر الشست (نوع من الإردواز) يمثل كل منها الملك منكاورع مع رمز لإقليم من الأقاليم وأحد المعبودات الهامة .

وقد نهب هذا الهرم كما نهب غيره فى عصر الفترة الأولى ولكن اللصوص تركوا الكثير مما لم يكونوا فى حاجة إليه ، وقد عثر پرنج (Perring) عندما فتح هذا الهرم عام ١٨٣٩ على بعض أجزاء من مومياء لرجل وعلى تابوت خشبي مكسور ربما كانا باقيين من الأثاث الجنازى

للهرم[1] ، كما عثر أيضا على تابوت للملك من حجر البازلت زخرفت جوانبه بالكوات الداخلة والخارجة التى تمثل واجهة القصر ، ولكن هذا التابوت غرق مع السفينة التى كانت تحمله إلى انجلترا عند ما هبت عليها عاصفة شديدة أمام شواطىء أسبانيا .

السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة :

وتولى « شبسسكاف » الحكم بعد أبيه ولكنه لم يعش أكثر من أربع سنوات ، وقد امتازت هذه المدة القصيرة بحادث هام كان مقدمة لحوادث أخرى ذات أثر كبير .

لقد أخذ نفوذ كهنة الشمس يعظم ويزداد منذ قيام الأسرة الرابعة ، ولكن هذا النفوذ لم يكن ذا خطر فى أيام سنفرو أو خوفو ولكنه أصبح قويا منذ عهد خفرع ، ولم يصبح إسم الإله رع جزءا من أسماء بعض الملوك وأمراء البيت المالك للتيمن به فحسب ، بل أخذ الإسم الخامس للملوك وهو اسم « ابن رع » ، ويظهر أيضا ابتداء من عهد الملك خفرع .

ورأى شبسسكاف أن يضع حدا لهذا النفوذ والسطوة للكهنة فترك بناء قبره على شكل هرم لصلة ذلك بعبادة الشمس ، وأراد إهماله فبنى قبره

---

(١) بقايا التابوت الخشبى المكتوب وأجزاء المومياء محفوظة فى المتحف البريطانى وإذا كان العلماء لا يرون ما يحول دون اعتقادهم بانه من المعقول أن تكون أجزاء المومياء للملك منكاورع فان هناك شكا غير قليل فى موضوع التابوت الخشبى إذ ربما كان من عصر بعد عصر منكاورع عندما أعاد الكهنة قفل الهرم بعد سرقته ، وربما أمكن تحقيق هذا الموضوع عند فحص كل من بقايا المومياء والتابوت بطريقة « رادبو كاربون ١٤ » التى تستطيع أن تحدد لنا كم من السنين قد مرت على العينات التى من مادة عضوية على أساس ما تفقده من إشعاع كلما مر عليها الزمن . وقد نجحت هذه الطريقة فى فحص كثير من الآثار الموثوق من تاريخها وأعطت أرقاما قريبة من الصحة وذلك خلال العشر سنوات الأخيرة ، وستكون هذه الطريقة عاملا هاما فى فحص كثير من الآثار المشكوك فيها وتقدير تاريخها ، ولو مع خطأ قليل نسبيا إذا كانت تلك العينات قد تلوثت من اتصالها بغيرها من المواد العضوية الأخرى ، وتأثرت من إشعاعها .

على شكل تابوت كبير (١٠٠ مترا × ٧٢ مترا وارتفاع ١٨ مترا) وهو المعروف باسم « مصطبة فرعون » فى سقارة القبلية وبنى فى جهته الشرقية معبده الجنازى كالمعتاد . وأقام أيضا معبد الوادى والطريق الموصل بينهما ، إلا أن البناء لم يتم وربما لم يقدر لشبسسكاف أن يدفن فيه .

كانت هناك دون شك حركة ضد كهنة رع ، ولكن شبسسكاف لم يعمر طويلا ليحقق ما كان يهدف اليه وسرعان ما عاد التنازع فى البيت المالك إلى الظهور وقام واحد منهم (وربما كان اسمه ددف بتاح) واستولى على العرش وحكم نحو عامين .

وفى هذه الظروف المضطربة والفترة الدقيقة من تاريخ الأسرة تظهر سيدة من العائلة المالكة اسمها « خنتكاوس » فتكون الحلقة بين الأسرتين الرابعة والخامسة .

خنتكاوس :

فى شتاء عام ١٩٣١ – ١٩٣٢ كشفت حفائر جامعة القاهرة فى منطقة أهرام الجيزة عن حقيقة البناء الذى كان يطلق عليه « لبسيوس ١٠٠ » والذى كان يظن البعض أنه هرم لم يكمل بناؤه ، فاتضح أنه شبيه فى تصميمه بقبر الملك شبسسكاف أى على شكل تابوت كبير مشيد فوق صخرة فى المكان، وأنه لم يكن لملك من الملوك وإنما كان لإحدى الملكات واسمها « خنتكاوس » . ومنذ هذا الاكتشاف حاول كثير من الأثريين تحديد مركز هذه السيدة من العائلة . وقد اختلفت الآراء فى بعض التفاصيل ولكن المرجح الآن هو أنها ابنة للملك منكاورع وإن كانت لم تذكر ذلك على آثارها ، وأنها تزوجت « شبسسكاف » وإن لم تذكر ذلك أيضا ، وأنها عاشت خلال السنتين اللتين حكمهما « ددف بتاح »، ويظن أنها تزوجت من « وسركاف » الذى أسس الأسرة الخامسة وأصبحت أما لابنيه اللذين حكما من بعده واحدا بعد الآخر .

وهما « ساحورع » و « نفر إر كارع » أى أنها أصبحت أما للأسرة الخامسة .

ويلوح أن هذه الملكة كانت أصل الأساطير التى كان يرويها المصريون فى أواخر أيام حضارتهم ، فقد ردد هيرودوت ما سمعه فى مصر من أن الذى بنى الهرم الثالث كان امرأة تسمى « رودوپيس » ولكنه كان متأكدا من أن بانيه كان منكاورع وأن رودوپيس لم تكن إلا إحدى المحظيات غير المصريات اللاتى اشتهرن بجمالهن فى القرن السادس قبل الميلاد وكانت لها مغامرات غرامية اشتهر أمرها بين اليونانيين . وقد ذكر مانيتون أن الذى بنى الهرم الثالث ملكة تسمى نيتوكريس وأنها كانت أقوى وأجمل امرأة فى زمانها .

ولكن معنى كلمة رودوپيس هو « وردية الخدين » ، وربما كانت الأسطورتان تشيران إلى خنتكاوس التى ربما كانت كبعض نساء أسرتها بيضاء البشرة شقراء الشعر فتحدث بجمالها الناس وأعجبوا بدورها الذى قامت به عندما استعرت نار الفتنة فى أواخر ايام الأسرة الرابعة ثم أصبحت أما لملكين جلسا على العرش .

ولكن كل هذه الآراء تفتقر إلى البرهان والدليل . وكل ما نستطيع أن نقوله هو إن خنتكاوس لم تجلس على العرش وأنها لم تدفن فى هرم وإنما دفنت فى قبر على شكل تابوت ، وأن هذا القبر كان يختلف سواء فى تصميمه أم فى عظمته عن قبور الملكات الأخريات اللاتى عشن فى تلك الأيام .

لقد عجلت ثورة شپسسكاف على كهنة رع بنهاية أيام تلك الأسرة التى تطاحن أفرادها منذ وفاة خوفو ، وأخيرا حوالى عام ٢٥٦٠ ق.م. انتهى عهد الأسرة التى أسسها سنفرو وحلت مكانها أسرة أخرى من كهنة الشمس .

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق. م)

نجح كهنة الشمس فى الاستيلاء على الملك وانتهى ذلك الصرع بزوال الأسرة الرابعة وانتقال العرش إلى بيت حاكم آخر .

وفى حقيقة الأمر لاتمدنا الآثار بمعلومات كافية عن هذا التغيير فنرى أن « وسركاف » أول ملوك هذه الأسرة قد ترك منطقة أبو صير وذهب إلى منطقة سقارة واختار مكانا قريبا من الهرم المدرج ولكن مجموعته الهرمية وما عثر عليه من نقوش معبده لاتختلف عن أهرام ونقوش الأسرة الرابعة[1] فى شيء ذى أهمية .

ولسنا نعرف شيئا عن أصل «وسركاف» أو صلته بكهنة الشمس وان كان من المحتمل أنه كان يتولى منصبا كبيرا فى معبد الشمس واستطاع بمعونة الكهنة أن يصل إلى العرش ويتزوج «خنتكاوس» ليصبح جلوسه على العرش شرعيا فى نظر الشعب .

وسواء أكان ذلك صحيحا أو كان رجما بالغيب فان الحقيقة التى لا يمكن التشكك فيها هو أن «خنتكاوس» كانت أما لملكين حكم كل منهما عرش البلاد واحد بعد الآخر ، وهناك شبه اجماع بين المؤرخين على الرأى القائل بأنهما الملكان اللذان جاءا بعد (وسركاف) وهما «ساحورع» و«نفر اركارع».

---

(١) هرم « وسركاف » فى سقارة هو الهرم المعروف باسم الهرم المخربش وقد فحص عام ١٩٢٨ . وقد اضطرتهم طبيعة الأرض فى تلك المنطقة وعدم وجود المكان الكافى لإقامة معبد جنازى فى الناحية الشرقية إلى الاكتفاء ببناء هيكل صغير فى هذه الجهة وبنوا المعبد الكامل فى الجهة الجنوبية من الهرم .

لم يكن انتقال الملك على هذه الصورة أمرا سهلا لا يترك أثراً بين المصريين، بل سببت تلك الحوادث هزة كبرى لم يكن لمصر عهد بها من قبل ، إذ كانت بداية لزعزعة سلطة الجالس على العرش . ومن السهل علينا أن نتصور أن تلك الحوادث جرت انقساما فى الآراء ، وأن كلا من الحزبين المتنازعين أخذ يبذل كل ما فى جهده لتأييد وجهة نظره والتغلب على حجج غيره .

وفى هذه الفترة المضطربة روج كهنة الشمس بين الناس قصة طويلة ألفوها ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو وجعلوها تتضمن أسماء بعض الملوك السابقين الذين يكن لهم الشعب احتراما وتقديرا ، مثل زوسر وسنفرو وخوفو ، ليعطوها أهمية خاصة .

تتلخص قصة بردية خوفو والسحرة (أو بردية وستكار) فى أن الملك خوفو جمع يوما من الأيام أولاده وطلب من كل منهم أن يقص عليه قصة عما يستطيع السحرة أن يأتوه من معجزات ، وبدأ أولهم بقصة عن زوسر (لم يحفظ منها إلا كلمات من خاتمتها) وتلاه آخر بقصة من عهد الملك نبكا وثالث بقصة عن الملك سنفرو . لم تكن تلك القصص إلا مقدمات أو تمهيدا فقط لما سيأتى بعد ذلك ، إذ يقول أحد أبناء خوفو لأبيه إنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، فيرسله أبوه ليأتى به من بلده ويقوم الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها وفصل رأسها عن جسدها . ثم يطلب خوفو من ذلك الساحر أمرا فيرد عليه بأنه لا يستطيع ولكن الذى يمكنه القيام بذلك هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفسه وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة « إيون » أى هليوپوليس . ويضطرب خوفو ولكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبا وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن ابنه سيحكم من بعده ثم يحكم ابن ابنه ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم . وتستمر القصة فتذكر حمل

زوجة الكاهن وما تلا ذلك من ظهور عجائب ومعجزات وكيف حضرت آلهات الولادة مولدهن إلى آخر القصة .

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان النص الذى وصل إلينا ، وهو من عهد الدولة الوسطى ، هو صورة منقولة عن النص القديم الذى وضع فى عهد الأسرة الخامسة كدعاية سياسية لتلك الأسرة ، أم دخل عليه شيء من التغيير مع مرور الزمن ، إذ أننا لم نعثر حتى الآن على أى أثر من عهد الأسرة الخامسة عليه رسم أو كتابة تشير إليها [1] . أما الهدف الذى كان يرمى إليه واضع القصة فهو إقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد إنما كان شيئا مقدرا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين جلسوا على العرش ولم يكن يجرى فيهم الدم الإلهى الملكى ، إنما كانوا خيرا ممن سبقهم من الملوك لأنهم كانوا أبناء الإله رع من صلبه .

وسركاف :

ومما يؤثر عن عهد « وسركاف » ما ذكره حجر پالرمو من تشييده المعابد فى مختلف بلاد مصر مثل بوتو فى الدلتا لأجل عبادة الإلهة حاتحور وما أوقفه من أراض على معبد الإله رع .

وفى مقابر طهنا الجبل فى مديرية المنيا نرى اسمه فى مقبرة «نى ـ كا ـ عنخ» الذى كان كاهنا للإلهة حاتحور إذ أوكل اليه هذا الملك حق الإشراف على وقف شخص يدعى «خنوكا» مساحة أراضيه ١٢٠ ستات (الستات مساحته نحو $\frac{٢}{٣}$ فدان على وجه التقريب) وقد ترك « نى كاعنخ » وصيته مكتوبة على جدران قبره مقسما هذه المنح الملكية بين أفراد عائلته على أن يقوموا بجميع ماتتطلبه

---

(١) مثلما فعلت الملكة حتشبسوت فى الدولة الحديثة عندما رسمت على جدران معبدها فى الدير البحرى قصة زيارة الإله أمون رع لامها فى مخدعها وحملها منه ثم ولادتها ، وكما نرى أيضا فى معبد الأقصر إذ قص أمنحتب الثالث قصة شبيهة بقصة حتشبسوت .

أعمال الاشراف على إدارة الأوقاف والقيام بخدمة معبد حاتحور سيدة مدينة القوصية ، إذ أن عمل «نى كا عنخ» الرئيسى كان فى ذلك البلد الواقع فى مديرية أسيوط ولكنه دفن فى قبره الذى أعده على مقربة من بلده الأصلى فى طهنا .

أما عن هرم وسركاف فهو فى سقارة كما قلنا وقد عثر فى معبده على رأس لتمثال ضخم كبير من الجرانيت لهذا الملك . ونعرف من مصادر كثيرة أنه أول من بنى معبداً للشمس فى أبو صير ، ومن المرجح جداً أن يكون هو المعبد الذى حفرته بعثة المعهد السويسرى لدراسة العمارة المصرية القديمة بالقاهرة فى السنوات الأخيرة ، وعثرت فيه فى آخر مواسم الحفر عام ١٩٥٧ على رأس من حجر الشست كانت لتمثال ، وهى على درجة كبيرة من الاتقان تمثل ملكا يحمل التاج على رأسه، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن تخريب المعبد كان كاملا ولم يعثر فيه على أى نقوش أو يعثر فيه على اسم صاحبه مكتوبا على أى أثر حتى يمكن نسبة هذا المعبد وهذا الرأس إلى وسركاف دون تردد أو شك .

ساحورع .

حكم وسركاف سبع سنوات فقط ثم تلاه على العرش ساحورع الذى حكم أربعة عشر عاما ، وكان أول ملوك الأسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير ليبنوا فيها أهرامهم.[1] وعلى مسافة غير كبيرة من معبد

---

(١) ملوك الأسرة الخامسة تسعة وهم — ١ — « وسركاف » ومدة حكمه ٧ سنوات ، ٢ — « ساحورع » ومدة حكمه ١٤ عاما ، ٣ — « نفر إر كا رع » وربما كانت مدة حكمه ١٢ عاما ، ٤ — «شبسس كا رع » ومدة حكمه ٧ سنوات ، ثم ٥ — « نفر إف رع » ولم تزد مدة حكمه عن أربع سنوات . ٦ — ثم الملك « نى وسر رع » وقد حكم أكثر من إثنين وثلاثين عاما . ٧ — ويأتى بعد ذلك الملك « منكاوو حور » وقد حكم ثمان سنوات . ٨ — ثم يأتى بعد ذلك الملك « زد كارع إسيسى » الذى حكم ٢٨ عاما ، وآخر ملوك الأسرة هو ، ٩ — أوناس (وينطق أحيانا ونيس) وقد حكم ٣٠ عاما ، أى أن مجموع سنى حكم ملوك هذه الأسرة ١٤٠ عاما .

وسركاف بنى ساحورع هرمه على هضبة أبو صير بين أهرام الجيزة وسقارة وتبعه أربعة ممن جاءوا بعده وهم « نفر إر كا رع » و « شپسسكارع » و « نفرف رع » و « نى وسررع » فبنوا أهرامهم أيضا هناك وشيد اثنان منهم على الأقل معابدا للشمس على مقربة من أهرامهم .

ولم يعتنى ساحورع بتشييد هرمه إذ نراه فقير البناء صغير الحجم إذا قيس بأهرام الأسرة السابقة ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشييد معبد فخم استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية وعنى بتزيين قاعاته وأبهائه المحمولة على أعمدة الجرانيت ذى التيجان النخيلية (على هيئة جريد النخل فى حزمة مربوطة) . وبلغ من عناية معماريى الأسرة الخامسة بعمارة هـذا المعبد وغيره من المعابد حداً كبيراً لم نعرفه من قبل إذ لم يهملوا فى شىء واحتاطوا لدرء كل ما عساه أن يؤثر على سلامة البناء فلم يسقطوا المطر من حسابهم وجعلوه ينساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أسد تسقط المياه من أفواهها إلى قنوات صغيرة عمقوها قليلا فى الأرضية ، ثم تسير المياه منحدرة إلىالخارج . أما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة فكانت تسير فى مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس وملحومة إلى بعضها بالرصاص ، وتسير إلى خارج المعبد حيث تصب فى أحد الأماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الأنظار .

ولا جدال فى أن فن عمارة المعابد وتشييدها قد تقدم كثيراً فى عهد الأسرة الخامسة كما كثرت النقوش التى على جدران تلك المعابد وتنوعت ، وهذا يعوضنا دون شك عن انصرافهم عن الاهتمام بالأهرام .

ونعرف من بقايا النقوش التى كانت تغطى جدران معبدى ساحورع والطريق الموصل بينهما كثيراً من نشاط هذا الملك وبخاصة فى ميدان الحرب

إذ تعرضت مصر فى أيامه إلى غزو من ناحية الغرب عندما جاءت بعض القبائل الليبية ومعها زعماؤها ونساؤهم وحيواناتهم ليهاجموا الدلتا ويستقروا فى وادى النيل فهزمهم ساحورع .

ونعرف أيضاً من نقوش معبده فى أبو صير أنه أرسل أسطولا إلى شواطىء فينيقيا ، ولكننا لا نرى أكثر من إقلاع ذلك الأسطول ثم عودته واستقبال الملك له يحف به كبار موظفيه مما حدا ببعض الباحثين فى التاريخ المصرى إلى الاعتقاد بأن ذلك الأسطول لم يرسل للحرب أو للتجارة وإنما كان فى رحلة ودية وربما عاد بأميرة من أميرات تلك البلاد لتصبح زوجة من زوجات ساحورع .

ولم يقتصر نشاطه على غربى مصر وعلى الساحل الفينيقى بل أرسل أيضاً حملة أخرى نحو الجنوب إذ ترك رئيسها اسم ملكه منقوشاً على أحد الصخور التى على مقربة من شاطىء النيل عند توماس فى بلاد النوبة ، كما نعرف من حجر پالرمو أنه أرسل حملة إلى بلاد پونت ، وهى المنطقة التى حول بوغاز باب المندب وتشمل الشاطئين الإفريقى والأسيوى أى الصومال واريتريا فى ناحية وجنوبى بلاد العرب فى الناحية الأخرى . وأن تلك البعثة عادت ومعها مقادير كثيرة من البخور والذهب وعدداً غير قليل من أعواد من الأخشاب التى كان المصريون يهتمون بالحصول عليها ، وربما كان بعضها أو أكثرها من الأبنوس .

وهكذا نرى مصر قد بدأت صفحة جديدة فى حياتها وأخذت تخرج من عزلتها فتتطلع بعينها نحو الجنوب ونحو الشرق وتعيد إرسال أسطولها التجارى إلى البحر الأبيض ، وتفتح عينيها فلا تسمح لبدو الصحراء الغربية بغزو الدلتا ، بل ربما كانت مناظر مهاجمة أحد حصون جنوبى فلسطين الذى نراه مرسوماً فى أحد مقابر دشاشة فى مديرية بنى سويف ترجع أيضاً

إلى ذلك العهد الذى أرادت فيه مصر أن تمهد الطريق لإنشاء صلات تجارية مع جيرانها فى الجنوب وفى الشرق براً وبحراً [1] .

نفر إر كارع :

ولم يكن الملك « نفر إر كارع » أقل طموحا من أخيه،وقد فكر فى تشييد هرم أكبر من هرم ساحورع ، ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء مجموعته الهرمية . ولم يكن هذا الملك يشبه من سبقه على العرش فى نشاطه الحربى بل كان شخصا طيب القلب محبا لتقديم الهبات للمعابد ، وفى نفسه شعور أصيل بحب من حوله والاعتراف بخطئه إذا أخطأ .

فأما عن حبه للكهنة والمعابد فيكفى أن نلقى نظرة على أعماله المسجلة فى حجر پالرمو فنرى أكثرها فى السنة الأولى من حكمه لا يعدو منح الأوقاف للآلهة يمنحها مرة للتاسوع ومرة أخرى لأرواح هليوپوليس ، أو نراه يقدم مذبحا للإله رع ومذبحا آخر للإلهة حاتحور ، كما نراه أيضا يقدم الفلاحين الذين يعملون فى الأراضى التى تملكها المعابد ، بل ويقدم تمثالا من خليط من معدنى الذهب والفضة .

ومن سوء الحظ أن الجزء المحفوظ من حجر پالرمو ينتهى عند ذلك فلا نعرف ماذا قدمه للكهنة والآلهة فى السنوات القادمة ، ولكن هذه البداية كافية لتجعلنا ندرك أن عصر هذا الملك كان بدء ظهور سلطة الكهنة ظهوراً تاما واستغلالهم لطيبة نفسه للحصول على كل ما يريدون ، ولا نعجب بعد ذلك إذا رأيناه يصدر فى عهده مرسوما ملكيا [2] يسجل معافاة

---

(١) هنالك رأى آخر يفضل القول بأنها من عهد ببى الأول من الأسرة السادسة .

(٢) أول مرسوم ملكى عرفناه فى الدولة القديمة يرجع إلى أواخر أيام الأسرة الرابعة من عهد الملك شبسسكاف .

رجال الدين وفلاحى المعابد من القيام بأى عمل آخر تتطلبه مشاريع الإصلاح فى أى إقليم من الأقاليم ، ويهدد كل من يخالف ذلك من موظفى الحكومة ؛ فساعد « نفر إركارع » بهذا العمل على تقوية الكهنة وإثرائهم. فإذا وضعنا فى أذهاننا أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت كانوا هم فى الوقت ذاته كبار الموظفين فى البلاد فإنا ندرك بسهولة لماذا أخذت سلطة الملك تضعف مع مرور الزمن ولماذا بدأت السلطة المركزية للحكومة فى التفكك ، ولماذا أخذ شأن كبار الموظفين وحكام الأقاليم يعلو ويزداد . ولنترك الآن هذه النقطة الهامة لنعود إليها مرة أخرى ونذكر بعض ما حفظه لنا تاريخ ذلك العصر عن طيبة قلب ذلك الملك .

كان لهذا الملك وزير يسمى « واش پتاح » ، كان يشغل فى الوقت ذاته وظيفة كبير القضاة ، والمشرف على جميع الأعمال الإنشائية للملك . وذهب الملك مع أبنائه ليشاهد العمل فى إحدى المنشئات الملكية فى يوم من الأيام وكان وزيره يسير إلى جواره ويشرح له ما تقع عليه عيناه . وسر الملك ومن معه مما رأوا وأثنى عليه كثيرا ، وبينما كان الملك يتحدث اليه سقط « واش پتاح » مغميا عليه . وعند ما رأى أولاد الملك وأفراد عائلته ما حدث أصابهم الهلع وأمر « نفر إر كارع » أن ينقلوه فى الحال إلى القصر وأخرج جلالته صندوقا مملوءا بالبرديات الطبية لعله يجد فيها علاجا له، ولكنه لم يستطع مساعدته واعتكف فى مقصورته ليصلى لأجله ، وعند ما أعلنوا للملك وفاته حزن وعاد إلى حجرته ليرفع صلواته إلى الإله رع ثم أمر بأن يصنع له تابوت من خشب الأبنوس المطعم كما أمر أن يكون تحنيطه أمامه وقد ذكر ابنه الأكبر ، الذى غمره الملك بإحسانه وأسند اليه بعض الوظائف الكبرى ، تفاصيل هذه القصة على لوحة أقامها فى القبر الذى شيده له فى سقارة .

وهناك قصة أخرى عرفت وقائعها فى عام ١٩٢٩ عندما كانت حفائر جامعة القاهرة تكشف عن آثار المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الطريق الموصل بين معبدى خفرع فى منطقة أهرام الجيزة .

لقد كشفت تلك الحفائر عن مقبرة أحد كبار موظفى ذلك الملك ويسمى « رع ور » وكان يحمل بين ألقابه الكثيرة لقب مدير القصر الملكى ، وكاتم أسرار الملك ، وكان فى الوقت ذاته كاهن آلهة الوجه القبلى وكاهن آلهة الوجه البحرى . وحدث لهذا الموظف حادث بسيط مع الملك . كان رع ور يسير إلى جوار سيده فى يوم احتفال رسمى بافتتاح عيد خاص وحدث أن الملك كان يحرك عصاه فضربت دون قصد منه ساق رع ور فلما أدرك مافعله استاء استياء شديدا وقال له بأنه أحب شخص لديه واعتذر عما بدر منه ، ولم يكتفى الملك بذلك بل أراد أن يجعل هذه الحقيقة معروفه للناس جميعا وأن تنقش على لوحة حجرية ، وقد عثر على هذه اللوحة فى قبر ذلك الموظف .

وعلى ذكر قبر «رع ور» يكفينا أن نذكر أن عدد حجراته وأبهائه وممراته لا يقل عن خمسين ، ولو عددنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكدنا أنه كان منها أكثر من مائة فى هذه المقبرة ، ولو ألقينا نظرة على الأحجار التى شيدت بها جدرانها ، وعلى الأخص أحجار الواجهة لأدركنا ثراء الكهنة الذى لم يكن يضارعهم فيه إلا الملوك ولو قارنا قبر «رع ور» بقبور أبناء سنفرو أو خوفو أو خفرع لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات والردهات وفخامة المبانى .

وليس قبر رع ور هو القبر الوحيد الذى نلمح فيه ثراء كبار الكهنة والموظفين بل نجد أمثلة كثيرة بين مقابر أبو صير والجيزة وسقارة . لقد أصبح كبار الكهنة والموظفين على شىء كبير من الثراء والنفوذ ، وأصبحوا يبنون لأنفسهم مقابر تزيد فى حجمها وفخامتها أضعاف ما كانت عليه مقابر أبناء الملوك فى الأسرة الرابعة .

نى وسر رع :

وهناك ملكان آخران حكما بعد « نفر إر كا رع » وهما « شپسس كا رع » و « نفرف رع » ولكنهما لم يتركا آثارا هامة ، وان كان قد بدأ

ثانيهما على الأقل فى تشييد هـــرم له فى منطقة ابو صير . ولم يطل حكمهما طويلا إذ حكم أولهما سبع سنوات والثانى أربع سنوات ، ثم جاء إلى العرش ملك آخر وهو « نى وسر رع » الذى طالت أيام جلوسه عـــلى العرش فزادت عن اثنين وثلاثين عاما وبنى له هرما فى أبو صير ، كما بنى معبدا للشمس فى المنطقة نفسها وحلى جدرانه بمناظر كثيرة ربما كان أهمها تلك المنـاظر التى تعطينا أهم ما وصل إلى ايدينا من تفاصيل مراسيم العيد الثلاثينى ، ونرى أيضا بين المناظر التى كانت فى معبده مايدل على حروب قام بهـا فى سوريا وحروب أخرى ضد الليبيين ، ولو أن هناك بعض الشك فى انه لم يقم بمثـل تلك الحروب وانمـا كان الفنانون يقلدون منـاظر معبد ساحورع الذى كان على مقربة منه . وقد عثر على مقابر هامة كثيرة من عهد هذا الملك ، ربما كانت أهمها جميعا مقبرة «تى» فى سقارة التى قلما لايذهب لزيارتها شخص يزور تلك المنطقة ، وهى تعطى بحق فكرة صادقة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد .

زد كارع - إسيسى :

وجاء بعد « نى وسر رع » ملك يسمى « منكاوو حور » حكم نحو ثمانية أعوام ولا نعرف عنه إلا القليل[1] . ثم حكم بعـــد ذلك ملك قوى وهو «زدكا رع» «إسيسى» الذى حكم عهداً طويلا لم يقل عن ثمانية وعشرين عاما.

اهتم هذا الملك بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فأرسل حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى وادى الحمامات وحملة أو أكثر إلى وادى المغارة فى سيناء حيث تركت أربعة نقوش باسمه .

(١) أرسل هذا الملك حملة إلى سيناء تركت نقشاً بين النقوش التى تركتها الحملات فى تلك المنطقة . وقد أقام منـكاوو حور لنفسه هرما لم يعثر عليه حتى الآن وربما كان فى منطقة سقارة إلى الجنوب من مكاتب مصلحة الآثار ، وإلى الشرق من هرم تيتى ، إذ رأيت فى عام ١٩٣٦ فى مخازن المصلحة كثيراً من سدادات الأوانى المختومة باسم هـذا الملك قال لى عنها العمال إنهم عثروا عليها أثناء مجسات قام بها « فيرث » فى ذلك المـكان .

وقد عرفنا من تاريخ حياة الرحالة حرخوف الذى قام برحلات عدة إلى جنوبى مصر فى الأسرة السادسة أنه عاش فى عهد الملك إسيسى أحد قادة السفن ويسمى « باوردد » استطاع أن يحصـــل على قزم حى فكافأه الملك وأغدق عليه من الهدايا الشىء الكثير ، ومعنى ذلك أن السياسة التى بدأها ساحورع فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وهى الاتصال بالجنوب وفتح الطرق التجارية إليه والحصول على خيرات السودان وبلاد پونت ، لم يهمل أمرها من جاءوا بعده ، بل استمر عليها باقى الملوك وسنرى أنها ستزداد فى الأسرة السادسة .

كان إسم « إسيسى » دائما من الأسماء الشهيرة فى تاريخ الأسرة الخامسة واقترن اسمه بأسماء الكثيرين من كبار الموظفين الذين عثر على مقابرهم ، ومن بينهم الحكيم الشهير « پتاح حتپ » الذى كان مشرفا على تربيته ، والذى ترك مجموعة نصائحه وإرشاداته ، وهى ذخيرة من الحكمة والارشاد إلى حسن السلوك اعتز بها المصريون فى جميع عصورهم .

وفى عام ١٩٤٦ كشفت مصلحة الآثار عن المنطقة الواقعة حول هرم يسمى الهرم الشواف فى منطقة سقارة القبلية فوق الهضبة التى بنيت أمامها فى الوادى منازل بلدة سقارة ، وظهر فى ذلك المعبد كثير من النقوش الهامة فأصبحنا نعرف الآن أين هرمه وأين معبده ، كما كشفت مصلحة الآثار أيضا فى عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ عن هرم ومعبد آخرين لزوجته فى المنطقة نفسها .

ولم يعثر داخل هرم إسيسى على أى نقوش أما المعبد فلم يكن يقل عن أى معبد آخر من معابد الأسرة الخامسة فى فخامته وجمال نقوشه ، وظهرت فيه بعض عناصر معمارية لم يكن لنا بها عهد من قبل مثل تزيين بعض المداخل بأعمدة فى شكل علامة « زد » وهى شديدة الصلة بعبادة الإله أوزيريس ، كما ظهر أيضا

فى حفائر المعبد تماثيل لأسود وثيران وتماثيل لبعض الأسرى من الأجانب [١] .

أوناس :

وآخر ملك فى الأسرة الخامسة هو الملك أوناس (أو « ونيس ») الذى يميل بعض المؤرخين الآن إلى اعتباره أول ملوك الأسرة السادسة لأن حكمه قد ارتبط ببعض التغييرات الجوهرية ، يضاف إلى ذلك ما نعرفه عن وفاء الملك تتى أول ملوك الأسرة السادسة له وإتمام ما لم يتمه من آثاره . ولكن ذلك لا يكفى لتغيير التقسيم القديم الذى أورده مانيتون ، وإذا كان « تتى الأول » قد أتم معبد أوناس فان اسم أوناس نفسه قد عثر عليه فى معبد زوجة إسيسى ، كما نعرف أيضا أن سنفرو وهو مؤسس الأسرة الرابعة قد أتم تشييد هرم آخر ملوك الأسرة الثالثة . وترجع شهرة أوناس إلى ذلك التجديد الذى أحدثه إذ أن مجموعة النصوص الدينية الشهيرة باسم « نصوص الأهرام» لم تكتب على جدران الحجرات الداخلية للأهرام قبل عصر أوناس، وأصبحت منذ عهده تكتب داخل أهرام الملوك بل وبعض الملكات ، وقد أمدتنا بالكثير من المعلومات الهامة عن عقائد المصريين القدماء . [٢]

---

(١) كان أول من قام باكتشاف ذلك المعبد هو المرحوم المهندس عبد السلام محمد حسين بين أعوام ١٩٤٦ و ١٩٤٩ . وقد قمت باتمام حفر الجزء الأمامى من المعبد فى موسم عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ وعثرت أثناء ذلك على بعض النقوش وعلى مقابر ملونة من أواخر الأسرة السادسة أو بعد ذلك بقليل ، كما كشفت عن هرم ومعبد فى الجهة الشمالية الشرقية من معبد إسيسى، من المرجح جداً أنهما لزوجته وبالرغم من تأكدنا من ان صاحبته كانت إحدى الملكات إلا أن اسمها لم يرد على ما بقى من النقوش التى عثرنا عليها . ولم ينشر التقرير العلمى عن حفائر المرحوم عبد السلام أو عن حفائرى حتى الآن وأرجو أن يتم ذلك فى عام ١٩٦٠ بمشيئة الله.

(٢) كان أول اكتشاف لنصوص الأهرام داخل هرم أوناس فى عام ١٨٨٠ وقد عثر بعد ذلك على كثير من تلك النصوص فى أهرام ملوك الأسرة السادسة فى سقارة بل وفى بعض أهرام ملكاتها. وليست هذه النصوص إلا مجموعة من تعاويذ مختلفة، تحتوى على صلوات وبعض طقوس دينية وغيرها =

ويرتبط اسم أوناس وهرمه بشيء آخر . فقد أشرنا أكثر من مرة إلى تلك الطرق أو الممرات التي كانت توصل بين معبدي الهرم أي بين الوادي والمعبد الجنازي المشيد في الناحية الشرقية من الهرم وقلنا إن تلك الطرق كانت مفتوحة للسماء في أول عهدها وربما أصبحت مسقوفة منذ عهد خوفو ونقشوا جدرانها الداخلية . وقد عثر على بعض المناظر التي كانت في يوم من الأيام على جدران طرق خوفو وغيره من الملوك مستخدمة في تشييد هرم أمنمحات الأول في اللشت كما عثر أيضا على بعض مناظر تلك الطرق في منطقة أبو صير ، ولكن لم يحدث من قبل أن وجد جزء كبير من ذلك الطريق محفوظا ومرسوما كما ظهر في طريق أوناس عام ١٩٣٨ . كان هذا الطريق مسقوفا بالاحجار وسقفه ملون كأنه سماء زرقاء زينتها النجوم ، ويدخل اليه الضوء من كوات في السقف .

وتجمع نقوش جدرانه بين مواضيع مختلفة . فنرى بينها مناظرا تمثل أوناس يؤدي بعض الطقوس الدينية ، بينما نرى مناظرا أخرى تمثله وهو يقضي على أعدائه . ومن بين تلك المناظر ما يمثل الزراعة والحصاد في

= ويرجع تاريخ بعضها إلى ماقبل أيام الأسرة الأولى ، بل ونجد فيها إشارات إلى تلك الحروب التي استعر أوارها في مصر في أوائل أيامها مشارا إليها كحروب بين الآلهة المختلفة الذين كانوا معبودين في ذلك الوقت .

وليست النصوص الواردة في داخل كل هرم مطابقة لما في الهرم الآخر بل أن الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الآخر وقد أمكن جمعها ودراستها ومقارنة بعضها ببعض ومجموعها ٧١٤ تعويذه ، وخير ترجمة لها مع التعقيب والشرح هي ترجمة زيتة باللغة الألمانية (أنظر المراجع الهامة) وقد ظهرت منذ سنوات قليلة ترجمة بالإنجليزية للعالم الأثري مرسر وهي تعتمد اعتمادا كاملا على ترجمة زيتة ولكن قد تسرب إليها لسوء الحظ بعض الأخطاء القليلة . وتمتاز هذه الترجمة الاخيرة بالفصول القيمة التي كتبها في الجزء الرابع مجموعة من العلماء تناولت كثيرا من نواحي الموضوع وفسرته وقربته إلى الاذهان وهذه الترجمة هي :

S.A.B MERCER, *The Pyramid Texts, in Translation and Commentary,* **1952.**

الفصول المختلفة ، ومن بينهما مناظر الصيد فى الصحراء أو فى الماء أو فى الحقول ، كما نرى فيها أيضا مناظرا تمثل بعض أعمدة المعبد وأعتابه المصنوعة من الجرانيت وهى تنقل فوق سفن على صفحة النيل

ولم تقتصر تلك المناظر على ذلك بل أن من بينها ما يمثل بعض الأجانب الذين جاءوا إلى مصر ، وبعض الذين أضرت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعا ، وفى تفاصيل المناظر كثير من المعلومات التى أضافت الكثير على ما نعرفه عن مصر فى ذلك العهد ، ونرجو أن يتم حفره وأن ينشر نشراً علميا كاملا فى وقت قريب [1] .

وبالرغم من أننا نعرف الشيء الكثير عن أيام حكم «إسيسى» وعن حكم «أوناس» الذى بلغ ثلاثين عاما ونعرف أيضا الكثير عن حكم الملك «تتى الأول» فإننا لا نجــــد فى تاريخ تلك الحقبة ما يمكن أن نقول عنه إنه كان سببا لتغيير الأسرة ، وربما كان المستقبل كفيلا باظهار ذلك .

تولت الأسرة الخامسة عرش البلاد بعد فترة اضطراب وصراع بين أفراد البيت المالك فى الأسرة الرابعة من ناحية ، وبين ملوك هذه الأسرة فى النصف الثانى من حكمها وبين كهنة رع من ناحية أخرى ، أولئك الكهنة الذين أخذ نفوذهم يزداد وأصبحوا خطرا على سلطة الملك .

وانتهى ذلك الصراع بتأسيس أسرة مالكة جديدة وثيقة الصلة بكهنة الشمس فشيدت المعابد المختلفة لرع والآلهة المتصلين به ، وأغدقوا العطايا والهبات والأوقاف والامتيازات على المعابد وكهنتها فماذا كانت النتيجة ؟

---

(١) عادت مصلحة الآثار لإتمام حفر هذا الطريق وكشفت عن جزء آخر منه فى عام ١٩٤٣ ولكن العمل لم يستمر ، ثم عملت مرة أخرى لفترة قيلة فى عام ١٩٥٠ ؛ وأخيرا استأنفت كشفه فى موسم ١٩٥٦/١٩٥٧ ونرجو أن يتم فى هذه المرة الكشف عن باقيه ويظهر التقرير العلمى الكامل عن جميع تلك الحفائر ، خصوصا وأن المشرف على حفائر ١٩٥٦ هو الدكتور سليم حسن الذى كان أول من كشف عنه فى عام ١٩٣٨ .

لقد ازداد الكهنة نفوذا وقوة ولم يعد للملك ما كان له من سلطان ونفوذ ، وأخذ كبار الموظفين يزدادون ثراء فهل تأصلت عبادة الشمس فى نفوس الناس وأصبحت وحدها فى البلاد ؟ والجواب على ذلك واضح صريح فقد ضعف نفوذ الملك ، وإن ظلت عبادة الشمس كما هى أى الديانة الرسمية للبيت المالك ، إلا أننا نلاحظ أنه أخذت تظهر عليها عقيدة أخرى ، وهى عقيدة أوزيريس التى كانت قريبة من مدارك الناس .

كان المستقبل السعيد فى الحياة الأخرى ، حسب عقيدة الشمس ، يتوقف على الثراء والنفوذ . فكان الملك المتوفى يدفن فى قبر فخم ويبنى المعابد ، وكان يركب سفينته ليسير وراء سفينة الشمس فى الليل والنهار وينعم بالنور والضياء . وكان عليه أن يحفظ الكثير من التعاويذ التى كان فى حاجة اليها إذا أراد السلامة والاهتداء فى العالم الآخر . وكان المحيطون بالملك يرجون أن يكونوا معه يخدمونه فى الآخرة كما خدموه فى الدنيا وكانوا يبنون المقابر الفخمة ويحبسون عليها الأرض للإنفاق عليها وتقديم القرابين ، ولكن ماهو مصير العامة والفقراء من الناس — وهم الغالبية العظمى للشعب — الذين لم تكن تربطهم بالملك ورجال بلاطه والأثرياء من الحكام رابطة مباشرة ؟ . كان الأغنياء واثقين من نهايتهم السعيدة لأنهم كانوا أثرياء وفى صحبة الملك ويستطيعون أيضا الإتفاق مع الكهنة للصلاة على أرواحهم وتقديم القرابين لهم فى أوقات معينة ، ولكن ماذا يفعل الفقراء ؟ كان الناس فى حاجة إلى دين يقول بمكافأة المحسن الطيب القلب الذى لا يفعل السوء دون نظر إلى فقره أو غناه ، وقد وجدوا ذلك فى تلك العقيدة القديمة التى عرفها المصريون منذ أيام الأسرة الأولى بل وقبل ذلك ولكن لم يكتب لها النصر والانتشار إلا فى أيام الأسرة الخامسة.

كان أوزير (أو أوزيريس) يمثل الحاكم العادل الذى صرعته عوامل الشر والحسد ممثلة فى أخيه «ست» ولكن وفاء زوجته إيزيس التى خرجت تبحث عن جثته تارة وتجمع أشلاءه تارة أخرى ، وبكاءها عليه واستدرار عطف

الآلهه جعل منه ملكا للأموات . وقامت إيزيس مرة أخرى تطالب بحق ابنها «حورس» الذى حملت به من روح اوزيريس بعد موته ، فلقيت ما لقيت من «ست» واتهامه لها ، ثم برأتها الآلهة التى كانت تعرف الحقيقة ، ومع ذلك فقد قامت الحرب بين ست وحورس حتى انتصر ابن أوزيريس وجلس على عرش أبيه وبذلك انتصر الحق على الباطل .

ولم يكن أوزيريس العادل الرحيم وهو ملك فى دنيا الأموات يأبه إلا بالحق والعدل ولا ينعم بجنته إلا من تطهر قلبه وحسنت سريرته ونواياه وابتعد عن أذى الناس ، لا يفرق بين غنى وفقير . كان كل إنسان يلاقى ما فعله حاضراً ، وكانت الجنة لمن أحسن واتقى ولم يظلم الناس أو يأتى بخائنة ، والعذاب والجحيم لمن سولت له نفسه عمل السوء لا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن ، أو قرابين يقدمها أهله وذووه .

لقد وجد الناس فى تلك العقيدة صدى لما فى النفس البشرية فأقبلوا عليها ، بل أن الملوك أنفسهم منذ أيام الأسرة الخامسة كانوا يلقبون أنفسهم باسم أوزيريس ثم أصبح استخدام إسم أوزيريس عاما لكل فرد قبل أن يمضى وقت طويل ، ولكن هذا النصر لأوزيريس لم ينل كثيراً من عقيدة الشمس فى مظهر الدولة إذ ظل لقب « ابن الشمس » الذى استخدمه بعض ملوك الأسرة الرابعة وأصبح عاما منذ الأسرة الخامسة لقباً أساسياً حتى آخر أيام التاريخ المصرى ، كما ظلوا ينظرون إلى الجالس على عرش مصر إلها تجسد فيه حورس . وكان الكهنة المصريون كعادتهم حصيفين ، فإذا رأوا إلها من الآلهة يعلو نجمه لسبب من الأسباب ، أسرعوا فى وضع القصص والأساطير التى يربطون فيها بين ذلك الإله وبين الآلهة المختلفة ، وبخاصة الآلهة الرئيسية ، ولهذا لا يدهشنا اذا رأيناهم يضعون قصصاً يربطون فيها بين رع وبين حورس وبين أوزيريس وغيرهم من الآلهة ، ولم تجد طبيعة التسامح المتأصلة فى طبيعة النفس المصرية ما ينفر المصريين من قبول ذلك .

كانت أيام الأسرة الخامسة من السنين الحاسمة فى التاريخ المصرى ، شهدت تطوراً كبيراً فى العقيدة كما شهدت تطوراً فى مركز الملكية وبدأ يعظم فيها نفوذ أعيان البلاد ويزداد ، حتى أصبحوا لا يخشون الجالس على العرش . ورأينا فيها ازدياد شأن عقيدة أوزيريس التى كان يتساوى فيها الناس ولا تفرق بينهم ثروة أو فوارق اجتماعية .

وعلى جدران مقابر تلك الأسرة وأوائل الأسرة السادسة نستطيع أن نرى الكثير من المناظر التى تمثل حياة الشعب ، نرى فيها صاحب القبر يشرف أحيانا على حقوله التى يعمل فيها رجاله وطورا نراه يجلس بين أسرته وأصدقائه يستمع الى عزف الموسيقى وغناء المغنين ويمتع طرفه برقص الراقصات ، ونرى الصناع وهم يعملون فى الحرف المختلفة فهنا النجارون وهناك الصياغ وعلى مقربة منهم صانعوا الأوانى ، وعلى مسافة قريبة نرى صانعى السفن ، وغيرهم .

ونرى الأتباع وهم يحضرون الأزهار والهدايا المختلفة ، ونرى الكهنة وهم يقومون ببعض الطقوس الدينية ، ننظر اليها كلها فنحس كأننا نعيش بين القدماء ننظر الى ملابسهم وحليهم ونتأمل فى محصولات حقولهم وحدائقهم، ننظر الى الطيور والحيوانات التى كانوا يربونها ، ونقف طويلا أمام الأسماك السابحة فى المياه والى حيوانات الصحراء التى خرجوا لصيدها ، نراها كلها وقد أبدع الفنان المصرى فى رسمها فإن أصحابها أرادوا تصويرها على مقابرهم لتأنس أرواحهم بما كانوا يرونه فى دنياهم وما أرادوا أيضا أن يكون لهم فى آخرتهم . وقد أحسنوا صنعا ، فلولاها لما عرفنا الحياة فى مصر القديمة كما نعرفها الآن ، ولم يترك المصريون تلك المناظر دون شرح قليل فنراهم قد كتبوا الى جانبها ما يفسرها لنا ، وكثيرا ما نقرأ النكات التى كان يتبادلها الصناع أو العاملون فى الحقل وكلها تنبىء عن ميل أصيل للمرح ، وحب الفكاهة .

الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ — ٢٢٨٠ ق . م)

ذكر مانيتون عن هذه الأسرة أن أصلها من منف ، وهذا محتمل جدا إذ كلما تقدمت الأبحاث الأثرية كلما ازددنا اقتناعا به لأننا نلاحظ فى أعمال مؤسسها اتجاها صريحا نحو الإعلاء من شأن پتاح إله مدينة منف وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس ، فهل قامت فى مصر فى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة حركة ضد نفوذ كهنة الشمس ، وكان القائمون بها من أهل منف الذين أخذ نجم إلههم يعلو مع ازدياد قوتهم السياسية ووصولهم إلى العرش ؟

ولن نستطيع الإجابة برأى قاطع على هذا التساؤل طالما لا تظهر فى الاكتشافات الأثرية وثائق جديدة تنير أمامنا الطريق أكثر مما لدينا الآن .

كان مقر حكم هذه الأسرة كمن سبقها من الأسرات منذ الأسرة الثالثة على الأقل فى العاصمة أى فى منف ، وكان أول ملوكها « تتى » ، وقد دفن فى هرمه الذى شيده فى سقارة . ويذكر لنا مانيتون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه ، وربما كان ذلك صحيحا لأن مؤسسى الحكم الجديد يكونون معرضين دائما لانتقام من نحوهم عن السلطان وأبعدوهم عن مكان الصدارة ، ويعززه أن من جاء بعده على العرش وهو الملك « وسر كارع »[1] لم يبق فى

---

(١) عدد ملوك هذه الأسرة سبعة بمجموع حكمهم ١٤٠ سنة وقد حكموا حسب الترتيب الآتى :

١ — تتى ١٢ سنة . ٢ — وسر كارع ٤ سنوات . ٣ — ببى الاول ٢٥ سنة .
٤ — مرى إن رع الاول (عنتى إم ساف) ١٠ سنوات . ٥ — ببى الثانى ٩٤ سنة .
٦ — مرى إن رع الثانى (عنتى إم ساف الثانى) سنة واحدة .
٧ — الملكة نيتوكريس (منكاورع نيت إقرتى) سنتان .

الحكم إلا سنوات قليلة ولم يكد يخلف وراءه آثارا فى البلاد . ولأمر ما أسقطته النقوش القديمة التى تلت هذه الفترة ، إذ ربما كان من البيت المالك القديم ، استعاد عرش أسرته ولكنه غلب بعد ذلك على أمره فلما استتب الأمر للملك « پپي الأول » لم يجرؤ الموظفون على ذكره إذ اعتبروه مغتصبا خارجا على السلطة الشرعية . فى تاريخ حياة « ونى » أعظم شخصيات ذلك العهد نراه يذكر كيف بدأ حياته فى عهد « تتى » عندما كان طفلا صغيرا يتمنطق بحزامه ويذكر الوظائف التى تولاها فى شبابه ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عهد « پپي الأول » الذى عاصر كل سنى حكمه ثم امتد به العمر بعد ذلك . نرى « ونى » ينتقل مباشرة إلى عهد پپي دون إشارة إلى حكم من جلس قبله على العرش ، ولم يكن يجرؤ على إسقاط ذلك الملك لو لم يكن متأكدا أن فى ذلك إرضاء للعائلة الذى حاز على ثقة ماوكها وربى فى نعمائهم .

ببي الأول :

انتشل پپي الأول بلاده مما كانت فيه وتمتعت مصر خلال الخمسة وعشرين عاما التى حكمها بعصر زاهر ، ارتقت فيه الفنون وعادت مصر مرة ثانية إلى صلتها بمن جاورها من الأمم ، ويكفى الإنسان أن يرى تمثاله الكبير المصنوع من النحاس فى متحف القاهرة أو تماثيله الأخرى فى غيره من المتاحف وبخاصة تلك التماثيل المصنوعة من المرمر فى متحف بروكلين فى نيويورك أو يزور معبده فى سقارة القبلية على مقربة من مصطبة فرعون ، ويمتع طرفه بجمال نقوشه ليدرك أن المستوى العظيم الذى وصلت اليه النقوش بين أيام إسيسى فى الأسرة الخامسة والملك تتى فى الأسرة السادسة ظل عاليا .

ولسنا نعرف حتى الآن الصلة الحقة التى تربط بين هذا الملك وبين « تتى » مؤسس الأسرة ، ولكننا نعرف أن حياته العائلية لم تكن فى مستهل حياته خالية من المؤامرات إذ يذكر لنا « ونى » الذى أشرنا إليه أن هذا الملك عينه

ليكون بين المحققين مع زوجته لثقته فيه ، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد ما هى المؤامرة التى حوكمت هذه الملكة من أجلها .

على أى حال فبعد محاكمة الملكة « إمتس » أراد أن يوطد مركزه فى البلاد فالتجأ إلى سياسة جديدة وهى مصاهرته لإحدى العائلات القوية فى الصعيد فاتخذ ابنة أمير منطقة أبيدوس ونجع حمادى زوجة له وأصبحت أما لابنه « مرى إن رع » الذى تولى الحكم من بعده ، ثم تزوج أيضا من أخت لها ورزق منها بابن آخر تولى الملك وهو طفل صغير بعد موت أخيه .

وكان من بين الأعمال التى سجلها « ونى » فى تاريخ حياته فى عهد پپى الأول تلك الحملات التى جمع « ونى » رجالها من جميع أنحاء الصعيد . وقبائل النوبة وفى إحداها تعاون الأسطول مع الجيش على قهر أولئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد .

خلفاء ببى الأول :

كان « مرى إن رع » طفلا صغيرا عند ما مات أبوه ، إذ أنه بالرغم من جلوسه على العرش نحو عشر سنوات فقد كان عند وفاته شابا يافعا لم يبلغ الحلم إذ كانت تتدلى خصلة من الشعر على جانب رأس مومياءه التى عثر عليها فى هرمه . وتكاد معلوماتنا عن عصر هذا الملك تنحصر فيما أمدتنا به لوحة « ونى » التى ذكرت الأعمال التى كلفه بها وكان آخر عمل قام به هو حفره لخمس قنوات فى صخور الشلال عند أسوان لتسهيل الاتصال بين مصر والبلاد الواقعة إلى الجنوب منها ، إذ أصبحت سياسة الأسرة السادسة هى الاتصال بالجنوب وإرسال قواد الحملات لاستكشاف تلك البلاد وإحضار خيراتها وسنتكلم عن ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد .

وبعد وفاة « مرى إن رع » الأول تولى الملك أخوه الطفل « پپى الثانى » وقد ذكر مانيتون أنه حكم أربعة وتسعين عاما وأنه جلس على العرش وعمره

٦ سنوات [١] . وكانت أمه منذ بداية حكمه وصية عليه ، وكان خاله الأمير « زاو » الذى أصبح وزيراً له . صاحب النفوذ الأول فى البلاد . وقد أقامت هذه العائلة مقابرها منحوته فى الصخر فى المنطقه المعروفة باسم القصر والصياد على مقربة من نجع حمادى .

وربما كان أشهر ما تم من أعمال فى السنوات الأولى من حكم هذا الملك تلك الحملات التى كان يرسلها إلى الجنوب تحت إمرة حكام الفنتين .

ضعفت سلطة الملوك بازدياد نفوذ حكام الأقاليم الذين أصبح كل منهم أميراً حاكما فى مقاطعته لا يكاد يربطه بالعرش إلا خيط واهن ضعيف من الولاء . وفى مثل تلك الظروف وعند ما تتفكك عرى السلطة المركزية تزداد الأعباء على كاهل الحكومة فتتعطل المشروعات العامة ويحاول كل موظف من الموظفين أن يثرى ويجمع ما يستطيع جمعه من الثروة ، فتتكدس الأعباء والمظالم على كاهل الفلاح المسكين الذى يصبح فريسة لكل من هب ودب من الأغنياء أو من موظفى الحكومة .

ومن سوء الطالع أن العمر امتد بذلك الملك الضعيف فازداد انهيار البلاد ، واشتدت المظالم وعندما فاض الكيل شبت ثورة عاتية فى البلاد ، ثورة على العرش وعلى الحكام وعلى الآلهة . وتولى الحكم فى آخر أيام هذه الأسرة اثنان وكان أولهما يسمى « مرى إن رع الثانى » وقد حكم سنة واحدة ثم جلست على العرش امرأة وهى « نيت إقرت » التى ذكرها ما نيتون باسم « نيتو كريس » فلم تبق إلا عامين ثم عمت الفوضى وانتهت أيام الأسرة السادسة وأيام الدولة القديمة .

---

(١) لا شك فى أنه حكم ٩٤ عاما ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد جاء إلى العرش وعمره ٦ سنوات اللهم إلا إذا كان ببى الأول قد أشرك معه ابنه مرى إن رع فى الحكم قبل موته ببضع سنوات ، وهذا أمر غير محتمل الحدوث فى ذلك الوقت من تاريخ مصر ولم يقبل عليه المصريون إلا فى الأسرة الثانية عشرة .

ذلك هو مختصر التاريخ السياسى لهذه الأسرة ، ولن يكون عرضنا لتاريخ هذه الأسرة صحيحا إلا إذا تحدثنا بشيء من التفصيل عن ثلاثة مواضيع أولها تاريخ حياة القائد « ونى » الذى لعب الدور الأكبر فى تاريخ البلاد فى أيامه وثانيها موضوع الرحالة الذين ذهبوا إلى السودان ، ثم الحديث عن تلك الثورة الإجتماعية التى هب فيها الشعب لينتقم لنفسه ممن ساموه الظلم والاضطهاد .

القائد «ونى» :

كان ضعف سلطة الملوك فى الأسرة الخامسة مشجعا لبعض كبار الموظفين على أن يتباهوا فى مقابرهم بما فعلوه وبما رفع من قدرهم فى خدمة الملوك . وكلما مر الزمن كلما ازداد هذا التقليد فأكثروا منه ، وربما كان أهم نقش بل وأهم وثيقة تاريخية خلفتها لنا الأسرة السادسة ، هى لوحة « ونى » الذى كان فى يوم من الأيام قائما فى قبره فى أبيدوس وهو الآن فى المتحف المصرى ، ويقص فيها علينا تاريخ حياته وأعماله المختلفة فى خدمة ملوك تلك الأسرة .[1]

ويذكر «ونى» أنه بدأ حياته فى الحكومة فى عهد الملك «تتى» أول ملوك هذه الأسرة وكان إذ ذاك فتى يافعا ثم رقى فى عهده إلى أن أصبح فى مركز كبير إذ كان مديرا لمكتب الزراعة كما كان فى الوقت ذاته مديرا لأراضى الملك . ويستمر «ونى» فى قصته ، وقد تعمد ألا يشير إلى من حكم بعد « تتى » كما قلنا ، ويذكر باقى تاريخ حياته فى عهد «پپى الأول» فيذكر محبة الملك له وثقته فيه إذ أسند إليه أيضا وظيفة كبرى فى القضاء وهى وظيفة « قاضى نخن » وجعله رئيساً لمجلس الستة وبذلك كان من أهم شخصيات ذلك العهد ووصلت ثقة الملك فيه أنه كان يحقق فى قضايا الملك الخاصة بحريمه .

---

(١) لوحة «ونى» فى المتحف المصرى الآن ورقمها ١٤٣٥ وقد نشرت عدة مرات وأحدث نشر لنقوشها فى كتاب L. BORCHARDT, *Denkmaler des alten Reiches (Cat. Gen. du Musée du Caire)*, 1937, *Vol. I*, 115 *ff*, *pls* 29-30 وهى مترجمة فى كتاب BREASTED, *Ancient Records*, *I* § § *306-315*

ويقص علينا «ونى» أيضا كيف أسند إليه الملك مهمة تأليف جيش عدد رجاله «عشرات الآلاف» من جميع بلاد الوجه القبلى، من إلفنتين فى الجنوب حتى إطفيح فى الشمال، وكذلك من أفراد القبائل التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فى بلاد النوبة مثل إرثت وإيام وواوات والمجا وغيرها، وأسند اليه إمرة هذا الجيش الكبير. ويفخر القائد الشاب بأن النظام كان مستتبا بين جنوده وأن جميع رجال الجيش كانوا مثالا لما يجب أن يكون عليه الجندى فلم يتعرض واحد منهم لأى شخص فى أى بلد مروا به، ولم يغتصب أحد منهم شيئا مهما قلت قيمته.

وأتم ما كلفه به سيده. وبالرغم من أنه لم يذكر اسم مكان خاص بل كان يشير دائما إلى القاطنين فوق الرمال فان هذه الحملة لم تكن ضد شبه جزيرة سينا بل كانت فى فلسطين، إذ أنه يذكر فى شعره الذى تغنى فيه برجوع الجيش سالما، أشجار التين وكروم العنب ويشير إلى بلاد آهلة بالسكان.

وأهم مافى هذا النقش ما ذكره «ونى» بعد ذلك من أن ثورة أخرى قامت فى تلك البلاد فأرسله الملك لإخمادها، فجهز جيشين أحدهما سار بطريق البر، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر فنزل عند مكان من المحتمل جدا أن يكون قريبا من جبال الكرمل، وسار بعد ذلك فى داخل البلاد وانتصر، وقمع تلك الثورة [1]. كانت حملات «ونى» على فلسطين هى آخر أعماله الهامة فى عهد پپى الأول فلما تولى ابنه «مرى إن رع» حكم البلاد لم يفرط فيه بل زاد من قدره فعينه حاكما على الصعيد كله، وكان يسند إليه من آن لآخر مهمة إحضار الجرانيت اللازم لهرمه ومعابده من منطقة أسوان وإحضار المرمر

---

(١) بالرغم مما ذكره ونى عن الثورة والثائرين فمن المؤكد أن فلسطين لم تكن فى ذلك العهد بلدا تابعا لمصر أو تحت حكم ملك مصر وربما كانت هذه الثورة ليست إلا قيام بعض سكان تلك البلاد أو إحدى الشعوب التى وفدت اليها بتهديد طرق التجارة المصرية إذ أن ذلك كان كل ما يعنى مصر فى ذلك العهد.

من محاجر حاتنوب فى مديرية أسيوط . وكان آخر عمل كبير قام به فى عهد هذا الملك حفره لخمس قنوات فى صخور الشلال لتسهيل سير السفن ، وقد أتم ذلك فى عام واحد ، وذهب « مرى إن رع » بنفسه ليرى العمل بعد إتمامه وليقدم له زعماء أسوان وقبائل النوبة ولاءهم ، ويقدم قرابينه للإله خنوم سيد منطقة الشلال . وينتهى « ونى » من قص تاريخ حياته عند إشارته إلى شق القنوات . ويذكر أن كل ما ناله من تكريم كان بسبب مزاياه وقيمته الشخصية وتفانيه فى تنفيذ أوامر الملك ويختم نقشه بقوله بانه كان محبوبا من أبيه ممدوحا من أمه ، ويذكر اسمه مسبوقا بأعظم لقب ناله وهو لقب حاكم الوجه القبلى .

الرحالة المصريون يرتادون الجنوب :

زاد اهتمام ملوك مصر بشئون الجنوب منذ أيام الأسرة الخامسة عند ما كانوا يرسلون الحملات لإحضار خيرات السودان . وزاد هذا الاهتمام فى الأسرة السادسة فأوكلوا إلى أمراء جزيرة الفنتين مهمة القيام بتلك الرحلات إذ كان أولئك الأمراء أعرف الناس بما يلى بلادهم ، وكانوا يشرفون على الحدود المصرية فى الجنوب . وأثمرت سياسة « ونى » وبخاصة منذ توليه أمر وظيفة حاكم الوجه القبلى ، فوطد صلته بزعماء النوبة وكان هؤلاء الزعماء وأتباعهم يتطوعون فى الجيش المصرى عند قيامه بالحروب فى فلسطين كما كانوا يختارون من بين أولئك النوبيين حراسا يسهرون على الأمن منذ أيام الأسرة السادسة فى العاصمة وربما فى غيرها من المدن أيضا .

وعندما كان «ونى» حاكما على الوجه القبلى ، وكان الرجل الذى يلى الوزير فى الأهمية ، نراه قد اهتم بارسال الرحالة نحو الجنوب فقام حرخوف بحملاته الثلاثة الأولى ـ كما قص علينا فى تاريخ حياته المسطر على واجهة قبره فى

أسوان[1] في عهد الملك «مرى إن رع» أما رحلته الرابعة فقد كانت فى عهد الملك پپي الثانى .

كان حرخوف حاكما لإقليم إلفنتين ولكنه فى الوقت ذاته كان كاهنا لبعض الآلهة أما لقبه الرئيسى الذى كان يعتز به أكثر من كل ماعداه فهو لقب « رئيس الحملة » . كان حرخوف فى حملته الأولى فى صحبة أبيه وكان يسمى « إرى » إلى منطقة تسمى بلاد إيام لفتح الطريق إلى تلك البلاد ، وقد تمت الرحلة فى سبعة شهور . ويستمر حرخوف فى سرد قصته فيذكر أن ملكه ارسله وحده فى المرة الثانية فخرج من إلفنتين ويذكر بعد ذلك البلاد التى مر بها واحدا بعد آخر ويفتخر بأن أحدا من الرحالة الذين سافروا قبله لم يتسنى له ارتياد المناطق التى ارتادها أو يعود من رحلته بمثل ماعاد به من هدايا .

وفى رحلته الثالثة اتخذ طريقاً آخر ، إذ سافر على « درب الواحات » ووجد حرخوف أن حربا قد استعرت بين زعيم قبيلة « إيام » وبين قبائل الـ «تمحو» الذين كانوا يعيشون فى غرب مصر ، فأصلح بينهما وعاد من تلك الرحلة ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور وجلود الفهد وأنياب الفيلة وبذر السمسم وغير ذلك ، كما رافقه فى عودته بعض زعماء القبائل ليدلوه على الطريق .

ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث له فى رحلته الرابعة التى قام بها فى العام الثانى من حكم الملك پپي الثانى لأن حصوله على قزم من تلك الرحلة قد غطى على كل شيء آخر . ولو حللنا تفاصيل تلك الحملات وتتبعنا البلاد التى ذكرها لخرجنا بالنتائج الآتية :

---

(١) النصوص التاريخية فى مقبرة حرخرف منشوره فى SETHE, *Urkunden* I, 120-7 : 128-131.

وقد نشر إرمان خطاب الملك نفر كارع فى مقاله ERMAN, *Der Brief des Konigs Nefer-ke'-re in A. Z.* XXXI, 62-70

وقد ترجمت هذه النصوص الخاصة بالرحلات مرات كثيرة ويجدها القارىء بين النصوص التاريخية التى ترجمها برستد إلى الانجليزية فى كتابه *Ancient Records, Vol. I.*

ا — كانت أولى رحلاته مع أبيه ، وقد وصل إلى بلاد « إيام » أى المنطقة الواقعة جنوبى وادى حلفا .

ب — كانت رحلته الثانية فى مناطق لم يسبقه إلى اختراقها أحد من قبل. وقد كانت هاتان الرحلتان تبدآن بالنزول فى النيل إلى مكان معين قريب من وادى حلفا ثم يبدأ بعد ذلك سيره بالبر .

ج — أما الرحلة الثالثة فقد كانت فى طريق البر ، وسار فيها على درب الأربعين . واتصل فيها بالتمحو ، ومن المحتمل جداً أن هدفه الذى حققه كان الوصول إلى درافور .

د — وربما شجعه نجاحه فى رحلته الثالثة على السفر مرة أخرى ، ولكن نجاحه فى الحصول على قزم جعله لا يذكر شيئاً آخر سواء عن الطريق الذى اتخذه أو الحاصلات والهدايا التى عاد بها ، أكثر من أنه كان قد وصل إلى المنطقة الواقعة إلى جنوبى وادى حلفا (إيام) . وأرسل حرخوف ينبىء الملك بحصوله على ذلك القزم فتلقى رسالة من الملك كتبها بخط يده ، وقد اعتز بها حرخوف ونقل نصها الحرفى على جانب مدخل قبره وإنى أقدمه هنا مترجما ترجمة حرفية لإعطاء فكرة عن صيغة خطابات ذلك العهد ، ولكن يجب ألا ننسى أنه خطاب من طفل صغير حديث السن :

« الختم الملكى نفسه فى السنة الثانية الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الخامس عشر .

رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، رئيس الحملة حرخوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علما بأنك عدت سالما من بلاد إيام مع حماتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الإلهة حاتحور سيدة بلاد « إماوو » إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى

الملك نفر كارع (پپي الثانى) عاش خالدا إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم الذى أحضره قائد السفينة « با ور دد » من بلاد پونت ، فى عهد الملك « إسيسى » . وقلت لجلالتى : « لم يحدث أبدا أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل » . لقد أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيرا وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حرخوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعال إلى الشمال . تعال سريعا إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للأله، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فاذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصا أذكياء على جانبيها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء . وإذا نام فى الليل فعين رجالا أذكياء ليحرسوه فى حجرته ، وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة لأن جلالتى يحب أن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وبلاد پونت . فاذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فان جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل قائد السفينة «باور دد» فى أيام الملك «إسيسى» لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق ، المشرف على الكهنة ليأمر باعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء » .

بى - نخت :

لم يستمر نشاط حرخوف فى قيامه بتلك الحملات أكثر من سبعة أعوام قام خلالها بالحملات الأربع ثم تلاه فى هذا العمل حاكم آخر امتاز بشدة البأس وكان اسمه « بپى نخت » الذى يقص علينا فى تاريخه الذى كتبه فى قبره فى أسوان شيئا كثيرا عن نشاطه فى الجنوب .

كانت صلة مصر بقبائل النوبة فى أيام ونى وحرخوف صلة صداقة وتعاون ، ولسنا نعرف السبب الذى جعل بلاد إرثت (حول بلدة توماس فى النوبة) تتعرض لغضب الملك فيكلف «پپى نخت» بتأديبهم :

« أرسلنى جلالة مولاى لأؤدب بلاد إرثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عدداً كبيراً ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين ، وأحضرت منهم أسرى إلى القصر كان عددهم عظيما ، لأنى كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الأشداء » .

ويذكر هذا الشخص فى موضع آخر من نصه بأنه ذهب مرة أخرى إلى تلك البلاد لتهدئة الحالة فيها ، وأحضر معه عند عودته زعيمى الثوار ومعهما هدايا من الثيران والأبقار . ومن المحتمل أن هذه الحملة الثانية لم تكن حملة حربية وإنما كانت لإصلاح ما عساه أن يكون قد أفسدته الحملة الأولى .

ويقص علينا أيضا أن الملك پپى الثانى كان قد أمر أحد ضباطه ببناء سفينة كبيرة على ساحل البحر الأحمر للإبحار بهـا إلى بلاد پونت ولكن بدو الصحراء الشرقية هاجموه وقتلوه هو ومن كان معه . فلما علم الملك بذلك أمر پپى نخت بإعداد حملة وأن يذهب للثأر للضابط المقتول وإحضار جثته[1] ، وقد قام بذلك وقتل من أولئك البدو عددا عظيما . وترينا هـذه القصة

(١) SETHE, *Urkunden* 1, 131-5

الأخيرة كيف أصبحت سلطة الملك محدودة وأنه كان يعتمد على ولاء حكام الأقاليم الأقوياء لتنفيذ ما يريده .

ميخو وسابنى :

ولم تحل أعمال بيى نخت فى بلاد النوبة دون استمرار حملات الاستكشاف والتجارة من آن لآخر ، ونعرف من مقابر أسوان أيضا قصة اثنين من أولئك الرحالة وهما ميخو وابنه سابنى تركا لنا نقوشا فى مقبرتهما بأسوان عرفنا منها أن الأب دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة سيده الملك إذ قتله رجال إحدى القبائل النوبية عند عودته من إحدى رحلاته [1] .

ويذكر سابنى أن أباه كان حاكما لإلفنتين وكان يحمل لقب رئيس الحملة كما كان يحمل عدة ألقاب كهنوتية ، وعينه الملك فى كل تلك الوظائف كما أسند اليه أيضا وظيفة حاكم الجنوب عندما نجح فى إحضار جثة أبيه والانتقام ممن قتلوه . ويذكر لنا سابنى أن بعض الناجين ممن كانوا مع أبيه قصوا عليه ما حدث : « وعندئذ اصطحبت جنودا من رجالى ومائة حمار وأخذت معى عطورا وعسلا وزيتا وملابس لأقدمها هدايا فى تلك البلاد . واتجهت إلى النوبيين بعد أن بعثت بخطابات إلى الملك بأنى سافرت لإحضار الجثة من بلاد واوات وإرثت ولأهدىء الأمور فى تلك المناطق » . ويستمر فى قصته فيقول إنه عثر على جثة أبيه فى منطقة نائية بعيدة فصنع لها تابوتا حمله على ظهر حمار ثم سار مخترقا البلاد حتى رجع إلى واوات (منطقة كورسكو) وأرسل خطابا إلى الملك ينبئه بما حدث ، كما أرسل إليه ماأحضره معه من هدايا . وأراد الملك أن يظهر عطفه على كل من ميخو وابنه سابنى فأمر

(١) نقوش مقبرة ميخو وسابنى منشورة فى كتاب SETHE, *Urkunden*, I, 135-40
ومترجمة فى كتاب BREASTED, *Ancient Records*, I, pp 164-5
وهناك احتمال بأن حملة بيى نخت لتأديب بلاد إرثت كانت انتقاما لمقتل سابنى .

بإرسال المحنطين الملكيين من منف ومعهم كل ما يلزمهم لعملهم ، ودفنه دفنة تليق بأحد حكام الأقاليم الذين ضحوا بحياتهم فى خدمة ملكهم ، وأمر بأن يتولى سابنى وظائف أبيه وكتب له قائلا : « لقد فعلت كل هـــذه الأشياء العظيمة مكافأة لك على عملك الكبير لأنك أحضرت جثة أبيك » .

هذه بعض قصص الرحالة المصريين الذين ذهبـــوا لاكتشاف البلاد الواقعة إلى الجنوب وليفتحوا طرقاتها للتجارة . قام المصريون بتلك الرحلات فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ليكتشفوا قلب القـــارة الإفريقية قبل أن يولد ستانلى ولفنجستون وغيرهما من الرحالة الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتى عام .

كانوا يذهبون إلى الجنوب تنفيذا لسياسة استنها ملوك الأسرة الخامسة وشجعها واهتم بها اهتماما خاصاً ملوك الأسرة السادسة ، وقد كانت رحلات أولئك الرحالة وما أنشأوه من صلات مع زعماء القبائل وما حصلوا عليه من معلومات عن البلاد ، تمهيدا لصلات سياسية أقوى كما سنرى عند الحديث على الدولة الوسطى .

الثورة الاجتماعية :

وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت الفوضى ، فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه من طريق غير الثورة على تلك الأوضاع ، والانتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب .

ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث فى البلاد ، تنحصر فيما جاء فى برديتين إحداهما تسمى بردية « إيبو ور »[1] والثانيـــة تسمى بردية

---

(١) توجد هذه البردية الآن فى متحف ليدن بهولندا ، وقد نشرت عدة مرات ، ومنها ترجمة جاردنر A. H. GARDINER, *The Admonitions of an Egyptian Sage* (*Leipzig* 1909) التى يعتبرها الأثريون أوفى دراسة لها . وقد ترجمها إرمان فى كتابه عن أدب المصريين القدماء

« نفر روهو »[1] وقد كتبت أولاهما وهى الأهم على لسان شخص حكيم استطاع أن يصل إلى مقر الملك الذى لم يذكر اسمه ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه، ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة . أما الثانية فقد كتبت بعد تلك الثورة ، كتبها كاتبها كدعاية سياسية للملك أمنمحات الأول (يسميه باسمه المختصر أمينى فى النص) وينسب أصل حوادثها إلى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى طلب من رئيس الكهنة المرتلين فى معبد الإلهة « باستت » ويسمى « نفر روهو » أن يحدثه عن شىء سيحدث فى المستقبل فقص عليه ما سيحدث فى البلاد من فوضى ويطيل فى وصفها ثم يقول أخيراً أن الذى سينقذ مصر من تلك الحالة ملك اسمه أمينى يأتى من الجنوب وأمه نوبية ويولد فى الصعيد .

وليس فى استطاعتنا أن نقدم هنا نص هاتين البرديتين ، ويكفى أن نشير إلى بعض ما جاء فيهما[2] .

= (فى الترجمة الأنجليزية لبلاكمان من ص ٩٢ - ١٠٨) وحللها برستد فى كتابه
J. H. BREASTED, *The Dawn of Conscience* (1933), P. 193-200
والنص الحالى يرجع تاريخه إلى الاسرة التاسعة عشرة أو العشرين ولكنه منقول عن أصل لا يمكن أن يكون قد كتب إلا فى فترة الاضطرابات نفسها أى فى آخر الأسرة السادسة وذلك اعتمادا على لغة وأجرومية وبعض المميزات الأدبية فى كتابات ذلك العصر .

(١) توجد بردية نفر ـ روهو فى متحف لينتجراد فى الاتحاد السوفيتى وقد نشرها جولينشف عام ١٩١٣ وترجمها كل من جاردنر
LAE, 110-115 فى ERMAN, وإرمان *Journal of Egyptian Archaeology, I* (1914), 100 - 9
أما عن تاريخ كتابتها فمن المرجح جدا أنها كتبت فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة وربما فى عهد الملك أمنمحات الأول ، إذ يحاول الكاتب أن يدخل فى روع الناس أنه كانت هناك نبوءة منذ عهد الملك سنفرو فى الأسرة الرابعة بأن هذا الملك سينقذ البلاد من الفوضى التى ستتعرض لها .

(٢) سأجتهد قدر الاستطاعة استخدام التعبيرات القديمة الواردة فى هذه البردية لوصف ما حدث فى البلاد .

لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ولم يعد الناس يحرثون حقولهم وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل أن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون ، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية ، وأولئك الذين لم يمتلكوا شيئاً فى حياتهم يرفلون فى ملابس من خير أنواع الكتان . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملأى بخير أنواع العطور ، وأن الذى لم يمتلك صندوقا صغيراً فى حياته أصبح مالكا لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة .

ويا ليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالما تمنوا ولادتهم ، ألقوهم فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وانهارت الحكومة المركزية وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول « فلنطرد بعضا منا » ومما زاد الحالة سوءاً ان عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضا فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه .

إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شيء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شيء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد لإله أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه . ولكن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فلا بد للناس من أن يعودوا إلى الهدوء بعد الثورة وأن يحاولوا خلق مجتمع ونظام جديدين . وإذا كانت الحقول قد تركت دون زراعة وتعكرت مياه النيل بلون الدم وملئت بجثث الموتى ، كان لابد للناس أن يهدأوا وأن ينتجوا ليعيشوا . ولم يعد الشعب يجد من يصب عليه مزيدا من غضبه أو شيئا يمكنه أن يغتصبه ممن كان يملكه ، فخلد إلى الهدوء وتطلع إلى الذين احتلوا منه مكان الزعامة والمشورة ليخرجوه مما هو فيه ليبدأ حياة جديدة .

وقد مضت فترة طويلة قبل أن تعود مصر إلى ما كانت عليه ، وسنرى فى الفصل القادم ماذا حدث خلال عصر الفترة الأولى .

الفصل الرابع

عصر الفترة الأولى

(٢٢٨٠ — ٢٠٥٢ ق.م)

الأسرتان السابعة والثامنة :

صورت بردية «إيبو - ور» حالة مصر فى آخر أيام الأسرة السادسة خير تمثيل . فقد انهارت السلطة المركزية فى البلاد وأصبحت حدودها مفتوحة ، وما لبثت أن وفدت جماعات كبيرة من البدو المقيمين على الحدود وخاصة من الشرق وأخذوا ينهبون الناس ويذيعون الذعر فى النفوس . وبدلا من أن يقف رجال الأمن فى وجه العابثين أصبحوا هم الآخرين ينهبون ويقتلون ، فلا عجب إذا قامت ثورة جارفة حطمت كل شىء ولم يسلم منها مدفن أو معبد أو ديوان حكومى ، وامتد غضب الشعب إلى الأثرياء فنهبوا بيوتهم وقتلوا من قتلوا وشردوا من شردوا وأصبحت الخادمات يجلسن فى أماكن سيداتهن وأصبح السوقة هم أهل الحل والعقد .

فاذا ما سألنا أنفسنا عن مصير البيت المالك فاننا لا نلبث أن نقف على الجواب مما خلفه لنا مانيتون من أخبار وما أبقى عليه الزمن من أسماء مدونة فى بردية تورين وفى جدول أسماء الملوك بأبيدوس وجدول سقارة وغيرها .

يذكر ما يتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة ، وحكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوما . ومهما حاولنا تفسير ذلك لا يمكننا أن نجد ما نستطيع أن نسميه جوابا مقنعا ، وأقرب شيء إلى العقل هو أنه ربما اجتمع سبعون من كبار الموظفين وحكام الأقاليم وكونوا من أنفسهم هيئة حاكمة ، وكان عددهم سبعين شخصا . ولكن هذا النظام ، أو بعبارة أخرى هذا النوع من الحكم الذى لم يعتد عليه المصريون ، لم يجد قبولا منهم فلم يستمر أكثر من سبعين يوما . على أى حال فإن أكثر المؤرخين الآن يميلون إلى القول بأن أيام هـذه الأسرة انتهت فى العام نفسه أى أن عام ٢٢٧٠ ق.م . هو آخر حكم الدولة القديمة[1] وهو فى الوقت ذاته بداية الأسرة السابعة المنفية وعصر الفترة الأولى وأول سنى الأسرة الثامنة التى حكمت ٣٨ عاما فقط .

ولكن الأستاذ شتوك الذى كتب رسالة خاصة عن هذا العصر يرى أن عددا من الملوك قد تولوا الحكم فى الأسرة السابعة فى منف ويعطى جدولا بأسمائهم . ولكن فى الوقت ذاته ، ومنذ عهد الملك الثالث منهم ، بدأت عائلة مالكة جديدة فى الصعيد (فى قفط أو فى أبيدوس) وهى الأسرة الثامنة ومؤسسها « نترى ـ كا ـ رع » . وبدأت أيضا عائلة مالكة أخرى فى اهناسيا

---

(١) يكاد يكون الأستاذ اسكندر شارف (*Scharff*) هو المؤرخ الوحيد الذى يصر على اعتبار الأسرتين السابعة والثامنة من الدولة القديمة . أنظر كتابه *A. Scharff-A. Moortgat, Agypten und Vorderasien in Altertum* (1950)
ويرى أن عصر الفترة الأولى يقتصر على الأسرتين التاسعة والعاشرة ويتفق مع جمهرة المؤرخين والأثريين فى اعتبار بدء الدولة الوسطى بالأسرة الحادية عشرة فى عام ٢٠٥٢ ويريد شارف بذلك أن يحيى فكرة واضع بردية تورين إذ أنه ذكر فى الملخص بعد ذكره لملوك الأسرة الثامنة أنه قد مضى منذ جلوس منا على العرش حتى ذلك الوقت ٩٥٥ سنة و ١٥ يوما أى أنه اعتبر الفترة من الأسرة الأولى حتى نهاية الثامنة وحدة قائمة بنفسها ويذكر بعد ذلك ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة — وهم مهشمون جداً لسوء الحظ ولكن مجموع عددهم وهو ١٨ ما زال واضحاً فى البردية .

وهى الأسرة التاسعة ومؤسسها أختوى (أوخيتى) الأول[١]. ولكن الرأى الأرجح الذى يجد قبولا من الغالبية الكبرى من الباحثين هو أن الأسرة السابعة لم يزد حكمها فى منف عن عدة شهور ثم تلتها فى منف أسرة حاكمة جديدة من أحد فروع البيت المالك القديم حكموا أيضا فى منف وكان عدد ملوكها خمسة عشر ملكا وأنهم لم يحكموا فى قفط [٢] أو فى ابيدوس كما قال بعض الباحثين .

أما الأسماء التى ذكرها پترى وذكرها شتوك فانها ـ أو العدد الأكبر منها ـ أسماء لملوك حكموا فى عصور تالية ، ولم يخلفوا وراءهم آثارا إلا جعارين كتبت عليها أسماؤهم .

كانت البلاد مفككة العرى ، وكان الوجه البحرى بصفة خاصة تحت رحمة عصابات البدو التى أذاعت بين أهله الذعر والخوف ، والتى لم تجد من يقف فى وجهها . أما فى مصر الوسطى والصعيد فقد كانت الحالة أفضل نسبيا إذ استقل حاكم كل منطقة بها وفرض عليها سلطانه ، وفى مثل تلك الظروف يحاول كل حاكم قوى أن يضم إليه أملاك غيره من جيرانه ويخضعهم له فيظل الناس فى كرب مستمر بسبب الغارات التى يتعرضون لها وبسبب ماينجم عن الحروب من قتل وتخريب ونهب أموال وشل للحياة العامة . وفى غمرة هذه

---

(١) نشر شتوك بحثه هذا فى كتابه *Die erste Zwischenzeit Aegyptens* الذى صدر فى عام ٤٩ ولكنه وجد معارضة ونقدا شديدين من الأثريين ولم يقبله غير الدكتور أوتو فى كتابه الأخير *Aegypten, Der Weg des Pharaonenreiches* الذى صدر فى عام ١٩٥٣ .

(٢) كان زيته أول من اقترح الفكرة القائلة بأن الأسرة الثامنة حكمت فى قفط وقد بنى رأيه هذا على وجود الكثير من آثار ملوكها هناك وخاصة فى المراسيم المشهورة SETHE, *Gott-ingen Gelehrte Anzeiger*, 147 (1912), p. 705-725
ولكن هذا الرأى أصبح قديما الآن والأسرة الثامنة حكمت فى منف كما ورد فى بردية تورين ودفن أكثر ملوكها فى سقارة الجنوبية على مقربة من هرم بپى الثانى .

الحوادث أراد حاكم منف . وربما كان من نسل ملوك الأسرة السادسة أن يعيد للبلاد وحدتها فأعلن نفسه ملكا على البلاد وساعده فى ذلك بعض حكام الصعيد وامتنع البعض الآخر .ومن المحتمل أيضا أن يكون بعض هؤلاء الحكام قد رأى أنه لم يكن أقل من ملوك منف فادعى الملك لنفسه أيضا ، وفى خلال هذا الضباب الكثيف يمكننا أن نرى بعض صور غير واضحة المعالم تماما . فإن ملوك الأسرة الثامنة كانوا يحكمون فى منف على الأرجح كما قلنا ، ولكنهم كانو يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية فى الأقاليم ،فكانوا يصاهرونهم ويمنحونهم بعض الامتيازات وقد حفظت لنا الأيام فى خرائب معبد الإله « مين » فى قفط بضع مراسيم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة لأعضاء هذا البيت فاعتزوا بها ووضعوا صورها منقوشة على لوحات حجرية فى المعبد ، وأكثر هذه المراسيم لمصلحة اثنين من هذا البيت وهما « شماى » الذى كان أميراً لذلك الإقليم وابنه « إيدى »[1] .

وتوجد أجزاء من عدد منها فى متحف المتروبوليتان بنيويورك واحد منها باسم (وازكارع) (خع باوو) وأربعة من أيام (نترى باوو) (نفر كارع) الذى خلفه على العرش وقد أصدر هذه المراسيم الأربعة فى يوم واحد،وذلك فى العام الأول من تولية الملك . أصدر هذا الملك أول تلك المرسيم لتحديد الألقاب التى تمنح لابنته الكبرى « نبيت » زوجة الوزير « شماى » ويعين ضابطا خاصا ليكون رئيسا لحرسها وفى المرسوم نفسه يأمر الملك بعمل

---

(١) بدأت عادة إصدار المراسم منذ أواخر أيام الأسرة الرابعة فى عهد شبسسكاف ووجد بعضها من عهد الأسرة الخامسة وكثرت فى أيام الأسرة السادسة وخاصة فى عهود تيتى وبيى الأول ومرنرع وبيى الثانى كما استمر التقليد كما رأينا فى عصر الفترة الأولى وخاصة من الأسرة الثامنة لحكام قفط أنظر :

A - WEILL, *Les Décrets royaux de l'Ancien Empire Egyptien* (1912),

B - MORET, *Chartres d'immunité dans l'Ancien Empire Egyptien* (*Journal Asiatique*, 10th *series* xx (1912), pp, 73-133 : 11th *series* VII (1916), pp. 271-341 ; X (1917), pp. 359-387.

C - SETHE, *Urkunden des alten Reiches*, I, *Leipzig* 1932-3.

سفينة مقدسة للإله « مين » ويحدد أطوالها . وفى مرسوم آخر يأمر الملك بتعيين « إيدى » خليفة لأبيه كحاكم للصعيد وأن يكون له الإشراف على الأقاليم السبعة الجنوبية ابتداء من النوبة إلى مدينة « هو » (على مقربة من نجع حمادى). ولكن نفوذ الأسرة الثامنة لم يطل [1] ، ولا نلبث أن نرى بيتا حاكما جديدا يتولى الملك ويجعل إقامة ملوكه فى مدينة اهناسيا (نن نى سوت قديما) عند مدخل الفيوم ، وهى إحدى المدن القديمة ذات الأهمية الدينية والتى عرفها الناس فى عصر اليونان باسم هراقليوبوليس لأنهم وحدوا بين إلهها حرى‌شف ومعبودهم البطل هرقل .

ملوك اهناسيا (الأسرتان ـ التاسعة والعاشرة) :

ولسنا نعرف شيئا عن النزاع الذى يرجح انه قام بين أمراء اهناسيا وآخر ملوك الأسرة الثامنة فى منف ، ولسنا نعرف شيئا عن موقف حكام الأقاليم من الأسرة الجديدة عند نشأتها ، ولكن يمكن القول بأن الأوضاع العامة لم تختلف كثيرا عن ذى قبل واستمر الملوك الجدد يخطبون ود الحكام الأقوياء ويستعينون بهم . و نعرف من ورقة تورين أن عدد ملوك هذه الأسرة ثلاثة عشر

---

(١) ذكر مانيتون أن عدد ملوك الأسرة الثامنة ١٨ ولكنه لم يذكرهم . أما قائمة أبيدوس فانها ذكرت ١٧ وحفظت بردية تورين أسماء ثمانية أما قائمة سقارة فقد تجاهلت كل الملوك الذين حكموا بعد ببى الثانى حتى أول الأسرة الحادية عشرة . ومجموع سنى حكم هؤلاء الملوك ٣٨ عاما بين ٢٢٨٠ ، ٢٢٤٢ وهاهى أسماؤهم كما رتبها هيز HAYES, *Scepter of Egypt* (1953), p. 134.

١ — نفر كارع الصغير .
٢ — نفر كارع ـ نبى .
٣ — زد كارع ـ شماى .
٤ — نفر كارع ـ خندو .
٥ — مرى إن حور .
٦ — نفر كامين .
٧ — نى كارع .
٨ — نفر كارع ـ تررو .
٩ — نفر كاحور .
١٠ — نفر كارع ـ ببى سنب .
١١ — نفر كامين ـ عنو .
١٢ — قا كارع ـ إيبى .
١٣ — واز كارع ـ خم باوو .
١٤ — نفر كاحور ـ نترى باوو .
١٥ — نفر ار كارع ـ دمج إب تاوى .

فقدت أسماء الكثيرين منهم بسبب تحطيم هذه البردية ، وأنهم حكموا من ٢٢٤٢ — ٢١٣٣ أى ١٠٩ سنوات .

ومؤسس هذه الأسرة (مرى إب رع) (أختوى) وهو أختوى الأول (أوخيتى) الذى وصفه مانيتون بأنه كان ظالما متجبرا ، لاقى الشعب على يديه كل أنواع العسف والشدة أكثر مما أصابهم على يدى أى ملك قبله ، وأنه ظل فى ظلمه وطغيانه حتى أصيب فى أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته عندما فتك به أحد التماسيح .

وربما كان مانيتون صادقا فيما رواه عن قسوة أختوى وطغيانه فاننا لا نتوقع من أمثال هذا الشخص من الطامحين المحاربين فى عصر كانت تسوده الفوضى والأطماع ، والبلد يتقاسمها الحكام ، ويتحكم البدو فى الدلتا ويتنافس حكام الصعيد فيما بينهم على النفوذ ، لا نتوقع من ملك قوى جديد ألا يقضى على كل من يقف فى طريقه دون رحمة أو هوادة .

ولسنا نعرف الكثير عن هذا الملك ولسنا نعرف أيضا من هم حكام الأقاليم الذين وقفوا إلى جانبه ، أو مدى نجاحه فى إعادة النظام إلى الدلتا رغم كل حروبه وكل قسوته ، ولكننا نشك فى أن الحالة تغيرت كثيرا إذ ظل لحكام الأقاليم نفوذهم كما كانت الحالة فى الأسرة الثامنة ، وظلت الدلتا معرضة لما كان ينتابها من غزوات البدو المتكررة . ووجدت الأسرة التاسعة نفسها فى حاجة إلى مؤازرة بعض حكام الأقاليم يحكمون بلادهم شبه مستقلين يشيدون مقابرهم على مقربة من مدنهم ويدفع الجزية من يدفعها إلى ملوك اهناسيا رمزاً لولائهم ، ولكنهم لم يعتمدوا إلا على أنفسهم لحماية أقاليمهم وحماية أنفسهم وجمع الضرائب من أتباعهم .

وفى نسخة يوسيبيوس عن مانيتون نقرأ أن عدد ملوك الأسرة العاشرة تسعة عشر حكموا ١٨٥ سنة وينص على أن كلا من الأسرتين حكم فى اهناسيا ولكن الأبحاث الحديثة تثبت لنا أن عدد ملوك الأسرة التاسعة كان أكثر

من أربعة حسب ما ورد فى بردية تورين وربما بلغ عددهم ثلاثة عشر شخصا حكموا ١٠٩ عاما ولكن الأسماء الكاملة من بينها عددها خمسة فقط [١]. أما ملوك الأسرة العاشرة فقد كانوا خمسة فقط حكموا من ٢١٢٣ — ٢٠٥٢ ق.م. أى ٨١ عاما [٢] وأن، هذه الأسرة الإهناسية كانت معاصرة منذ ظهورها تقريبا لأمراء طيبة الذين دارت بينهم وبين الإهناسيين فيما بعد حروب انتهت بالقضاء على بيت إهناسيا وانفراد الأسرة الحادية عشرة الطيبية بالملك .

والحقيقة أننا لا نكاد نعرف شيئا عن ملوك الأسرة التاسعة حتى الآن وكانت مصر فى أيامهم شبيهة بما كانت عليه فى عهد الأسرة الثامنة أى ملوك ضعاف يعيشون فى العاصمة لا يكاد أن يكون لهم نفوذ فى الأقاليم ، وأمراء أو حكام للأقاليم يستقل كل منهم بشأنه وتربط بعضهم بالبيت المالك فى إهناسيا برابطة من الروابط والبعض الآخر مستقل بشأنه . أما البلاد بوجه عام فقد تفككت عراها وتأخرت فنونها وأصابها الوهن .

---

(١) أول ملوك الأسرة التاسعة هو (مر اب رع) (أختوى الأول) ثم يليه اسم مهشم وبعد ذلك الملك نفر كارع ثم ملك آخر يسمى أختوى ثم ملك يسمى (ستوت) ثم (أختوى) ثالث وبعد ذلك بعض أسماء مهشمة لا تقرأ الا أجزاء منها وبعض أسماء تامة التهشيم .

(٢) ملوك الأسرة العاشرة مرتبون حسب الآتى : أولهم يبدأ بكلمة مرى وقد أكمله هيزالى مرى حاتحور والثانى نفر كارع والثالث أسمه (اختوى) (واح كارع) وقد ذكره شتوك على أنه أختوى الثالث وأنه حكم من ٢١١٥ — ٢٠٧٠ ق . م بينما يعتبره هيز انه أختوى الرابع وعلى أى حال فهو صاحب بردية الوصية الشهيرة وخلفه على العرش إبنه مريكارع . أما خامس وآخر ملوك الأسرة فقد ورد اسمه فى بردية تورين على أنه أختوى أيضا وهو خامس ملك يسمى بهذا الاسم ، وهو الذى كان معاصرا لمنتوحتب مؤسس الأسرة الحادية عشر . ويبقى بعد ذلك بضعة ملوك لا يشك أكثر المؤرخين فى أنهم حكموا فى تلك الفترة أى فى عصر الفترة الأولى ولكنهم يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا فى تحديد أماكنهم بين غيرهم وهم الملك « إيعحتب » الذى عثر على أسمه فى أحد نقوش وادى الحمامات و كذلك ملك آخر يسمى إبي عثر على اسمه هناك والملك سخم كارع الذى ورد اسمه فى بردية عثر عليها فى الفنتين ، ويضاف اليهم ملك آخر ذكر اسمه فى مقبرة من الرعامسة وهو جسر — نوب .

وكان البيت المالك يزيد ضعفا بينما يزداد أمراء الأقاليم قوة حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم الأسرة ، وتلتها أسرة أخرى أظهرت شيئا من النشاط ، وبدأ الظلام المخيم على تاريخ مصر ينقشع رويدا فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها ، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيقاظ .

ومنذ الوقت الذى جلس فيه ملوك الأسرة العاشرة على العرش ظهر فى طيبة بيت قوى كان أفراده يرون فى أنفسهم أنهم أحق بالملك من بيت إهناسيا ولكن ولاء بعض البيوت القويه الأخرى لملوك إهناسيا وخاصة أمراء أسيوط فى مصر الوسطى أى فى شمالهم وبيت آخر بأرمنت إلى الجنوب منهم جعل مهمة أمراء طيبة مهمة غير يسيرة كما سنرى .

فعلى جدران مقبرة المعلا [1] (بين الأقصر وأسنا) نقرأ بعض الحوادث التى جرت فى تلك الأيام . كان (عنخ تيفى) صاحب هذه المقبرة حاكما للأقاليم الجنوبية الثلاثة أى إلفنتين وإدفو وأرمنت أى يمتد نفوذه من النوبة حتى حدود الإقليم الرابع وهو إقليم طيبه . يفتخر « عنخ - تيفى » بسطوته وقوة جنوده الذين كانوا يذيعون الذعر إذا خرجوا للحرب ، ويتحدث عن المجاعة التى فتكت بالصعيد ولم ينج منها غير إقليمه لأنه ساعد الناس ، وكان يوزع عليهم الحبوب ، وحمى الضعفاء من الأقوياء حتى مرت تلك المحنة بسلام . ونحن لا يخالجنا شك فى أنه حدث حرب بينه وبين أمير إقليم طيبة الذى اتحد مع من كانوا إلى الشمال منه وبخاصة بيت قفط وربما بيت دندرة أيضا ، ولكن نتيجة تلك الحرب لم تغير من الأمر شيئا إذ ظل « عنخ — تيفى » حاكما على أقاليمه الثلاثة مواليا لبيت إهناسيا .

عاش « عنخ — تيفى » فى أوائل أيام الأسرة العاشرة فى عهد الملك « نفر كارع » ثانى ملوك هذه الأسرة الذى ورد اسمه فى المقبرة ولكن قوة

(1) VANDIER (J.), "*La Tombe d'Ankhtifi à Mo calla (Haute Egypte*", *Comptes rendus. . . de l'Académie des Inscriptions et Belles lettres*, 1947, pp.1 ff.

هذه العائلة لم تستمر طويلا ولسنا نعرف إن كان ذاك بسبب ازدياد قوة طيبة أو ضعف الذى خلف ذلك الرجل القوى فى حكم الجنوب ، وربما كان الإثنان معا .

وجلس على عرش إهناسيا بعد « نفر كارع » ملك حازم وهو (واز كارع) (أختوى) الشهير الذى خلف وصيته لابنه ، تلك الوصية التى تلقى ضوءا كبيرا على ذلك العصر، وهو المعروف الآن باسم أختوى الرابع لأننا نعرف الآن أن ثلاثة ملوك يحملون هذا الاسم كانوا من بين ملوك الأسرة التاسعة حسب دراسة الترتيب الأخير لبردية تورين منذ سنوات قريبة .

بدأ هذا الملك فى تطهير الدلتا من الفوضى السائدة فيها بسبب عصابات البدو التى كانت تنشر الفزع وتنهب الناس وبعد ان أستتب له الأمر بعض الشيء أراد أن يتخلص من أمراء طيبة وحلفائهم فى الجنوب فحدثت حرب بين الفريقين دارت رحاها فى إقليم ثينيس (ثنى) على مقربة من أبيدوس ، انتصر فيها الإهناسيون بمعاونة أمراء أسيوط ولكن الطيبيين عادوا فاسترجعوا ما فقدوه تحت قيادة (واح عنخ إنيوقف) الذى لم يكتفى باستعادة حصن ثينيس بل تقدم شمالا حتى استولى على مدينة كوم اشقاو (أفروديتوپوليس) فى الإقليم العاشر من أقاليم الصعيد أى إلى حدود إقليم أسيوط نفسه .

وفى عهد الملك الإهناسى « مريكارع » ابن أختوى الرابع زادت المتاعب إذ تولى حكم طيبة حاكم قوى وهو منتوحتب الثانى الذى استأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ثم اندفع نحو الشمال فاستولى على الأشمونين ، ولم يبق للإهناسيين إلا القليل من مصر الوسطى ونفوذ متزعزع فى الدلتا .

ومات مريكارع وخلفه على العرش أختوى آخر وهو الخامس الذى جرت فى عهده حوادث قصة القروى الفصيح ، ولكن هذا الملك لم يبق طويلا على العرش إذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة إهناسيا وأخضعت مصر كلها وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهدا جديدا ، وعادت

مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد كما بدأت أيضا الدولة الوسطى .
تلك هى الخطوط الرئيسية لتاريخ ذلك العصر المظلم ولكن يجب علينا قبل الانتقال إلى عصر آخر أن نتحدث بشىء من التفصيل عن ثلاث نقط وهى :

١ ـــ وصية أختوى الرابع لابنه مريكارع .

٢ ـــ بردية القروى الفصيح .

٣ ـــ آثار ذلك العصر .

أما ما نعرفه عن الصراع بين إهناسيا وطيبة فسنعود له بشىء من التفصيل عند مناقشة موضوع نشأة الأسرة الحادية عشرة فى الفصل القادم .

وصية الملك أختوى لابنه مريكارع :

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام إهناسيا ، تلك البردية التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك أختوى الرابع (خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع[١] ، إذ أننا نرى فيها كثيراً من المعلومات الهامة عن ذلك العصر الغامض . يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاربه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ، ويبدأ هذه النصائح بعد

---

(١) هذه البردية فى متحف لينجراد ومرقومة تحت رقم ١١١٦ أ . والنسخة الحالية من عصر الأسرة الثامنة عشرة لأن المصريين فى تلك الفترة عنوا عناية كبرى بالآداب القديمة وكانت هذه القطعة الأدبية من القطع المحببة إليهم لمتانة أسلوبها وجمال معانيها . وليست نسخة متحف الأرميتاج بلينجراد هى النسخة الوحيدة بل توجد نسختان أخريتان ولكنهما ليستا كاملتين مثلها . وأول من نشر هذه البردية جولينيشف فى عام ١٩١٣ وظهرت لها ترجمات كثيرة فى اللغات المختلفة ولكن شارف قام بدراستها دراسة وافية فى عام ١٩٣٦ ونشرها تحت عنوان :

A.SCHARFF, *Der historische Abschnitt der Lehre fur Konig Merikare* (SBAW, 1936) . وقد نشرها مرة أخرى فولتن

A. VOLTEN, *zwei altagyptische politische Schriften* (*analecta aegyptiaca*, IV) *Copenhagen*, 1945 .

الديباجة التى فقدت الآن بتحذير ابنـه من أى تابع له يكثر من الكلام وله أتبـاع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين النـاس وينصحه بقـوله : « اطرده ، اقتـــله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » . ويوصى ابنه بعـد ذلك بأن يكون فناناً فى الحديث لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة وألا يفعل الشر وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له . ويحذر أختوى ابنه من الطمع وينصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم لأن الغنى فى غير حاجة للمحاباة ، أما الفقير فانه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئاً يعطيه له ، ويقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون» ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأرملة ويوصيه بألا يحرم شخصاً من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولـكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصـية حازمة بقوله « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فان ذلك لا يجديك شيئاً ولـكن عاقب بالضرب والاعتقال فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عليك الذى تتثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغراً ولا ينفعه أمام قضاتها إلا العمل الصالح « فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » ويشير أختوى إلى الشبـاب فينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقـــول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولـكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه إنه لايخلو أحد من وجود أعداء له وإن الأعــداء فى داخل مصر لا يهدأون ثم يشفع ذلك بقوله « إن القدماء قد تنبأوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبانة وتهدم القبور . . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم له وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لابنه إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره وألا يأخذ أحجاراً مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام أختوى مليئة بالحروب فلم يصطدم ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لاهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرقى الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر . ويقــول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها . لقــد كان العدو الذى يخشاه ملوك اهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد لصده هم عصابات الأسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم « بسبب الماء والأشجار والجبال » ويقول عن الأسيوى « إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقاه صنعا لكى

يتجول ويذهب بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس (أى منذ الأزل) وهو لايقهر ولا يقهر ، إنه لايحدد يوما للقتال . إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة » وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القرى الآمنة أو نهب المسافرين . « ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لايهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » . وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة البحيرات المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسر) تربط بينها وبين إهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الأسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ماجره عليه اصطدامه بالجنوب « انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب ما فعلت ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . أنظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت » ويختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته ويعمل لليوم الآخر . ويقول له بأن يذكر دائما نعم الله ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أى الناس) ، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . انه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها » وما أجمل قوله : إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل انسان » .

تلك هي بردية النصائح التي كتبها أختوى الرابع لابنه وهي لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية في البلاد بل تمدنا بما هو أهم من ذلك ، وهو ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع . فلم يعد الملك ذلك الإله الحاكم فوق البشر والذي يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شيء من إحسانه في الدنيا والآخرة ، بل أصبح شخصا يتحدث عن ضعفه وندمه كسائر البشر . ونقرأ في البردية أمرا آخر تزداد أهميته لأن قائله ملك يعترف له شعبه - ولو نظريا - بالألوهية الملكية ، وهو أن سعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملك فقط ، ونقرأ فيها أيضا أن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر ، ونقرأ فيها أيضا نغمة حلوة وهي أن السعادة في الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام ولكن الله يعرف ما في القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر فان النيات الحسنة هي التي يتقبلها ، وهي أقرب إلى قلبه من القرابين التي يقدمها المذنبون ليكفروا بها عما اقترفوه من إثم .

لقد فتكت الثورة الاجتماعية بمصر فدكت عرشها وفككت عراها وقضت على الحكومة المركزية وعرضت البلاد لخطر الغزو الأجنبي ، ولكن مصر خرجت من محنتها بعد أن تعلمت من تلك التجربة القاسية أشياء جديدة عن قيمة الإنسان وحقوقه وعن معنى الخلق الكريم . لقد أثمرت تلك الثورة الاجتماعية إذاً ، ويكفي هذا القدر من الحديث فاننا سنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند مناقشتنا لبردية القروي الفصيح وبعض النصب التذكارية التي وصلت إلينا من ذلك العصر .

بردية القروى الفصيح [1] :

ازدهر الأدب ازدهارا كبيرا فى عهد ملوك إهناسيا . وقد أشرنا قبل الآن إلى بردية « إيبوور » التى صورت لنا حالة البلاد وما ساد فيها فى بداية ذلك العصر المظلم الذى تلا سقوط الدولة القديمة وحللنا بردية النصائح الموجهة إلى مريكارع ورأينا فيها لغة مزدهرة وأدبا رفيعا يحوى آراء ناضجة وأهدافا محددة ، ولكن هناك قطعا أدبية أخرى ممتازة تساعدنا أيضا فى الوقوف على بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ومن بينها بردية اليائس من الحياة ولكنى سأقتصر على واحدة منها فقط وهى بردية القروى الفصيح لأهميتها .

ليست هذه البردية قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تتكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الطرافة وتسع شكاوى فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

كان يعيش أحد القرويين واسمه « خو إن أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يأخذ بعض حاصلات تلك الواحة ليبيعها فى اهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود بها إلى أهله. وطلب من امرأته أن تعد له زاد الطريق وحمل

---

(١) كتبت هذه البردية ووقعت حوادثها فى أواخر أيام الأسرة العاشرة فى اهناسيا وكانت من أحب قطع الأدب وأكثرها انتشارا فى الدولة الوسطى، وكان العالم الأثرى « شابا » أول من لفت اليها الأنظار فى عام ١٨٦٣ ونشر فوجلزانج نصوصها نشرا كاملا VOGELSANG, *Kommentar Zu den Klagen des Bauern, Leipzig, 1913.*

وقد ترجمت ترجمات عدة وأحدث ترجمة لها هى ترجمة ولسون فى كتاب *Ancient Near Eastern Texts* ومترجمة أيضا إلى العربية فى كتاب سليم حسن ـ الأدب المصرى القديم ـ الجزء الأول ص ـ ٥٤ وما بعدها .

حميره وسار فى طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت فى بلدة إهناسيا. وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى « تحوتى نخت » من أتباع « رنسى » بن « مرو » الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى . فلما رأى « تحوتى نخت » ذلك القروى عزم على اغتصاب ما معه ، وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق ، وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر « تحوتى نخت » أحد خدمه فأحضر له قطعة من قماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع فى الحقل بينما تدلى الطرف الآخر فى مياه قناة كانت هناك ، أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق . فلما وصل القروى حذره من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعاً وطاعة وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل وعند ذلك نهره سائلا عما إذا ما كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفى أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال « تحوتى نخت » إنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله فصرخ القروى سائلا إذ كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا « أننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، أنه هو الذى يقف فى وجه اللصوص فى كل أنحاء البلاد فهل أسرق فى ضيعته ؟ » وعند ذلك نهره « تحوتى نخت » ، وأخذ فرعا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة .

وبكى القروى من آلامه بكاء مراً فلم يتركه « تحوتى نخت » وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد « رب السكون » (أى أوزيريس) فصاح القروى : « إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى ! ! يارب السكون ، رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح . . » .

وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ويرجو ظالمه دون جدوى ، فلما يئس منه سار فى طريقه ليشكو إلى رنسى نفسه فى العاصمة . ورآه عند ما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة للمحكمة فقال له « هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل لى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله » . فأرسل رنسى اليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد « تحوتى نخت » أمام القضاة الذين كانوا معه . فما كان من القضاة إلا أن قالوا إن هذا القروى لا بد أن يكون أحد فلاحيه الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله وقالوا « أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون وشىء قليل من الملح ؟ اصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك » ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطباً رنسى ومذكراً له باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته ، ويقول له « إنك أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له » . وذهب رنسى إلى الملك نبكا ورع (آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى اختوى أيضا) وقال له « سيدى : لقد وجدت واحدا من أولئك القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء إلى يشكو من ذلك » فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ماعساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل اليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له . فرتبوا له فى كل يوم أربع أرغفة من الخبز وإناءين من الجعة . وجاء القروى مرة بعد أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى

بلغت شكاواه تسعا أبدع فيها كاتب القصة وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله « انظر ! انى أشكو اليك ولكنك لم تستمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ » وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلا : « إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عند ما يقترب من الماء ، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه) » ولكن رنسى رد عليه قائلا : « لا تخف أيها القروى . أنظر ! أنك ستقيم معى » ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : « لن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ماحييت » . ولكن رئيس البيت الملكى قال له « تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قلته من شكاوى» وأمر أن تقرأ له من بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل اثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت ، وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

أى أن القضية نفسها انتهت بما كانت تدعو اليه الشكوى وهو حماية الفقير من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة .

لقد رأينا الملك أختوى الرابع يوصى ابنه الملك مريكا رع أن يتعلم حسن الحديث وإجادة التعبير عن آرائه ، وبعبارة أخرى يمتدح الفصاحة وعدم السكوت عن الظلم . ونرى فى هذه القصة تطبيقا لذلك المبدأ وهو الإعلاء من شأن الفصاحة وضرورة السعي وراء الحق ، وهي تصور لنا أيضاً أمراً آخر ،

وهو ظلم صغار الموظفين للفقراء من الناس بينما يعنى كبارهم برد الحق إلى صاحبه متى وصل ذلك إلى سمعهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك . ونرى فيها أيضا بوضوح أمر الخوف من عقاب الله الذى لا تخفى عليه خافية إذ طالما ذكر القروى رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما ليجيب عن ظلمه له لأنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

لم نعرف لمثل هذه الشكوى وجوداً فى الدولة القديمة ، وهى مثل غيرها من آداب ذلك العصر نتيجة لما نشأ فى مصر من وعى اجتماعى بعد تلك الثورة التى قام بها الشعب فى أعقاب الأسرة السادسة ، ولقى هذا النوع من الأدب وتلك الآراء قبولا من الناس فى الدولة الوسطى وبخاصة فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن ما جاءت الدولة الحديثة حتى تغيرت الأمور وأصبح للمصريين مثل عليا مختلفة .

أهم آثار عصر الفترة الأولى :

أهم آثار ذلك العصر هى دون ريب تلك البرديات الأدبية التى نرى فيها صدى لما طرأ على الحياة الاجتماعية من تغيير وما ظهر من آراء جديدة هامة . ويليها فى الأهمية المراسيم التى كان يصدرها الملوك ثم ما وصل إلى أيدينا بعد ذلك من آثار سواء من بقايا أهرام أو مقابر ذلك العصر أو ما وصل إلى أيدى العلماء من أشياء أخرى .

ولم يعثر على أى أثر لمقابر ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة فى اهناسيا ولكن عثر على ما يكفى للترجيح بأن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد ولم تكن اهناسيا غير مقر الملك كما أن ملوكها ورجال بلاطهم استمروا على التقاليد القديم وكان الكثيرون منهم يدفنون فى جبانة منف وعثر على آثار لبعضهم حول هرم تيتى فى الجزء الشمالى من الجبانة وحول هرم ببى الثانى في سقارة الجنوبيه .

وعثر على كثير من النقوش التي بقيت من جدران بعض مقابر ذلك العصر فى سقارة كما عثر أيضـــاً على لوحات جنازية لبعض الأفراد كانت فى مقابرهم التى شيدت هياكلها من الطوب اللبن أما القبر فـكان تحت الهيكل وغالباً ما يكون على شكل حجرة صغيرة (شكل رقم ١٠ وشكل رقم ١١) من الحجر - وذلك للقادرين من الأغنياء - تلون جدرانها ويوضع فيها صاحب القبر داخل تابوت من الخشب محلاة جوانبه بالـكتابة أو بالرسوم ، وقد عثر على مئات من هـذه التوابيت فى جميع أرجاء مصر وبخاصة فى مصر الوسطى وهى من أهم مصادرنا لدراسة ذلك العصر سـواء من الناحية الدينية أو من الناحية الاجتماعيـة كرسم كثير من الأدوات على جوانبها بدلا من وضعها فى القبر[١] . ومن بين العـادات الجنازية فى تلك الفترة الإكثار من وضـع نماذج خشبية للخدم أو الجنود أو العمال وهم يؤدون أعمالهم المختلفة .

واستمر أمراء الأقاليم يدفنون على مقربة من بلادهم ، ولهذا نجد كثيراً من مقابر ذلك العصر منحوتة فى الصخر فى مصر الوســـطى والصعيد ، أما الفقراء فكانوا يدفنون فى السفح تحت مقابر الحكام . وتقتصر المقابر غالبـاً على حجرة صـغيرة تقطع فى الطبقة المتماسكة من الأرض أو تبطن بأحجار أو طوب ويوضع فى وسطها تابوت أو أكثر من الخشب وفوقه أو بجواره بعض النماذج الخشبية ، وأهم مقابر الأقاليم نجدها بين مقابر زاوية الأموات وبنى حسن والبرشا وأســـيوط ودير الجبراوى والهجارسة وأخميم ودندره والمعلا وأسوان .

ومن بين الأشياء الهـامة التى تقرن بذلك العصر ظهور الجعارين وكان الجزء العلوى منها غيرمقتصر على رسم الجعل فقط بل كان على هيئة حيوانات مختلفة ويكتب فى أسفله على الجزء المسطح مايشاؤون برسم هندسى أو زخرفى .

---

(١) JÉQUIER, *Les frises d' objets des sarcophages du moyen empire, cairo*, 1921.

وإذا درسنا لوحات القبور التى يرجع تاريخها إلى هـذا العصر نرى فيها أيضاً أثر التطور الاجتماعى الذى رأيناه جلياً فى البرديات . فلم يعد الأفراد يقتصرون على ذكر الملك والآلهة وتقديم القرابين لهم بل نراهم يفخرون بأنفسهم وبأعمالهم ، ويتحدث كل منهم عن نفسه بأنه كان محبوباً من أهله ومن غيرهم من الناس وأنه كان بعيداً عن الدنايا ، عونا للفقير محبا للرزق الحلال مجداً فى عمله حائزاً على رضاء الناس .

لم تقتصر تلك الصيغ على لوحات القبور التى عثر عليها فى جبانة منف بل كانت شائعة جـــداً فى الأقاليم ، وقد عثر على مئات منها فى جبانات الصعيد ، وعلى أكثرها صيغ تمجد قيمة الفرد وفضائله الشخصية التى ساعدته على التقدم فى مضمار الحياة .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا ما أشرنا إليه من قبـــل وهو أنه أثناء حكم ملوك الأسرة العاشرة فى إهناسيا كانت هناك بيوت قوية فى مصر الوسطى وبخاصة فى أسيوط وفى جرجا وفى طيبة ، وأن رؤساء تلك البيوت خلفوا وراءهم آثاراً ، وسنتحدث عنها فيما بعد عندما نصل إلى الفصل القادم لأن حكام طيبة هم أصل الأسرة الحادية عشرة التى تبدأ بها الدولة الوسطى .

الفصل الخامس

الدولة الوسطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

(٢٢٣٤ — ١٩٩١ ، ١٩٩١ — ١٧٧٨ قبل الميلاد)

الأسرة الحادية عشرة

نشأة حكام طيبة وتأسيس الأسرة :

نشأ فى طيبة منذ أيام الأسرة السادسه بيت حاكم ، كما حدث فى أكثر الأقاليم عندما ضعفت الحكومة المركزية فى منف ، وقطع بعض أولئك الحكام مقابرهم فى صخور تلال جبانة طيبة فى البر الغربى من النيل حيث يوجد عدد قليل منها بين مقابر العصور الأخرى .

ولسنا نعرف كثيراً عن أولئك الحكام أثناء الفترة التى تلت الأسرة السادسة ، ولكن لا يخامرنا شك فى وجود بيت واحد قوى أو أكثر من بيت فى هذه المنطقة الغنية ، وأن هذا البيت كان يعيش تارة فى سلام ويتنازع على السيادة تارة أخرى مع جيرانه فى أرمنت فى الجنوب وقفط فى الشمال ، حتى انتهت أيام الأسرات السابعة والثامنة فى منف ، ثم نشأت بعد ذلك

الأسرة التاسعة فى إهناسيا . ولكن عند ما تغيرت الأمور وانتقل الحكم إلى ما نسميه الأسرة العاشرة فى إهناسيا أحس بيت طيبة بأنه لا يقل فى أحقيته للملك عن ملوك الشمال فأعلنوا عدم طاعتهم لإهناسيا وكونوا منهم ومن جيرانهم الأقربين اتحاداً فى الجنوب، أى أن الأسرة الحادية عشرة فى الجنوب تبدأ فى الحقيقة منذ بدء الأسرة العاشرة فى الشمال ، ولكن هؤلاء الجنوبيين احتاجوا إلى وقت طويل يزيد عن ثمانين عاما حتى أصبحوا يحكمون البلاد كلها دون منازع ، وأصبح الملك منتوحتب الثانى ملك مصر كلها ووحد البلاد لتبدأ فترة جديدة فى تاريخها .

ومؤسس هذا البيت ، الذى سمى باسم الأسرة الحادية عشرة فيما بعد ، يسمى « إنيوتف » (يكتبه أحيانا بعض الأثريين أنتف) ، ولا نعرف عنه أكثر من أنه كان مؤسس هذا البيت وأن أمه تسمى « إكو » وأن أهل طيبة فيما تلا ذلك من الأيام كانوا ينظرون اليه نظرة تقديس خاصة وكانوا يلتمسون بركته [١] .

وورد اسم هذا الشخص أيضا فى لوحة الأجداد التى أقامها تحوتمس الثالث فى الكرنك كأول حاكم للأسرة الحادية عشرة ولكنهم لم يكتبوا اسمه فى خانة ملكية بل اكتفوا بأن كتبوا ألقابه « الحاكم والأمير الوراثى إنيوتف المبجل » [٢] . لم يدعى إنيوتف الملك منذ البداية بل ظل على استقلاله الذاتى بإقليمه ولم يقطع صلته بملوك الشمال إذ ذكر على لوحته الشهيرة التى عثر عليها

---

(١) مثل لوحة ماعت فى متحف المتروبوليتان (HAYES, *Scepter of Egypt*, p. 153) وكالتمثال الذى أقامه لذكراه الملك سنوسرت الأول : (LEGRAIN, *Statues et Statuettes*, No 42005)

أنظر أيضا كتاب WINLOCK, *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes* (1947), p. 5.

(٢) SETHE, *Urkunden IV*, 608.

ماريت فى القرن الماضى وتوجد الآن فى متحف القاهرة أنه الحاكم ، الأمير الوراثى ، والسيد العظيم لإقليم طيبة الذى حاز على رضاء الملك كحارس لباب الجنوب ، العماد العظيم لمن يحيى الأرضين (يشير طبعاً إلى الملك) ، الكاهن الأكبر . . إنيوتف .

وفى وقت من الأوقات فى أواخر أيام حكمه ، كتب إنيوتف هذا ـ وكان يسمى أيضاً « سهرتاوى » أو مهدىء الأرضين ـ اسمه فى خانة ملكية وأصبح معروفا لنا باسم إنيوتف الأول ، وأحاط نفسه برجال للبلاط ، ودفن فى قبر كبير أمامه صف من الأعمدة المقطوعة فى الصخر ، وكان هناك هرم من الطوب فوق قبره فى جهة الطارف .

إنيوتف الثانى (٢١٣١ — ٢٠٨٢) :

وتلاه إنيوتف الثانى المسمى « واح عنخ » وقد حكم نحو خمسين عاما (من حوالى ٢١٣٠ — ٢٠٨١) على الأقاليم الخمسة الجنوبية فى الصعيد ، وبدأ فى عهده التوسع نحو الشمال ، وبدأ الطيبيون فى مهاجمة الإقليم السادس وهو إقليم ثنى حيث توجد جبانة أبيدوس ، ولكن الأهناسيين ظلوا على قوتهم خصوصاً وأن أمراء أسيوط الأقوياء كانوا حلفاء لهم .

كان إنيوتف الثانى معاصرا لأختوى (أو ، خيتى) أمير أسيوط ، وفى مقبرة هذا الأخير نقرأ بعض إشارات عن جمع الجنود وإعداد الرماة والتفاخر بالأسطول ولكنه لا يذكر وقائع حربية صريحة بينه وبين الطيبيين ، ويفتخر أختوى أمير أسيوط فى مقبرته بأن الملك (أى ملك إهناسيا) عينه حاكما وهو ما زال فى طفولته وأنه تعلم السباحة مع أبناء الملك .

ولكن الأمور لم تكن على هذه الصورة من الهدوء أو الإطمئنان الذى نراه فى نقوش أختوى فى أسيوط ، فإننا نعلم أن غيره من الأمراء فى الشمال مثل أمراء بنى حسن وأمراء البرشا أخذوا بدورهم يعلنون استقلالهم ويؤرخون

الحوادث بتاريخ حكمهم ، وبعبارة أخرى أخذ زمام الأمور يفلت من أيدى ملوك إهناسيا .

ومن نقوش مقبرة « تف إب » ابن أختوى الذى تلاه فى حكم أسيوط نقرأ شيئا عن حروبه مع الطيبيين فى ثيني إذ يتحدث عن معاركه مع أعداء الملك ويقول عن زعيم الطيبيين إنه وقع فى الماء وأن سفنه تفرقت واستطاع أن يملى عليه مايريد . ولكن رغم هذا التفاخر بنفسه وبقوة جنوده فإن الحقيقة كانت انتصار طيبة وضم إقليم ثيني إليها فأصبح تحت حكم إنيوتف الثانى ستة أقاليم من الصعيد ، وأصبح الحد الشمالى للملك الطيبيين عند مدينة كوم اشقاو (افرود يتوپوليس) كما نعرف ذلك من عدة مصادر أخرى وهى لوحات بعض موظفى إنيوتف التى عثر عليها فى طيبة .

كان إنيوتف الثانى من الحكام الأقوياء ، أحسن إدارة الأقاليم الستة وبدأ فى تشييد بعض المعابد وخاصة للإله « مونتو » ورمم الهياكل والمعابد التى كانت للآلهة الأخرى فى تلك الأقاليم ، وبنى لنفسه قبرا كبيرا كان يعلوه هرم من الطوب ، وأمام هذا الهرم أقام لوحة .

ولقبر هذا الملك ولوحته قصة طريفة ، إذ جاء ذكرها فى بردية أبوت (Abbot Papyrus) نعرف منها تفاصيل سرقات مقابر الملوك فى الأسرة العشرين ، إذ زارت لجنة التحقيق هذا المكان وأشارت إلى تلك اللوحة بأنها كانت فى مكانها أمام الهرم وأن « رسم الملك على هذه اللوحة وكلبه المسمى « بحك » بين قدميه » ويزيد التقرير بأنهم فحصوا القبر فى ذلك اليوم ووجدوه سليما لم يسرق . وعثر ماريت فى عام ١٨٦٠ على هذه اللوحة وتركها فى مكانها ثم عثر عليها رجال الآثار مرة أخرى فى عام ١٨٨٢ ، ورغم تحطيمها فإن أجزاءها جمعت إلى بعضها وهى الآن فى المتحف المصرى ، ونرى عليها « إنيوتف » واقفا ومعه خمسة من كلابه سماها بأسماء ليبية وكتب إلى جانب ثلاثة منها معانيها باللغة المصرية . ومن المعتقد أن هذه اللوحة لم تكن

قائمة وحدها عند قاعدة الهرم بل كانت هناك لوحات صغيرة مختلفة بأسماء الموظفين المقربين إليه عثر على بعض منها فى المكان نفسه أثناء حفائر ماريت (Mariette) ثم حفائر ماسبرو (Maspero) ودارسى (Daressy) بعد ذلك وتسرب أكثرها إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية .

إنيوتف الثالث (٢٠٨٢ — ٢٠٧٩) :

ومات بعد حكم خمسين سنة فتبعه ابنه « نب تى نفر » على العرش ، ويسمى أيضا إنيوتف ، وكان متقدما فى العمر فلم يبق فى الحكم إلا سنوات قليله ، ولم يبق من عهده إلا القليل وأهمه لوحة أحد موظفيه المسمى « مججى » [1] .

منتوحتب الأول (٢٠٧٩ — ٢٠٦١) :

وتلاه على العرش ابنه « منتوحتب » المسمى « سعنخ إب تاوى » ، وفى عهده أراد ملوك إهناسيا أن يسترجعوا مافقدوه فحدث بينهم وبين طيبة تلك الحرب التى عاد فيها إقليم ثينى (أبيدوس) إلى الشماليين وكان ذلك فى عهد الملك أختوى الرابع من ملوك إهناسيا كما أشرنا . وربما كان ابنه الأمير « هرو نفر » قد مات وهو يحارب دفاعا عن أبيدوس .

ولسنا نعرف عن هذا الملك شيئاً آخر ذا أهمية اللهم إلا أنه وضع تصميما لقبر يزيد فى حجمه عن قبور كل ما سبقه من الملوك ولكنه مات بعد أن حكم ثمانية عشر عاما وترك قبره دون أن يتمه ، وخلفه على العرش ابنه منتوحتب الثانى .

---

(١) هذه اللوحة من أهم آثار ذلك العصر وهى فى متحف المتروبوليتان بنيويورك ونقرأ عليها اسم أمنمحات الذى ربما كان اسما آخر لمججى نفسه أو اسما لابنه وهو على أى حال أول اسم فى ذلك العصر يظهر فيه اسم الإله أمون فى تركيب أسماء الأشخاص .

منتوحتب الثانى - (٢٠٦١ — ٢٠١٠) :

كان منتوحتب الثانى أقوى وأهم ملوك هــذا البيت لم يسترجع إقليم أبيدوس فحسب ، بل اندفع نحو الشمال حتى سقطت إهناسيا نفسها فى العام التاسع من حكمه وأصبح أول ملك من ملوك طيبة يصبح حقيقة ملكا على الوجه القبلى والوجه البحرى ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٥٢ ق . م . ولهذا يرى بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، ولكن الإنصاف فى البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أى قبل ذلك باثنين وثمانين عاما ، إذ لم ينس الطيبيون كما ذكرنا ذكرى مؤسس هــذا البيت فألهوه وذكروه دائماً على آثارهم وفى وثائقهم وكانوا يقدمون له القرابين .

بذل منتوحتب كثيراً من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت فى طريقه. ولا شك أنه حارب فى الدلتا وحارب البدو فى الشرق والغرب كما أخضع المنطقة جنوبى إلفنتين ،ولكنه ترك الأمراء القدماء يحكمون أقاليمهم واكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء .

كان اسمه عند توليه العرش : حورس نترى حزت ، ولكنه بعد العام التاسع عند ما تغيرت الأوضاع وأصبح ملك مصر كلها دون منازع ،غير لقبه إلى « سما تاوى » أى موحد الأرضين وأصبح اسمه الآخر « نب حبت رع » وهذا هو الاسم الذى أصبح معروفا به فيما بعد على جميع ما خلفه من آثار ، وهو الاسم الذى نراه فى معبد الرمسيوم بين اسمى « منا » مؤسس الأسرة الأولى و « أحمس » مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، أى أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا فى نظر المصريين أنفسهم فى الأسرة التاسعة عشرة هم مؤسسو الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة .

بدأت طيبة عهداً جديداً فى تاريخها، وأخذت ضرائب البلاد كلها تتدفق على خزائنها ولم يدخر منتوحتب وسعا فى تجميل عاصمته وإنشاء المعابد المختلفة فيها وفى غيرها من البلاد. وقد رأينا منذ عهد أسلافه أن الفن المحلى الذى كان قد تأخر وانحط، أخذ يعود اليه شيئاً فشيئا بعض روائه القديم، ولكنه ظل متأثراً بالفن المحلى فى بعض نواحيه. وقبل أن نتحدث عن منتوحتب وطيبة فى عهدها الجديد يحسن بنا أن نقف قليلا لنذكر أهم ما نعرفه عن تلك الفترة. فقد أخذ ذلك الملك يوجه عنايته لتشييد المبانى ولا عجب إذا كان الفنانون قد أخذوا يستردون بعض ما كان لهم من مهارة فى الدولة القديمة.

وأخذت تعود للفن بعض مظاهر رقيه وها هو المثال «إرتى سن» نراه مرسوما مع زوجته وأبنائه على إحدى اللوحات، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم أو التأخر، وكذلك حركات رسم الرجل وجسد المرأة، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر، وحركات الشخص الجارى وأنه لم يكن هناك من ينجح فى عمل ذلك غيره هو وابنه الأكبر [1].

وكان من بين أعمال منتوحتب الثانى التى بدأها فى وقت مبكر من حياته اختيار مكان مدفنه ومعبده. وقد عثرت بعثة متحف المتروبوليتان هناك على جثث ما يقرب من ستين جنديا ربما كانوا قد سقطوا عند مهاجمة هراقليوبوليس (اهناسيا) ونقلوا جثثهم إلى طيبة ليدفنوهم على مقربة من ملكهم الذى حاربوا معه.

كان انتصار منتوحتب الثانى على أعدائه وتوحيد مصر كلها تحت سلطانه بداية عصر جديد. وأخذت مصر تنهض من كبوتها شيئا فشيئا وأخذ

---

(١) توجد هذه اللوحة الآن فى متحف اللوفر وهى رقم C 14 ــ انظر كتاب:
PRISSE D'AVENNES, *Monuments*, *Pl*. VII, MASPERO, TSBA 1877, *P*. 555, PETRIE, *History of Egypt*, *I*, *p*. 142, WINLOCK, *Middle Kingdom in Thebes*, *P*. 32.

منتوحتب يرسل الحملات إلى مناطق المناجم للعمل فيها ، كما أنه لم يهمل فى نشر الطمأنينة على الحدود فبعث بحملة وراء الأخرى لإخضاع كل من حدثته نفسه بالبقاء بعيدا عن حظيرة وحدة البلاد .

واختار منتوحتب الثانى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم الدير البحرى ليشيد فيها معبده الجنائزى ويحفر فيها قبره . ومنذ البداية أراد مهندسوه أن يجعلوا من مجموعته الجنائزية ما يناسب عظمته ، ولو أنهم استوحوا كثيرا من تفاصيله المعمارية من مقابر أسلافه فى منطقة الطارف التى تبعد نحو كيلو مترين إلى الشمال من الدير البحرى .

وفى العام التاسع والثلاثين من حكمه أى بعد ثلاثين سنة من استيلائه على اهناسيا احتفل بعيده الثلاثينى « الحب (عيد) السد » وغير لهذه المناسبة فى بناء معبده الجنازى كما أقام بعض التماثيل التى تمثله فى صورة الإله أوزيريس فى ذلك المعبد . وفى العام نفسه نرى منتوحتب يقوم برحلة نيلية إلى الجنوب يصحبه عدد كبير من أفراد عائلته ورجال حاشيته ، ووصلوا فى تلك الرحلة إلى ما بعد جبل السلسلة التى كانوا يعتبرونها آخر حدود مصر الجنوبية وبداية إقليم النوبة ، وبقى فى ذلك المكان فترة من الوقت عند مكان يقال له شط الرجال فى انتظار ابنه الأكبر الذى كان يسمى إنيوتف ، من المحتمل أنه كان على رأس حملة إلى بلاد النوبة .

ومن الجائز أن يكون منتوحتب قد أعلن ابنه وليا للعهد وربما أيضا شريكا فى الملك بهذه المناسبة ، لأننا نرى اسمه مكتوبا فى النقش الكبير الذى ترى فيه اسم منتوحتب وأسماء عائلته وبخاصة أمه وزوجاته ورجال بلاطه ، نقرأ إنيوتف « الأب الإلهى ، محبوب الإله ، ابن الشمس إنيوتف الذى يعيش إلى الأبد » وقد كتبوا اسمه فى خانة ملكية . ولكن إنيوتف هذا لم يعش طويلا بعد ذلك ، ومات ودفن على مقربة من القبر الذى أعده له أبوه داخل حرم معبده الكبير فى غرب طيبة .

وفى جهات مختلفة من مصر وبخاصة فى الصعيد ، فى الجبلين وفى الطود وفى دير البلاص وفى دندرة وفى أبيدوس وغيرها أقام هيا كل جديدة وأصلح ما تهدم من مبانيها ، ولكن خير مبانيه جميعا هو ما شيده فى طيبة ليكون مقراً أبدياً له بعد وفاته .

مقبرة منتوحتب ومعبده الجنازى :

يرى زائر منطقة الدير البحرى بقايا معبد الأسرة الحادية عشرة إلى الجنوب من معبد حتشپسوت ، والواقع أن مهندسى الأسرة الثامنة عشرة كانوا متأثرين بمن سبقهم فى أوائل الدولة الوسطى ليس فى اختيار المكان فقط بل تأثروا أيضا بعمارته وتشييده على نظام المدرجات . وإذا كانت بقايا معبد الدولة الحديثة أصبحت أكثر أهمية الآن لكثرة ما بقى من مبانيه ونقوشه الهامة فان الذى يعنى بفحص كل من المعبدين سيدرك بلا شك أن معبد منتوحتپ عند ما كان كاملا ، كان أفخم وأجمل من معبد حتشپسوت .

شيد مهندسو منتوحتپ معبده على مرتفع أقاموا أمامه صفوفا من الأعمدة ، وفوق ذلك المرتفع قام هرم تحيط به الأعمدة أيضا ، وكان يوصل بين الردهة السفلى لذلك المعبد وبين معبد آخر على حافة الوادى طريق طويل بين جدارين ، وعلى جانبى الطريق الموصل أقاموا تماثيل للملك منتوحتپ تمثله فى صورة الإله أوزيريس .

فإذا ما وصل زائر المعبد الذى كان يأتى من الوادى ، ويصعد إلى آخر الطريق ويمر فى الباب الموصل إلى المعبد، يرى نفسه يسير بين صفين من شجر الجميز وخلفهما من اليمين واليسار حديقتان غرس فى كل منهما عدد كبير من أشجار الأثل . ويسير بعد ذلك فى طريق صاعد حتى يصل إلى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد . فإذا أراد هذا الزائر أن يدور حول الهرم فإنه يرى هناك ١٤٠ عمودا على جوانبه وهى مثمنة الجوانب ، ثم يجد نفسه بعد ذلك فى ردهة

مفتوحة للسماء تحيط بها الأعمدة فقط على جوانبها على هيئة بواكى . وفى وسط هذه الردهة فتحة تنزل إلى الصخر يليها دهليز طويل يقل قليلا عن ١٥ مترا ، وكسيت أكثر جوانبه بالحجر الرملى الأرجوانى ، وفى نهايته حجرة الدفن المشيدة من الجرانيت وفى وسطها تابوت من المرمر .

ولنترك الآن حجرة الدفن والتابوت ونعود أدراجنا لنستأنف وصف باقى المعبد . فعند ما يصل الزائر إلى نهاية الردهة يجد فى آخرها من ناحية الجبل صالة يحمل سقفها ثمانون عمودا مثمنة الجوانب وفى الجهة الغربية من تلك الصالة مذبح أمام هيكل مقطوع فى الصخر كان فيه تمثال للملك ، وبعبارة أوضح لقد جمع هذا البناء بين قبر الملك ومعبده كما احتفظ أيضا بالشكل الهرمى إذ أقيم هرم فى وسط المعبد ولكنه كان أصما ولم يدفن فيه أحد .

وكشفت الحفائر فى هذا المعبد عن حقائق هامة تتعلق بتشييده، إذ ثبت أن مشروع تشييده قد تغير عدة مرات بعضها أثناء العمل والبعض الآخر بعد الانتهاء منه وذلك بهدم بعض الأجزاء وإعادة بنائها على نظام آخر .

وقبل أن يشيدوا شيئا ، مهد المهندسون أرضية المكان وحفروا اثنتى عشرة حفرة فى محور المعبد ، ووضعوا فى كل منها أرغفة خبز مخروطية الشكل ، ثم حفروا عند كل ركن من أركنة ذلك الرصيف المتسع حفرة مربعة وضعوا فيها القرابين المختلفة ووضعوا فوق تلك القرابين أربعة قوالب من الطين ، وضعوا فى ثلاثة منها قوالب صغيرة صنعت إحداها من الخشب والثانية من الحجر والثالثة من المعدن وهى المواد التى استخدمت فى تشييد المعبد إلى جانب الطوب اللبن ، وعليها اسم الملك وألقابه . أما القرابين فقد وضعوها فى أوانى فخارية ، كما حوت هذه الحفر قطعا من اللحم ورأس ثور وفخذه وبعض قطع من ضلوعه وكثيرا من أرغفة العيش ، من مخروطية ومستديرة ، وبعض حبوب الشعير والفاكهة وبخاصة التين والعنب كما وضعوا بينها أيضا أوانى صغيرة رمزية فيها جعة ونبيذ سدوا فتحاتها بالطين .

وعثروا أثناء الحفائر على عدد كبير جداً من أجزاء الجدران المنقوشة وعليها رسوم ملونة تبين بوضوح تقدم الفن المصرى فى ذلك العهد، كما عثروا أيضاً على كثير من أجزاء التماثيل وبعض التماثيل الكاملة، وعلى قطع كثيرة من الأعمدة، كما عثروا على قطعة من الحجر عليها رسم قديم خطه المهندس القديم بفرشاة يمثل التصميم الأصلى لجزء من المعبد وعليه رسم واضح للرصيف ولأمكنة الأشجار .

لم يكن هذا البناء وقفاً على منتوحتپ الثانى وحده بل ضم أيضا عددا كبيرا من مقابر أهله وبخاصة زوجاته ومحظياته، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثين، وأهمها مقابر أمه وزوجاته الملكات « نفرو » و « تم » وكذلك « عشاييت » و « كسيت » و « كاويت » وغيرهن اللاتى عثر على توابيتهن الجميلة هناك، وبعضها فى متحف القاهرة الآن والبعض الآخر فى نيويورك وكلها من الحجر الجيرى وعليها نقوش جميلة . كان هؤلاء الزوجات مدفونات تحت أرضية المعبد وكان لكل منهن عند آخر البهو هيكل صغير لتمثالها وعليه اسمها وبعض ألقابها، كما عثر فى مقابرهن على بعض الحلى التى كن يتزين بها أثناء الحياة . ولم تقتصر المقابر على زوجات الملك فقط بل كان هناك أيضاً بعض الوصيفات والتابعات بل والراقصات النوبيات .

وفى جبانة طيبة وبخاصة على جانبى الطريق الصاعد للمعبد، وفى علوة عبد القرنة، وفى المرتفع الذى يطل على الدير البحرى، نرى مقابر كثيرة لموظفى ذلك العهد فقد حكم منتوحتپ الثانى واحداً وخمسين سنة تمتعت فيها البلاد بالرفاهية والاطمئنان وترك كثير من رجال بلاطه مقابرهم على مقربة من قبر سيدهم أمثال أختوى وحننو والوزير إيبى، الذى عثرت بعثة متحف المتروپوليتان فى فنائه الخارجى على مجموعة من الرسائل التى كتبها أحد كهنة الروح لذلك الوزير وكان يسمى « حقا نخت »، وعثروا أيضاً على كل ما تبقى من مواد التحنيط وما كان معها من أوانى وأدوات، وضعها مخبأة فى مكان فى ذلك الفناء بعد تحنيط الوزير .

رسائل حقا نخت[1] :

تصادف الباحث فى التاريخ المصرى صعوبات جمة عند محاولته ترك أعمال الملوك والحديث عن الحياة اليومية التى كان يحياها الشعب . لقد وصلت إلينا مناظر كثيرة للحياة اليومية مرسومة على جدران المقابر كما وصلت إلينا عشرات الآلاف من قطع الآثار التى كان يستخدمها الشعب ، ويمكننا وصف هذه وتلك ، ويمكننا أيضاً الحديث عن أصحابها ومحاولة خلق صورة فى أذهاننا للحياة التى كان يحياها هؤلاء الناس ، ولكن مهما بذلنا من مجهود فإن الصورة تظل ناقصة ، وإن استطعنا رسم خطوطها الرئيسية فإن التفاصيل تظل غير واضحة فضلا عن أن لونها يظل باهتاً ، وبعبارة أخرى لا يمكن أن تكون تلك الصورة كاملة كما نحب .

ولهذا رحب جميع المشتغلين بالآثار برسائل « حقا نخت » عند إذاعة نبأ اكتشافها لأنها جزء من صميم الحياة، شيء نابض حى ، وكأن «حقا نخت» أزاح بيده ستاراً رأينا خلفه بيته وأبناءه ، وتحدث إلينا قليلا فعرفنا منه جانباً من حياته وشخصيته ، ولكن سرعان ما عاد ذلك الستار إلى مكانه مرة أخرى ولم يبق أمامنا غير التعقيب على ما رأيناه .

كان « حقا نخت » كاهناً لروح الوزير « إيبى » ويدخل فى اختصاصه إدارة الأملاك التى أوقفها ذلك الوزير للصرف من ريعها على مقبرته وكان

---

(١) عثر على هذه المجموعة من الخطابات عند حفر بعثة متحف المتروبوليتان المنطقة التى حول قبر الوزير « إيبى » فى موسم ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ (*Winlock, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art*, 1921-1922, p. 38 ff. إذ وجدت هى وغيرها من المهملات ملقاة فى إحدى الفجوات بين الصخور على مقربة من طريق مقبرة مكت رع إلى الجنوب الغربى من معبد الأسرة الحادية عشرة فى الدير البحرى ، ولم تنشر نشرا علميا كاملا حتى الآن ، ونحن نعتمد على الترجمة المؤقتة التى قدمها العالم الأثرى « باتيسكومب جن » (*Battiscomb Gunn*) لرجال متحف المتروبوليتان عند دراسته لها عقب اكتشافها والتى نشر ونلوك خلاصتها فى هذا المقال .

من بينها ضيعتان كلاهما على مقربة من منف ولكن إحداهما جنوبى الأخرى. وكان « حقا نخت » يسافر من آن لآخر إلى الشمال بعد أن يترك لابنه الأكبر واسمه « مرسو » إدارة بيته وأملاكه التى على مقربة من طيبة ، كما كان ينيبه عنه فى القيام بوظيفة الكاهن عند غيابه .

وتصور لنا تلك الرسائل شخصية « حقا نخت » فنراه رجلا حريصاً على المال ، خبيثا فى معاملاته شديداً فى محاسبة ابنه الأكبر ، غير واثق من حسن تصرفه . ولكن فيه أكثر من نقطة ضعف واحدة إذا كان هناك أمر من الأمور يتعلق بابنه المدلل الصغير أو محظيته الشابة . كان يرسل إلى ابنه الأكبر رسالة بعد أخرى من منف ، ونحن نأسف لأنه لم يصل إلينا إلا جزء من تلك الرسائل ، كما أنه لم يسعدنا الحظ بالعثور على ردود ابنه له . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما ورد فى تلك الرسائل ولكننا نشير إلى بعض ما يمكننا أن نستخلصه منها .

تثبت لنا هذه الرسائل عودة الصلة بين الشمال والجنوب وعودة الأمن إلى ما كان عليه من قبل ، إذ كان فى وسع هذا الكاهن السفر المستمر وجمع المحاصيل والإتجار فى بعض السلع دون أن يقع عليه أى اعتداء أو يتعرض للأذى . وأقدم تلك الرسائل هى التى كتبها « حقا نخت » بعد أن عاد من ضيعة « دد إسوت » إلى ضيعة أخرى إلى الجنوب منها فى منف . كان الوقت صيفاً وكان النيل على وشك الفيضان ويظهر أن « مرسو » أرسل إلى أبيه يظهر تخوفه من عدم احتمال الجسور فأرسل إليه أبوه الرد محذراً متوعداً . ويظهر أن النيل فى تلك السنة لم يغمر الحقول كما يجب ، ولهذا لم يأت المحصول وفيراً ونقصت الأقوات فى كل مكان وبخاصة فى الدلتا حيث عمت المجاعة ، وها هو حقا نخت يكتب لابنه : « إن الإبن يخاطب أمه وكاهن الروح حقا نخت يتحدث إلى أمه إيبى وإلى حتپت (إحدى قريبات حقا نخت) : كيف حالكم فى معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم ؟ لا تقلقوا علي فإني حي وبخير . إنكم أشبه

بمن يأكل حتى يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعاً فى البلاد كلها .
لقد جئت إلى الجنوب (أى إلى منف من بلد إلى الشمال منها) وحصلت على مؤونة لكم بقدر ما استطعت. أليس النيل منخفضا جداً ؟ حسناً فقد جاءنا المحصول متناسباً مع ذلك . كونوا صبورين يا من سأذكر أسماءكم فإنكم ترون أننى تمكنت من إعالتكم حتى اليوم » ، ويستمر فى خطابه فيذكر أسماء كل فرد فى العائلة والمخصص الذى سيرسله لأجله ثم يستمر قائلا : « فلا تغضبوا بسبب ذلك ، فإن جميع من فى المنزل وكذلك الأطفال يعتمدون على وكل شيء هو ملكى . إن نصف الحياة خير من الموت الكامل ، هم يقولون إن الجائع يجب أن يجوع » ويريد حقا نخت أن يقنع أقاربه بأنهم أحسن حالا ممن هم فى الشمال ، فيقول : « لماذا أخـــذوا يأكاون الرجال والنساء هنا ، لا يوجد أحد فى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن . يجب أن تدبروا انفسكم حتى أصلكم فان سأقضى شهور « الشمو » هنا [1] .

وفى الخطاب نفسه يعطى حقا نخت تعليماته إلى ابنه وإلى « حتى » المشرف على زراعته فيخاطبهما معا « اعطوا هذه المؤن إلى رجالى فقط عند ما يقومون بالعمل ، ضعوا ذلك فى ذهنكم وأعدوا أكثر ما تستطيعون إعداده من الأرض ، احربوا الأرض ولا تكفوا عن العمل ، واعلموا انكم إذا كنتم مجتهدين فسأدعو لكم بخير ، ما أسعدكم لأنى أعولكم » . ولا يترك حقا نخت ابنه الأكبر دون أن يسدى إليه النصح لإنماء ثروته فيكلفه بأن يرسل « حتى بن نخت » لاستئجار حقلين ، ولكنه يوصيه ألا يعطى الإيجار إلا من ثمن الأقمشة التى كان قد أرسلها من الشمال ، ويأبى الشيخ إلا أن يذكر لابنه أنه يجب عليه أن يمدح نوع الأقمشة عند ما يقدمها للبيع وأن يقول إنها من أحسن الأنواع . ويعود ثانية إلى الأرض التى يجب استئجارها فينصح ابنه بأن يتأكد من أن الأرض جيدة وريها سهل ميسور . ويستطرد الشيخ فيقول

(١) شهور الشمو هي الشهور الاربعة المقابلة لأغسطس حتى بداية ديسمبر .

لابنه أن يعطى « حتى بن نخت » أجرا شهريا مقداره خمس ويبات من الشعير وأن يعطى عائلته فى أول كل شهر ويبتين ونصف زيادة على ذلك ويحذره من مخالفة أمره وأنه إذا أعطاهم زيادة فانه سيستقطع ذلك من مخصصاته هو ، ولكن قبل أن ينتهى من كتابة خطابه يعود إلى موضوع مرتب «حتى بن نخت» مرة أخرى فيقول لابنه بألا يعطيه الخمسة ويبات التى ذكرها بل يعطيه أربعة فقط .

يكفينا هذا القدر لإعطاء صورة عن ذلك الشيخ الشحيح الماكر ولننتقل إلى جزء آخر من تلك الرسائل لنرى جانبا من شخصيته . كان حقا نخت يقسو على ابنه الأكبر ويستحثه دائما على العمل ويهدده فى كل رسالة من رسائله ، ويحاسبه حسابا عسيرا على دخل كل حقل من الحقول ، حتى أخشاب الأشجار لا ينساها ولا ينسى بيعها ، وكان له ولدان آخران يساعدان « مرسو » فى العمل وكانوا جميعا متزوجين وكان له ابنان آخران صغيران أحدهما يساعد إخوته فى أعمالهم فى الزراعة أما الثانى فكان ما زال طفلا وكان يتمتع بحب أبيه وعطفه . ويأمر حقا نخت ابنه الأكبر بأن يعطيه ما يريد من مؤن ، « وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به وأرسله إلى مباشرة بعد أن تنتهى من زرع الأرض» ، ولكن سنفرو المدلل يرفض السفر .وفى رسالة أخرى نرى حقا نخت يكتب فى رسالة: « إذا كان سنفرو يريد العناية بالثيران فاجعله يعتنى بها لأنه لا يحب الجرى هنا وهناك معك فى الزراعة ولا يريد الحضور إلى هنا ليكون معى . دعه يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد » .

لقد فقد حقا نخت زوجته وأصبح أصغر أطفاله موضع حبه ، وكان فيه ضعف ظاهر له . كان بيت ذلك الكاهن ، كما نستشف من رسائله ، مملوءاً بالأقارب والأطفال يسأل عنهم جميعا كما يشير من آن لآخر إلى من كان فى ذلك البيت من خدم أو إماء ولكن واحدة منهن وتسمى «إيوت إن حب» اصطفاها لنفسه محظية له بعد زوجته وكان يخصها بعطف خاص أثار حسد

أبنائه والخادمات الأخريات . ويظهر أن « إيوت إن حب » كتبت له خطابا تشكو فيه من إحدى الخادمات ، فما كان من حقا نخت إلا أن صب غضبه على ابنه المسكين « مرسو » : « اطرد الخادمة « سنن » من منزلى فى الحال . . . وإذا بقيت « سنن » يوما واحدا فى المنزل فانك أنت الملوم إذا جعلتها تسبب أى أذى لمحظيتى . لأى غرض أعولكم ؟ وماذا تستطيع محظيتى أن تفعله ضدكم أنتم أيها الأولاد الخمسة ؟ سلم لى على أمى « إيبى » ألف مرة ، مليون مرة ، وسلم على « حتپت » وجميع العائلة وسلم لى على « نفرت » أما عن موضوع إيذاء محظيتى فانى أحذرك . إنك لست شريكا لى ، وخير لك أن تسكت » . وفى خطاب آخر كتبه بعد ذلك ، طلب حقا نخت من ابنه أن يرسل له محظيته إلى الشمال ويقول له فى هذا الخطاب : « انظر ! إنها محظيتى ومن المعلوم جيدا أنه يجب إحسان معاملة محظية الإنسان »،ويتحدث كثيراً فى هذا المعنى إلى أن يختمه بقوله : « كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد إذا كنتم لا تحترمون محظية لأجل خاطرى » .

إن القارىء لهذه الرسائل ، الذى يدرس تفاصيلها ويدقق فى استطراد جملها ، لا يسعه إلا أن يحس بأن آلاف السنين قد طويت ، ويرى أمامه أحد صغار الملاك المحبين للمال الذين ما زال يعيش الكثيرون منهم بيننا اليوم فى قرى الريف . نرى بينهم مئات من أمثال « حقا نخت » الذين لا يثقون فى غير أنفسهم ويعتقدون أن أبناءهم لا يهمهم إلا تبديد ما جمعوه ، وهم برغم حرصهم على أموالهم يحملون فى صدورهم قلوبا رحيمة ، ولهم نقط ضعف خاصة نحو بعض أبنائهم أو بعض من يظهرون لهم الحب والعطف .

إن فائدة تلك الرسائل لم تقف عند مدنا بمعلومات جغرافية عن بعض قرى الصعيد والوجه البحرى أو تنحصر فائدتها فيما نقف عليه من معلومات عن المعاملات بين الناس فى تأجير الأراضى أو أجور العمال ، ولكنها ترينا الكثير من الحياة الداخلية لإحدى العائلات المتوسطة الحال التى عاشت على

مقربة من الاقصر قبل أربعة آلاف سنة . وسواء أحسسنا بالعطف على « حقا نخت » والتمسنا له العذر أو رثينا لحال ابنه « مرسو » وما كان يلاقيه من أبيه ، فاننا فى كلتا الحالتين نحس بأننا عشنا معهم بعض الوقت ، ونكاد نتصور « مرسو » المسكين عند ما أحضر تلك المجموعة من الرسائل معه إلى القبر الذى كان مكلفا بالعناية به وهو قبر الوزير « إيبى » لقراءة بعض ما فيها ، ونكاد نتصوره عند ما ألقى بها ملفوفة مع بعضها بين المهملات عند ما كان العمال يحفرون قبرا آخر فلما انتهى العمل قذفوا بها ومع كل الأشياء الأخرى التى لم يكن العمال فى حاجة إليها فى تلك الفجوة فظلت هناك آلاف السنين حتى جاء اليوم الذى رأت فيه النور وأحييت سيرة أصحابها .

يكفينا هذا القدر عن حقا نخت ورسائله ولننتقل الآن لإتمام الحديث عن هذه الأسرة ونتكلم عن الفترة التى تلت وفاة منتوحتپ الثانى حوالى عام ۲۰۱۰ قبل الميلاد .

خلفاء منتوحتپ الثانى

حكم منتوحتپ الثانى بعد استيلائه على إهناسيا أكثر من اثنين وأربعين عاما بذل أثناءها كل ما وسعه من جهد لإصلاح ما تصدع من بنيان مصر وجعلها بلدا واحدا كما كان الأمر من قبل فتحقق له الكثير مما أراد . وخلفه على العرش ابنه منتوحتپ الثالث المسمى « سعنخ كارع » الذى اتبع سياسة أبيه فى تعمير البلاد وإنشاء المعابد فى الدلتا والصعيد . وتقدمت الفنون فى عهده تقدما كبيراً خصوصاً فن النقش ، كما اهتم اهتماما غير قليل بالمحاجر والمناجم التى نعرف من نقوشها الشىء الكثير مثل حملته التى أرسلها فى العام الثامن من حكمه تحت إمرة مدير بيته المسمى « حننو » وكان معه ثلاثة آلاف شخص ذهبوا عن طريق وادى الحمامات إلى شاطىء البحر الأحمر ، جمعهم «حننو» من شباب مصر الوسطى والصعيد (من إهناسيا حتى الجبلين)

وأعد لهم ما يلزم من معدات . وخصص لكل رجـــل قدرا من المـاء وعشرين رغيفا صغيراً فى اليوم . وحفر لأجل تلك المهمة صهاريج للميـاه وعشرين بئرا فى الطريق ، فلمـا وصلوا إلى الشاطىء صنعوا السفن للنزول بهـا إلى بلاد پونت ثم عادوا ومعهم كل ما وجدوه فى موانى تلك البلاد . وعند عودتهم مروا ثانيـــة بوادى الحمامات فأحضر «حننو» ورجاله معهم بعض أحجار الجرانيت لأجل تماثيل المعابد .

وأراد منتوحتپ الثالث أن يبنى قبراً ومعبداً يماثلان ما أقامه أبوه فاختار لذلك واديا فى الجبل الغربى من طيبة على بعد لا يزيد عن ثمانمـائة متراً إلى الجنوب الغربى من الدير البحرى ، وبدأوا بتمهيد المكان وإعداد الطريق ثم أخذوا فى حفر القبر ولـكن العمل لم يتقدم أكثر من تلك المرحلة.وبالرغم من أن العمل لم يكد يبدأ بداية جدية فقد عثر على بعض آثار هذا الملك فى ودائع الأساس كما شيد كثير من رجاله مقابرهم على مقربة من ذلك المكان وأهمها قبر « مكت رع » الذى كان من أهم رجال حكومته وكان قبل ذلك من كبار الموظفين فى عهـــد أبيه ، كما عثر أيضا على قبر إنيوتف الذى تولى بعض وظائف أبيه « مكت رع » بعد وفاته .

عثرت بعثة متحف المتروپوليتان على كثير مـن مقابر موظفى هاتين الشخصيتين الـكبيرتين كما عثرت فى قبر « مكت رع » نفسـه على كثير من الآثار الهامة وبخاصة فى حجرة الدفن إذ عثروا إلى جانب التابوت على ما يقرب من ألف ومائتى قطعة مختلفة من نماذج الأسلحة والأدوات المختلفة من فؤوس للقتال وعصى وأقواس وسهـام ودروع وغيرها ، ولـكن الحظ كان يحتفظ للمكتشفين بمـا هو أهم من ذلك إذ وجدوا فى السراديب ، فى حجرة قطعت فى الصخر تحت أرضية المقبرة وسدت سداً محكما ، بمجموعة من النماذج الخشبية وعددها ثلاثة وعشرون (أنظر شكل رقم ١٣) تمثل جميع ممتلكات «مكت رع». وهى وإن كانت صغيرة الحجم نسبيا إلا أن صانعيها عنوا بتفاصيلها عناية

كبرى فأصبحت مصدراً من أهم مصادر دراستنا للحياة اليومية فى ذلك العهد ، ففيها السفن وفيها الحدائق وفيها المنازل وفيها المصانع المختلفة وفيها الخدم يحملون القرابين وأهم تلك النماذج معروض الآن فى متحف القاهرة وبعضها فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك [1] .

لم يزد حكم منتوحتب الثالث على اثنى عشر عاما ، تلاه بعدها على العرش ابنه المسمى سنوسرت وكان يحمل لقب « والد الإله » ولكنه لم يبق طويلا على العرش ثم تلت وفاته فترة عدم استقرار استمرت نحو خمس سنوات حكم خلالها عدة أشخاص ربما كان من بينهم « قا كا رع إنيوتف » والملك « إيبى خنت إب رع » وحورس « جرج تاوى إن » والملك « واز كارع سجر سنى » الذين لم يكن لهم إلا نفوذ محدود فى الجنوب وبخاصة فى النوبة .

ولكن بعد هذه السنين الخمسة المضطربة نرى على العرش الملك « منتوحتب » الرابع وهو المسمى « نب تاوى » ولا نعرف عنه إلا أنه حكم فترة لا تزيد عن عامين كان فى خلالها مهتما إهتماما كبيراً بإرسال البعثات إلى المحاجر المختلفة وبخاصة إلى وادى الحمامات لقطع الأحجار وإلى وادى الهودى جنوب شرقى أسوان للحصول على حجر الجمشت (الأماتيست) [2] .

وبالرغم من تلك المدة القصيرة التى قضاها هذا الملك على العرش فقد حدثت خلالها أحداث هامة مثل بعثاته إلى الصحراء واحتفاله بعيد « السد » فى العام الثانى من حكمه أى بعد ثلاثين سنة تماما من الإحتفال الذى أقامه منتحوتب الثانى فى العام التاسع والثلاثين من حكمه ، مما يجعلنا نرجح أن الإحتفال بالعيد الثلاثيني فى ذلك الوقت بالذات كان يقام كل ثلاثين سنة دون التقيد بحكم ملك من الملوك .

---

(١) WINLOCK, *The Models of Daily Life*, 1953.

(٢) AHMED FAKHRY, *The Amethyst Quarries of Wadi el Hudi* (1952) p. 19 - 23

وأهم حادث يرتبط بحكم هذا الملك هو قيام وزيره المسمى « أمنمحات » ومعه عشرة آلاف جندى من أقاليم الجنوب والشمال بحملة إلى وادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لتابوت له ولتشييد معابد الجنوب ، وأنهم أتموا ما ذهبوا من أجله وتركوا عدة نقوش فى ذلك الوادى يسجلون فيها أعمالهم المختلفة .

كانت تلك البعثة إلى وادى الحمامات آخر شىء نعرفه عن الأسرة الحادية عشرة وعن حكم ذلك البيت الطيبى الذى ظل فى الحكم نحو ١٤٣ سنة ، إذ يتغير المنظر فجأة ونرى أموراً كثيرة متلاحقة أهمها استيلاء ملك جديد على العرش وتأسيس أسرة حاكمة جديدة وانتقال العاصمة إلى الشمال . ونرى أن ذلك الشخص الذى قام بذلك الإنقلاب ، إن كان يجوز استخدام مثل هذا التعبير ، يسمى « أمنمحات » فهل هو الوزير الذى ذهب إلى وادى الحمامات ؟ يكاد يكون مؤكدا أنه هو الشخص نفسه ، ونكاد نجزم أيضاً أن جمع ذلك العدد الكبير من الجنود لم يكن لأجل إحضار أحجار يكفى لإحضارها بضع مئات من الرجال أو على أكثر ما عرفناه ثلاثة آلاف رجل كما حدث فى عهد الملك الذى كان قبله ، وهو رقم لم يسمع به من قبل . وربما كان عدد الجنود كبيراً لأجل إعداد الطريق وحفر الآبار من النيل حتى شاطىء البحر ثم إنشاء السفن والذهاب إلى بونت وليس لإحضار أحجار من وادى الحمامات فقط ، وربما جمع الوزير أمنمحات هذه الآلاف من الجنود توطئة لعمل آخر وهو الإستيلاء على الملك لنفسه ووضع حد لعدم الاستقرار الذى أخذ ينتشر فى البلاد منذ وفاة منتوحتپ الثالث أى مدى سبع سنوات كاملة .

الأسرة الثانية عشرة

أمنمحات الأول :

واستتب الأمر لأمنمحات فترك من والاه من حكام الأقاليم فى مناصبهم بعد أن وضع الحدود بينهم وبين جيرانهم . وقبلوا مافرضه عليهم من أموال وما ألزمهم به من حق الحكومة فى الإشراف على الأمور الداخلية فى الأقاليم، أما من وقف فى وجهه فقد نحاه وولى مكانه واحدا ممن يثق فيهم . وما من شك فى أن المهمة كانت صعبة وكانت فى حاجة إلى شخص فى مثل كفاءته وجرأته فتم له ما أراد من إعادة الأمن إلى البلاد .

كان تنظيم الأمور الداخلية أهم الواجبات التى واجهته عند توليه الحكم، وسواء أكان اختيار مكان للعاصمة على مقربة من منف كان من تفكيره هو أو كان فى عهد الملك منتوحتب الرابع (نب تاوى رع) فان رأيه استقر على نقل عاصمة الملك إلى الشمال بعد استتاب الأمر له وسمى المكان الجديد الذى بنى قصوره ودور حكومته فيه باسم « إثت تاوى » أى القابضة على الأرضين مشيرا بذلك إلى الشمال والجنوب .

وتابع أمنمحات سياسة سلفه فى الاهتمام بالجنوب فوصل نفوذ مصر إلى دنقله ومن المرجح أنه تأسس فى عهده ذلك المركز التجارى فى مدينة كرما فى شمال السودان بعد أن شيد حصن سمنه جنوبى الشلال الثانى .

ولم تكن حدود مصر الشرقية أو الغربية أقل حظا فى عنايته بها ، فقد وضع ذلك الملك النشيط حداً لغارات البدو من كلا الصحراوين وبنى سلسلة من التحصينات على حدود الدلتا الشرقية كانت تسمى باسم حائط الأمير، كما أقام أيضا سلسلة حصون أخرى على حدود الدلتا الغربية ما زالت بقايا واحد

منها قائمة فى وادى النطرون وكان فى داخله معبد له بوابة من الجرانيت نقش عليها اسمه .[١]

لم يكن أمنمحات إلا رجلا عصامياً من الشعب رفعه ذكاؤه وجده وحسن إدراكه للأمور إلى المكان الذى يستحقه ولكنه لقى كثيراً من المصاعب ، وقامت كثير من القوى الرجعية ضده فكان من بين أساليب رده على خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات « نفر ـ روهو » المحفوظة الآن فى متحف لينتجراد والتى تحدثنا عنها قبل الآن،وهى التى أطنبت فى وصف ماسيحل بمصر من فوضى وأن إنقاذها سيتم على يدى «ملك سيأتى من الجنوب يسمى « إمينى » ابن امرأة من النوبة ويولد فى الصعيد . . . سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ، ويقع الليبيون صرعى أمام لهيبه ، وسيبنى « حائط الأمير » ولن يتيسر للأسيويين بعد ذلك النزول إلى مصر».وليس اسم « أمينى » إلا اختصاراً عاديا لاسم أمنمحات ، الذى نرى أصله الجنوبى فى ملامح وجهه ووجوه أسرته من بعده . ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة .

وكان من الطبيعى أن يهتم أمنمحات بطيبة ، ذلك البلد الذى نشأ فيه وعاونه على تولى الملك ، وكان طبيعياً أيضاً أن يهتم باعلاء شأن إلهها المحلى « أمون » وأن يقيم له المعابد ، ولكن هذا كله لم يمنعه من نقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف وبناء مقره الجديد فى المنطقة التى تقع الآن على مقربة من قرية اللشت وبناء مقره الأبدى على مقربة منها .

ولم يقتصر نشاط هذا الملك على طيبة وعلى عاصمته الجديدة بل نرى آثار نشاطه فى جهات كثيرة من مصر ، وبقايا معابده منتشرة فى سينا وفى شرقى

(١) AHMED FAKHRY, *Wadi el-Natrun*, *in Annales du Service*, T. XL. p. 837 - 848.

الدلتا وبخاصة فى الختاعنة (مركز فاقوس) وفى تل بسطه (الزقازيق) كما نرى بقايا معبد له فى مدينة الفيوم (كيمان فارس — كروكوديلوپوليس) إذ كان أول ملوك تلك الأسرة الذين اهتموا اهتماما خاصاً بذلك الإقليم لاستصلاح أراضيه والاستفادة من بحيرته . وورد اسمه على كثير من مقابر ولوحات الموظفين الذين عاشوا فى عصره ولكن أكثر ما عثر عليه علماء الآثار كان على مقربة من مجموعته الهرمية فى اللشت إذ عاد أمنمحات إلى التقليد القديم الذى كان سائداً فى الدولة القديمة من بناء الأهرام لتكون مدافناً للملوك وبناء معبد جنازى إلى الشرق منه ثم طريق موصل إلى الوادى وتشييد معبد آخر عند بداية ذلك الطريق . وعثروا هناك على كثير من الأحجار المنقوشة من معبديه وعلى كثير من بقايا الأعمدة والتماثيل كما عثروا أيضاً على بعض ودائع الأساس تحت أرضية ركن من الهرم وبعض أركان المعبد . وكشفت تلك الحفائر أيضاً عن حقيقة هامة وهى أن الهرم مشيد بأحجار أخذوا الكثير منها من المعابد أو المقابر الأقدم عهداً ، ومن بينها أحجار منقوشة أتوا بها من معابد لبعض ملوك الأسرة الرابعة من الجيزة والأسرة الخامسة من سقارة ، كما كشفت الحفائر أيضاً عن وجود مصاطب كثيرة داخل سور الهرم وخارجه لكبار موظفى الملك وبعض أفراد عائلته .

ونشط أمنمحات فى استغلال المحاجر والمناجم ، وتسهيل التجارة ونجح فى سياسته مع أمراء الأقاليم الذى هادن الكثيرين من بينهم بعد أن اطمأن إلى ولائهم له ، ولكنه أبقى لهم على ثرواتهم والجزء الأعظم من نفوذهم فى مناطقهم مع اعترافهم بسلطانه عليهم ودفع الضرائب المفروضة عليهم فكانت أيامه نعمة على كثير من هؤلاء الحكام فبنوا المقابر العظيمة فى بلادهم أمثال أمراء بنى حسن .

ويمكننا أن نتوقع من أى شخص فى مكان أمنمحات أن يغضب الكثيرين ويبطش بالمناوئين له ، ولهذا لا نعجب إذا وجدنا أيامه الأخيرة مليئة ببعض

المتاعب ، بالرغم من أن البلاد تمتعت بوجه عام بطمأنينة ورخاء لم تعرف لها مثيلا منذ الدولة القديمة .

استولى أمنمحات على الملك وقد جاوز سنى الشباب الأولى إذ كان قبل ذلك وزيراً ، ولهذا عندما أتم عشرين سنة وهو ملك وبدأت تتقدم به السن أراد الاطمئنان على مصير الملك الذى أنشأه وخاف من أن تعصف به يد الأطماع أو المنافسات بعد موته . فأعلن ابنه سنوسرت شريكا له فى الملك ، ولكن ظل النفوذ الأكبر فى يد الملك الشيخ وكان يكلف ابنه من آن لآخر بالقيام ببعض الحملات الحربية ليتعرف على بلاده ويوطد نفوذ مصر على حدودها .

ولكن الأيام طالت بأمنمحات حتى وصل حكمه إلى ثلاثين عاما أى أنه حكم منذ عام ١٩٩١ ق . م . إلى عام ١٩٦١ ق . م . ولم يقدر له أن يموت وهو فى شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو فى قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولى عهده وشريكه فى الملك سنوسرت فى حملة على ليبيا ودبروا مقتله ، وربما كان ذلك الاغتيال بسبب التنافس على العرش بين أفراد العائلة نفسها إذ استطاع المتآمرون أن يصلوا إليه فى مخدعه . ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما هى بردية شخص يسمى « سنوهى »[1] كانت تربطه بالعائلة المالكة رابطة من قرابة وكان مع سنوسرت فى حملته عندما وصل رسول من القصر يحمل نبأ مصرع الملك، فأمر سنوسرت بإخفاء الأمر عن الجيش وعاد فى الحال مسرعا إلى العاصمة . وكان سنوهى على مقربة من خيمة الأمير واستمع إلى ذلك الخبر . ولسنا نعرف ما الذى أفزعه حتى هرب فى جنح الظلام وأخذ يسير من بلد إلى آخر حتى

---

(١) هناك ترجمات كثيرة لهذه القصة فى جميع اللغات الحية الهامة ــ اقرأ عن أهم المراجع لدراستها وقطع الاوستراكا التى تحتوى أجزاء منها مع ترجمة حديثة كاملة لها فى كتاب :
Ancient Near Eastern Texts (*Princeton*, 1950), p. 18 - 23.

استطاع مغافلة الحراس على الحدود الشرقية وهرب إلى فلسطين ومنها إلى لبنان حيث أقام هناك ، وأثرى وتزعم إحدى القبائل ثم حن فى شيخوخته للعودة إلى مصر ليقضى فيها ما تبقى له من أيام ، وقد حقق له الملك سنوسرت الأول رغبته .

كانت وفاة أمنمحات فى اليوم السابع من الشهر الثالث من شهور الـ «أخت» فى العام الثلاثين من حكمه ، فى يوم يوافق ١٥ فبراير سنة ١٩٦١ عند حسابه بتقويمنا الحالى ، أما البردية الأخرى التى تهمنا فهى البردية المعروفة باسم وصايا أمنمحات لابنه [1] وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها على لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلى ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك ويشرح له كيف قتلوه .

ينصح أمنمحات ابنه ، وقد صار ملكا ، أن يحترس من رعاياه ولا يظهر بينهم وهو وحيد ، وألا يثق فى أخ أو يعتمد على صديق ، ويذكره بما كان يفعله عندما كان يعطى للمحتاج ويربى اليتيم ويجعل من لا يملك شيئاً يبلغ هدفه ولكن « الذى أكل طعامى هو الذى حرض الجنود على ، والذى أسلمته يدى هو نفسه الذى استطاع بواسطتها أن يحدث الفزع » . ويستمر أمنمحات فى ذكر جحود الذين أغدق عليهم نعمه ثم يقول « كان ذلك بعد تناول الطعام عندما حل المساء ، وخلدت لساعة من الراحة مستلقياً على سريرى لأنى كنت متعباً » وعند ذلك سمع صليل الأسلحة ورأى اشتباك حراسه مع المهاجمين ، ولكن سرعان ما حلت النكبة قبل أن يتمكن الملك من النهوض

(١) كانت نصائح أمنمحات من أحب المواضيع الأدبية إلى قلوب المصريين فى الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين ، وهناك بضع نسخ منها بعضها كامل والبعض الآخر يحوى مقتطفات وكانت منذ عام ١٨٩٦ موضع دراسة كثير من العلماء وقد ترجمها كل من جريفيث وماسبرو وجاردنر ودى بك وليفغر كما عنى بدراستها أخيرا جون ويلسون ووضع ترجمة جمع فيها آراء ومجهودات كل من سبقه ونشرها بين ما نشره فى A. N. E. T. السالفة الذكر ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

من فراشه « لو أننى أسرعت وبيدى أسلحتى لجعلت الجبناء يتقهقرون شذرمذر ، ولكن لا شجاع فى الليل ولا قتال لمن كان وحده ولن يتم النجاح دون حامى » . إذن لقد تمت المؤامرة بالنجاح . ويستمر النص فيذكر أن ذلك قد حدث عندما كان سنوسرت بعيداً ، وتملأ الحسرة نفس الملك من خيانة خدمه وأتبـــاعه الذين رعاهم وعاونهم ووضع ثقته فيهم فكانوا هم المتآمرين على حياته . ويعدد أمنمحات بعد ذلك ما قام به من إخضاع البلاد لسلطانه وتأمين حدودها واعتراف الناس بأفضـــاله ويذكر أيضاً شجاعته فى الصيد وغزوه لإقليم واوات فى النوبة وتأديبه للأسيويين الذين كانوا يغيرون على الدلتـا ، ولا ينسى ذكر قصره الذى شيده وزينه بالذهب وحلى سقفه بأحجار اللازورد وكانت أبواب حجراته من النحاس ومصاريع الأبواب من البرونز ، ويختم وصاياه بتحية ابنه وتمنيه النجاح له ليتم ما بدأه ويوصيه بعمل الخير وتشييد المعابد الفخمة المتينة .

كان العام الثلاثون من حكم أمنمحات موافقا للعام العاشر من حكم ابنه سنوسرت إذا احتسبنا الأعوام العشرة منـذ إعلانه وليا للعهد وشريكا فى الملك بداية حكمه الحقيقى .

ولم يصل إلى أيدينا حتى الآن أى وثيقة نعرف منها تفاصيل الأيام الأولى لحكم سنوسرت ، لكننا نعرف أنه لم يلق من الصعوبات شيئاً لم يتغلب عليه واستطاع حقاً أن يسير فى الطريق الذى رسمه أبوه العظيم .

خلفاء أمنمحات الأول :

تابع سنوسرت الأول سياسة أبيه وثبت أقدامه لا فى مصر وحدها بل وفى البلاد التى كانت على حدودها . وتوسع جنوبا وبدأت كلمة « كوش » ترد بكثرة فى النصوص كمنطقة امتد إليها النفوذ المصرى . وعنى سنوسرت عناية كبرى باستغلال مناجم الصحراء ، فنجد اسمه على لوحات أقامها رؤساء بعثاته

إلى الصحراء يذكرون فيها تاريخ عملهم ويمجدون فيها الملك الذى كانوا يعملون باسمه ، وكانوا يستخرجون الذهب أو النحاس وغيرهما من بعض تلك المناجم ، كما كانوا حريصين أيضاً على استغلال بعض الأحجار نصف الكريمة مثل الفيروز من سيناء والجمشت من وادى الهودى كما حرصوا أيضا على الحصول على أصلب الأحجار مثل الجرانيت الذى كانوا يستخرجونه من أسوان ومن وادى الحمامات والديوريت الذى كانوا يجلبونه من جبال النوبة فى منطقة إلى الجنوب الغربى من أبو سمبل وهى المحاجر التى استغلها المصريون منذ أقدم العصور لأجل عمل الأوانى ، وكان خوفو وخفرع من ملوك الأسرة الرابعة يحصلون منها على الأحجار اللازمة لتماثيلهم ، كما نعرف أيضاً إهتمام سنوسرت باستغلال محاجر المرمر فى حاتنوب فى شرق النيل على بعد يقرب من خمسة وعشرين كيلو مترا من تل العمارنة الحالية .

وشيد سنوسرت آثاره فى كثير من جهات مصر نجدها فى الكرنك وفى كثير من بلاد النوبة وفى الدلتا وفى الصعيد وكان للفيوم نصيب خاص من عنايته وشيد هرمه على مقربة من هرم أبيه فى اللشت .

وكان من أهم أعماله تشييده من جديد لمعبد رع فى مدينة هليوبوليس (إيون — عين شمس) . بدأ ذلك فى العام الثالث من حكمه وعند ما أتم الثلاثين سنة على العرش واحتفل بعيده الثلاثينى أقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت ما زالت إحداهما قائمة حتى الآن فى مكانها هناك ، كما شيد فى الكرنك بناء صغيراً كان يستخدم أثناء الاحتفالات لتستريح فيه سفينة الإله أمون رع ، وقد عثر على أحجاره داخل الصرح الثالث الذى شيده الملك أمنحتب الثالث ، وقد كان عند هدمه كاملا ولهذا عثروا فى السنوات الماضية على جميع أحجاره تقريباً وأعادت مصلحة الآثار تركيبها وهو قائم الآن فى المعبد نفسه ولا يبعد إلا قليلا عن مكانه الأصلى ، ونقوشه من أجمل ما أخرجته يد الفنان المصرى فى أى عصر من العصور .

وطال حكم سنوسرت الأول حتى أربى على ٤٤ عاماً (١٩٧٢ — ١٩٢٨) منها عشرة مع أبيه وأقل من ثلاث سنوات مع ابنه الذى أشركه معه فى الملك فى عام ١٩٣٠ ق . م .

ولم يكن أمنمحات الثانى كأبيه أو جده فى نشاطه الحربى أو المعمارى فقد كانت الحالة الداخلية آمنة مطمئنة بفضل جهود من سبقوه . كما كانت صلات مصر بغيرها من الأمم صلات صداقة ومودة ، وكان يرسل هداياه إلى أمراء سوريا وغيرها ويتلقى منهم أيضاً كثيراً من تلك الهدايا . وقد عثر منذ وقت غير بعيد تحت أرضيـة معبد الطود جنوبى الأقصر على كمية كبيرة من أوانى الذهب والفضة ، والحلى مع غيرها من الأشياء غير المصرية . وكان نشاط أمنمحات الثـانى موجها بصفة خاصة إلى استغلال مناجم المعادن والأحجار نصف الكريمة وإرسال البعثات إلى الصحراء لتأمينها .

وكذلك كان حال خلفه سنوسرت الثانى فقد شابهه فى كل من سياسته الداخلية والخارجية ولـكن زاد عليه فى عمل هام وهو تكريس جزء كبير من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة فى مديرية الفيوم ، وقد أقام هرمه فى اللاهون وعثر على مقربة منه على القرية التى أقامها للعمال والموظفين الذين أشرفوا على تشييد الهرم وما يلحقه من معابد وظلت هـــذه القرية مسكونة حتى عصر الهكسوس ، وعثروا فيها على كثير من أوراق البردى الهامة وعلى غيرها مما كان يستخدمه الناس فى حياتهم اليومية من أدوات .

وعلى مقربة من هرمه أقاموا عدداً كبيراً من المصاطب لأهل بيته وعلى بعد غير قليل منها قامت جبانة كبيرة كانت مدفناً للـكثيرين من رجال بلاطه[1] . وفى مقبرة من مقابر الأميرات عثرت إحدى بعثـات الحفر الأجنبية فى عام

---

(١) كان أكثر حكام الأقاليم يدفنون فى أقاليمهم ، ونرى الـكثير من مقابرهم الفخمة فى مصر الوسطى وفى واحدة منها ، فى بنى حسن ، نرى المنظر الذى يمثل مجيء بعض الـكنعانيين إلى مصر .

١٩٢٠ على مجموعة كاملة من الحلى داخل صندوق كان مخبأ فى فجوة فى الجدار الصخرى غاب عن أعين اللصوص القدماء ، وأكثر هذه المجموعة الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .

لم يزد حكم سنوسرت الثانى على تسعة أعوام بما فى ذلك الفترة التى اشترك فيها مع أبيه أمنمحات . وعندما ترك العرش لابنـــه سنوسرت الثالث فى عام ١٨٧٩ ق . م . استقبلت مصر ملكا كان مقداراً له أن يكون من أعظم من جلس على عرش الفراعنة فى جميع العصور .

طال حكم سنوسرت الثالث حتى زاد على ثمانية وثلاثين عاما (١٨٧٩ — ١٨٤١) وترك وراءه فى أكثر بلاد مصر آثاراً تدل على نشاطه ، فبنى المعابد الكثيرة وأقام آثاراً له فى أشهر المعابد التى شيدها من سبقه من الملوك ولكن أهم أعمـاله تركزت فى أمرين أحدهما قضاؤه التـام على نفوذ حكام الأقاليم والثانى أعماله الحربية سواء فى فلسطين أو فى جنوب الوادى ، وما قام به من حروب ضد القبائل التى أغارت عليه وتشييده الكثير من الحصون الحربية فى تلك المنطقة التى جعلت منه بطلا أسطوريا للأجيال القادمة . أما قضاؤه على نفوذ حكام الأقاليم فكان سياسة ناجحه أزالت من البلاد كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، وكل أثر للإقطاع .

لقد نقم كثير من رؤساء تلك العائلات القوية على منتوحتپ الثانى عندما وحد البلاد وأخضعهم لسلطته ، وقد استغل أمنمحات الأول ما فى أنفسهم من حفيظة فأبقى لهم الكثير من نفوذهم بعـد أن وضع الحدود بين تلك الأقاليم فظلوا سادة فى ديارهم طالمـا كانوا يدفعون الضرائب ويقـــدمون الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا عندما يطلب إليهم الملك ذلك .

ولكن مع مضى الزمن أخذ نفوذ أولئك الحكام يزداد وثرواتهم تعظم ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا الأمر ، ولم يكن هناك من هو أقدر من ســـنوسرت الثالث لتسديد هـذه الضربة فجردهم من مزاياهم وخلع عنهم

ألقابهم التقليدية التى كانوا يورثونها لأبنائهم فلم يصبح حكام الأقاليم منذ عهده إلا موظفين عاديين كغيرهم .

ولم يقل اهتمام سنوسرت الثالث بالفيوم ولكنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده كبعض من سبقه من ملوك هذه العائلة فى منطقة دهشور . وقد عثر فى عام ١٨٩٨ — ١٨٩٩ على مجموعات عظيمة من حلى أميرات بيته اللاتى دفن على مقربة من هرمه ، وهى تزين الآن قاعة الحلى فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وفى أواخر أيامه أشرك معه فى الحكم ابنه أمنمحات الثالث (١٨٤١ — ١٧٩٢ ق . م .) الذى طالت أيام جلوسه على العرش أكثر من جميع من سبقه أو جاء بعده من ملوك هذه الأسرة .

جنى أمنمحات الثالث ثمرة حروب أبيه وإصلاحاته فنعم بعهد من الرخاء والطمأنينة انصرف فيه إلى أعمال الإنشاء فشيد كثيراً من المبانى فى مختلف البلاد . والتفت إلى الرى ، وحظى إقليم الفيوم أكثر من أى إقليم آخر بجهوده، فأتم ما بدأه جده سنوسرت الثانى من أعمال لاستصلاح جزء كبير من أراضى تلك الواحة بعمل الجسور العظيمة لتحديد البحيرة الطبيعية التى فيه وعمل القناطر عند هوارة وعند مدخل الفيوم (روحنت — اللاهون) وشق الترع وبنى على شاطئها الذى أصبح على منسوب جديد كثيراً من المعابد التى أبقى الزمن على كثير من بقاياها وبخاصة فى الجنوب الغربى من المديرية مثل معبد مدينة ماضى الذى بناه فى أواخر سنى حكمه عندما كان ابنه أمنمحات الرابع شريكا معه فى الملك ، كما بنى معبداً آخر فى مدينة شدت (مدينة الفيوم الحالية — كيمان فارس) وأقام هرمه عند بلدة هوارة وبنى إلى الشرق منه معبده الشهير الذى أسموه فيما بعد « اللابيرانت » ، والذى كتب عنه اليونان والرومان الشيء الكثير ، ولكن لم يبق من آثاره إلا بضع أحجار متناثرة هناك . وقد عثر فى صيف عام ١٩٥٦ على مدفن ابنة له تسمى « نفروپتاح » وعثر فى داخل حجرة الدفن على ثلاث أوانى كبيرة من الفضة وعليها اسمها واسم أبيها أمنمحات

الثالث ولم يعثر فى تلك الحجرة على شيء آخر ذى أهمية ، وقد وجد تابوتها سليما لم يفتحه اللصوص ولكن لم يعثر على مومياتها سليمة فى داخله بل تحللت جثتها من مياه الرشح ولم يكن معها إلا القليل من الحلى ، ويظهر أنها دفنت على عجل فى ذلك الوقت المضطرب من تاريخ مصر .

وتلاه على العرش ابنه أمنمحات الرابع ، الذى لم تتوفر فيه مزايا أسلافه العظماء فلم نعرف عنه إلا القليل إذ ورد اسمه على بعض لوحات موظفيه ، ومنهم من ذهب إلى المحاجر فى النوبة مثل محاجر وادى الهودى لاستحضار الجمشت ، كما ورد اسمه أيضا على جدران معبد مدينة ماضى بالفيوم .

وتذكر بردية تورين أنه حكم تسعة أعوام وثلاثة شهور وسبعة وعشرين يوما ، ولسنا نعرف تماما أين دفن وإن كان الرأى الأرجح أنه كان مدفونا فى أحد الهرمين اللذين ما زالت بقاياهما القليلة قائمة حتى الآن خلف قرية مزغونة إلى الجنوب من أهرام أجداده فى اللشت .

وتنتهى أيام تلك الأسرة المجيدة نهاية محزنة فقد رأينا الضعف يدب فى أوصالها بعد أمنمحات الثالث وهاهى تنتهى عندما تولت إبنة للملك أمنمحات الثالث عرش مصر ، ولم يطل حكمها أكثر من ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وعشرين يوما كما جاء فى برديه تورين بين أعوام ١٧٨٢و ١٧٧٨ قبل الميلاد .

ومن المحتمل أن تلك الملكة واسمها « سبك ـ نفرو » شيدت هرمها على مقربة من هرم أمنمحات الثالث فى هوارة فقد عثر على بعض آثار باسمها على مقربة من ذلك الهرم فى القرن الماضى .

فاذا ما تساءلنا عما حدث وما الذى قضى على حكم تلك الأسرة وربما على الملكة أيضاً ، فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة مالدينا من وثائق . فربما كان ضعف الأسرة ناشئا عن اضطرابات داخلية ومنافسات بين أفراد العائلة الحاكمة . فقد رأينا مظاهر هذا الضعف منذ أيام أمنمحات الرابع ،

ولكننا سنرى عند الحديث على عصر الفترة الثانية وجود عوامل أخرى خارجية بعضها بسبب ثورات قامت فى الجنوب والبعض الآخر فى آسيا ولم يكن على عرش مصر ملك مثل أمنمحات أو سنوسرت فيوقف ذلك التيار الجارف فهوى الصرح ، ولم تنتهى عائلة أمنمحات فحسب بل دخلت مصر فى فترة مظلمة من تاريخها جاء فى أعقابها غزو أجنبى . وكانت فترة طويلة لم تقل فى مجموعها عن ٢١١ سنة وهى عصر الفترة الثانية التى بدأت إثر موت الملكة سبك نفرو عام ١٧٧٨ ولم تنتهى إلا فى عام ١٥٦٧ عندما أتمت مصر تطهير أرضها من ذلك الغزو الأجنبى وبدأت عهداً جديداً فى تاريخها وأسست الأسرة الثامنة عشرة .

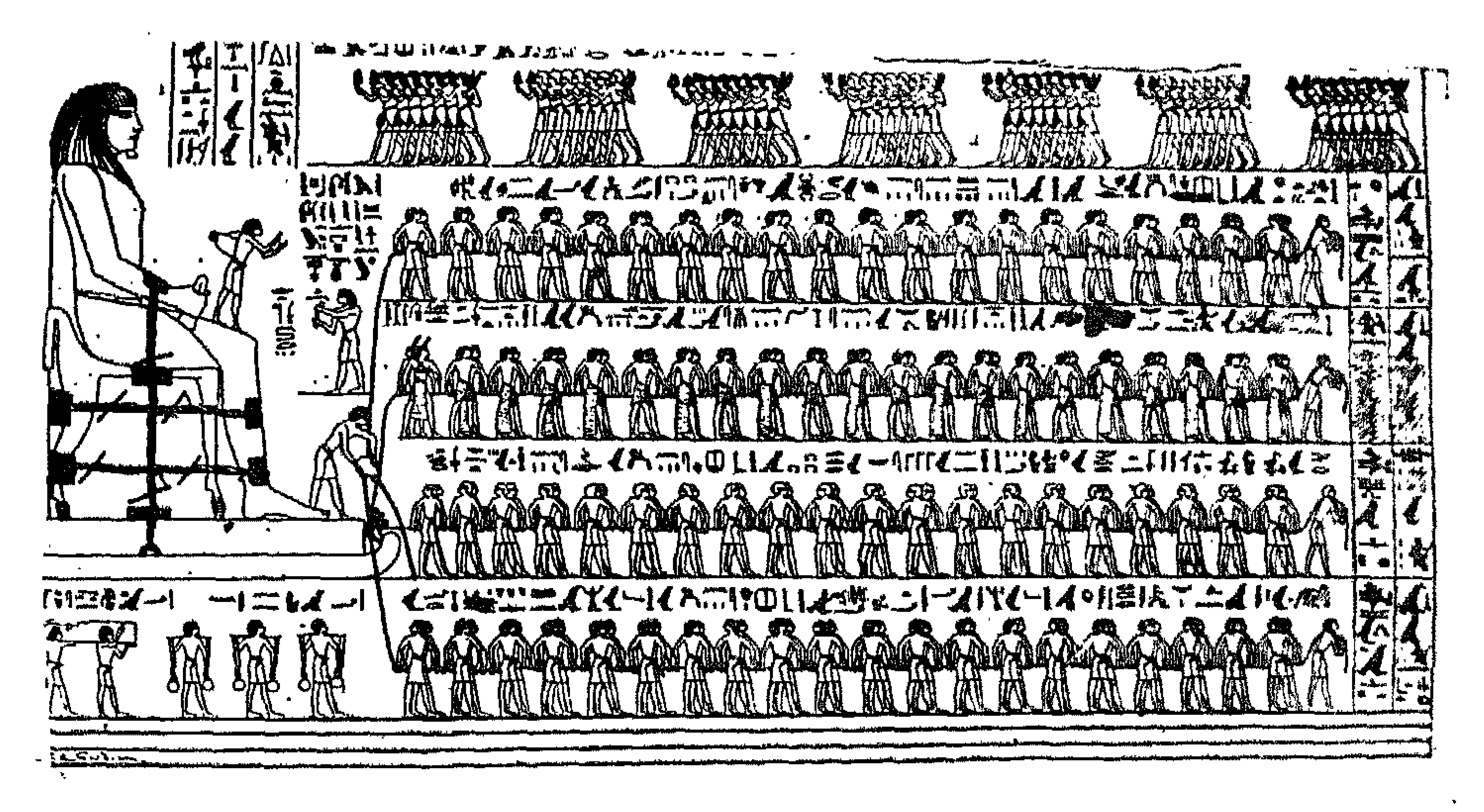
ولكن قبل أن نتحدث عن عصر الفترة الثانية يجب أن نقف قليلا لنلقى نظرة على أهم مظاهر الحياة الإجتماعية فى الأسرة الثانية عشرة .

نظرة عامة فى الحياة الإجتماعية :

عرفنا الكثير عن حياة المصريين فى أيام الدولة القديمة مما تركوه مرسوما على جدران مقابرهم ، وبالرغم من أن الغالبية الكبرى من مقابر الدولة القديمة كانت مبنية بالأحجار أو من الطوب اللبن فى بعض أجزائها فإن بعضها كان منذ أيام الأسرة الرابعة يقطع فى صخر الجبل ويزينون جدرانها الصخرية بما يشاؤونه من نقوش إذا كان نوع الصخر جيداً ، ولكن إذا كان نوع الصخر رديئاً يغطون الجدران بطبقة من الملاط الجيد ، ويرسمون ويلونون فوق الملاط .

ومقابر الدولة الوسطى وفيرة العدد ، مختلفة الأنواع ، ولكن أهمها فى دراستنا لما طرأ على الحياة الاجتماعية من تطور أو تغيير هى مقابر أمراء الأقاليم وعائلاتهم وكبار موظفيهم . تلك المقابر التى خلفوها وراءهم فى بلادهم وقطعوها فى صخر الجبل فى أماكن مرتفعة تشرف على المناطق المزروعة .

كان أمراء الأقاليم يعيشون فى أقاليمهم منذ الأسرة السادسة كما ذكرنا ، واستمروا فى عصر الفترة الأولى ، وزاد نفوذهم بعد ذلك وكان كل واحد منهم يحيط نفسه ببلاط صغير . وله جيش لحماية الإقليم من اعتداء أى أقليم مجاور ، ولنشر الأمن والطمأنينة بين السكان . ويكفى أن يزور الإنسان بعض مقابر هذا العصر فى بنى حسن أو فى البرشا أو فى شطب أو أسيوط أو فى الأقصر أو فى أسوان ويرى عظمتها ومدى عنايتهم بنقوشها ليدرك أن كلا من أصحابها كان ملكا صغيراً فى إقليمه . ولسنا ندهش لثرائهم فقدكانت الضرائب كلها تقدم إلى خزائنهم ، ثم يقدمون بأنفسهم بعد ذلك إلى الملك ما يكونون قد اتفقوا عليه . وإذا صدقنا ما ذكره هؤلاء الحكام فى مقـــابرهم أو فى اللوحات التى خلفوها وراءهم فإنهم كانوا مهتمين بنشر الأمن فى بلادهم وعدم الظلم ، وكانوا يعتمدون على جنودهم فى حماية الآمنين من الناس من عبث العابثين .



نقل تمثال الحاكم « تحوتى حتب » ـ رسم فى مقبرته بالبرشا فى مديرية أسيوط .

وما من شك فى أن كل حاكم من أولئك الحكام كان يهتم بجنوده ، ولهذا أكثروا من تدريبهم الجثمانى حتى تظل لهم مرونتهم وسرعة حركتهم فى القتال .

صوروا على جدران المقابر مناظر تمريناتهم وأخصها المصارعة فنرى مناظرها مفصلة فى مقابر كثيرة ، وبخاصة فى مقابر بنى حسن . ولكن المصارعة لم تكن الرياضة الوحيدة التى مارسها الجند فقد كان هناك أيضا حمل الأثقال يملؤون غرارة من الرمل أو التراب ويرفعها كل من المتبارين بيد واحدة إلى ما فوق رأسه ، فإذا تمكن كل منهما من ذلك زادوا من كمية الرمل أو التراب حتى يعجز أحدهما . ومن بين المناظر التى على تلك الجدران مناظر المبارزة بالعصى، كما نرى أيضا الجنود وهم يحملون بعض أدوات القتال وأهمها الأقواس والحراب وفؤوس القتال ومن بينها ذلك الدرع الكبير الشبيه بالخيمة يحمله ثلاثة من الرجال ويتقدمون فى حمايته للهجوم على الأعداء أو لمهاجمة سور إحدى القلاع ليحدثوا ثغرة فيه ، وذلك بتحريك قضيب ذى نهاية معدنية يحركونه وهم داخل الدرع من ثقب فيه فيحطمون به الأبواب أو يفتحون به ثغرة فى الأسوار ، وهم فى مأمن من سهام المدافعين عن ذلك الحصن ، أى أن تلك الدروع الكبيرة كانت تقوم فى ذلك العهد بما تقوم به العربات المصفحة فى عصرنا الحاضر .

ونرى أيضاً على تلك الجدران المناظر المألوفة فى الحياة اليومية مثل الحفلات الموسيقية المصحوبة برقص الراقصات ومناظر الصناع والعمال المختلفين ، والمناظر الدينية التى نرى فيها الكهنة يقومون ببعض الطقوس كما نرى الأتباع يحملون الأطعمة والأزهار ليقدموها إلى صاحب القبر .

ومن أهم المواضيع التى أقبلوا على رسمها فى مقابر ذلك العهد مناظر الصيد سواء أكان ذلك فى الصحراء حيث نرى الحيوانات الصحراوية المختلفة أو صيد الطيور فى الحقول أو على مقربة من المستنقعات أو صيد السمك بالطرق المختلفة .

وفى مقابر الدولة القديمة نرى سفنا أكثرها مما كان يمتلكه صاحب القبر للتنقل به على صفحة النيل أو لنقل المحصولات المختلفة والقليل منها تلك السفن

التي نعرف أن أصحابها اشتركوا بها في الأعيـــاد التي كانت تقام في بعض العواصم الدينية القديمة مثل بوتو أونخن ، ولكن في مقابر عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى نراهم يكثرون من رسم سفن ويكتبون إلى جوارها إنها ذاهبة أو آتية من أبيدوس ، إذ أصبحت العادة المتبعة هي نقل مومياء الميت إلى أبيدوس لتزور المعبد أو لتدفن هناك بعض الوقت ، في ذلك المكان المقدس للإله أوزيريس .

وإذا فحصنا تلك المناظر نرى تطوراً واضحاً في أشياء كثيرة ، نرى تطوراً في أشكال الملابس وفي الحلي وفي الأواني وفي الأدوات المختلفة إذ نرى فيها اختلافا عما كانت عليه في الدولة القديمة ، كما نرى تطوراً في الفن نفسه وفي المواضيع المحببة إلى الفنانين .

وعلى ذكر الفن وتطوره يحسن بنا ألا ننسى أن الرسم بالألوان فوق الملاط قد تقدم ولكن عمل التماثيل، وخاصة تماثيل الأشخاص، قد تأخر كثيراً عن مستوى الأسرتين الرابعة والخامسة اللهم إلا في بعض حالات قليلة في تماثيل بعض ملوك الأسرة الثانيــة عشرة مثل الملك سنوسرت الثالث . لقد أقبل الأفراد من جميع الطبقات على طلب عمل التماثيل فكان الفنانون يصنعونها من جميع الأحجام وفي جميع الأوضاع، دون التقيد بصورة صاحبها. وعندما كان يختار أحد من الناس تمثالا كانوا يضيفون اسمه وألقابه ، ولم يقتصر ذلك على التماثيل بل كان متبعا أيضاً في التوابيت الخشبية وبعض اللوحات الجنازية ، ولم يكن الفنانون يعملون تماثيلا أو توابيتا أو لوحات خاصة وعلى نمط معين إلا للأغنياء وكبار الموظفين ومن كانوا أعلى من هؤلاء في مرتبتهم .

وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعو الحلي وخاصــة لأميرات البيت المــالك ، إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع ، ونري تلك المجموعات في المتاحف المختلفة وبخاصة في متحف

القاهرة والمتروبوليتان بنيويورك فلا نملك إلا الإعجاب بها وبصناعتها ، وقد فحص الكثيرون من الخبراء تلك الحلى وهم يرددون جميعاً رأيا واحداً وهو أن الصائغ الحديث ، مع ما تيسر له من أدوات ووسائل لا يمكن أن يتفوق على الصائغ المصرى القديم الذى عاش فى أيام الدولة الوسطى أى قبل قرابة أربعة آلاف سنة (أنظر شكل رقم ١٥) .

تكفينا الآن هذه الإشارات العابرة إلى بعض مظاهر الحياة الإجتماعية ولننتقل إلى نقطة هامة فى تاريخ هذه الأسرة وهى علاقتها بغيرها من البلاد .

الصلة بين مصر وغيرها من البلاد فى الدولة الوسطى :

إذا رجعنا إلى الوثائق المعاصرة من أيام هذه الدولة وبخاصة فى الأسرة الثانية عشرة نجد أن مصر زادت كثيراً من صلتها بما حولها من بلاد . فقد اهتم ملوكها بتأمين حدودها الغربية والشرقية ، وأقاموا التحصينات ، وبدأوا أيضا سياسة جديدة نحو واحات الصحراء الغربية منذ أيام أمنمحات الأول فاهتموا بها وكانوا يرسلون الدوريات البوليسية للتفتيش على الطرق لتأمينها كما نعرف أيضا أن الواحات ، وبخاصة الواحات الخارجة والداخلة ، وكانت شديدة الصلة بطيبة وأبيدوس ، قد أخذت تزدهر فى ذلك العهد .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود مصر ، فقد زادت الصلة التجارية والثقافية بين مصر والشاطىء الفينيقى ، وكان ملوك مدينة جبيل وثيق الصلة بملوك وادى النيل الذين كانوا يرسلون إليهم الهدايا الثمينة ويتلقون منهم بعض الأشياء الثمينة من حاصلات ومصنوعات تلك البلاد . كانت التجارة بين مصر وشرقى البحر الأبيض تأخذ سيرها فى واحد من طريقين أحدهما طريق البر والثانى طريق البحر ، ولم تكن تلك الصلة قاصرة على الشاطىء الفينيقى بل كانت تشمل جزر البحر الأبيض وبخاصة جزيرة قبرص القريبة من الشاطىء

الأسيوى وجزيرة كريت ذات الحضارة المزدهرة فى ذلك العهد ، والتى كان لفنها بعض الأثر فى زخرفة الحلى المصنوعة فى مصر .

لقد كانت هناك صلة وثيقة بين مصر وفلسطين والشاطىء الفينيقى وجزء كبير من سوريا فهل كانت لمصر سياسة إستعمارية فى ذلك الوقت فى تلك البلاد ؟ وهل يدل وجود آثار مصرية فى بعض بلادها سواء على مقربة من الشاطىء أو فى منطقة البقاع على نفوذ سياسى لمصر ؟ . الجواب على ذلك هو أن مصر لم تكن معنية إلا بالتجارة وإن كان هناك ذكر عارض لحملة حربية أو لحملتين على تلك البلاد ، فانها كانت دون شك لتأديب بعض القبائل التى استهانت بمصر وكرامتها وهاجمت قوافل تجارتها التى كانت إذ ذاك احتكاراً للملوك .

كان رسل مصر يسيرون جيئة وذهابا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطىء وبين الشاطىء وداخل سوريا كما ذكرنا عند الحديث عن سنوهى ، وكانت تقيم فى كثير من مدن سوريا جاليات مصرية لأجل التجارة ، وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك ولكن لم تكن لمصر حاميات فى أى مكان ، وإذا كان ملوك جبيل قد ارتبطوا برباط صداقة وولاء مع مصر أو كانوا متأثرين كثيراً بالثقافة المصرية فان أولئك الملوك لم يكونوا من موالى مصر أو كانوا يحكمون باسمها أو يقدمون لها جزية مفروضة .

كان ازدهار الأسرة الثانية عشرة بين أوائل القرن العشرين وأوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٩٩٢ — ١٧٧٨ ق . م .) وكانت إذ ذاك أعظم الأمم ثقافة وقوة فى بلاد الشرق القديم لأن بلاد الرافدين فى ذلك الوقت كانت تجتاز فترة ضعف فى تاريخها ، لم يخرجها منها إلا الملك حمورابى عام ١٧٢٨ ق . م . ولهذا لا يكون مستغربا إذا وجدنا نفوذ مصر الثقافى يتغلغل فى بلاد فلسطين وسوريا ، ولا يدهشنا أن نرى المصريين يستفيدون من هذه الظروف ويقوون صلاتهم التجارية بتلك البلاد ، وليس من المستغرب

أيضا أن يبدأ بعض سكان تلك البلاد فى التفكير فى المجىء إلى مصر يحملون خيرات بلادهم للاتجار بها [1].

ولكن صلة مصر بالجنوب كانت ذات طابع آخر إذ تعتمد مصر فى حياتها على النيل ، وكانت منذ فجر تاريخها تهتم بالجنوب وتعنى بمعرفة طرقه وتهتم بالحصول على خيراته. وأخذ ملوك الدولة القديمة منذ أيام الأسرة الخامسة يرسلون الحملات للإتصال بأهله ، وقد رأينا عند حديثنا على تاريخ الأسرة السادسة أن أهل النوبة لم يكونوا يرحبون دائما بتلك الحملات وكانوا يهاجمونها فى بعض الأحيان ، ولكن ما جاءت أيام الأسرة الثانية عشرة حتى كانت الأمور قد تغيرت فى تلك البلاد وذلك بسبب تقدم الجنس الزنجى نحو الشمال وإختلاطه بثقافة حامية الأصل وسيطرته على السكان المحليين فأصبح مع مرور الأيام خطراً على مصر نفسها .

ولهذا نجد ملوك الأسرة الحادية عشرة يهتمون بالجنوب ، ونجد الملك أمنمحات الأول منذ توليه العرش يهتم بهذا الأمر ، ويتم ملوك الأسرة إخضاع المنطقة بين الشلال الأول والشلال الثانى إخضاعا تاما للنفوذ المصرى ويبنون هناك الحصون وقد بلغ عددها سبعة عشر حصنا، ويضعون فيها الحاميات ويحرمون على أى أحد من السكان الزنوج أن يتعدى الشلال الثانى فى طريقه نحو الشمال سواء بطريق النيل أو بطريق البر إلا بقصد التجارة وفى جماعات قليلة .

ولم تقف هذه الأسرة عند ذلك بل دفعت بحد مصر إلى جنوبى الشلال الثالث وهناك ، عند مكان يقال له « كرما »، أقاموا حصنا ومخزنا كبيراً لإيداع

---

(١) نرى فى مقابر بنى حسن بعض صور لقوم من الجنس الحامى ربما كانوا من سكان الصحراء الشرقية الجنوبية ولكن المنظر الشهير الذى نرى فيه رئيس إحدى القبائل السامية ومعه بعض الرجال والنساء والأطفال والحمير المحملة ، إنما يمثل قوما من الكنعانيين ، أهل فلسطين القدماء.

ما يحمله التجار من بضائع وكان يقيم هناك حاكم مصرى ، وكانت هناك أيضا مدينة مصرية صغيرة وفيها صناع مصريون . ولسنا نعرف على وجه اليقين كم من الحكام تولوا تلك الوظيفة ، ولكن واحداً منهم واسمه «زفاى حعپى»[1] مات هناك فدفنوه حسب تقاليد البلاد ، وليس حسب التقاليد المصرية ، وضحوا بأكثر من مائتى شخص (وربما كانوا نحو ٢٧٠) من خدمه وأتباعه ودفنوهم فى الممر المؤدى إلى قبره ،[2] ثم أقاموا كوما كبيراً فوق القبر ووضعوا فوقه تمثالا له داخل هيكل مشيد من الطوب .

لم تكن عادة دفن الأتباع قاصرة على الزعماء أو الملوك فى السودان فى ذلك الوقت بل كانت عادة عامة وقد وجد «ريزنر» الذى حفر منطقة كرما قبل الحرب العالمية الأولى كثيراً من القبور التى دفن فيها الخدم مع سادتهم ومن بينها قبر لطفلة صغيرة احتضنتها مربيتها داخل القبر وقد رقدت خادمة أخرى على مقربة منهما ، وقد دفنت كل من المربية والخادمة وهن أحياء وكانت العادة المتبعة هى أن يعطوا أولئك الخدم أو الأتباع شرابا مخدراً أو يضربوهم ضربة قاتلة على رؤوسهم إذا رفضوا تناوله ، والفكرة فى دفنهم مع سادتهم هى أن يقوموا على خدمتهم فى الحياة الأخرى كما كانوا يخدمونهم فى هذه الدنيا .

لم يقتصر الاهتمام بالجنوب على ملك دون آخر فنراهم جميعا وقد أظهروا الكثير من العناية بالنوبة وبمياه النيل ولكن واحداً من بينهم وهو

---

(١) « زفاى حعپى » هو صاحب المقبرة الشهيرة فى أسيوط والتى تحتوى على تلك النصوص الشهيرة التى توضح لنا تفصيلات ما تعاقد عليه مع كهنة الإله « وپواوت » ليقوموا به فى الأعياد المختلفة وما يقدمونه لروحه من قرابين . وكان زفاى حعپى يتوقع أن يموت ويدفن فى موطنه فى أسيوط ولكنه مات ودفن فى كرما فى دنقله .

(٢) ربما كانت عادة دفن الأتباع مع سيدهم معروفة فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات وربما كانت معروفة أيضاً فى الأسرة الأولى ولكنا لا نجد لها أثرا بعد ذلك .

«سنوسرت الثالث» اهتم اهتماما خاصا بالحد الجنوبى لمصر ونزل بنفسه إلى الجنوب على رأس الجيش عدة مرات واعتنى عناية كبرى بتجديد الحصون وتقوية الحاميات، وأقام عدة لوحات للحدود جنوبى الشلال الثانى، وحرم على جميع الزنوج الجنوبيين اجتياز ذلك الحد وكتب فى تلك اللوحات أنه برىء من أى ابن يأتى بعده ولا يحافظ على تلك الحدود، ويحارب من أجلها. وبعد موت هذا الملك بخمسمائة عام تقريبا نرى ملكا عظيما آخر يقدر أعماله وجهوده فى المحافظة على حدود مصر الجنوبية، نرى الملك العظيم «تحوتمس الثالث» يرفع «سنوسرت الثالث» إلى مصاف الآلهة ويجعل منه إلها حاميا للنوبة ويقيم المعابد لعبادته ويقف أمامه يقدم له القرابين كأله من الآلهة .

العناية بالرى والتوسع فى الزراعة :

لقد أشرت أكثر من مرة فى هذا الفصل إلى اهتمام ملوك هذه الأسرة بإقليم الفيوم، والواقع أن اهتمامهم بهذا الأقليم لم يكن إلا أحد مظاهر عناية تلك الأسرة بمسألة من أهم المسائل الحيوية لمصر وهى الانتفاع بمياه النيل ومحاولة زيادة الأراضى المنزرعة .

وبالرغم من أننا لا نعرف كم كان عدد سكان مصر فى الدولة القديمة وكم كان عددهم فى الدولة الوسطى فإن ظواهر الأمور تدل على ازدياد عدد السكان خلال ذلك العهد المزدهر الذى سادته الطمأنينة خلال حكم الأسرة الثانية عشرة . وسواء أكان اهتمام ملوك الأسرة بموضوع مياه النيل راجعا إلى ضرورة اقتصادية أو كان إصلاحا عاديا للتقدم بالبلاد فاننا نعرف أنهم كانوا يسجلون ارتفاع النيل عند الشلال الثانى عند حصن سمنة وذلك ليطمئنوا على حالة الفيضان ويتخذوا من الاحتياطات ما يكفى لمجابهة الحالة المنتظرة يستوى فى ذلك إذا كان الفيضان عاليا أو أقل من المعتاد .

ولم يكن اهتمامهم بإقليم الفيوم راجعا فقط إلى استغلال البحيرة لتكون خزانا للمياه فى أيام الفيضان ثم الاستفادة من تلك المياه فى أوقات التحاريق بل استفاد الإقليم كله من عمل الجسور اللازمة لذلك الخزان وتم استصلاح مساحة تقرب من سبعة وعشرين ألف فدانا ، كما يرجح أيضا أن تكون الأراضى المنزرعه فى الإقليم قد تحسنت بسبب تلك المشروعات . وبدأت تنشأ مدن جديدة حول البحيرة نفسها على منسوب + عشرين زيادة على المدن القديمة التى كانت قائمة قبل ذلك .[1]

وليس لدينا أدلة ثابتة على قيام ملوك تلك الأسرة بأى مشروعات أخرى لاستصلاح الأراضى فى غير إقليم الفيوم ولكن اهتمامهم بمقاييس النيل ونجاحهم الكبير فى استصلاح الأراضى فى الفيوم يجعلنا نرجح أن جهودهم فى زيادة الثروة الزراعية لم تقف عند حد الفيوم وربما كان لهم نشاط آخر فى استصلاح أراضى بعض مناطق الدلتا ولكن لم تصلنا عن ذلك أى وثائق معاصرة حتى الآن ، وربما كان المستقبل كفيلا بذلك .

تلك نظرة عامة عن الأسرة الثانية عشرة وعن الدولة الوسطى بصفة عامة رأينا فيها ازدهار الأدب والفن ورأينا أيضا كيف تغلبت مصر على ضعفها فى عصر الفترة الأولى وكيف استعادت ثقتها بنفسها ، واستأنفت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها منذ أن كونت أصول حضارتها . لم تقف مصر خلال أيام الدولة الوسطى جامدة تترسم خطى الدولة القديمة بل نرى تطورها فى مختلف الميادين ، ونرى تطورها فى السياسة الخارجية بل وفى الناحية الدينية أيضاً .

---

(١) سطح مياه البحيرة الآن — ٤٥ أى أن الفرق بين سطح مياه البحيرة فى الأسرة الثانية عشرة وسطحها الآن لا يقل عن خمسة وستين مترا ، وقد تغيرمنسوب البحيرة خلال العصور المختلفة وكثيرا ما نرى بعض المناطق الأثرية القديمة واقعة الآن فى الصحراء . وعلى أى حال يجب ألا ينسى القارىء أن مياه البحيرة كانت عذبة فى العصور القديمة بل فيما تلى ذلك من عصور إلى ما قبل قرون قليلة ، وكان الذين يعيشون حول شواطئها يستخدمون مياهها فى الشرب وفى رى أراضيهم .

لقد عاد الملك ما كان له من نفوذ وسلطان . وعاد الموظفون إلى تملقه والتمسح فى أعتابه واختفت من لوحات الأفراد ، أو كادت . تلك النغمة الحلوة وهى الإعلاء من قيمة الفرد واعتماده على ما يقدمه من عمل صالح فيضمن النجاح فى الدنيا والآخرة ، وحلت محلها النغمة التقليدية القديمة وهى أن الخير كل الخير فى عطف الملك ورضاه . وما من شك فى أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين فى الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم على رعايتهم ، ولهذا سرعان ما اطمأن الناس إلى حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم ورجعوا إلى تقاليدهم القديمة فى تمجيدهم ، ولكن ذلك كله لم يغنى شيئاً عند ما أخذت تتجمع فى الأفق سحب قاتمة ، وعندما بدأت رياح الأحداث فى مصر وفى خارج مصر تدفع بتلك السحب فوق البلاد ، وإذا بمصر تتعرض مرة أخرى لفترة ضعف ، هى ما نسميه عصر الفترة الثانية .

الفصل السادس

عصر الفترة الثانية

القسم الأول

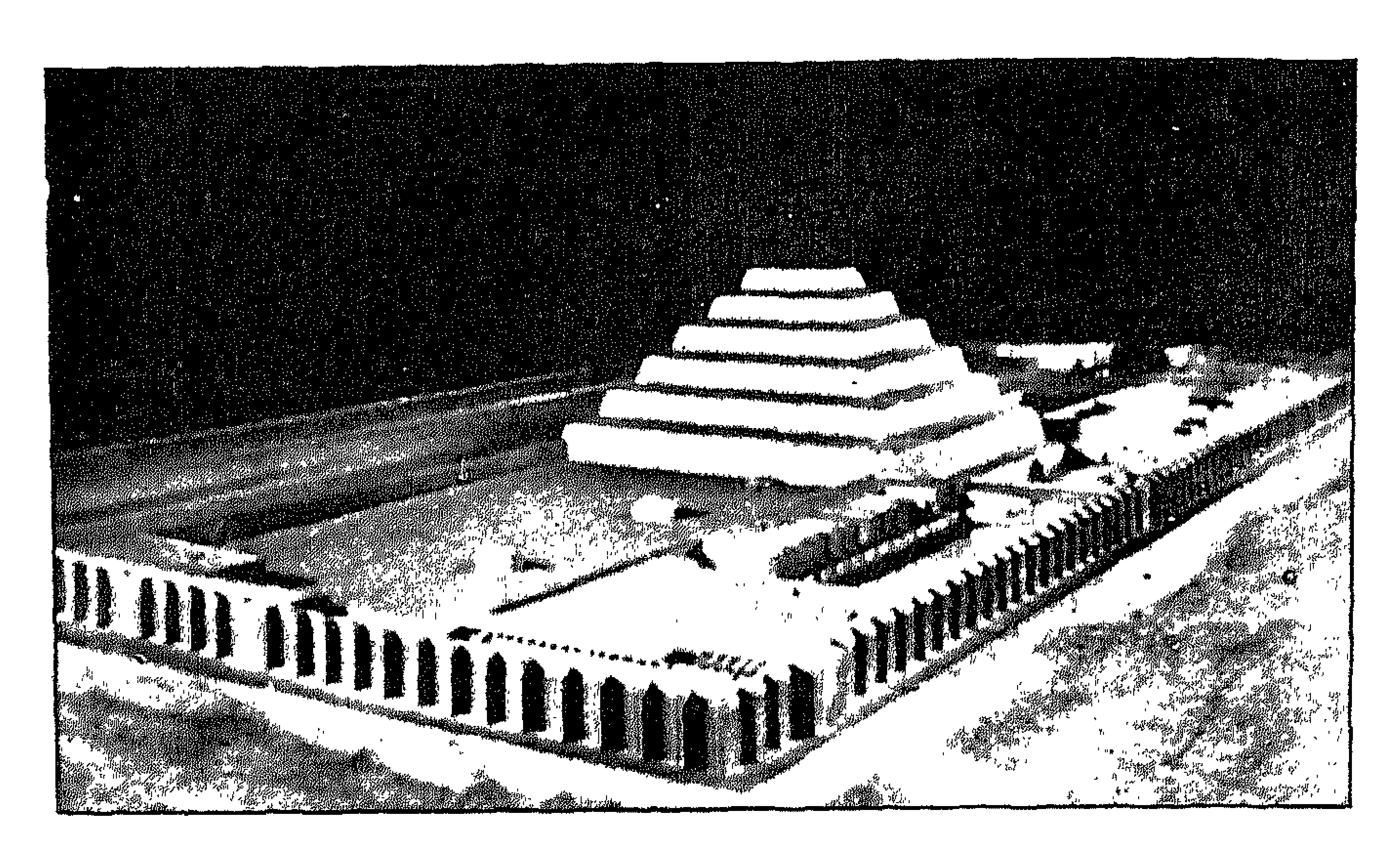
الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

(١٧٨٠ — ١٦٨٠ ق . م)

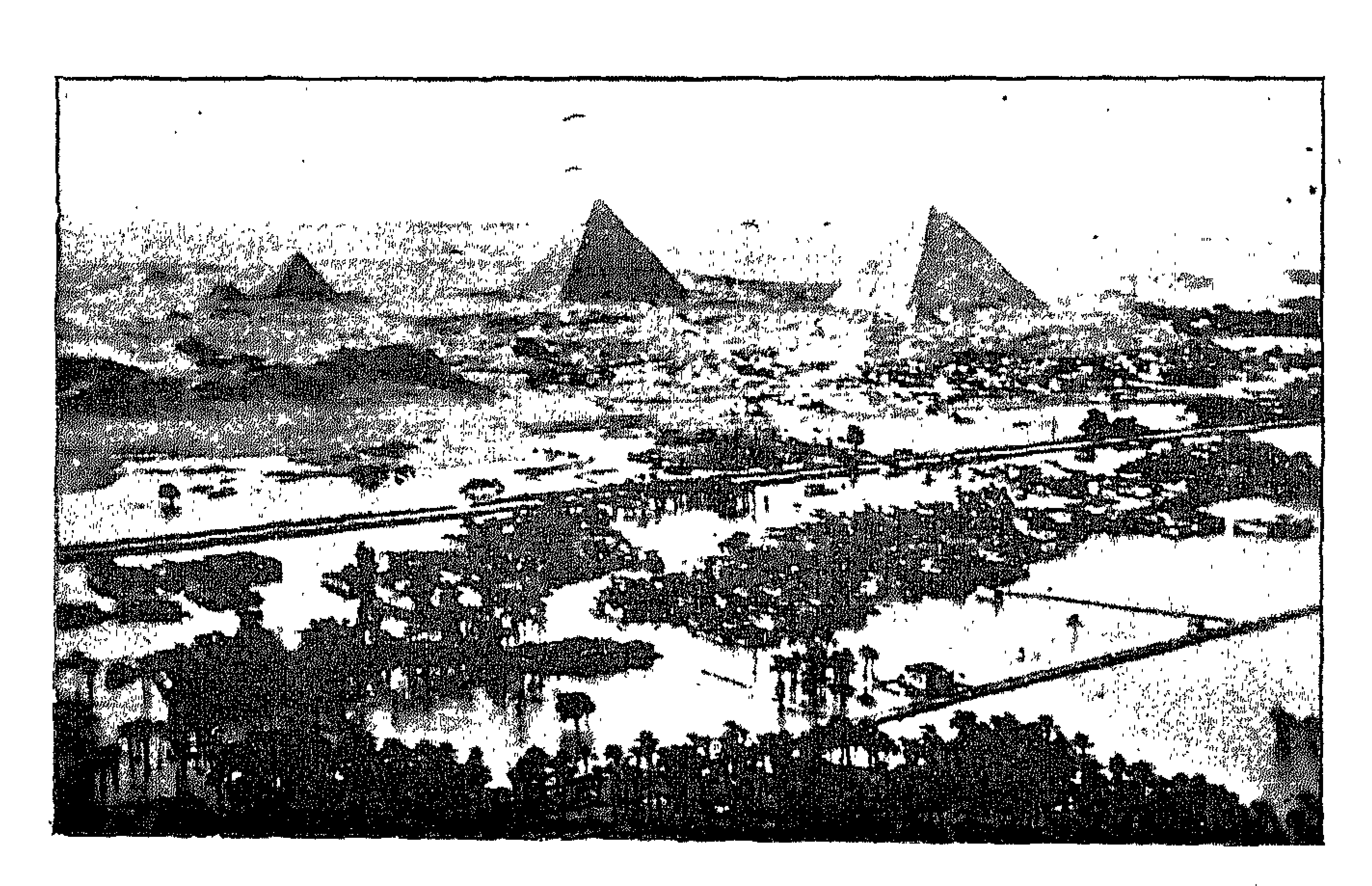
بين عهدين :

كانت الأسرة الثانية عشرة من أزهى عصور مصر دون شك ، وكان الملك أمنمحات الثالث من أعظم الفراعنة ليس فى تاريخ تلك الأسرة فحسب ولكن فى تاريخ مصر كلها . وقد اشترك معه فى حكم مصر فى آخر أيامه ابنه أمنمحات الرابع كما أسلفنا ثم تلته الملكة « سبك نفرو » التى كانت إبنة لأمنمحات الثالث ، وفجأة أخذ نجم هذه العائلة فى الأفول وتولاها الضعف وخرج الملك من يدها إلى أسرة أخرى وهى الثالثة عشرة . ويقف التاريخ — أو بعبارة أدق — يقف المؤرخون حائرين يتلمسون الأسباب لهذا التغيير وهذا الضعف الشامل الذى أصاب البلاد فلا يعرفون له سببا واضحا .

ويريد بعض الباحثين أن يرى أن سبب هذا الانحلال راجع إلى ظهور أعداء لمصر فى سوريا وفلسطين وفى الجنوب ، ويعتمدون على وجود عدد



شكل رقم ١ — هرم سقارة المدرج والمبانى التى حوله كما كانت عند تشييدها ـ صورة لنموذج حديث الصنع .



شكل رقم ٢ — أهرام الجيزة الثلاثة : من يمين الصورة إلى يسارها ، هرم خوفو (الهرم الأكبر) ثم هرم خفرع (الهرم الثانى) ثم هرم منكاورع (الهرم الثالث) .



شكل رقم ٣ — « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة يرتدى ملابس عيد « السد » . من إحدى لوحاته التى عثر عليها فى حفائر دهشور عام ١٩٥١ .



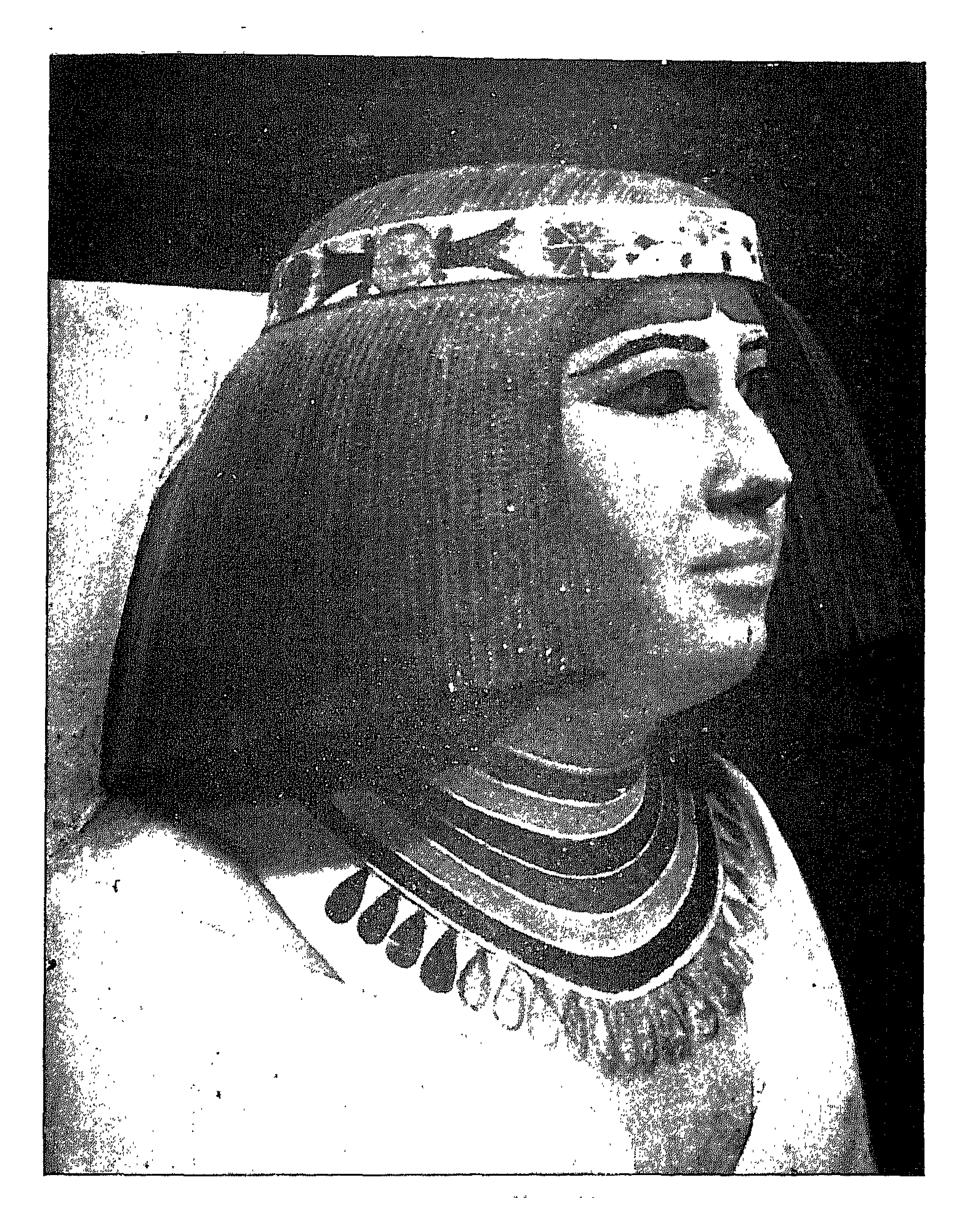
شكل رقم ٤ — الإلهة « سخمت » تعانق « سنفرو » . جزء من أحد المناظر التى كانت فى معبد الوادى بدهشور ، ما زالت محتفظة بما عليها من ألوان ، وتظهر لنا المستوى العظيم الذى وصل إليه فن النقش فى ذلك العهد المبكر فى الحضارة المصرية .



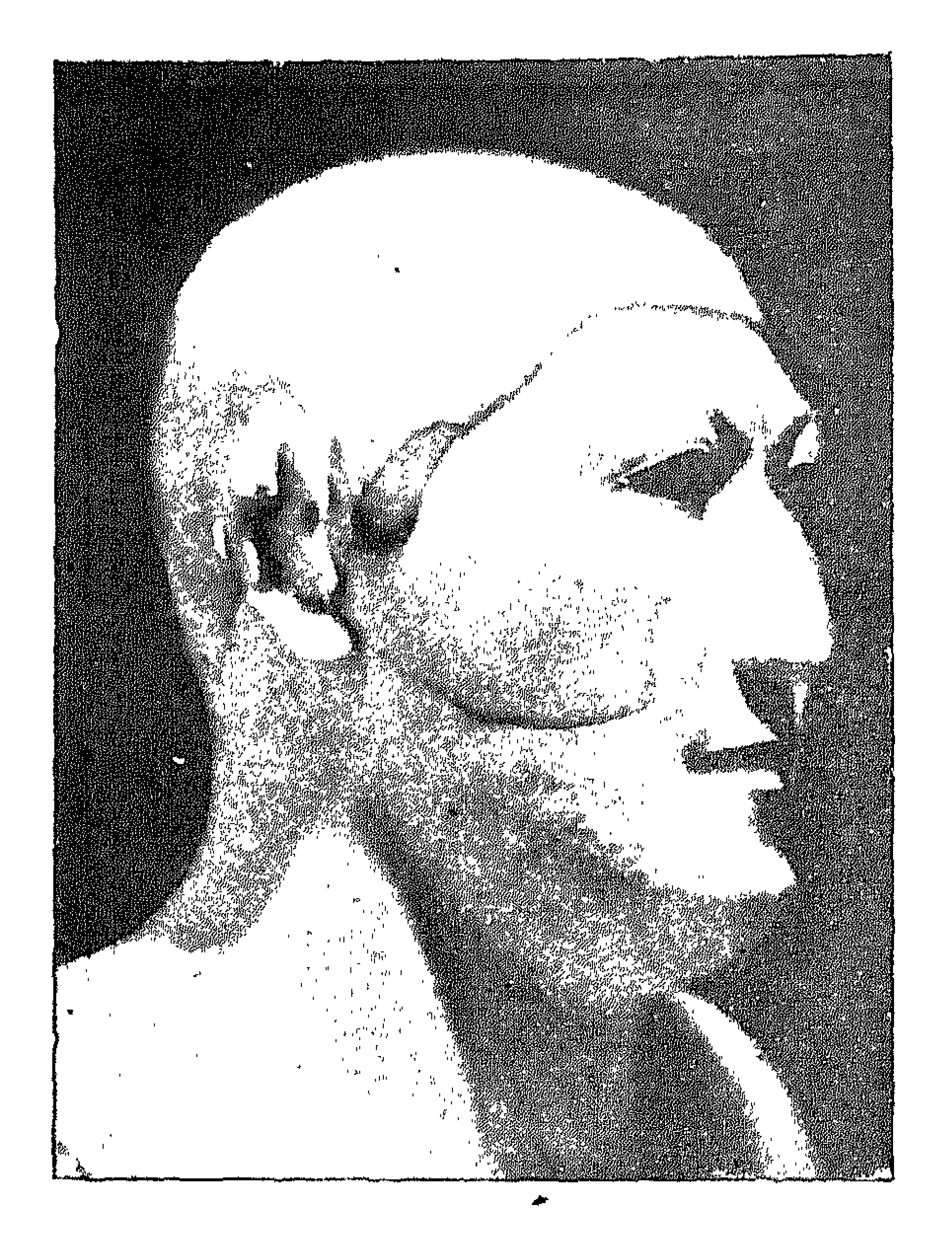
شكل رقم ٥ ـ هرم سنفرو الجنوبى بدهشور وأمامه مخازن معبد الوادى أثناء الكشف عنها
فى موسم ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .



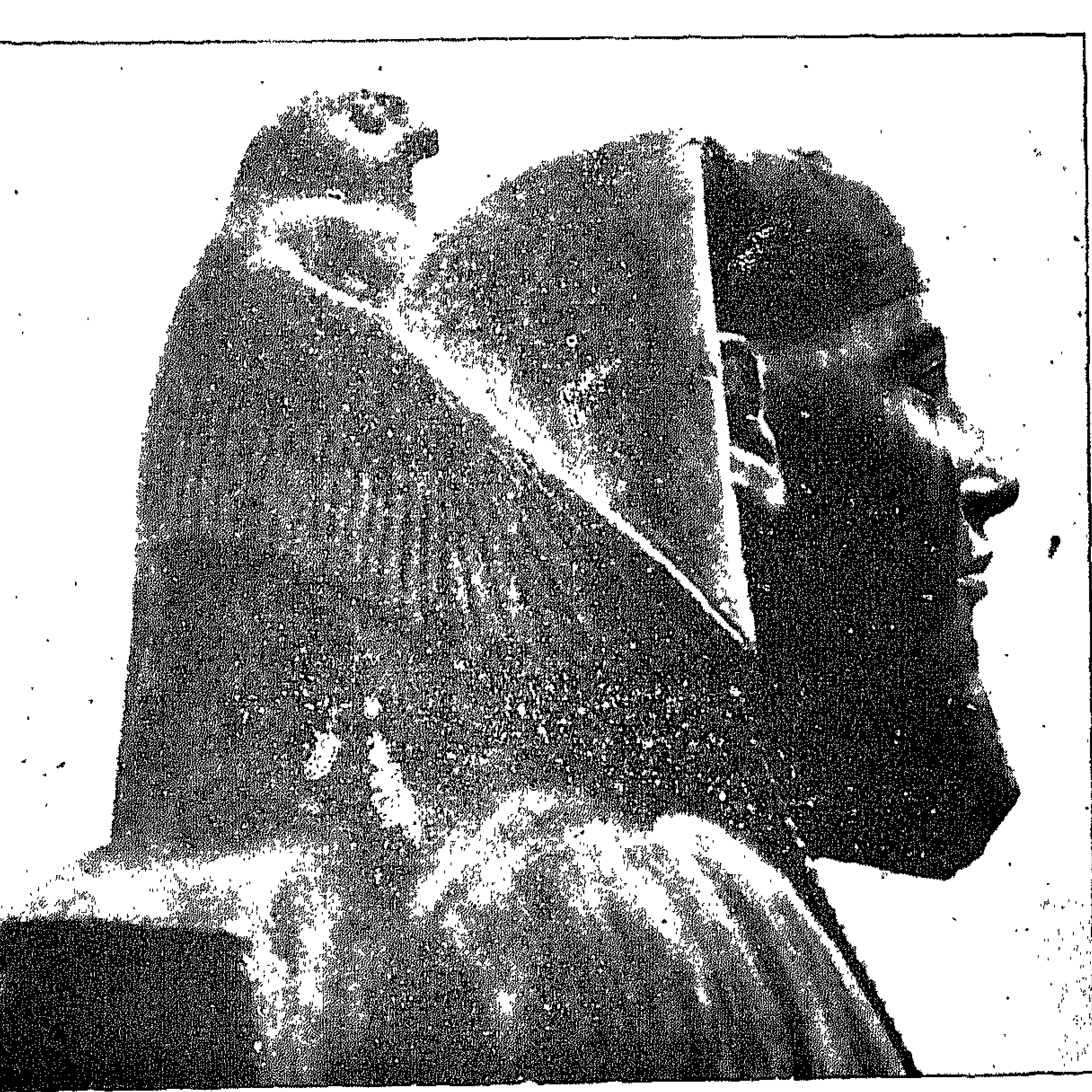
شكل رقم ٦ ـ أشجار من خشب الأرز فى حجرة الدفن بالهرم الجنوبى للملك سنفرو فى دهشور
وقد احتفظت بصلابتها رغم مضى أكثر من ٤٦٠٠ سنة .



شكل رقم ٧ ـ السيدة « نفرت » زوجة الأمير « رع حتب » أحد أبناء الملك سنفرو ، وقد عثر على هذا التمثال مع تمثال آخر لزوجها فى قبرهما بميدوم ، والتمثالان فى المتحف المصرى بالقاهرة .

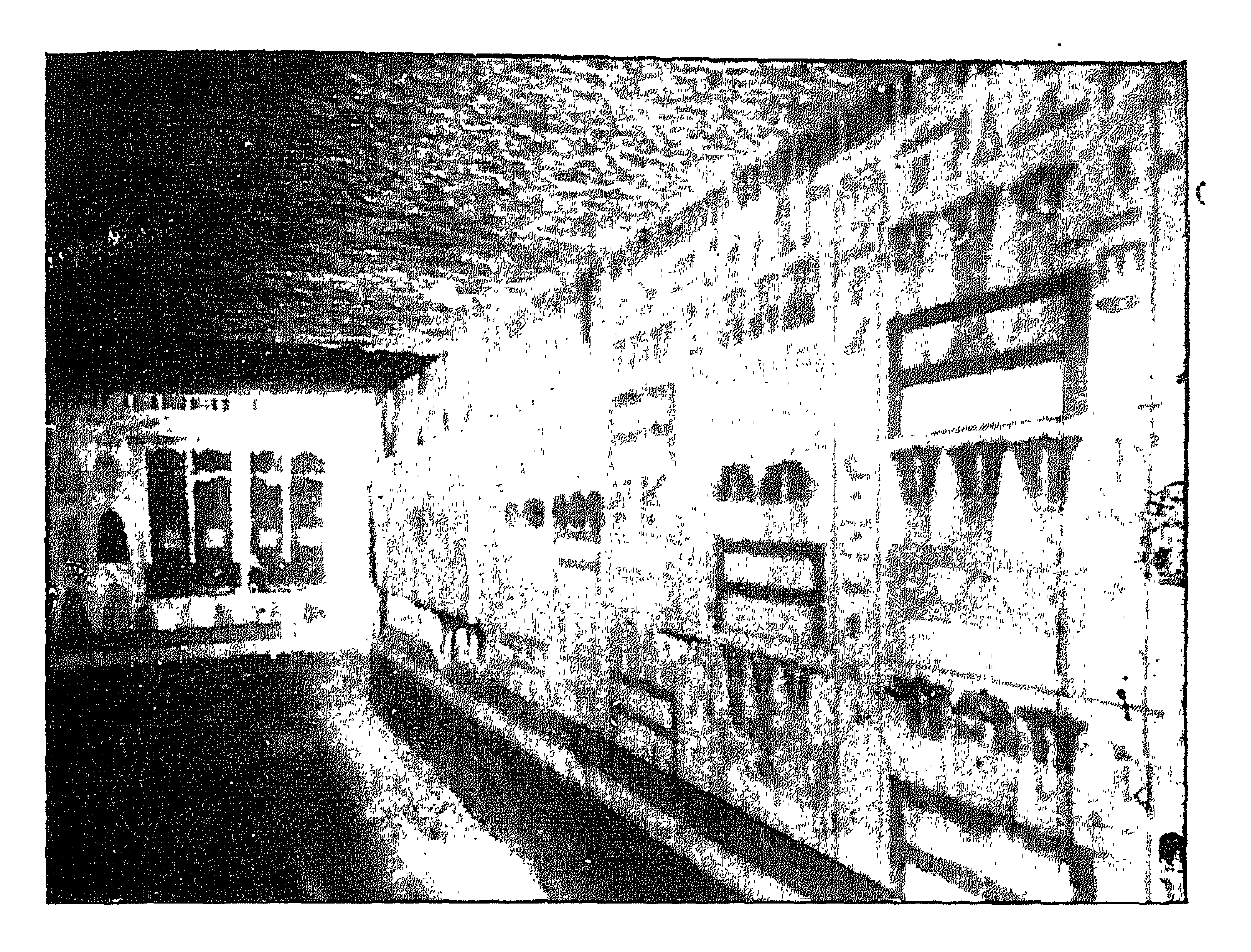


شكل رقم ٨ — الجزء الأعلى من تمثال « حم إيون » أحد أبناء سنفرو ، عثر على قبره فى الجبانة الغربيـة للهرم الأكبر وتمثاله الآن في متحف هيلدزهيم بالمانيا . وقد أشرف « حم إيون » على تشييد الهرم الأكبر فى فترة من فترات بنائه .

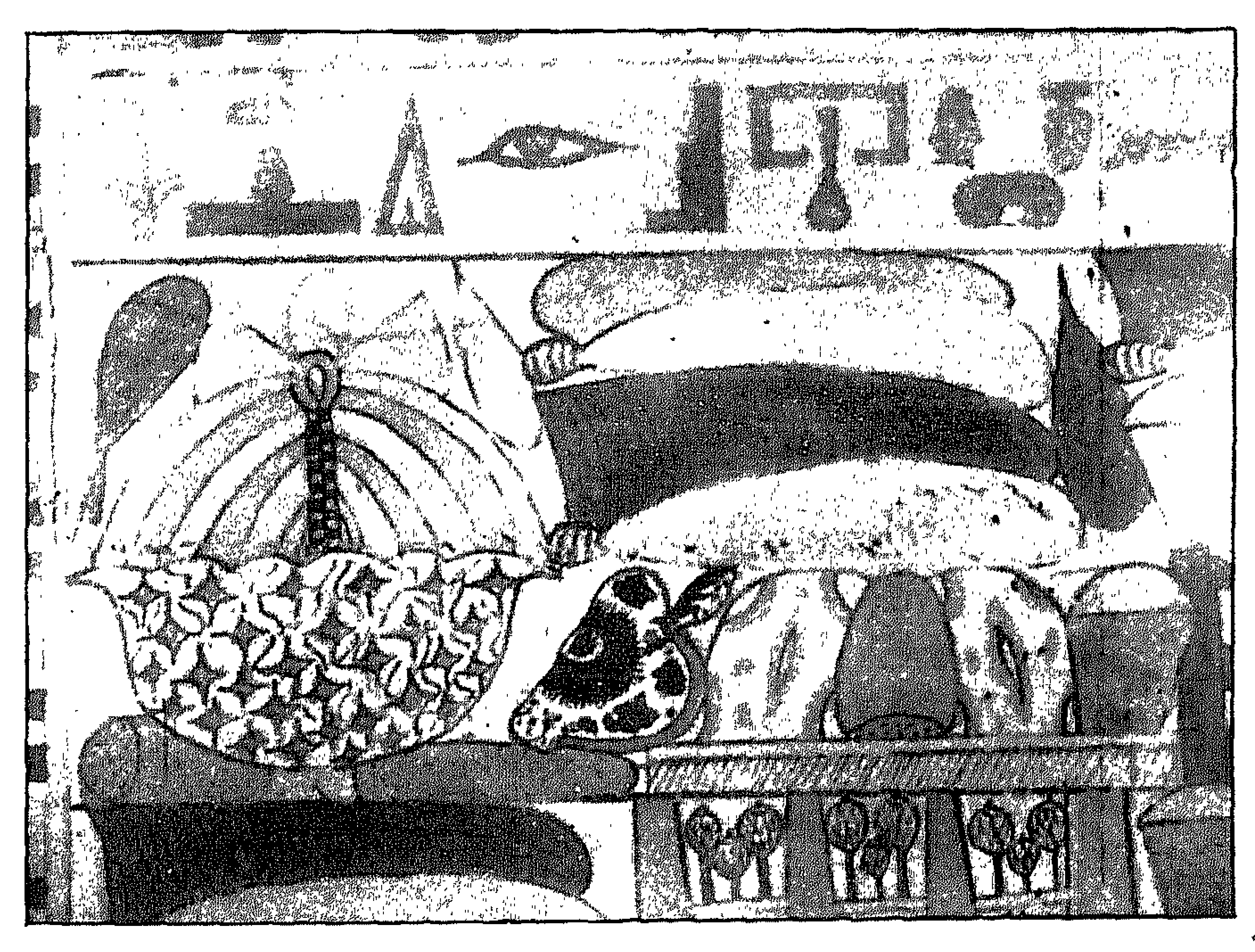


شكل رقم ٩ — تمثال الملك خفرع من حجـر الديوريت ، وخلف رأسـه الإله حورس يحميه .

ولا شك فى أن هذا التمثال ليس آية من آيات الفن المصرى فحسب بل هو من أعظم ما أخرجتـه عبقرية المثال فى جميع العصور والبلاد .



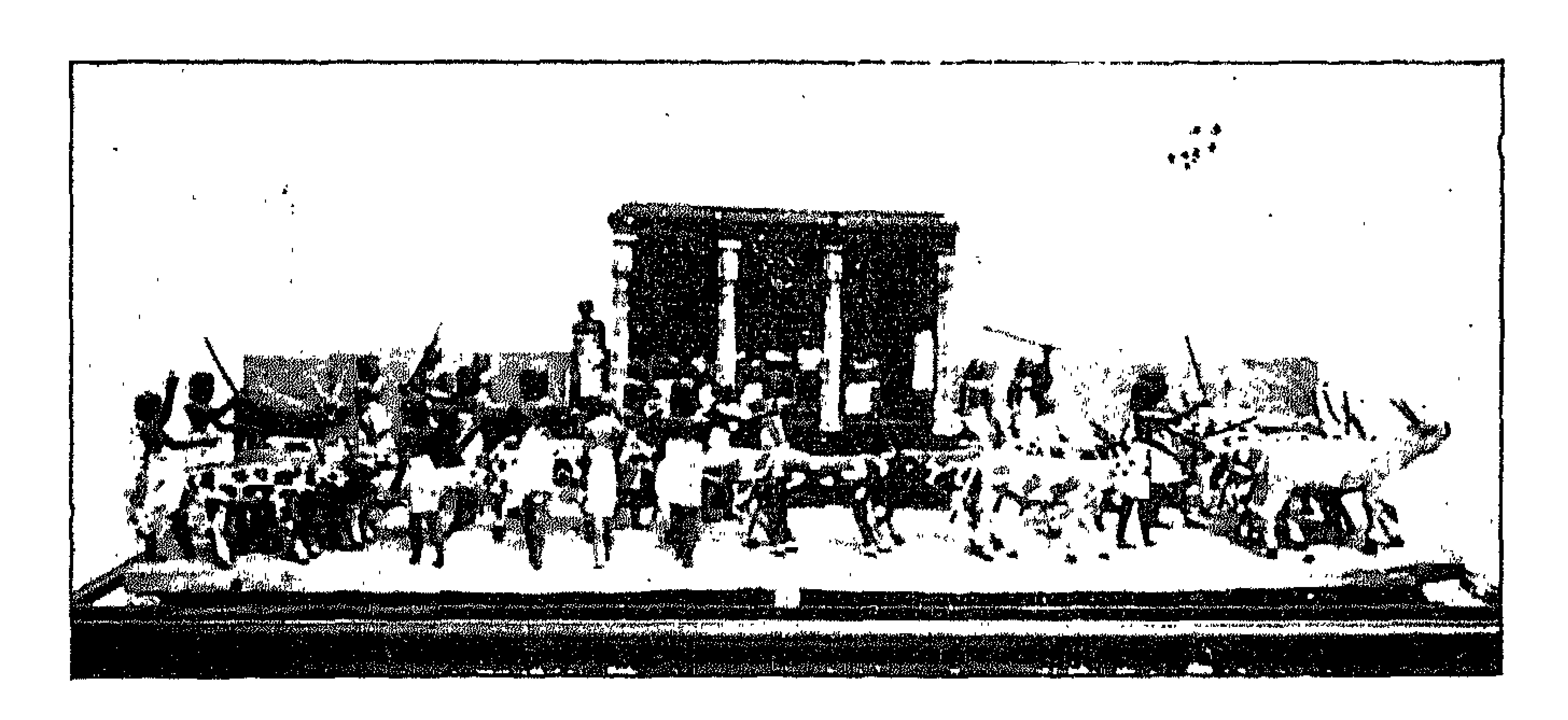
شكل رقم ١٠ ــ منظر فى مقبرة « بى عنخ » الملقب باسم « سثو » .



شكل رقم ١١ ــ جزء من الجدار المقابل في المقبرة ذاتها ، وهى من أواخر أيام الأسرة السادسة وقد لونت جدرانها بمناظر القرابين والأدوات المختلفة . عثر على هذه المقبرة إلى الشرق من معبد (إسيسى) عام ١٩٥٢



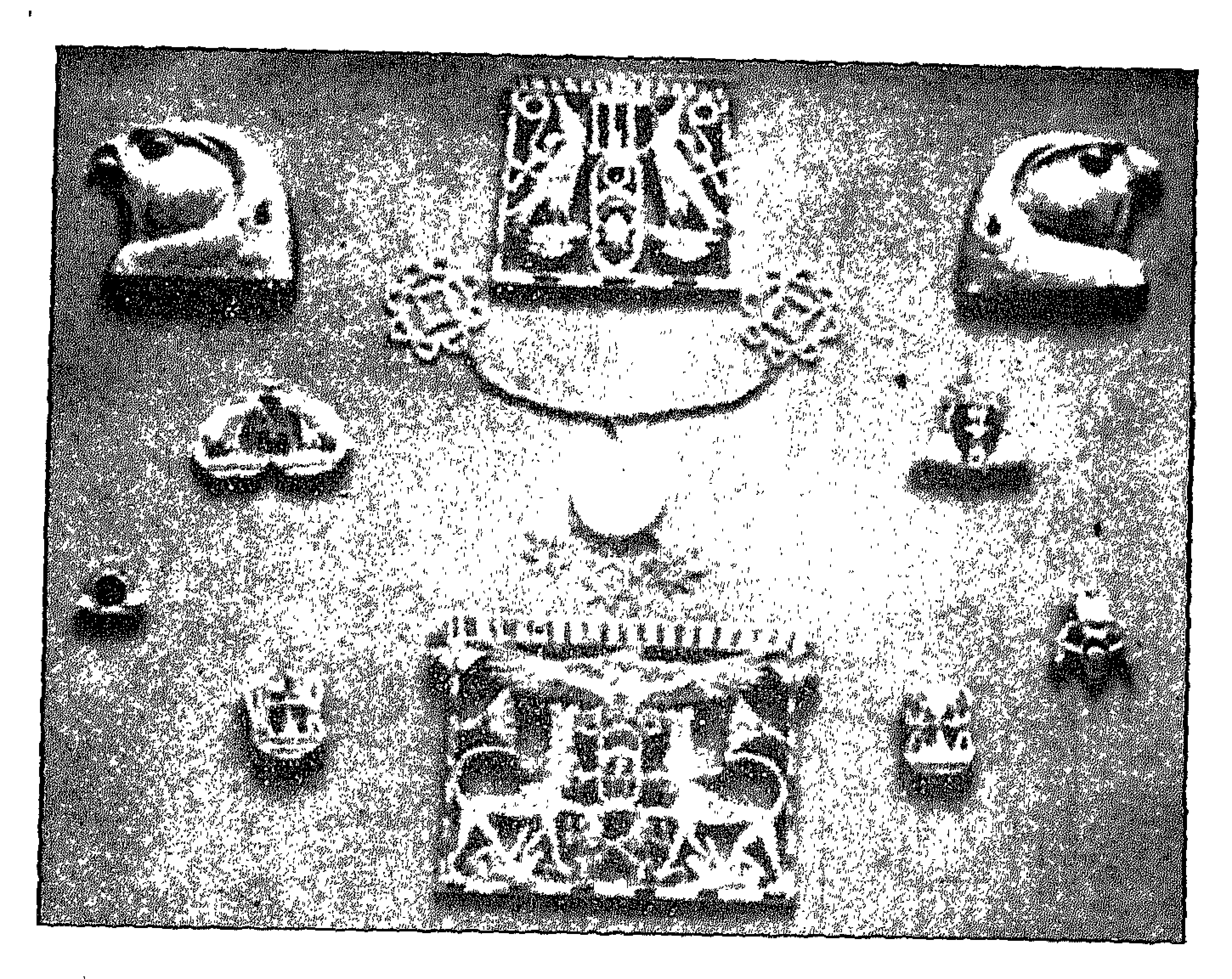
شكل رقم ١٢ ــ القطعة الكبرى من حجر پالرمو ، وعليها سنوات حكم بعض الملوك وأهم ما حدث وما تم من أعمال فى كل سنة .



شكل رقم ١٣ ــ نموذج لأحد الأثرياء وقد جلس يحيط به الكتبة والحراس يستعرض قطيع ثيرانه ويستمع إلى ما يقدمه الرعاة من بيانات ــ من مقبرة « مكت رع » من الاسرة الحادية عشرة ، وقد عثر عليه فى الأقصر مع أكثر من عشرين نموذجا آخر تمثل مظاهر الحياة اليومية المختلفة .



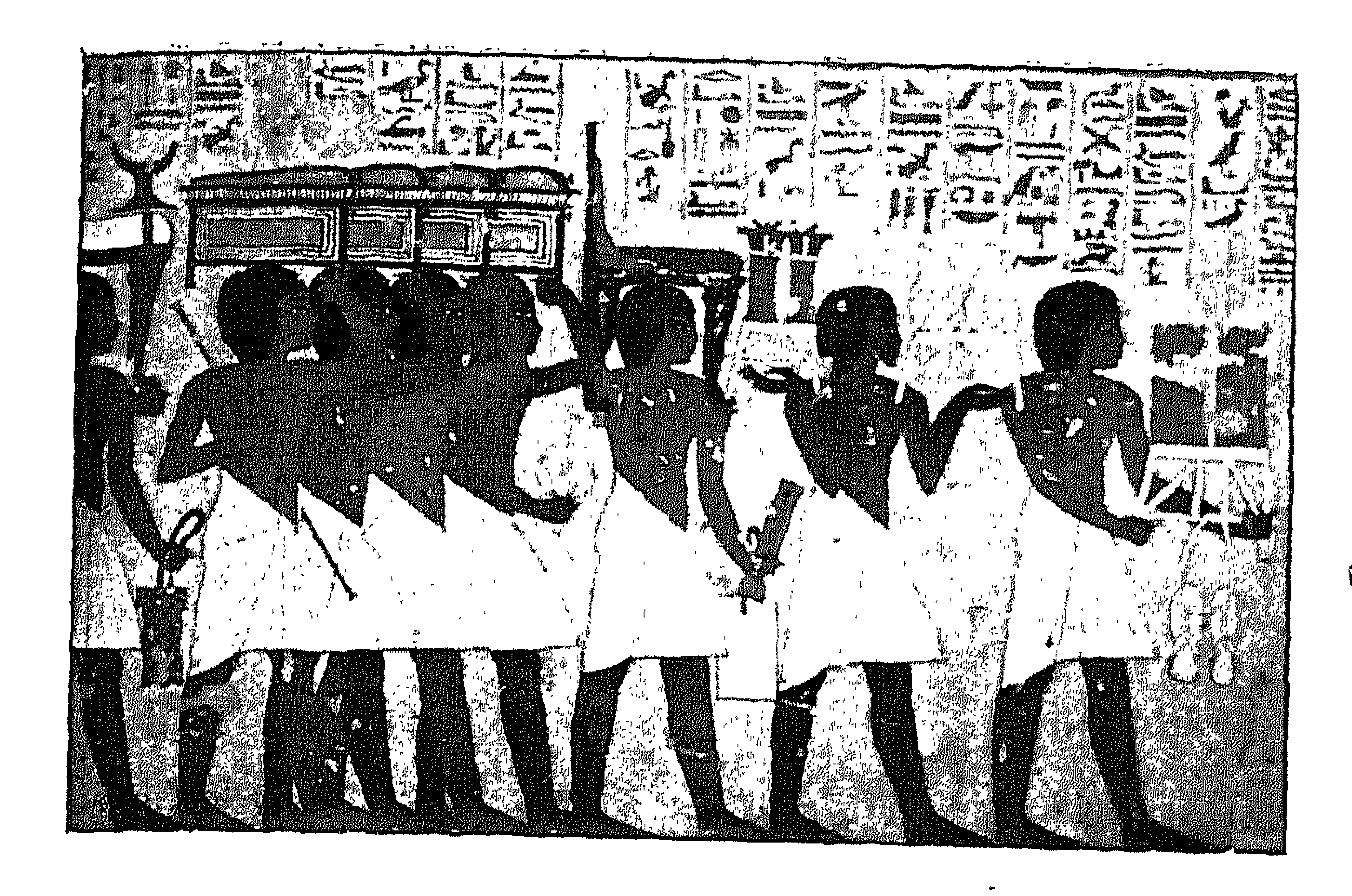
شكل رقم ١٤ — هريم من الجرانيت كان فوق هرم أمنمحات الثالث بدهشور ، وهو الآن في المتحف المصري بالقاهرة .



شكل رقم ١٥ — مجموعة من حلي الأسرة الثانية عشرة . ونرى عليها اسم الملك أمنمحات الثاني . وتعتبر الأسرة الثانية عشرة العصر الذهبي لصناعة الحلي في مصر الفرعونية .



شكل رقم ١٦ ـ صورة بارزة على الحجر لأحد الضيوف فى مأدبة مصورة على جدران قبر الوزير « رع ـ موسى » الذى عاصر أيام الملك أمنحتب الثالث وامتد به العمر إلى عهد إخناتون .

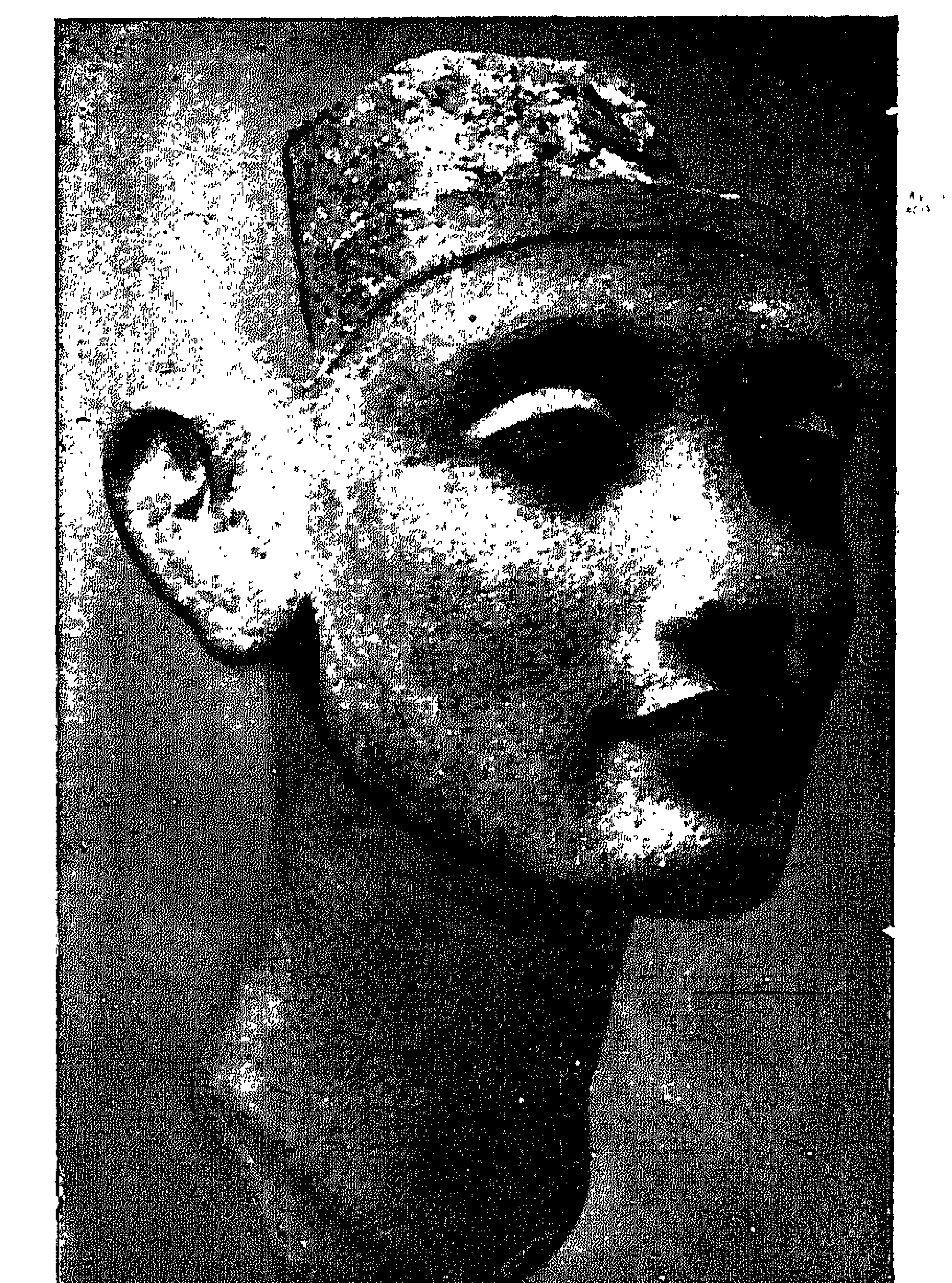


شكل رقم ١٧ — بعض الأتباع يحملون الأثاث لوضعه فى القبر . صورة ملونة على أحد جدران مقبرة « رع موسى » من أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة .

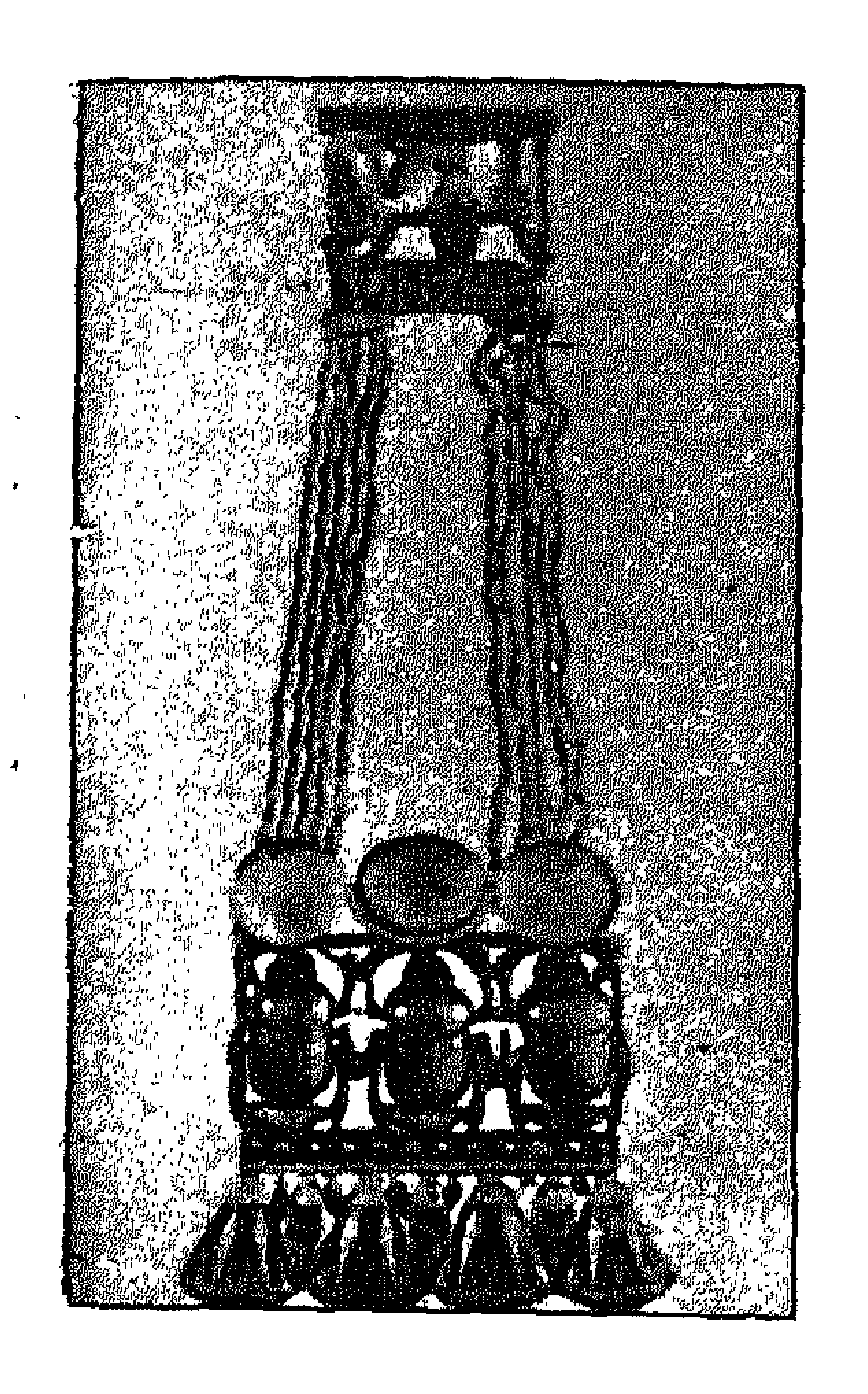
شكل رقم ١٨ — النائحات من أهل « رع موسى » عند قبره ، وقد اشتد بهن الحزن عند رؤيتهن لتابوته قبل دفنه فى القبر .



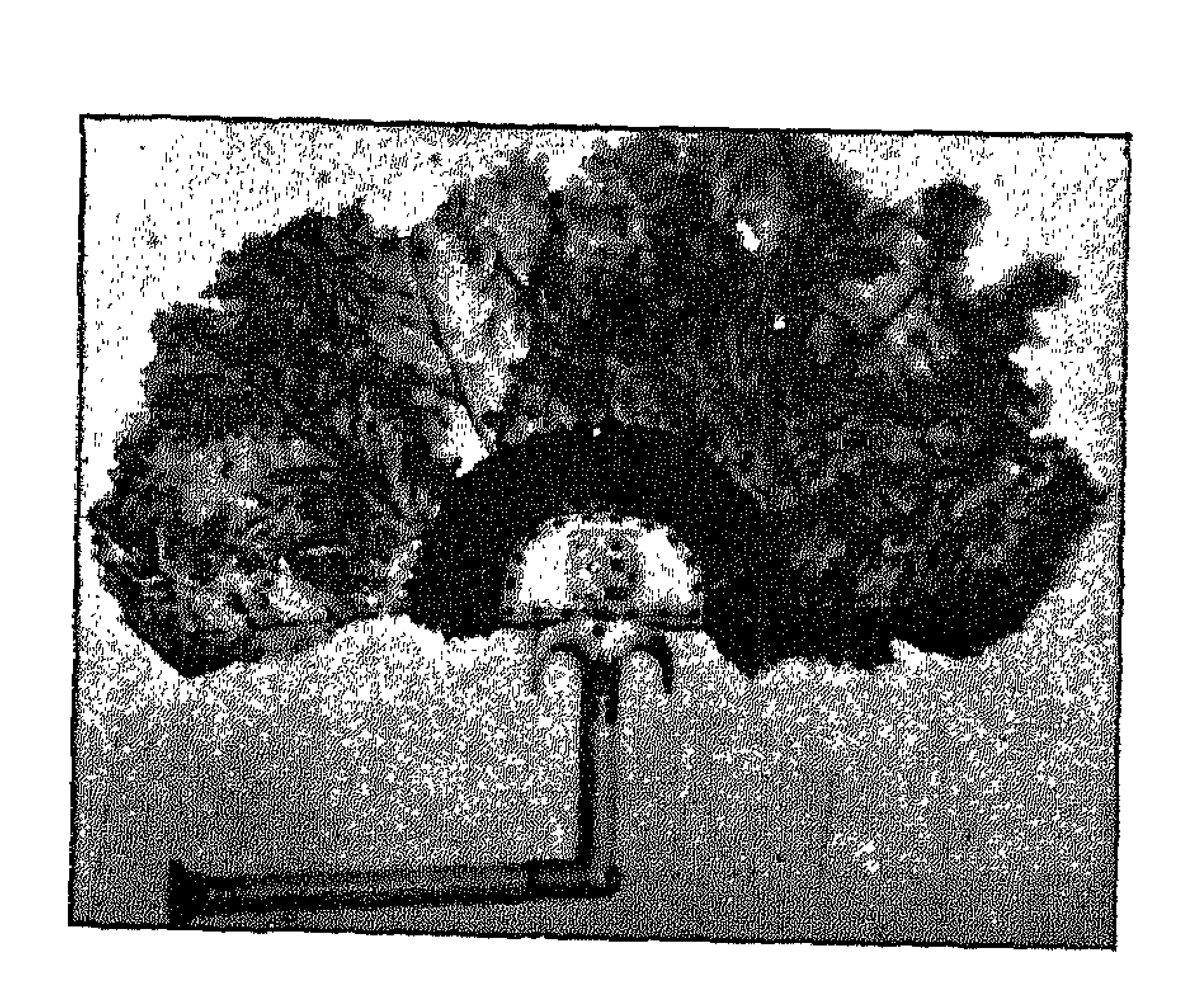
شكل رقم ١٩ — الجزء الأعلى من تمثال للملك إخناتون ، ذلك الملك الفيلسوف الذى دعا إلى عقيدة «أتون» وحارب تعدد الآلهة ، وكتب أجمل الأناشيد .



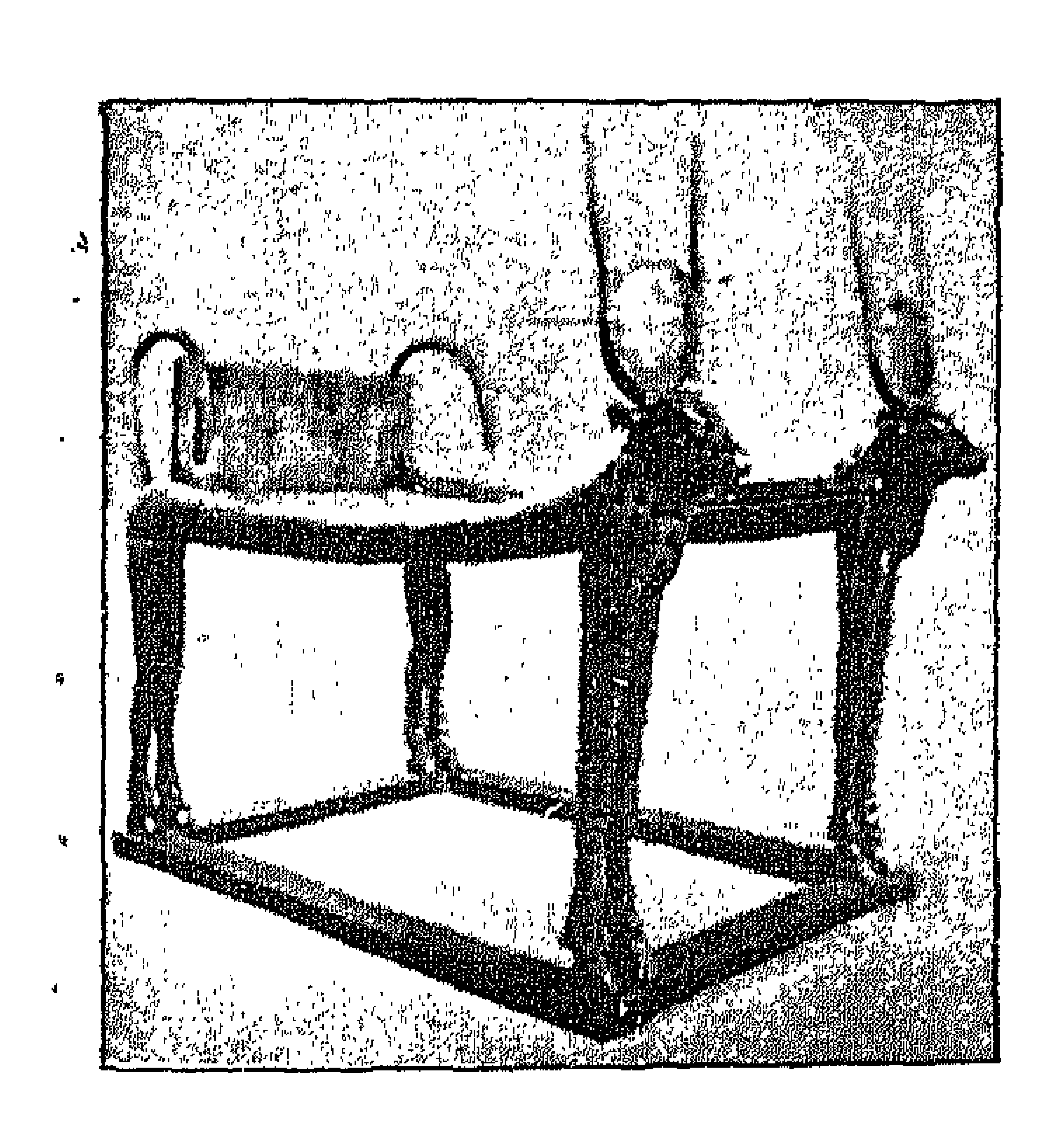
شكل رقم ٢٠ — رأس تمثال للملكة نفرتيتى ، ويتجلى فى هذين التمثالين (١٩ ، ٢٠) فن العمارنة وما يمتاز به من الحساسية وصدق التعبير .



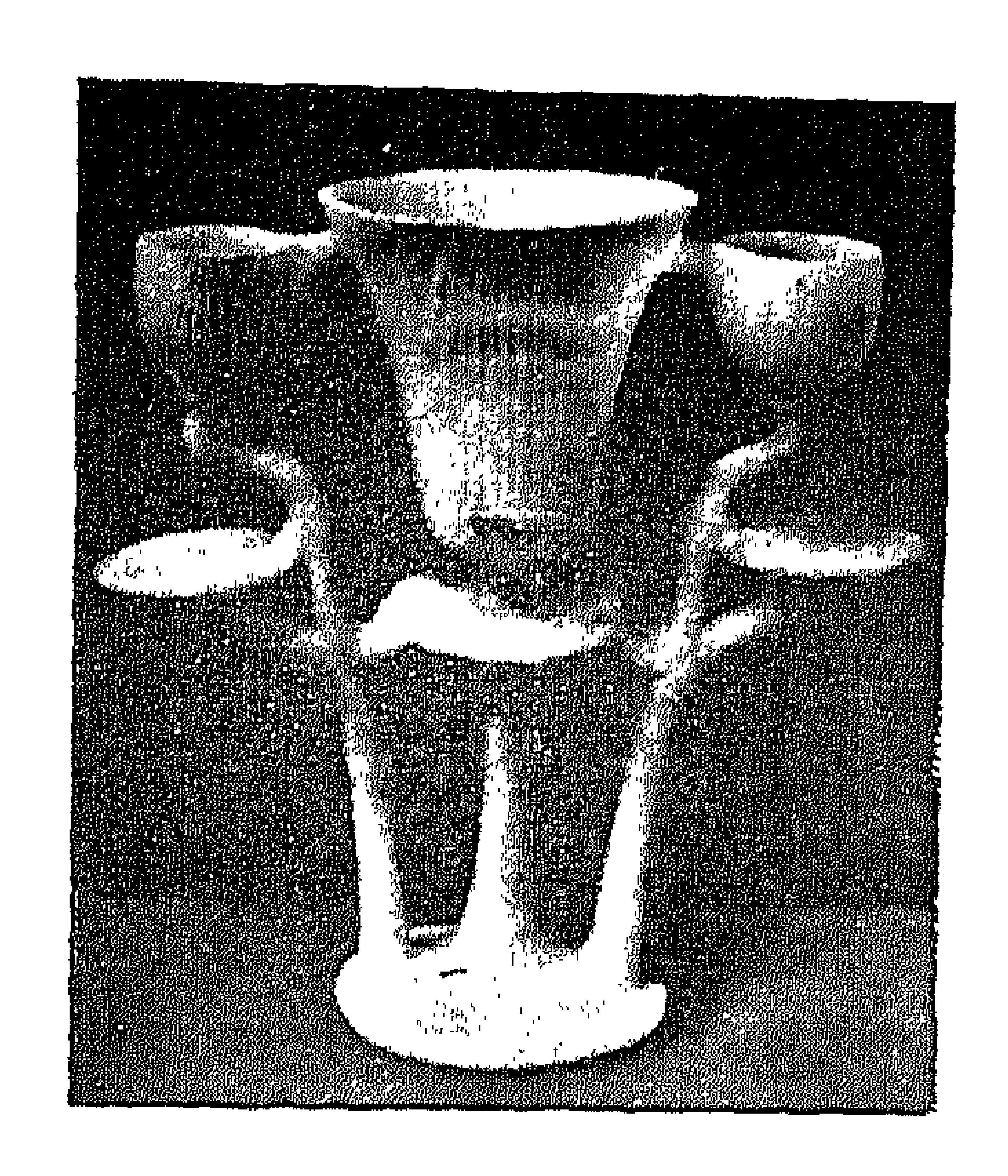
شكل رقم ٢٢ — عقد كبير من الذهب
يحلى كلا من الصدر والظهر



شكل رقم ٢١ — مروحة من ريش النعام
ويدها من العاج



شكل ٢٤ — سرير من الخشب المذهب



شكل رقم ٢٣ — إناء من المرمر

هذه كلها من مقبرة توت عنخ أمون من أواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى الآن مع غيرها من كنوز تلك المقبرة ، فى المتحف المصرى بالقاهرة .

غير قليل من الدمى والأوانى كتبت عليها تعاويذ سحرية لسحق أصحابها [1] .
ولو درسنا هذه التعاويذ والدمى لوجدنا أنهم أمراء من النوبة أو من آسيا وقفوا موقفا عدائيا من مصر فأراد بعض من أحاطوا بالملك أن يقنعوه بأنه من الممكن سحقهم بواسطة السحر مادامت تعوز مصر الجيوش ، وفى هذا الدليل الكامل على ضعف البلاد ووقوفها مكتوفة الأيدى أمام ذلك الخطر الذى أخذ يهدد كيانها . وإنى أقدم هنا مثلا واحداً لما هو مكتوب على دمية من الدمى «باكويت المسمى جاى حاكم أوباتس بن أهاسى وأونكات وجميع حلفائه الذين معه وجميع رجالهم الأقوياء وعدائيهم وجميع أصدقائهم وأتباعهم وكل من تحدثه نفســـه بالثورة أو التآمر والذين يحاربون أو يفكرون فى الحرب أو الذين يفكرون فى الخروج عن الطاعة فى جميع تلك البلاد» .
وإذا درسنا هذه المجموعة لوجدنا أن بين أصحابها كثيرين من أمراء الجنوب وأمراء الإمارات السورية ، وأسماء أصحابها أحيانا سامية وأحيانا أخرى مصرية ، ونعرف من بين البلاد التى ذكرت على هذه الدمى أسماء جبيل (بيبلوس شمال بيروت) وعسقلان ويافا كما ظهرت فيها لأول مرة كتابة إسم أورشليم (أوشاميم Aushamem) .

وهناك ظاهرة أخرى وهى وجود دمى لبعض المصريين أيضا ، ومعنى ذلك أن مصر كانت تعانى شدة كبرى وأن مصريين فى مصر نفسها وأمراء

---

(١) ترجع عادة كتابة أسماء الأعداء على أوانى من الفخار الأحمر أو على قطع صغيرة من الطين أو تماثيل من الطين إلى العصر المتأخر من الدولة القديمة ولكنها استعملت فى عصر الأسرة الثالثة عشرة على نطاق واسع . وقد عثر فى طيبة على أوانى من الفخار الأحمر غطيت جوانبها بتعاويذ سحرية لسحق أعداء فرعون ونشرها زيته فى بحثه K. SETHE, *Die Achtung feindlicher Fürsten* (*Berlin Abh.*, 1926) .

أما الدمى فقد عثر عليها فى سقارة وكتب عنها پوزنر G. POSENER, *Princes et Pays D'Asie et de la Nubie* (*Bruxelles*), 1940.

وانظر أيضا بحثا مختصرا للمؤلف نفسه عن هذا الموضوع نشره فى مجلة *Chronique D'Egypte*, No. 27 (1939) pp. 39 ff .

سوريا والسودان الذين كانوا يدينون لها بالطاعة أخذوا فى الثورة عليها وأن فرعون أصبح عاجزاً عن قمع الثورة فالتجأ إلى السحر لعله ينقذه مما هو فيه .

وهنا نعود مرة ثانيــة لنتساءل عن سبب هذا الانهيار وتعليله فلا نجد إلا فروضا يمكننا أن نسوقها ، ولكن لا نجد فى النصوص المصرية مايؤكدها تماما . وأول هذه الفروض أن ملوك الأسرة الثانيــة عشرة جاءوا وكانت مصر محكومة بحكام إقطاعيين أقوياء فحاربوا بعضهم وهادنوا أو حالفوا البعض الآخر ، ولكن بقى للكثيرين منهم الجاه والثروة فى أقاليمهم فانتهزوا فرصة الضعف الذى انتاب البلاد بعد أمنمحات الثالث واستعادوا سلطانهم القديم خصوصا وأنه منذ بدء الأسرة الثانية عشرة كانت الخلافات والحزازات الداخلية فى العائلة تقطع أوصالها ، وكانت المؤامرات فى البيت المالك سببا من أسباب انهياره . وإلى جانب هذين الفرضين توجد حقيقة هامة ربما كانت هى أقوى الأسباب ، وهى أنه منذ عام ٢٠٠٠ ق . م تقريبا بدأت بعض الشعوب الهندو — أوروبية تأتى من الشرق والشمال من موطنهم الأصلى فى أواسط آسيا لتستقر فى بلاد الرافدين وفى سوريا . وترتب على هذه الهجرات اضطراب فى تلك الولايات ، وقد حاربت بعض هــذه القبائل سكان البلاد الأصليين وأجلتهم عنها كما استقرت قبائل أخرى مع السكان وعاشوا فى وئام لأن هذه الهجرات لم تتخذ طابع الغزو المنظم ، وإنما جاءت هذه الشعوب تباعا فى طلب العيش ، ولم يمض غير قرنين من الزمان حتى أصبح منهم أمراء يحكمون البلاد ، بل إننا نستطيع أن نرى بين أسماء أمراء سوريا الذين ذكرت أسماؤهم على الدمى أن بعضهم يتسمى بأسماء غير سامية وربما كانوا من هؤلاء الغزاة الشماليين .

أمام هــذه الأخطار كلها لم يكن أمام مصر المفككة العرى من سبيل الا الاستسلام للقضاء .

ملوك الأسرة الثالثة عشرة وآثارهم :

لا يمكن أن يكون قد زاد حكم ملوك هذه الأسرة عن خمسة وخمسين عاما لأن مدة حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة لم يكد يزد على قرن ونصف كما سنرى ، وأن المدة التى تفصل الأسرة الثانية عشرة عن الأسرة الثامنة عشرة لم تزد على قرنين من الزمان، بينما نرى أن المؤرخ المصرى مانيتون قد ذكر أنها تزيد عن خمسة عشر قرنا . وقد واجه مانيتون الصعوبة التى نواجهها الآن ، فقد كانت أمامه قوائم طويلة لعائلات مختلفة فى نواحى مصر ، وكان كل منها يدعى الملك وأنه حاكم الشمال والجنوب . فاعتبر مانيتون أن كل بيت من هذه البيوت حكم البلاد كلها ثم تلته البيوت الأخرى بينما الواقع أنها كانت تحكم فى وقت واحد عندما كانت مصر مفككة الأوصال . كان هناك بيت قوى فى طيبة وكان هناك بيت آخر فى قفط وثالث فى أسيوط ورابع فى شرق الدلتا وخامس فى غربها . وكان نفوذ بعض هذه البيوت يزداد حينا ويتقلص حينا آخر ، ولكن أهمها جميعا هو ما نسميه الأسرة الثالثة عشرة وهو البيت المالك الذى حكم على الأرجح فى منف فى الشمال وخلف آثارا كثيرة فى طيبة ، وفى أماكن كثيرة فى البلاد ، والذين ظهر من بينهم بعض ملوك امتد نفوذهم جنوبا إلى بلاد النوبة وشمالا إلى لبنان .

وأول ملك معروف لنا هو « سخم - رع - خو - تاوى » الذى تسمى أيضا باسم « أمنمحات سبك - حتپ » . ويريد بعض المؤرخين أن ينسب إليه أنه تزوج من الملكة « سبك نفرو رع » ، ولكن يعوزنا الدليل على ذلك . وتلاه فى الملك ملك آخر اسمه « سعنخ تاوى سخم كا رع » وقد جاء اسمه فى بردية تورين مثل سابقه وعثر على آثار له فى مختلف جهات مصر ، ولكن بدأت تسجيلات مقاييس النيل فى سمنه وكمه تنقطع فى عهده مما يجعلنا نرجح أن بدء عدم استقرار الأمور فى النوبة راجع إلى أيامه .

ولدينا عشرات من أسماء الملوك الذين عثر على تماثيل ولوحات لهم فى نواحى متعدده من مصر فى شمالها وجنوبها ، ومن بين هؤلاء الملوك واحد يدعى « خع - سخم - رع - سبك حتپ » عثر على أكثر من تمثال له فى صان الحجر ، وعثر على تمثال له فى جزيرة أرجو بين الشلالين الثالث والرابع . ومن الأسماء الظاهرة بين هؤلاء الملوك اسم الملك « سمنخ كارع إميرا مشع » واسم الملك « خع سخم رع - نفر حتپ » الذى يقترن اسمه بلوحة عثر عليها فى بيبلوس وتمثل أمير ذلك الأقليم واسمه « يوناتان » جالسا أمام أسمائه مما يدل على امتداد نفوذ مصر إلى بعض مناطق سوريا فى عهده وربما كان هذا الملك ممن كانت لهم السيطرة التامة على شرق الدلتا على الأقل .

ولا بد من الإشارة إلى ملك آخر وهو « سواز - ان - رع » الذى جاء ذكر اسمه على لوحة عثر عليها فى الكرنك وعليها صورة عقد يتنازل فيه حاكم إقليم الكاب عن منصبه لأحد أقاربه مقابل قيمة ٦٠ دبن (٩١ جرام = دبن) من الذهب وهى تشمل ذهبا وحبوبا وثيابا . . . ألخ .

أما الملك « نحسى » فإن القابه ووصفه بأنه « حبيب ست سيد أواريس » تجعلنا نرجح أنه كان ذا صلة بأيام الهكسوس الذين كانوا قد بدأوا يستقرون فى شرق الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة . ومن أبرز الأسماء فى هذه الأسرة أيضا اسم الملك خنزر الذى عثر على هرمه فى سقارة القبلية والذى نعرف أيضاً أنه أمر وزيره « عنخو » ليقوم باصلاح معبد سنوسرت الأول فى أبيدوس محتذيا بما قام به ملك يسمى « نفر حتپ » الأول وهو من هذه الأسرة أيضا ، ونعرف من إحدى اللوحات أنه جمع رجال بلاطه وأمرهم بدراسة الكتب القديمة لإعادة تشييد معبد أوزيريس فى أبيدوس كما كان وقت إنشائه منذ القدم [1] .

(١) اقتصرت هنا على ذكر أهم الملوك الذين خلفوا آثارا فى البلاد ، ولو أردنا سرد أسماء لذكرنا عشرات منهم ذكرت أسماؤهم على جعارين ، ولكننا لا نعرف فى الحقيقة مكانهم الصحيح أو إذا كانوا من هذه الأسرة أو من الأسرة الرابعة عشرة أو بعد ذلك .

وكان ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، وربما الرابعة عشرة ، أيضا يدفنون في جبانة منف ، وقد أشرنا إلى هرم الملك « خنزر » في سقارة القبليه الذى كشفت عنه حفائر مصلحة الآثار في عام ١٩٢٩ وكشفت في الوقت ذاته على مقربة منه عن هرمين آخرين لم يكن قد انتهى العمل في أحدهما . ولم يستطع القائمون بهذا الكشف أن يعرفوا اسمى صاحبيهما .

وفى عام ١٨٩٤ كشف عن قبر ملك يسمى « حور - إوا إب » وكان في الناحية الشمالية من هرم أمنمحات الثالث في دهشور داخل السور المحيط بالهرم ، وعثر في هذا المدفن على أشياء ثمينة ومن بينها تمثاله الخشبي الشهير الذى يمثله واقفا في ناووس من الخشب وقد مثله الفنان عاريا وفوق رأسه علامة الروح « كا » وهو الآن في المتحف المصرى .

وفى شهر يونيه من هذا العام (عام١٩٥٧) أذيع في الصحف نبأ الكشف عن هرم ملك يسمى « إميني عامو » في دهشور ، كتبوا اسمه على أوانى الأحشاء التي هشمها اللصوص ، ولكن فحص هذا القبر، لم ينتهى بعد وما زال هناك أمل كبير في العثور على أشياء أخرى .

وليس لدينا حتى الآن دليل على أن هذا الملك حكم في الأسرة الثالثة عشرة، وربما كان ملكا في زمن آخر بين هذه الأسرة وبين الأسرة السادسة عشرة، ولكن مهما كان الأمر فإن الكشف عن قبره في هذه المنطقة من الجبانة المنفية وعلى بعد مئات قليلة من الأمتار من مدفن الملك حور يعطينا بعض الأمل في أننا سنعرف أيضاً أسماء غيره من ملوك عصر الفترة الثانية متى تم حفر ذلك العدد الكبير من المرتفعات التى تملأ هذه المنطقة وتمتد مسافة طويلة على حافة بركة دهشور ، وهى كلها في الشرق من هـرم سنفرو القبلي وإلى الجنوب من هرم أمنمحات الثالث .

ومما يجدر بالذكر أيضاً أنه قد عثر على آثار بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى منطقة الختاعنة فى مركز فاقوس ومن بينها هريم من الحجر، ومن الصعب جداً أن يقول أحد إن كانت بعض مقابر ملوك ذلك العهد كانت فى شرقى الدلتا حيث عثر على تلك الآثار أو أنهم جاءوا بها من منف لاستخدامها فى البناء فى عصور تالية .

الأسرة الرابعة عشرة (١٧٧٨ — ١٥٩٤ ق.م) :

ويحدثنا مانيتون أنه بعد انتهاء حكم الأسرة الثالثة عشرة تلاهم ملوك الأسرة الرابعة عشرة وكان مقر حكمهم فى مدينة سخا فى غرب الدلتا . وجاء فى أقوال مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة ستة وسبعون ملكا حكموا مائة وأربعة وثمانين عاما . وتذكر بردية تورين نحو واحد وعشرين ملكا منهم ، أما لوحة الكرنك فلم تشر إليهم . ومهما كانت قيمة كتابة مانيتون ومهما كبر عدد الملوك الذين جاء ذكرهم فى بردية تورين فمن المرجح أن هذه الأسرة بدأت فى الوقت الذى بدأت فيه الأسرة الثالثة عشرة ، ولكنها استمرت مدة أطول لأنها كانت بعيدة عن مقر الهكسوس فى الشرق . أما آثار ملوك هذه الأسرة — إن كان ما زال لدينا أمل فى العثور على آثار لهم — فإنها مازالت كامنة تحت حقول المنطقة ، لم تكشف عنها يد حتى الآن ، أو أن تكون الأيام قد عفت عليها لكثرة ما تعرضت له بلاد الدلتا من محن على مر السنين .

ومهما يكن من أمر فإن الأسرة الرابعة عشرة كانت تحكم فى سخا فى وقت من الأوقات بينما كان شرق الدلتا خاضعاً للهكسوس الذين بدأت طلائعهم تستقر هناك . أما طيبة ، وجزء كبير من الصعيد ، فقد ظلت تحت نفوذ البيوت الحاكمة هناك .

القسم الثـــانى

الهكسوس

مقدمـة :

لم يحظ عصر من عصور التاريخ المصرى بعناية المؤرخين كما حظيت به تلك الفترة التى تعرضت فيها مصر لمحنة غزوها بشعب أجنبى أطلق عليه الناس اسم الهكسوس . وإذا أردنا حصر الأبحاث الجدية التى نشرت عنه لبلغت العشرات ومع ذلك فان هناك كثيرا من النقط الغامضه التى ما زالت موضع نقاش عنيف بين المؤرخين ، وهناك نقـط أخرى ما زلنا نجهل تأويلها ، وما زال علم الآثار يضيف من آن إلى آخر عن ذلك العصر كثيرا من المعلومات ، سواء أجاءت هذه المعلومات من مصر نفسها أو من خارج حدودها وبخاصة فى فلسطين . ولـكن قبل أن نتحدث عن تاريخ هـذه الفترة وأثرها فى تاريخ مصر يجمل بنا أن نعود قليلا إلى الوراء بل ونترك أيضا حـدود مصر ونلقى نظرة على ما كان يجرى فى غرب آسيا .

فنى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى فى أواخر أيام الأسرة الثانية عشرة كان نفوذ مصر السياسى والاقتصادى والثقافى سائدا فى غربى آسيا ، وكانت مصر دون شك أقوى بلاد الشرق الأدنى وكانت تتدفق عليها خيرات آسيا والنوبة وشمال السودان وشمال إفريقيا وجزر البحر الأبيض . وبالرغم من انتهاء أيام الأسرة الثانيـة عشرة حوالى عام ١٧٨٠ ق ، م (١٧٧٨ على وجه التحديد)[١] وتعرضها داخليا للضعف والانحلال فإن نفوذها فى خارج حدودها لم يتأثر كثيرا ، ولم يجد بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة صعوبة فى الإبقاء على ولاء أمراء بعض الولايات وبخاصـــة فى بيبلوس وأوجاريت

(١) LYNN WOOD, *Bulletin ASOR* 99,8; EDGERTON, *JNES*, *I*. 34; SÄVE SÖDERBERGH, *JEA*, 37 (1951), p. 53

(رأس شمرا على مقربة من ميناء اللاذقية فى سوريا) كما ظل النفوذ المصرى أيضا فى كرما (فى دنقلة) كما كان من قبل .

ولم تكد مصر تحاول النهوض من كبوتها حتى اضطرتها ظروف أخرى خارجية إلى التعثر ثانية . فقد بدأت شعوب بلاد الرافدين وسوريا وما جاورها عصراً جديداً من تاريخها ، فإننا نعرف من وثائق مدينة مارى (إسمها الحديث تل الحريرى ، فى سوريا على حدود العراق) [1] والتى يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن عشر ، أن الملك الأشورى « شمشى أداد الأول » (Shamshi - Adad I) كان حاكما على جزء كبير من الجزء الأعلى من بلاد الرافدين ولكن ابنه « إشما دجن » (Ishma - Degan) لم يستطع المحافظة على قوة أشور السياسية فاستطاعت مارى أن تحرر نفسها . وهذا هو نص خطاب كان قد جاء إلى « زمرى ليم » (Zimri - Lim) حاكم مارى يلقى كثيراً من الضوء على الموقف السياسى فى هذه المنطقة من الشرق فى ذلك العهد :

« لا يوجد ملك واحد يمكن أن يقال عنه أنه أقوى الجميع ، فإن عشرة أو خمسة عشر ملكا يتبعون « حمورابى » (ملك) بابل ومثل هذا العدد يتبعون « ريم سين » (Rim - Sin) (ملك) لارسا (Larsa) ومثل هذا العدد يتبعون « إيبال پي إيل » (Ibal pi El) (ملك) إشنونا (Eshnuna) ومثل هذا العدد يتبعون « أموت پي إيل » (Amut Pi il) (ملك) قطنا (Qatna) وعشرين ملكا يتبعون « يريم ليم » (Yarim Lim) (ملك) يمخد Yamkhad) » [2]. ولكن هذه الاتحادات الصغيرة من المدن لم تبق طويلا فإن حمورابى ملك بابل هزم لارسا ومارى واستولى عليهما كما أنه من المحتمل أيضاً أن يكون قد حكم مملكة أشور ، ولكن لم يمض إلا زمن قليل حتى

---

(١) ALBRIGHT, *Bull.* 99, 9 ff

(٢) DOSSIN, *Syria*, 19, 117 f. وانظر أيضاً ما كتبه سيدنى سميث فى كتابه . SIDNEY SMITH, *Alalakh and Chronology*.

بدأت قبيلة من الجبال الشرقية تنزل إلى السهل وهـذه القبيلة هى التى يطلق عليها المؤرخون إسم «الكاسيين»(Kassites) والتى استقرت وأسست حكمها فى الجزء الشرقى من مملـكة بابل .

أما فى شمال بلاد ما بين النهرين أى فى أشور فإن شعباً أجنبيا آخر وهو شعب «الحريين» Hurrians) جاء أيضا من الشرق ولم يلبث إلا قليلا حتى صار له نفوذ كبير فى البلاد . وكان من الطبيعى أن يحدث التصادم بين الـكاسيين والحربيين وأن يـكون بينهما التنافس ولـكن الحربين آثروا ترك ما سبق أن استولى عليه الـكاسيون واتجهت أنظارهم نحو الجنوب الغربى فهاجموا بعض المـدن هناك وكان من بينها مدينة ألالاخ (Alalahh) عاصمة مملـكة « يمخد » . وتلا ذلك اضطراب عام فى جميع البلاد السورية نشأت عن هذه الهجرات التى تدفقت عليها من ناحية الشرق ، ولم تكن هناك مندوحة من أن تتأثر مصر بمـا كان يجرى على حدودها وكان من المحال أن تبقى بمنأى عن هذه الهجرات والغزوات فى بلاد الشرق الأدنى .

وقد سبق أن تحدثنا بالتفصـــيل عن حالة مصر وضعفها النسبي فى عهد الأسرة الثالثة عشرة ، وأشرنا إلى أنه من المحتمل أن تـكون بعض الشعوب المهاجرة قد بدأت تستقر فى شرق الدلتـا منذ أواسط أيام هذه الأسرة وأن ذلك كان بداية ظهور الهـكسوس فى مصر .

وبعد هذه المقدمة يبقى أمامنـا موضوع الهـكسوس نفسه وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ من هم الهـكسوس ؟ ٢ ــ حكم الهـكسوس فى مصر .

٣ ــ طردهم من مصر .

ولنبدأ الآن بالقسم الأول من الموضوع .

١ — من هم الهكسوس ؟

كتب مانيتون يقول[١] : « فى عهد الملك توتيمايوس[٢] (Toutimaios) ولا أدرى السبب فى ذلك . أصابتنا ضربة من الله، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة ، وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة ، وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالى بعداء قاس فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماء وعبيداً لهم . وأخيراً عينوا واحداً من بينهم إسمه « ساليتيس » (Salitis) ليكون ملكا عليهم فأقام فى منف وفرض الضريبة على شمال مصر وجنوبها وكان يترك دائما الحاميات فى أكثر المواقع المناسبة » ويزيد مانيتون على ذلك بأن ساليتيس بنى حصنا فى أواريس فى شرق الدلتا ويذكر أنه ترك فيها حامية عدد رجالها ٢٤٠٠٠٠ مزودين بأسلحتهم وكان يذهب لزيارة هذا الحصن ويتفقد رجاله فى شهور الصيف من كل عام . ويذكر ما نيتون عدداً من ملوك الهكسوس كما يذكر بعد ذلك قصة إخراجهم من مصر[٣] . ولكن هناك فى الوثائق المصرية

---

(١) MANITO, *ed.* W.G. WADDEI, 79 *ff.*

(٢) يعتقد أولبرايت أن اسمه (*Timaios*) (ALBRIGHT, *Bull.* ASOR 99, 15 *n.*44) ومن المرجح أن يكون هو الملك المصرى ديدوميس الذى وجد اسمه منقوشا على صخور النوبة

(٣) لم يصلنا النص الذى كتبه مانيتون رأسا وإنما وصل إلى أيدينا كما نقله المؤرخ اليهودى يوسيفوس *Flavius Josephus* الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد . وقد سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول أن يوسيفوس كتب كتابه رداً على العالم الأسكندرى ابيون (*Apion*) رد عليه يوسيفوس ونقل ما نقله من ما نيتون مدعيا بأن الهكسوس كانوا يهودا وأنهم كانوا ملوكا ذوى سلطة وجاه وحضارة وأنهم قوم ذوو تاريخ ومجد .

ولم يبق الزمن على نسخة من تاريخ مانيتون حتى يمكننا القول بأن ماذكره يوسيفوس منقول بأمانة من المؤرخ المصرى القديم أو دخله التحريف ومدى هذا التحريف .

ومن خير الإبحاث عن كتابة يوسيفوس THACKERY, *Contra Apionem* (*London*, 1926)

القديمة بعض ما يزيد من معلوماتنا عنهم فقد أشارت الملكة حتشبسوت في معبدها المنحوت في الصخر في بني حسن (إسطبل عنتر Speos Artemidos) إلى الهكسوس بقولها «لقد أقمت ما كان قد تداعى، وكذلك ما كان قد تهدم، في الوقت الذي كان فيه الأسيويون يحكمون في أواريس في الشمال وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيثون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما. إنهم كانوا يحكمون دون (اعتراف بسلطان) رع، وكان رع لا تنفذ له إرادة إلهية حتى جاء عهدي العظيم»[1] وفي لوحة كارنارفون أو لوحة الكرنك الجديدة أو بردية ساليه ١ التي سنتحدث عنها فيما بعد لا نجد ما يفيدنا في البحث عن أصل الهكسوس أكثر من نعتهم بأنهم «أسيويون».

من ذلك كله نرى أنه لا جدال بين العلماء في أن الهكسوس أتوا من الشرق وأنهم جاءوا من آسيا ولكن إذا أردنا أن نقترب أكثر من ذلك لنعرف من أي جنس كانوا فاننا نصل إلى النتيجة الآتية: وهي أنهم ليسوا من جنس واحد وإنما من أجناس متعددة وأنه وإن غلبت في أسمائهم الأسماء السامية فإننا نجد أيضا أن فيهم عناصر غير سامية لاشك أن بعضها كاسي والبعض الآخر حري وكلا الجنسين من أصل هندو أوروبي نزل من أواسط آسيا كما سبق القول.

وكلمة الهكسوس ليست اسما ساميا أو آريا بل كلمة مصرية وهي تحريف للقب معروف منذ الأسرة الثانية عشرة وهو «حقا خاسوت» أي حاكم البلاد الأجنبية وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التي كانت تعيش في شرق مصر، ونراه مكتوبا فوق منظر مجيء البدو الساميين في إحدى مقابر بني حسن كما جاء أيضا في قصة سنوهي أثناء حديثه عن إقامته بين بدو

---

(١) أحدث الترجمات للنص المصري الذي على واجهة هذا المعبد هي ترجمة GARDINER, *JEA*, 32, (1947) pp. 48, ff.

لبنان — سوريا . ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر ، فلما ضغط عليهم غيرهم هاجروا إلى وادى النيل وحملوا معهم كثيراً من عاداتهم ومظاهر ثقافتهم .

وكانت هناك آراء فى أنهم جاءوا عند غزوهم لمصر بالخيل والعربات الحربية وأنه كانت لهم مملكة واسعة شملت رقعة كبيرة من آسيا مدللين على ذلك بتشابه الحصون الحربية ووجود أنواع خاصة من الفخار ولكن أحدث الأبحاث العلمية لا تقبل هذه الآراء الخاصة بإمبراطورية هكسوسية بحال من الأحوال . كما أنه يعوزنا الدليل على أن الغزاة الأجانب جاءوا بالخيل والعربات بل أنهم لم يستعملوها إلا فى أواسط أيام حكمهم فى مصر وبعد أن مر عليهم فيها نصف قرن على الأقل ،[1] أو ربما بعد ذلك أيضا قبيل طردهم من مصر .

٢ - حكم الهكسوس :

تعتمد معلوماتنا عن هذا الموضوع على مصدرين أولهما ما كتبه مانيتون وما جاء على الآثار ، أما ثانى المصدرين فهو ما أخرجته الحفائر الأثرية فى مصر وفلسطين .

وتجمع المصادر المصرية على أن الهكسوس كانوا قوما مخربين وأنهم أذلوا مصر وخربوا معابدها ، ولكن النقد الصحيح لا يمكن أن يقر الاعتماد على وجهة نظر أحد الخصوم فقط فإن ما وصل إلى يدنا من هذه النصوص كتبه المصريون بدافع من الوطنية الخالصة أو بدافع آخر من الزهو والدعاية من جانب الملوك المتأخرين مثل حتشپسوت الذين قامو باصلاح ما أصاب بعض المعابد فى أثناء حرب التحرير .

(١) أنظر T. SÄVE - SÖDERBERGH. *The Hyksos Rule in Egypt*, *J.E.A*, 37 (1951), *p*. 59

فمثلا نقرأ فى نص حتشپسوت إنهم لم يعرفوا الإله « رع » ولم يوقروه بينما نرى الكثيرين من ملوكهم جعلوا اسم رع جزءا من أسمائهم مثل « عا أوسر رع » و« نب خپش رع » و« عا قنن رع »[1]، بل أن بعض ملوكهم كتبوا أمام أسمائهم أنهم « ابن رع » جريا على عادة من سبقهم من ملوك مصر . وفى هذا دليل على عدم صحة ما ادعته حتشپسوت .

أما عن سوء معاملتهم للمصريين فإن هذا أمر طبيعى ، فويل للمغلوب من الغالب فى كل زمان ومكان ، وليس عجيبا أن نسمع بأن القاهر كان ظالما أو مستبدا بل العجيب أن نتوقع أن نسمع من المغلوب رضاءه عن قاهريه وسالبى حريته ومن أذاقوه طعم الذل والاحتلال .

وإذا رجعنا إلى الآثار نفسها لوجدنا أن مدة احتلال الهكسوس لمصر لم تدخل أى تطور ملحوظ على الفن المصرى أو الحياة المصرية . فكل شىء سار فى مجراه الطبيعى وإذا كانت هناك بعض عناصر جديدة فى الفن المصرى أو فى الفخار فإنها كانت نتيجة منتظرة لزيادة اتصال مصر بغرب آسيا عند ما كان الهكسوس فى شرق الدلتا وكان أهلهم الأقربون يعيشون فى فلسطين وسوريا .

أما ديانتهم — أو ديانة الذين لم يعتنقوا ديانة المصريين من بينهم — فإنها تركزت فى عبادة الإله سوتخ وهو دون شك أحد مظاهر الإله « ست » المصرى الذى كان معبودا فى شرق الدلتا منذ الدولة القديمة [2] وأنه لم يكن

---

(١) هؤلاء الملوك الثلاثة كان كل منهم يتسمى باسم ابوفيس « ابپى » ولكن يوجد غيرهم كثيرون أمثال « عا — حتب — رع »، « خع — اوسر — رع » ، « خع — ان — رع » ، « ماعت — إب — رع » ، « نب — تاوى — رع » ، « خع — مو — رع » وغيرهم .

(٢) SETHE, *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter*, 47 *ff*.
أنظر أيضاً ما كتبه يونكر فى مجلة ÄZ عدد ٧٥ ص ٧٧ وما تلاها ؛ وما كتبه شتوك فى مؤلفه عن الفترة من الاسرة ١٣ — ١٧ ص — ٦٣ وما بعدها .

غريبا على البلاد . والمرجح أن الهكسوس رأوا فى هذا الإله شبيها أو صورة من الإله الأسيوى « بعل » فقبلوا أن يعبدوه وجعلوا منه المعبود الأكبر فى البلاد ، فكان فى هذا الإجراء بعض ما آذى شعور السكان الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى . ولكنا نعرف أيضا أن الحمار كان ذا شأن فى ديانتهم وسواء أكان هذا الحيوان رمزا للإله سوتخ أو كان رمزا لمعبود آخر فإنهم كانوا يجلونه ويدفنونه فى مقابرهم .

وكان الهكسوس يرسمون الإله سوتخ فى مظهر أسيوى أكثر منه مصريا فإنه كان قريبا من مظاهر الآلهة الأسيوية أمثال « بعل » و« رشپ » (Reshep) و« تشوب » Teshub) فإن رداءه ولباس رأسه الذى يخرج منه القرنان صورة تامة للآلهة الأسيوية .[1] وهناك أثر هام لتاريخ ست والهكسوس على السواء ، وهذا الأثر هو اللوحة المعروفة باسم لوحة عام ٤٠٠ [2] ، التى عثر عليها ما ريت فى صان الحجر ثم دفنت ثانية وبحث عنها پترى وبارازنتى دون جدوى إلى أن عثر عليها مونتيه فى حفائره هناك . وقد أقام الملك رمسيس الثانى هذه اللوحه تخليدا لزيارة أبيه وجده لهذه المدينة فى وقت من الأوقات وكان ذلك فى أيام الملك حور محب عندما كان الجد أحد قواد الجيش وكان الأب ضابطا فيه . حدثت هذه الزيارة حوالى عام ١٣٣٠ ق . م ، وكان قد مضى إذ ذاك على بدء عبادة « ست » فى هذه المدينة ٤٠٠ سنه ، [3] فلو رجعنا أربعمائة سنة إلى الوراء لرأينا أن عام ١٧٣٠ وهو بدء إعلان تتويج الإله ست إلها للبلاد كلها يوافق بدء سيطرة الهكسوس على مصر [4] .

(١) DUSSAUD, *RHR* 109, 116 *ff;* SÄVE-SÖDERGH, *Ibidem*,*p.* 64.

(٢) MONTET, "*La Stéle de L' An* 400" *Kemi IV* (1933) *p.*191 - 216 ; MARIETTE, *Revue d' Arch. XI* (1865) *d.* 169 - 190 .

(٣) على وجه التحديد كان تاريخ زيارة الجد والأب فى : السنة الاربعمائة ، الشهر الرابع من فصل الصيف . اليوم الرابع من حكم ملك الوجهين القبلى والبحرى : أى أن التاريخ هنا كان لبدء حكم هذا الإله فى تلك المدينة .

(٤) الرأى المتفق عليه نهائيا بين العلماء أن بدء حكم الهكسوس لابد أن يقع بين عامى ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق . م .

أما السبب الذى حدا برمسيس الثانى إلى إقامة هذا الأثر فهو ولا ريب تمجيد لهذا الإله الذى كان يحتل المكانة الأولى فى المدينة التى جاءت منها عائلة هذا الملك .

ملوك الهكسوس :

إذا أردنا حصر ملوك الهكسوس سواء من ذكرهم مانيتون أو ذكرهم الإفريقى (Africanus) أو وصلت الينا أسماؤهم مكتوبة على الآثار لوجدنا أمامنا جدولا طويلا من الأسماء وبخاصة ما جاء منها مسطرا على الجعارين .

ولنبدأ الآن بمانيتون ، فنراه قد قسم ملوك مصر فى عهد الهكسوس إلى ثلاث أسرات أولاها وهى الأسرة الخامسة عشرة تتكون من ستة يبدأون بالملك ساليتيس ثم يليهم ملوك الأسرة السادسة عشرة (فى مختصر الأفريقى) وعدد ملوكها اثنان وثلاثون ثم بعد ذلك ملوك الأسرة السابعة عشرة المعاصرون لملوك طيبة وعددهم ثلاثة وأربعون .

وقد تكلم عن هؤلاء الملوك وآثارهم بالتفصيل كل من الدكتور باهور لبيب [1] والدكتور شتوك [2] فى رسالتيهما عن هذا العصر ويكفينا فقط أن نشير إلى بعضهم مثل الملوك الثلاثة الذين يتسمون باسم أبوفيس (أبيبى باللغة المصرية) والذين عثر على آثار كثيرة باسمهم فى أماكن عديدة من مصر ومن بينها تماثيل وأحجار منقوشة وبعض آثار صغيرة مثل الخنجر المصنوع من البرونز الذى عثر عليه فى سقارة فى مدفن شخص يسمى « عبد » وكان هذا الخنجر باسم شخص سامى آخر اسمه « نحمان » .

---

(١) P. C. LABIB, *Die Herrschaft der Hyksos in Ägypten und ihr Sturz* (1936).

(٢) H. STOCK, *Studien zur Geschichte und Archaeologie der 13 bis 17 Dyn. Ägyptens* (1942).

ومن أهم ملوك الهكسوس الذين لا يمكن إغفال ذكرهم الملك المسمى «خيان» وربما كان هو الذى ورد فى قائمة مانيتون تحت اسم جناس (Jannas) ونعرف من آثاره الكثيرة أنه كان يحمل لقب «حقاخاسوت» من بين ألقابه، وكان أيضا رئيس الجند وكان ابن الشمس كما كان يسمى الإله الطيب مثل ملوك مصر السابقين. ومن المهم جداً أن نعرف أن آثار هذا الملك عثر عليها فى جهات مختلفة من مصر وفى سوريا وفى فلسطين، ومنها أيضا الأسد الذى يحمل اسمه الذى رؤى فى بغداد لدى أحد تجار الآثار وغطاء اناء من المرمر جاء من حفائر السير أرثر إيفانس فى كريت.

وليس لدينا شك فى أن «خيان» كان من أعظم ملوك الهكسوس ولكن وجود بعض الجعارين باسمه فى سوريا وفلسطين أو تمثال صغير لأسد لا يزيد طوله عن ٤٥،٢ سم فى بغداد أو غطاء آنية متوسطة الحجم فى كريت لا تجعلنا ننساق وراء من يذهب بهم الخيال إلى جعل هذه الأشياء أساسا لنظرية اتساع ملك الهكسوس وأنهم كانوا على رأس امبراطورية شملت مصر وسوريا وفلسطين والعراق وجزر البحر الأبيض المتوسط فإن هذا غير مقبول ولا يستند على أى دليل جدى لأن جميع هذه الآثار من السلع التى يمكن أن يقال عنها إنها سلع تجارية ويسهل حملها من مكان إلى مكان، وعلى هذا فإن الرأى الحديث يخالف الأستاذ إدوارد ماير فيما رآه[1].

٣ ــ طرد الهكسوس:

كان مركز حكم الهكسوس فى شرق الدلتا، ولكن نفوذهم امتد مع الزمن فشمل الدلتا بأكملها والصعيد، وإنا وإن كنا نجهل الصلة التى كانت بين الهكسوس وأبناء البلاد، ونجهل أيضا تقسيمها الإدارى فى ذلك العهد، فإننا نستطيع أن نستشف مما وصل الينا من وثائق أنه ليس بمستبعد أن يكون

(١) ED. MEYER, *Geschichte I*, § 306, 307.

الهكسوس قبلوا دفع الجزية ممن والاهم من أمراء البلاد الذين ظلوا على رأس إماراتهم عندما غزوا مصر وآثروا السلامة فلم يدافعوا عن وطنهم .

فاذا كان هناك حقيقة أمراء مستقلون فانه لم يجرؤ أحد منهم على ادعاء الملك وتلقيب نفسه بألقاب الفراعنة المصريين كما كان الأمر فى الأسرة الثالثة عشرة. ومرت أيام الأسرتين الخامسة والسادسة عشرة دون أن يكون هناك بين أمراء البلاد من يستطيع مقاومة نفوذهم ، ولكن فى الأيام الأخيرة من حكمهم بدأ بعض أمراء الصعيد يحسون بقوتهم وكان أكثرهم نفوذا وأعظمهم سلطانا أمراء طيبة الذين أخذوا يتحالفون مع جيرانهم فى شمال طيبة وجنوبها ولكنهم ظلوا يدفعون الجزية لملوك الهكسوس . وجاء اليوم الذى رأى فيه هؤلاء الأمراء أنهم أصبحوا ذا حول وقوة وأن أعداءهم فى الشمال قد أخذت قوتهم فى الانحلال فلم يترددوا فى اعتبار أنفسهم ملوكا لإقليمهم وبدأوا يكتبون أسماءهم فى خانات ملكية مسبوقة بألقابهم التقليدية بأنهم ملوك الوجهين القبلى والبحرى ، وهؤلاء هم ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين كانوا معاصرين للمتأخرين من ملوك الهكسوس فى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين مدى العلاقة بين هؤلاء الملوك الطيبيين وملوك الهكسوس ، فمن المرجح أن الطيبيين امتنعوا عن دفع الجزية أو أن ملوك الهكسوس رأوا خطراً فى ترك أمراء طيبة وشأنهم فبدأ الاحتكاك بين الفريقين . والوثيقة الأولى التى تتحدث عن بدء النزاع ليست وثيقة معاصرة وإنما هى وثيقة من عصر متأخر من عصر الرعامسة أى يرجع تاريخ كتابتها إلى بضع قرون بعد طرد الهكسوس من مصر ، وربما كان مرور هذا الزمن وطبيعة هذا النص كافيين لإدخال كثير من الخيال عليها . تلك الوثيقة هى بردية سالييه ١ [1] . ونعرف من هذه الوثيقة أن الطاعون كان قد اجتاح البلاد

(١) GARDINER, *Late Egyptian Stories*, 85 ff ; LEFEBVRE, *Romans et Contes Egyptiens*, p. 131 ff.
وباللغة العربية كتاب سليم حسن ـ الأدب المصرى القديم (القاهرة ١٩٤٥) ص ـ ١٠٥ .

مشيرين بذلك إلى وجود الهكسوس فى مصر وأن البلاد كانت خاضعة لهم وأن الملك أبوفيس جعل من الإله سوتخ معبوداً لمصر ولم يقدم قربانا لإله غيره . وبنى له معبداً إلى جوار قصره وكان يعبده دون حياء كما كان يعبد الناس فى مصر إله الشمس رع — حورختى . وكان سقننرع فى ذلك الوقت حاكما على طيبه ولم يقبل أن يعبد إلها غير الإله أمون — رع .

ونعرف من سياق القصة فى البردية أن سقننرع كان يعترف بسيادة ملك الهكسوس ولهذا استقبل رسول أبوفيس بحفاوة عندما جاءه من أواريس ليبلغه بأن أفراس النهر فى مياه طيبة تقلق نوم أبوفيس وهو فى قصره فى الدلتا ولهذا فهو يطلب منه إسكاتها ، وأن يهجر أفراس النهر ذلك المكان ، وذلك زيادة عن طلبه الآخر وهو ضرورة عبادة الإله سوتخ . وحاول سقننرع تهدئة خاطر الرسول ، ثم تملكته الحيرة فجمع رجاله لاستشارتهم ولكن البردية ليست تامة لسوء الحظ ، وإن كنا نستطيع أن نخمن أن السبب فى كتابة مثل هذه القصه هو تسجيل انتصار الملك سقننرع على عدوه وربما كان هذا الانتصار نفسه هو الذى أجبر الهكسوس على الاعتراف باستقلال حكام طيبة ، أو على الأقل أجبرهم على السكوت .

أما الملك أبوفيس فإنه ربما كان واحدا من ثلاثة تسموا بهذا الأسم وذكرهم مانيتون ضمن ملوك الأسرة السادسة عشرة ، وبنى أحدهم وهو أبوفيس (عا قننرع) معبدا ، أو على الأقل أصلحه أو بنى جزءا منه فى أورايس ولهذا نرجح أن يكون هو الملك الذى أراد مناوأة سقننرع وبدأت فى أيامه المعركة الأولى من سلسلة المعارك التى انتهت بطردهم من مصر . وإذا كانت بردية ساليية ١ هى الفصل الأول فى كتاب التحرير فإن الفصل الثانى نقرؤه عندما نفحص مومياء سقننرع وقد أبقى عليها الزمن ، وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى فنرى أن صاحبها مات متأثراً من جراح كثيرة فى صدره وضربة

فأس فى رأسه مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا الملك قد مات فى الحرب[1] ، وخط بدمه صفحة نقية فى تاريخ بلاده . أما الفصل الثالث من القصة فإننا نقرؤه بشيء من التفصيل فى نص معاصر كتب فى أيام الملك كامس (كاموسه Kamosé) ووصل إلينا أولا منذ أعوام طويلة على لوحة صبى فى أحد المكاتب أملاها عليه مدرسه كقطعة إملاء ثم عثر على جزء من لوحة من الحجر الجيرى فى الكرنك عام ١٩٢٨ . واللوحة الأولى هى المشهورة باسم لوحة كارنارفون وقد نشرها جاردنر[2] واللوحة الثانية نشرها لاكو[3] وهى دون شك جزء من اللوحة الأصلية التى نقلت عنها لوحة كارنارفون .

ويبدأ هذا النص القديم بالتاريخ فنعرف أن ذلك كان فى السنة الثالثة من حكم الملك كامس وهذا هو النص :

« الملك القوى فى طيبة ، كامس له الحياة إلى الأبد . إنه ملك صالح وقد حباه رع ليكون ملكا حقا وسلم إليه القوة وأيم الحق . و كان جلالته فى القصر وقال للمجتمعين من كبار رجاله الذين كانوا حوله : أريد أن أعرف مدى سلطانى إذا كان هناك حاكم فى أورايس وآخر فى كوش وأجلس شريكا بين أسيوى ونوبى ويحكم كل منا على جزء من مصر . إن هذا الذى يشاركنى فى الأرض يجعلنى لا أستطيع الوصول إلى منف وهى تابعة لمصر لأنه يتحكم فى مدينة الأشمونين ، والناس فى نصب لأنهم جميعا فى خدمة الأسيويين . سأحاربه وسأبقر بطنه لأن رغبتى هى أن أخلص مصر وأسحق الأسيويين » . وقد أجابه مجمع رجاله بما يأتى : « أنظر ! إن منطقة الأسيويين تمتد حتى القوصية » ثم حركوا ألسنتهم وقالوا بصوت واحد « ولكننا فى طمأنينة ونحكم

---

(١) لا شك فى أن سقننرع مات متأثرا من جراحه ولكن بعض الأثريين الأجانب مثل جاردنر وجن GARDINER - GUNN J. *E. A.* 5, 43 يتشككون فى أنه مات فى موقعة مع الهكسوس ويقولون بأنه يعوزهم الدليل . ولكن مثل هذه النغمة لا تدهش أحدا وخاصة إذا جاءت ممن يؤمنون باضعاف كل ما من شأنه إيقاظ الروح القومية بين الشرقيين .

(٢) (*J.E..A* 3, 95 ff ; 5, 45 ff.)

(٣) *Lacau, Annales du Service* 39, 245 ff

مصرنا وإلفنتين بخير وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا لخنازيرنا . لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد . إنه يتملك على أرض الأسيويين ونحن نتملك على أرض مصر أما إذا جاءنا أحد واعتدى علينا فإننا نقاومه » .
ويستمر النص فيقول إن مافاهوا به أحزن قلب الملك وصاح فيهم بأنه سيطرد هذا الذى يشاركه الملك وأنه سيذهب إلى الشمال لينقض عليه وأنه واثق من أن النصر آت ، وأن البلاد كلها ستهتف لهذا الحاكم فى طيبة وستقول عنه « كامس هو حامى مصر » .

إذن لقد بدأ النضال مرة أخرى ولم يكن هذه المرة دفعا لتحرش كما حدث فى أيام سقننرع بل أن الشبل نما وترعرع وأصبح شبيهاً بأبيه وأحس أنه لا بد من تطهير البلاد مما تحمله أرضها من رجس وشر . ونفهم من باقى النص أن أول معركة خاضتها جيوش طيبة كانت فى مدينة نفروسى فى إقليم الأشمونيين وأن حاكمها المسمى تيتى بن بيأوبى جعل من إقليمه عشا للأسيويين أى أنه كان ممالئا لهم وكانت فى بلده حامية للهكسوس ولكنه انتصر عليهم، وعند هذا الكلام ينتهى النص .

كانت هذه كل معلوماتنا عن حرب كامس مع الهكسوس حتى شهر يوليه ١٩٥٤ إذ شاء الحظ الحسن أن يعثر رجال مصلحة الآثار ، أثناء ترميمهم لبعض آثار الكرنك ، على لوحة استخدمها القدماء لتكون بين أحجار الأساس التى يقوم فوقها أحد التماثيل الكبيرة للملك بينزم أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين . كانت اللوحة كاملة لحسن الحظ وهى من الحجر الجيرى وارتفاعها ٢٢٠ سم (ولكنها كانت فى الأصل ٢٣٥ وتهشم الآن جزء من أعلاها وجزء من أسفلها) وعرضها ١١٠ سم وسمكها ٢٨ سم ، وتملأ الكتابة

أحد سطحيها وجانبيها وعليها ٣٨ سطراً من الكتابة تكمل لناقصة كفاح كامس ضد الهكسوس [١] .

ونعرف الآن أن النص الذى أمر كامس بكتابته تسجيلا لانتصاره لم يكن على لوحة واحدة وإنما كان على لوحتين أقيمتا على الأرجح على جانبى مدخل أحد الهياكل فى معبد الكرنك ، وكان الجزء الأول من النص مكتوبا على لوحة مماثلة للوحة التى عثر عليها أخيراً ، ولكنها تعرضت لسوء الحظ للتحطيم ولم يبق منها إلا أجزاء قليلة هى التى عثر عليها داخل الصرح (البيلون) الثالث فى الكرنك من عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن نصها الكامل تقريبا معروف لنا من لوحة كارناڤون . أما الجزء الثانى وهو الذى كان على الجانب الأيسر من المدخل فقد ظل سليما حتى استخدمه ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى أساس أحد التماثيل كما ذكرنا .

والنص فى هذه اللوحة الجديدة يكمل ما سبقه على اللوحة الأخرى وينحى باللائمة على ملك الهكسوس ويذكر هزيمته أمامه وخوف الأسيويين من جيش مصر وأن « نساء أوراريس لن يلدن » بعد ذلك . ويصف كامس غريمه « أپيپى » بأنه زعيم « رتنو » ويتحدث عن حربه على سطح الماء فى معركة نيلية ويذكر انتصاره واستيلاءه على الكثير مما كان لدى عدوه وخاصة ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الأرز كانت تفيض بمحتوياتها من الذهب واللازورد والفضة والفيروز وفؤوس القتال المصنوعة من النحاس والكثير من زيت الزيتون والبخور والدهن والعسل والكثير من أنواع الأخشاب الثمينة . ويذكر كامس على هذه اللوحة أنه أسر رسولا اتخذ طريق الواحات بعث به أپيپى (أبوفيس) إلى كوش يحمل رسالة مكتوبة بخطه يحرض فيها أمير كوش (النوبة العليا) على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء اشتغال كامس بحربه ، ويعده بأن يتقاسم معه مدن مصر .

(١) M. HAMMAD, *Découverte d'une stèle du Roi Kamose*, *Chronique d'Egypte*, T. XXX (*Juillet* 1955), p. 198-208.

وخشى كامس أن يحدث هجوم عليه من طريق الواحات فأرسل حملة من رجاله احتلت الواحات البحرية لأنها على رأس الدروب الموصلة إلى مصر الوسطى . ثم يعدد كامس المدن التى استولى عليها وفرح أهل طيبة بانتصاراته ، واستيلائه على البلاد الواقعة بين الأشمونين وأطفيح ، ولكن الإستيلاء على الوجه البحرى كله وعلى أواريس عاصمة الهكسوس لم يتم على يديه بل تم على يدى أخيه أحمس كما سنرى .

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة هامة وهى وجود جنود من الميجا وهم من النوبيين الحاميين سكان شرق السودان والصحراء الشرقية بين رجال كامس كما جاء فى لوحة كارنارفون ، وهذا فى حد ذاته دليل على أن أمراء البيت الطيبى كانوا قد استعادوا صلتهم بعض الشىء بالجنوب وكان بعض أبناء النوبة مشتركين فى حرب الاستقلال [1] .

ولسنا نعرف كيف انتهت أيام البطل الثانى من أبطال الجهاد ولكنا نرى فجأة أمامنا البطل الثالث وهو الملك أحمس أخو كامس الذى تسلم منه راية الجهاد وأعلنها حربا لا هوادة فيها فتم له النصر وأجلى العدو عن مصر كلها . ولسنا نعرف قصة حروب أحمس من أى أثر ملكى ولكن الأيام قد أبقت على مقبرة أحد قواده واسمه « أحمس بن إبانا » من أهل منطقة الكاب على مقربة من إدفو ، فان هذا القائد يحدثنا عن تاريخ حياته وتنقله فى الخدمة العسكرية كقائد لإحدى السفن ويذكر لنا كيف تبع سيده الملك أحمس فى حربه مع الهكسوس وكيف سقطت أواريس بعد حصارها وكيف فر الهكسوس إلى مدينة شاروهن (Sharuhen) فى جنوبى غزة وأن المصريين حاصروها ثلاث سنوات حتى سقطت فتم له النصر على أعدائه . ومكان مدينة شاروهن الآن

---

(١) ان اشتراك بعض جنود الميجا فى جيش طيبه لم يكن إلا استمرارا لتقليد قديم منذ عهد الدولة القديمة كما نعرف من تاريخ حياة القائد « ونى » من الأسرة السادسة مثلا ــ أما ما ذهب اليه سودربرج (J.E.A. 37, p.71) من أن الهكسوس جلبوا أسيويين والمصريين جلبوا إفريقيين وأن النزاع أصبح نزاعا بين آسيا وأفريقيا فهو محض خيال بعيد .

هو تل فرعه Tell Far'ah وهى المنطقة التى أطلق عليها فلندرزپترى اسم بيت بلث (Beth Peleth) فى تقارير حفائره [1] . وبعد أن اطمأن أحمس تماما إلى سحق أعدائه وجه همه إلى إعادة تنظيم بلاده ولم يجد هناك ما يمنعه من القيام بحملة إلى الجنوب .

وهكذا خرجت جحافل جنود مصر من طيبة لمحاربة الهكسوس فلم تعد إلى وطنها إلا بعد القضاء عليهم ووضع الحجر الأول فى صرح الامبراطورية المصرية.

خاتمة الهكسوس :

احتل الملوك الثلاثة سقننرع وكامس وأحمس مكان الصدارة فى تاريخ عائلتهم ولكننا يجب أن نعلم أنهم كانوا آخر ثلاثة من ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية . نعرف قبلهم ثمانية على الأقل كان بعضهم يتسمى باسم « أنتف » والبعض الآخر باسم « سبك إم ساف » والبعض الآخر بأسماء أخرى ، وقد اهتم بدراستهم الأثرى ونلوك الذى قام بحفر مقابرهم فى منطقة الطارف ودراع أبو النجا وقارنهم بما جاء فى بردية أبوت [2] ، ثم قام بدراستهم حديثا شتوك فى كتابه الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فى هذا البحث .

وقد عثر مارييت على قبور بعضهم مثل قبر الملكة « إعح حتپ » زوجة سقننرع وأم الملك أحمس والتى تزين حليها بعض خزائن المتحف المصرى ، ونعرف أيضاً من بين ملكات هذا البيت اسم الملكة « تتى شرى » التى لعبت

---

(١) أنظر ما كتبه أولبرايت ALBRIGHT, *The Archaeology of Palestine and the Bible*, 53, 187. ALBRIGHT *Bull. ASOR* 33, 7 ; وكذلك DE KONING, *Studien over de El-Amarnabrieven*, (*Delft*, 1940,) § 375. أنظر أيضا PETRIE, *Ancient Gaza*, (*London* 1932) .

(٢) بردية أبوت مجموعة تحقيقات عن سرقات فى جبانة طيبة فى أواخر أيام الدولة الحديثة وجاء فيها ذكر مقابر بعض الملوك وموقعها فى الجبانة .

دوراً كبيراً فى تاريخ الأسرة وكانت جدة للملك أحمس ، واشتهرت فى عصرها وبعد عصرها ملكة أخرى وهى الملكة أحمس نفر تارى التى تزوجت كلامن أخويها كامس وأحمس .

ولا شك أن هذا البيت المالك كان متأثراً بما وصل إلى مصر من تأثيرات أسيوية فى بعض قطع الحلى إذ نرى فى زخرفتها ما يجعلنا نقارنها بالطرز الزخرفية المعروفة لنا بأنها كانت شائعة فى سوريا وفى كريت ، ولكن إذا درسنا الآثار المصرية بوجه عام لانرى أثراً كبيراً لاحتلال الهكسوس فقد ظلت التقاليد الفنية فى صناعة التماثيل وفى اللوحات وفى الحلى بوجه عام تتبع ما كانت عليه فى آخر أيام الأسرة الثانية عشرة اللهم إلا بعض التطور الذى يحتمه مرور الزمن . وكذلك اللغة فانه لم يدخلها عنصر غريب أو يحدث فيها تطور يذكر ، وإذا قرأنا النصوص المبكرة فى الأسرة الثامنة عشرة فاننا نرى أنها لا تكاد تختلف فى نحوها أو مفرداتها عن لغة الأسرة الثانية عشرة .

أما عن الهكسوس أنفسهم فإن حروب أحمس فرقت شملهم ثم جاءت حروب تحوتمس فقطعت دابرهم ومحتهم محوا تاما من صفحات التاريخ كقوة حربية أو كأمة لها كيانها . كان احتلال الهكسوس لمصر أول ما تعرضت له من ذلة على يد أجنبى ، لهذا كان انتقام المصريين من أعدائهم على قدر ما أحسوه من مرارة ، وظلت هذه المرارة فى نفوسهم لم يقض عليها الزمن حتى فيما كتبه مانيتون عن طردهم من مصر بعد مرور نحو ١٣٠٠ عاما . بل وحتى الآن وبعد مضى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام مازال المصريون يلعنونهم كما لعنهم أجدادهم كلما مروا فى دراستهم للتاريخ القديم بهذه الفترة من تاريخ بلادهم .

وبالرغم من أن أحمس الأول ينتسب إلى الأسرة السابعة عشرة فان مانيتون وضعه على رأس أسرة جديدة وهى الأسرة الثامنة عشرة التى بدأت بحكمه عام ١٥٧٠ قبل الميلاد ، وقد أحسن مانيتون فإن حكم هذا الملك كان بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد .

الفصل السابع

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة : (١٥٧٠ — ١٣٢٠ ق٠م٠)

القسم الأول - بناة الإمبراطورية

أحمس الأول :

كان أحمس الأول من أظهر ملوك مصر، و كان بطلا من أبطال استقلالها وفارسها فى طرد الهكسوس ، وهو بالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقننرع فإن ماينتون وضعه كما سبق القول على رأس عائلة جديدة . ولو أنعمنا النظر قليلا لوجدنا أنه لم تكن هناك مندوحة من ذلك لأنه بالرغم من أنه لم يحدث تغيير فى البيت المالك إلا أن مصر بدأت عصراً جديداً وهو عصر جدير بأن يكون فاتحة لعهد جديد وهو الأسرة الثامنة عشرة .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين [1] إلى اعتبار هذا الملك وابنه أمنحتب الأول من ملوك الأسرة السابعة عشرة ويبدأ الأسرة الثامنة عشرة بالملك

---

(١) انظر مثلا *A. Scharff* في كتاب SCHARFF-MOORTGAT, *Agyplen u. Vorderasien in Allertum*, p. 123 .

تحوتمس الأول،ولكن هذا الرأى لايجد من أكثر العلماء قبولا لأن تحوتمس الأول أيضا من العائلة نفسها ولو قبلنا منطق الأستاذ شارف نفسه لكان من الأسرة السابعة عشرة أيضا [1] هو وأولاده وجميع من أعقبوه حتى انتقال الملك إلى بيت آخر .

وإذا تتبعنا تاريخ الملك أحمس لوجدنا أنه بعد أن تم له طرد الهكسوس وهزيمتهم فى فلسطين التفت نحو الجنوب فقام بحملة إلى تلك البلاد لإعادة الأمن إليها ، ولكن أثناء تغيبه هناك أراد بعض المصريين (وربما كانوا من سلالة الهكسوس أو ممن كانوا موالين لهم) القيام بثورة فعاد وقضى عليهم ولم نسمع بعد ذلك بأية محاولة أخرى . وامتد حكم هذا الملك إلى اثنين وعشرين عاما قضاها فى إصلاح البلاد وتوطيد النظام وتعمير المعابد، وخاصة فى طيبة وأبيدوس .

وقبل أن أترك عصر هذا الملك أرى من اللازم الإشارة إلى بضع نقط تتصل به فبالرغم من أن هذه العائلة طيبية الأصل وأن أمون هو الإله المحلى لطيبة فإن « القمر » كان يلعب دورا كبيرا فى حياة هذه العائلة ، فإن معنى كلمة أحمس هى « القمر (إعح) ولد » وكذلك اسم أخيه كامس فان « كا» وتكتب بشكل الثور كانت وثيقة الصلة بالقمر وعبادته [2] ، واسم أمه « اعح حتب » أى القمر مطمئن تكتب بالأفرنجية فى الغالب - (Ah hotep) - كما أن

---

(١) كانت أبحاث الأستاذ ونلوك فى مقابر الطارف ودراع أبو النجا هى الأساس الذى قام عليه تتابع ملوك طيبة فى الفترة التى سبقت طرد الهكسوس . وقد كتب ونلوك تقارير كثيرة ولكن فى آخر أبحاثه التى نشرها بدأ يتراجع عما سبق له أن أبداه من آراء واعتبر كثيرين منهم تابعين للأسرة السادسة عشرة ولكن أبحاث شتوك فى هذا الموضوع بالذات تجعلنا نؤمن أنهم جميعا من عائلة واحدة وأنهم من الأسرة السابعة عشرة .

(٢) EBERHARD OTTO, *Beiträge zur Geschichte der Stierkult in Aegypten* (1938), p. 30-31.

اسم تحوتمس نفسه يحتوى أيضا على اسم الإله تحوت الذى لم يكن إلا إله القمر نفسه [1] .

ومما يستلفت النظر فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر ذلك النفوذ الكبير الذى كان لسيدات هذه الأسرة ، وهو نفوذ نحسه فيما كان لهن من نعوت وأوصاف وما كان يقوم به الملوك لتخليد ذكراهن . وأظهر نساء هذه الأسرة ثلاثة لعبن دوراً كبيراً فى حرب الاستقلال وبعث روح المقاومة فى العائلة ، أولاهن الملكة « تتى – شرى » جدة الملك أحمس التى ظل وفيا لذكراها إلى آخر سنى حياته ، وأقام لها فى أبيدوس أثراً كبيراً ليكون مدفنا مؤقتا لها ووضع فيه لوحة أبقى عليها الزمن ليقص علينا قصة وفائه لذكراها . أما ثانية هذه السيدات فهى الملكة « إعح حتپ » التى يظهر أنها لعبت دورا رئيسياً فى الحرب وكان لهـــا أثناء حياة ابنها المقام الأول . فانه كتب عنهـا فى لوحة الكرنك [2] :

« امدحوا سيدة البلاد وسيدة جزر البحر الأبيض ، فاسمها محترم فى جميع البلاد الأجنبية وهى التى تضع الخطط للناس . زوج الملك وأخت الملك عاشت (متمتعة) بالحياة والسلامة والصحة . وهى أخت ملك وأم ملك ، هى العظيمة القديرة التى تهتم وتضطلع بشئون مصر ، وهى التى جمعت جيشها وحمت الناس وأعادت الهاربين ولمت شتات المهاجرين وهدأت ما حل بالصعيد من خوف ، وأخضعت من كان فيه من عصاة ، الزوجة الملكية « إعح حتپ » لها الحياة » .

وقد أراد بعض المؤرخين وبخاصة المؤرخ الألمانى العظيم إدوارد ماير [3]

---

(١) كانت مدينة الأشمونين (خنو أوهرموپوليس) فى مصر الوسطى هى المقر الرئيسى للإله تحوت وعبادته ، فهل كانت لهذه العائلة صلة خاصة بالأشمونين ؟

(٢) SETHE, *Urkunden*, IV, p. 14 ff.; *Vercoutter*, *Les Haou - Nebout* BIFAO, T. 47/48, 1948.

(٣) وأنظر أيضا ما كتبه إدوارد ماير فى كتابه عن التاريخ القديم الجزء الثانى ص ٥٥ . ولكن آراء ماير بهذا الشأن وعلى الأخص ماقاله عن أنها من أصل كريتى أو تزوجت ملك كريت لاسند له من التاريخ حتى الآن .

أن يرى فى ألقاب هذه الملكة ما يسمح له بأن يقول إنها ربما كانت أصلا من كريت وانها تزوجت من ملكها لأن كريت كانت مركز حضارة جزر البحر الأبيض، وأراد أن يرى فى نقوش حليها التى عثر عليها فى قبرها مايؤيد كلامه إذ أن بعض هذه الحلى، وعلى الأخص خنجرها بالرغم من أنها مصرية الصناعة إلا أن أثر الفن الإيجى ظاهر فى شكلها وزخارفها [1] .

وليس من المستبعد أن يكون سكان جزر البحر الأبيض تحالفوا مع بيت طيبة وقدموا شيئاً من المعونة فى حصار الهكسوس وأن نتيجة هذا التحالف كانت زيادة التجارة بين أهل كريت وأهل مصر . وليس من المستبعد أيضا أن تكون الملكة « إعح حتپ » لعبت دوراً مباشراً وهاما فى هـــذا الأمر كما نستشفه من ألفاظ لوحة ابنها أحمس .

أما ثالثة السيدات العظيمات فهى أحمس نفرتارى التى تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس وظل نفوذها كبيراً فى أيام ابنها أمنحتپ الأول . وما زلنا نجهل حتى اليوم السبب الذى جعل المصريين منذ أواخر الأسرة ١٨ وفى خلال الأسرات ١٩ ، ٢٠ حتى الأسرة ٢١ ينظرون اليها نظرة عبادة واحترام وأقاموا لها معبداً فى طيبة وجعلوا منها ومن ابنها « أمنحتپ الأول » إلهين حاميين للجبانة، وكانوا يرسمونهما على جدران كثير من مقابرها أما الملك أحمس الأول فقد ألهه المصريون أيضا ولكن كان لعبادته شأن فى أبيدوس أكبر من شأنها فى طيبة [2] .

---

(١) عثر على هذه المجموعة الفريدة فى طيبة أيام مرييت باشا وكان للعثور عليها قصة طريفة وهذه الحلى موجودة الآن فى متحف القاهرة .

(٢) من مميزات هذه الأسرة - (أو بعبارة أدق هذه العائلة منذ طرد الهكسوس حتى أمنحتپ الأول) وضع أسماء أميراتها وأمرائها فى خانات ملكية وكذلك عبادة هؤلاء الأفراد فى العصور التاليه (.L.D, III, PL. 2d) أنظر أيضا — سليم حسن : مصر القديمة ج ٤ — ص — ٢١٥ ، ٢١٦ — وخير مصدر عن عبادة احمس الأول فى أبيدوس وأنه كانت له نبوءة خاصة به مثل أوزيريس ما جاء فى لوحة باسر التى عثر عليها فى الرابة المدفونة (*Annales du Serv.* XVI, p. 161).

وقد أبقى الزمن على كثير من موميات ومقابر وآثار بعض موظفى هذا الملك ولهذا أصبح من الميسور لنا معرفة الكثير عن حالة البلاد الإجتماعية فى أيامه، أما مومياؤه هو فقد سلمت من العبث وهى الآن فى المتحف المصرى .

وقد فحص إليوت سميث هذه المومياء[1] ونعرف من بحثه أنه قد قدر له عمر الأربعين عند موته أى أنه تولى الملك وهو فى الثامنة عشرة وكان طوله ١٦٣٫٥ سم . وليس يدهشنا أن يكون أحمس قد مات فى عمر مبكر فإن أمه عاشت عشر سنوات بعد وفاته .

أمنحتب الأول :

ومات أحمس الأول قرير العين وخلفه على العرش ابنه أمنحتب الأول وكان يافعا فقامت أمه أحمس نفر تارى بعبء كبير فى معونته كما فعلت الملكة « إعح حتب » مع أبيه أحمس من قبل .

وورث هذا الملك الصغير صفات أبيه وجده ، وما لبث أن خرج على رأس جيشه ليرى أطراف ملكه فى شمال السودان ، وفى سوريا وفى ليبيا ، كما نعرف ذلك من تاريخ حياة القائدين « أحمس بن إبانا» و« أحمس بن پننخبت» . ولم يكن هناك ما يدعو لأن يستمر الملك الشاب فى حروبه فإن مصر وما جاورها من البلاد ظلت هادئة وظل أمنحتب فى سياسته الإنشائية يعمر المعابد ويزيد فى رخاء البلاد طيلة الأعوام العشرين التى قضاها على العرش ، وقد بقى من أيامه بعض آثاره فى الكرنك وبخاصة هيكل من المرمر أعيد تركيب أحجاره فى السنوات الأخيرة .

---

(١) G. ELLIOT SMITH, *The Royal Mummies*, p 15-18 (PL XI & XII 3) ; J. D'Entrée No. 61057

أما قبر أمنحتب فليس لدينا شك فى أنه كان فى دراع أبو النجا كما جاء فى بردية أبوت وأن عمقه كان أكثر من ستين مترا [١] ، وسواء أكان قبر الملك أمنحتب الأول هو ألذى كشفه كارنارفون فى عام ١٩١٤ [٢] أو لم يكن ، فإن هذا الملك كان أول الفراعنة الذين فصلوا بين قبرهم وبين المعبد الجنازى لأن جميع الملوك السابقين كانوا أما يدفنون داخل أهرامهم أو كانوا يدفنون فى مقابر تعلوها أهرام مثل مقابر الطارف .

وكان أمنحتب رفيقا برعيته طيلة السنوات الواحد والعشرين التى قضاها على العرش ولأمر ما ظل عمال الجبانة فى طيبة قرونا عدة بعد وفاته يعبدونه ويقدمون له القرابين بل كان هناك تقليد خاص وهو أن كهنة معبده فى تلك الجبانة كانوا من العمال أنفسهم [٣] ، ولم يكن هناك مركز واحد لعبادته بل عبد فى أماكن متفرقة وفى أشكال عدة .

ومما هو جدير بالذكر ، وله صلة بعهد هذا الملك ، أنه يوجد على ظهر ورقة إيبرس (Ebers) الطبية بيان بعدد من الأعياد مع تاريخ الإحتفال بها ، ومن دراسة علماء الفلك لهذه البردية أمكن تحديد السنة التاسعة من حكمه بأنها وقعت فى عام ١٥٣٦ قبل الميلاد . ومات أمنحتب الأول دون أن يترك ولدا ذكراً من بعده ليخلفه على العرش فسبب ذلك شيئاً من الإضطراب فى الوراثة ، وانتهى الأمر بتولى الملك تحوتمس الأول عرش البلاد ولم يكن تحوتمس إبنا

---

(١) يرى بعض الأثريين أنه ليس لدينا من الأدلة ما يكفى لإثبات أنه كان مدفونا فى دراع أبو النجا ويرى ويجل أنه صاحب مقبرة ٣٩ فى وادى الملوك . ولكنا نعلم علم اليقين أن تحوتمس الأول كان أول من دفن فى ذلك الوادى .

(٢) أنظر GARTER, J. E. A, Vol. 3, p. 147 هـذا القبر على مسافة نحو ٨٠٠ متر من معبده الجنازى الذى اكتشف فى عام ١٨٩٦ — وتذكر بردية أبوت أن قبر هذا الملك يقع شمال معبد « أمنحتب سيد الحديقة » .

(٣) CERNY, BIFAO, T. XXVII, p. 159 ff.

لأمنحتپ الأول ولكنه كان أميراً من أمراء البيت المالك وتزوج من الأميرة صاحبة الحق فى الوراثة الملك وكانت تسمى أحمس وهى إبنة أمنحتپ فأصبح له الحق في ولاية العرش دون اعتراض .

كان تحوتمس أول فراعنة مصر المحاربين وهو الذى خطا الخطوة الأولى فى تشييد صرح الأمبراطورية المصرية ، وقبل أن نتحدث عنه أو عن أعماله يحسن بنا أن نقف قليلا لنلق نظرة عابرة على بلاد الشرق الأدنى القديم لنعرف ما كانت عليه عندما تولى تحوتمس الأول عرش وادى النيل .

نظرة عامة فى حالة بلاد الشرق الادنى فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد :

وضع أحمس اللبنة الأولى فى أساس الامبراطورية المصرية وتلاه ابنه أمنحتپ الأول فحافظ على بناء أبيه . فلما جاء تحوتمس الأول كانت مصر مطمئنة وأمورها الداخلية منتظمة وكانت حدودها قد امتدت جنوبا حتى الشلال الرابع ، أما صلتها بمن جاورها من البلاد فان نفوذها السياسى المباشر لم يمتد إلا إلى الجزء الجنوبى من فلسطين وبعض بلاد الساحل الفينيق . أما ما بقى بعد ذلك من إمارات فى شمال فلسطين أو فى سوريا فكان بين صديق لمصر وبين مستقل عن أى نفوذ أجنبى ، أو تربط حكامه رابطة من الصداقة أو الولاء بدولة من الدول التى كانت تعيش وقتذاك فى بلاد الرافدين أو دولة خيتا فى آسيا الصغرى التى أخذت تظهر فى عالم السياسة فى ذلك العهد .

وقد أشرت عند الحديث عن الهكسوس إلى أثر هجرات الكاسيين والحريين من جبال القوقاز أو غيرها من الشمال الشرقى فلم يمض غير بضعة قرون حتى تمكنت بعض قبائل من هذين الشعبين من توطيد أقدامها فى الهلال الخصيب ، فقامت دويلات صغيرة متعددة فى بعض مدن سوريا ولكن

لم تقم مملكة كبيرة إلا فى شمال بلاد النهرين وهى مملكة ميتانى التى كان يقوم إلى الجنوب منها مملكة أشور وفى الجزء الجنوبى على مقربة من الخليج الفارسى كانت تقوم مملكة بابل ، ولم تكن هناك مندوحة من قيام التنافس بين هذه الممالك وخاصة المملكتين الأخيرتين .

وكان من أثر هذه الهجرات الآرية قيام مملكة فى الأناضول وهى مملكة خيتا التى لم يأت عليها القرن السادس عشر ق.م . حتى كانت مملكة لها اتحادها وقوتها ولم تكتف بالسيطرة على آسيا الصغرى فقط بل تطلعت بعيونها نحو الجنوب وأصبحت هى والمملكة الأخرى ذات الأصل القوقازى الآرى وهى مملكة ميتانى عاملا قويا فى سياسة دويلات سوريا . وليس من المعقول أن تظل جزر بحر إيجه وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط بعيدة عن هذا التطاحن فقد كانت الصلة بين هذه الجزر وبلاد الأناضول وسوريا ، وبخاصة الشاطىء الفينيقى ومصر متصلة ، وكان سكانها وعلى الأخص أهل كريت وقبرص ذوى حضارة قديمة وكانت سفنهم التجارية تزور شواطىء مصر وسوريا ، وكانت موانى بلادها تزخر بسفن مصر وفينيقيا . ولكن إلى جانب هذه الصلة التجارية والثقافية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت هناك صلة أخرى يكاد يكون لها لون سياسى خاص . فنحن نعرف من النصوص المصرية منذ الدولة القديمة صلة مصر بهذه الجزر «حاوو - نبوت» ، ونعرف أن هذه الصلة ازدادت فى الدولة الوسطى فاذا ما انقشعت غمامة حكم الهكسوس بدا لأعيننا شىء جديد وهو زيادة هذه الصلة بمصر مما يجعلنا نقف متسائلين عن سببها . وإنى أميل إلى تفسير هذه الصلة بأنه ليس من المستبعد أن تكون كريت وبعض هذه الجزر وقعت ـ مثل ما وقعت مصر ـ فريسة لحكم الهكسوس ، وأنه عندما بدأت مصر نضالها ضد الغاصبين لحريتها قامت كريت أيضاً بنضالها فتوحدت الغاية وتآلفت القلوب . وربما كان للجيوش المصرية فضل مباشر على تطهير الجزيرة من فلول الهكسوس مما جعل أهل كريت يعترفون بفضل مصر وأصبح

للملكة « إعح حتب » الحق فى أن تسمى نفسها ملكة كريت إذ ربما يكون أهل كريت أنفسهم قد خلعوه عليها كلقب من ألقاب الشرف والتكريم اعترافا بما قدمه بيت طيبه لهم من معونة .

أما بلاد شمال إفريقيا فليس لدينا عنها معلومات كثيرة ، ولكن ليس لدينا أيضاً ما يدل على أنه كان لمصر نفوذ سياسى خاص هناك فى ذلك العهد ، ولو أن سكان البلاد التى على الحدود المصرية كانوا من البدو الذين لم تكن لهم دول ذات خطر سياسى على وادى النيل .

وبالرغم من تفرق كلمة هذه الأمم وقيام الدول المختلفة فيها فإن التجارة كانت تأخذ طرقها برا وبحرا بين البنجاب فى الشرق ومصر فى الغرب ،وكانت بلاد الفرات بحكم مركزها الجغرافى هى القنطرة الأولى للتجارة وسوريا هى القنطرة الثانية ولم تكن هناك مندوحة من تطلع كل من دول ما بين النهرين وخيتا ومصر إلى السيطرة أو على الأقل ضمان الولاء من ولايات سوريا وفلسطين .

كانت هذه المصاعب تتراءى لمصر ، ولكن كان هناك دون شك عامل آخر له قيمته ووزنه . لقد تبع الملك أحمس الأول فلول الهكسوس إلى جنوبى فلسطين وهزمهم فى شاروهن فالى أى المناطق اتجهوا وكيف انتهى بهم المطاف ؟ ويجدر بنا عند التفكير فى هذا الأمر ألا ننسى صلة الهكسوس الوثيقة بسوريا وفلسطين ،فإنهم جاءوا من الشرق وكان فى تلك البلاد دويلات ممن اتصلوا بالهكسوس بصلة النسب أو الأصل ، وليس من المعقول أن تكون جيوش الهكسوس وأصحاب الأمر فيهم ذابوا دفعة واحدة من الأرض أو أنهم تبخروا ولم تبق منهم باقية ، وليس بالأمر البعيد أن تلك البقية ومن اتصلوا بهم بصلة الجنس أو القربى أو ممن كانوا لا يؤمنون بصداقة المصريين

ويميلون إلى الدول التى تنافسهم أصبحوا ، على الأرجح ، مع مرور الزمن خطرا على الولايات الصديقة لمصر بل ربما أيضا خطرا على مصر نفسها[1] .

وسواء أكان هذا الفرض صحيحا أو غير صحيح فإن اعتلاء الملك تحوتمس الأول لعرش البلاد كان إيذانا بعصر جديد وهو بدء تسيير الجيوش المصرية على نطاق واسع إلى خارج الحدود وتكوين الإمبراطورية المصرية التى بلغت أوجها فى عهد الملك تحوتمس الثالث أعظم ملوك مصر المحاربين .

تحوتمس الأول :

لم يكن تحوتمس الأول عند اعتلائه العرش شابا يافعا أو فى زهرة شبابه ولكنه كان قد جاوز الأربعين وأصبح مكتمل الرجولة ، وكانت تملأ نفسه ذكريات طفولته عندما كانت البلاد مشتعلة الحماس بعد طرد الهكسوس .

جلس تحوتمس الأول على العرش عام ١٥٢٥ ق . م . ولم تكد تنتهى مراسيم تتويجه ويطمئن على سير الأمور فى البلاد حتى ذهب إلى الجنوب ليتفقد نتائج حملتى أحمس وأمنحتب عليها ، وقد توغل حتى وصل إلى آخر دنقله وأصبحت مدينة نباتا عند جبل برقل داخلة ضمن حدوده ، وقد ظل هذا الحد أى الشلال الرابع لمدة خمسمائة عام تقريبا لم يتغير ، بل أخذ النفوذ المصرى يتوغل كثيرا نحو الجنوب حتى وصل إلى قبيل الخرطوم . ولكى ينظم أمور هذه المملكة الجنوبية جعل المنطقة ابتداء من مدينة الكاب شمال إدفو حتى السودان وحدة واحدة يحكمها موظف أطلقوا عليه « الإبن الملكى لكوش » ومنذ هذا اليوم أخذت بلاد النوبة وشمال السودان تصطبغان بالصبغة المصرية البحتة وبدأت الثقافة المحلية الوراثية فى تلك البلاد تختفى تدريجيا حتى كادت تتلاشى مع مرور الزمن .

---

(١) إذا رجعنا إلى قصة طرد الهكسوس كما رواها مانيتون فان الملك الذى طردهم وقضى عليهم إسمه *Toutmaos* بن *Misphragmouthis*

وبعد أن انتهى تحوتمس من إصلاح حال حدوده الجنوبيـة التفت نحو آسيا فذهب إليها فى السنة الثانية من حكمه. وسار حتى وصل إلى نهر الفرات الذى أسماه معاصروه « ذو المياه المعكوسة » إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب بعكس نهر النيل، وقضى هناك بعض الوقت فى اصطياد الفيله وأرسل منها بضع عشرات إلى معبد أمون فى طيبة .

وبدأ تحوتمس الأول بتشييد المبـانى الفخمة فى معبد الكرنك ليجعله جديراً بأن يكون المعبد الرئيسى لعاصمة الإمبراطورية التى أخذ ينظم أمورها فأزال المعبد المتواضع الذى كان قائمـا منذ أيام الأسرة الثانية عشرة، وبنى مكانه معبداً كبيراً أمامه مسلتان من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة فى مكانها حتى الآن، أما الأخرى فقـد وقعت على الأرض أيام القرن الثـامن عشر وما زالت بعض أجزائهـا ملقاة هناك. كما أقام أيضا بهوا كبيرا فيـه أعمدة مربعة على واجهتها تمـاثيل على شكل الإله أوزيريس، عثر على بعضها تحت أرضية المعبد فى عام ١٩٤٢

ونحن نعرف الكثير عن أعمال أمنحتب وتحوتمس ممـا كتبه مهندسهما « إنينى » فى لوحته التى نقش واجهتها فى مقبرته فى علوة الشيخ عبد القرنة فهو يذكر لنـا قصة مبانيه التى أقامها فى الكرنك، ويذكر لنـا أيضا قصة تكليف الملك تحوتمس له ليبحث عن مكان فى الجبل الغربى أمام الأقصر ليكون مقرا صالحا لقبره. كان هـذا الملك هو أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن فى هرم أو فى مقبرة يعلوها هرم وفضل أن يدفن فى مكان خفى بعيد عن العيون وأن يـكون معبده الجنازى على حافة الزراعة. وكان هذا الوادى الذى اكتشفه « إنينى » وقطع فى أحـد أركانه قبر تحوتمس الأول هو « وادى الملوك » الذى أصبح منذ ذلك اليوم مكان دفن ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين.

وقضى هذا الملك ثلاثين عاما فى حكم البلاد وترك مصر فى خير حالة فقد بسط نفوذه القوى فى الجنوب والشمال وبدأ فى تعمير البلاد بعد أن بدأت تتدفق على طيبة خـــيرات الأمم المختلفة إذ نعرف من مقابر الأفراد الذين عاشـوا فى أيام تحوتمس الأول كيف بدأت مصر تدخل فى عهــــد جديد من الرخاء .

تحوتمس الثانى (١٤٩٥ — ١٤٩٠) :

كان زواج الملك تحوتمس الأول من الأميرة « أحمس » ذات الحق الأول فى الوراثة هو السبب الذى جعل منه ملـكا شرعيا فى أنظار الشعب ، ولـكن شاءت الظروف ألا تـلد له الملـكة أحمس ولدا ذكرا بينما ولد له ذكور من زوجات أخريات . وكان أهم أولاده الذين بقى اسمهم ظاهرا فى التاريخ ابنته حتشپسوت بنت الملـكة أحمس ، وكانت قوية الشكيمه ورثت الصفات القوية فى نساء هذه العائلة كما ورثت حب المجالدة من أبيهـا ، ثم أكبر أبنائه الذين عاشوا وكان يسمى « تحوتمس » مثل أبيه وقد ولد له من زوجة اسمها « موت نفرت » .وتزوج تحوتمس هذا من أخته حتشپسوت وبدأ حكمه كغيره من الملوك.

ولـكن منذ البداية دب الخـــلاف بين الإثنين فإن تحوتمس الثانى كان ضعيف الصحة غير طموح بينما كانت حتشپسوت فتاة طامحة تملأ رأسها فـكرة الإستئثار بالملك، ولهذا اضطربت الأمور وانقسم موظفو القصر وربما موظفو الدولة أيضاً إلى حزبين وبدأت المؤامرات الداخلية تفعل فعلهـا فى البلاد . وكان من أثر هذا الخلاف أن قامت ثورة فى شمال السودان وقسم بعض أمراء البلاد الأصليين بلاد كوش بينهم فأرسل الملك جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه ،وكان الملك تحوتمس فى أسوان عندما عاد جيشه منتصراً من الجنوب . ومن المحتمل أن تـكون ثورة أخرى قامت فى سوريا ، ومن المحتمل أيضاً أن تـكون بعض القبائل البـدوية فى شرق مصر انتهزت هذه الفرصـة

وأخذت تقطع الطرق على القوافل فأدبها جيش فرعون . وبالرغم من ذلك كله فقد أظهر هذا الملك شيئاً من الإهتمام بالبناء فقد عثر على آثار له فى طيبة وعند الشلال الثانى كما جاء ذكر اسمه فى نقوش كثيرة وبخاصة فى مقابر الموظفين الذين عاشوا فى أيامه .

ومدة حكم هذا الملك فيها شيء من الخلاف لأن مانيتون ذكر أنه حكم عشرين عاما وذكر بعض رجال الآثار أنه رأى أثراً فى المتحف المصرى مؤرخا فى العام الثامن عشر ، ولكن هذا الأثر مفقود الآن ولا نعرف مكانا له حتى يمكن التأكد من هذا التاريخ لأن ظواهر الأمور وما وصل إلى يدنا من آثار تجعل هذا الحكم الطويل أمراً مستحيلا ، ولا يمكن أن يكون قد زاد حكمه عن خمس سنوات . وبموت الملك تحوتمس الثانى بدأت فترة صراع شديدة ، صراع قوى جبار بين حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث الذى كان من خيرة ملوك مصر إن لم يكن أعظمهم جميعا .

النزاع بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث :

نعرف من لوحة « إنينى » المهندس المعمارى الذى عاصر أكثر ملوك هذه الأسرة أنه بعد موت تحوتمس الثانى تولى تحوتمس الثالث الملك ، ولكننا نقرأ فى النص ذاته أن أخته (أى أخت تحوتمس الثانى) كانت هى التى تدبر أمور البلاد وأن مصر « كانت مطأطئة الرأس وهى تعمل لها وكانت هى صاحبه الأمر لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة » .

وكان أكثر الأثريين إهتماما بهذه الفترة من تاريخ مصر هو برستد وقد نشر آراءه فى كتابه عن تاريخ المصريين القدماء ولكن جاء بعد ذلك العالم الألمانى كورت زيته [1] فكتب عن هذا الموضوع وعارض آراء برستد ،

---

(١) كتب زيته أول أبحاثه فى عام ١٨٩٦ تحت عنوان KURT SETHE, *Die Thronwirren unter den nachfolgern konigs Thoutmosis. 1, Untersuchungen I; P. 1 - 58*

ثم كتب ثانية للرد على ناقديه واستعان بمصادر أثرية جديدة *Das Hatshepsut - problem noch einmal untersucht* (*Abhandlungen - Preuss. - Akad. d. Wissenschaften, Berlin* 1932.

وظلت آراء زيته مصدراً تاريخيا هاما لهذه الفترة من تاريخ مصر حتى طلع إدجرتون [1] ببحث له وعدل فى بعض آراء زيتـه وأصبح ترتيبه هو المقبول ما يقرب من عشرين عاما أى إلى أعوام قليلة مضت . وتتلخص آراء إدجرتون فيما يأتى :

١ ــ أراد تحوتمس الثانى أثناء حياته أن يعلن لابنه تحوتمس الثالث حق تولى العرش من بعده فدبر لذلك موضوع اختياره بواسطة الإله أمون رع فى أحد أيام الأعياد عندما كان تحوتمس هذا يعيش فى المعبد كأحد كهنته .

٢ ــ بعد وفاة تحوتمس الثانى ، تزوج تحوتمس الثالث من حتشپسوت الملكة الشرعية وصاحبة الحق فى الوراثة ليكون جلوسه على العرش شرعياً ، ومنذ اللحظة الأولى لم تكن زوجة فقط بل كانت شريكة فى الملك .

٣ ــ كانت حتشپسوت امرأة طموحة كما أسلفنا وكانت صاحبة الرأى طيلة أيام تحوتمس الثانى فأصبحت لها السلطة الكاملة فى بدء حكم تحوتمس الثالث الذى كان أصغر سنا ودونها فى المرتبة الإجتماعية لأن أمه لم تكن إلا زوجة ثانوية .

ولكن آراء إدجرتون أصبحت بدورها فى حاجة إلى تعديل والمأخوذ به الآن حسب آخر الأبحاث هو [2] :

١ ــ تحوتمس الثالث ابن لتحوتمس الثانى وليس أخا له .

٢ ــ تزوج تحوتمس الثالث من أميرة اسمها حتشپسوت صارت زوجته الأولى ، وهى ليست حتشپسوت الكبرى وإنما هى إبنة لها .

---

(١) EDGERTON, *The Thutmosid Succession (Studies in Ancient Oriental Civilization : Publications of the Chicago Oriental Institute).*

(٢) JOHN WILSON *The Burden of Egypt*, (1951) p. 174.

وفى الترجمة العربية لكتابه « الحضارة المصرية » القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨

وإن فى إعتبار تحوتمس الثالث إبنا لتحوتمس الثانى ليس إلا رجوعا إلى رأى زيته أما عن زواجه بابنة حتشپسوت التى سميت باسم أمها فهو أمر ثانوى والحجة عليه ضعيفه ولا تغـــير فى صلب الموضوع شيئاً ذا أهمية . فقد كانت حتشپسوت الكبرى صاحبة الأمر فى البلاد منذ أواخر أيام أبيها تحوتمس الأول حتى موتها ، وربما اضطرتها التقاليد إلى الزواج من ابن زوجها وابن أخيها عندما مات أبوه وأشركته فى العرش ثم تزوج بعد موتها من ابنتها « مريت رع حتشپسوت » .

ومنذ البداية أخذت حتشپسوت مقاليد الأمور كلها فى يدها وجعلت من أخيها الصغير الجالس على العرش شبه خيال أمام الناس وكانت تكتب اسمه مع أسمها فى البداية ولكن لم تمض سنوات حتى أصبح لها الأمر المطلق ولم يعد لتحوتمس الثالث أى ذكر فى الحكم ، كما بدأت حتشپسوت ترسم نفسها فى المعابد وهى ترتدى زى الرجال وتستخدم ضمير المذكر فى النصوص ، وكان هذا كله لكى توهم الناس أن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بوجود امرأة على العرش .

واصطفت حتشپسوت بعض الموظفين ، وكان أكثرهم حظوة لديها المهندس سنموت الذى قام ببناء معبد الدير البحرى لها ، وكان يشرف على تربية ابنتها الأميرة « نفرو - رع » التى أعلنتها خليفة لها فى الملك ولكنها ماتت وهى صغيرة .

ونرى على جدران معبد الدير البحرى وفى مبانى معبد الكرنك قصة حياة هذه المرأة الجبارة فقد ادعت أنها ليست من صلب أبيها وإنما هى إبنة للإله أمون رع الذى اختار الملكة أحمس لتكون أما لابنة له تحكم مصر . ورسمت مناظر هذه القصة على أحد الجدران فى المعبد ، وقصت على جدار آخر قصة طويلة تتلخص فى أن أباها تحوتمس الأول بايعها بالملك فى حياته عندما كانت فتاة شابة ، وأن الكهنة ، وكبار الدولة وافقوا على ذلك ، أى أن كلا من تحوتمس

الثانى والثالث كانا متغتصبن لحقها ، ومن أجمل وأهم نقوش هذا المعبد العظيم ذى الموقع الممتاز مناظر الرحله البحرية التى أرسلتها إلى بلاد بونت لتحضر البخور وغيره من خيرات البلاد إلى مصر ولتنقل بعض أشجاره لزرعها فى حديقة معبدها . ونقوش الدير البحرى لها أهمية كبرى لدراسة موضوع بلاد بونت التى بدأت تظهر فى كتابات المصريين منذ أيام الأسرة الخامسة وكان لها مركز خاص فى دياناتهم ومكانها حول بوغاز باب المندب على الناحيتين أى تشمل الصومال وجنوبى بلاد العرب كما ذكرنا من قبل . أما أعمال حتشپسوت فى الكرنك فكثيرة وأهمها المسلتان العظيمتان والصالة التى كانت خلفهما ومعبد من الجرانيت عثر على أكثر أحجاره فى صرح الملك أمنحوتپ الثالث بعد أن هدمه تحوتمس الثالث . ولم تقم حتشپسوت بأى حملات حربية اللهم إلا فى الجنوب[1] ، واعتنت ببناء ما كان مخرباً من آثار البلاد وبخاصة ما هدمه الهكسوس كما نقرأ على واجهة هيكلها المسمى اصطبل عنتر فى بنى حسن .

ولاجدال فى أنها كانت سيدة قديرة حكمت مصر بحزم ولكن موقفها من زوجها ثم من ابن زوجها وأخيها جعل من الشاب الصغير عدواً لها فلما اشتد ساعده ، ووجـــد من الأعوان من يساعده على تحقيق أمنيته ضرب ضربته واستعاد حقه . ولسنا نعرف حتى الآن كيف انتهت حياة حتشپسوت ولكننا لا يخامرنا أى شك فى أنها كانت نهايه محزنة فإنه لم يعثر على جثتها فى مقبرة من مقبرتيها فى طيبة ولا فى خبيئة الدير البحرى كما نعلم أيضاً أن تحوتمس الثالث أزال اسمها من كل أثر وحطم مقابر أصفيائها وأسمائهم وعلى الأخص سنموت الذى بنى لنفسه قبرا فى علوة الشيخ عبد القرنة ثم قبرا آخر على مقربة من الدير البحرى ، ولكن حتشپسوت غضبت عليه قبل موتها وصب تحوتمس الثالث جام غضبه

---

(١) أنظر ما كتبه أخيراً لبيب حبشى :

LABIB HABACHI, *Two Graffiti at Sehél from the reign of Queen Hatshepsut*, *Journal of Near Eastern Studies* Vol. XVI, April 1957, p. 88 ff.

على كل ما أقامته لخطم تماثيلها وكان العمال يوقدون النار حول تلك التماثيل ويصبون عليها الماء فتتناثر أجزاؤها إلى آلاف القطع الصغيرة، ثم رموها كلها في محجر قديم أمام الدير البحرى حيث عثرت عليها بعثة متحف المتروبوليتان وأمكن جمع قطع بعض هذه التماثيل وترميمها ، ويوجد بعض هذه التماثيل الآن فى متحف القاهرة والبعض الآخر فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

وهكذا انتهى حكم حتشپسوت بتلك الفاجعة بعد أن حكمت وحدها ثمانية عشر عاما . فقد مات تحوتمس الثانى فى عام ١٤٩٠ وحكم تحوتمس الثالث بالاشتراك مع حتشپسوت مدى أربع سنوات ثم قبضت حتشپسوت على السلطة فى عام ١٤٨٦ واستمرت حتى عام ١٤٦٨ ، ولكن تحوتمس الثالث لم يعترف بهذا وظل بعد القضاء عليها يؤرخ أيام حكمه منذ كان صبيا بعد وفاة أبيه فى عام ١٤٩٠ . وطالت سنوات جلوسه على العرش حتى مات بعد أن حكم ٥٤ سنة فى عام ١٤٣٦ .

ولسنا نعرف إذا كان وجود امرأة على عرش مصر كان السبب فى انتقاض الجنوب وبدء الثورة فى سوريا على حكم مصر ، أو أن ماعساه أن يكون قد قام من حرب أهلية وانقسام البلاد كان هو السبب فى ذلك ، على أى حال فان الموقف فى كل من السودان وسوريا وجد فى الملك الشاب خير كفء له ولم يكد تحوتمس ينفرد بالحكم حتى سار بنفسه لتوطيد ملكه .

تحوتمس الثالث : (١٤٩٠ – ١٤٣٦)[1]

لم يكد تحوتمس الثالث ينتهى من القضاء على أخته حتشپسوت ومن كان يواليها ، حتى بدأ يجهز نفسه لتوطيد ملكه فى آسيا لأن النفوذ المصرى كان قد بدأ يتدهور فى سوريا وبدأ بعض الزعماء فى الاستقلال بولاياتهم عندما رأوا بأعينهم الانقسام الداخلى فى مصر .

(١) في رأى إدوارد ماير ومن تبعه من العلماء تقع أعوام حكم تحوتمس الثالث بين ١٥٠٢ ، ١٤٤٨ ولكن جعل بداية حكمه فى ١٤٩٠ أقرب إلى الصواب .

ولنحن نعرف تفاصيل الحملة الأولى مما جاء على جدران معبد الكرنك فإن تحوتمس الثالث كان يصطحب معه فى حملاته كتابا يؤرخون كل ما يحدث، ونرى فى ذلك أول اتجاه، أو بعبارة أخرى أول تقليد، لعمل تقارير حربية مفصلة نستطيع أن نقارنها بتقارير المعارك الحربيه الحديثة، وكان الأصل مكتوبا على ملفات البردى ونقلوا بعض مقتطفات منها على جدران الكرنك.

ونقرأ فى أخبار هذه الحملة أنها كانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه أى فى السنة الأولى من انفراده بالحكم وأنه غادر حصن ثارو (على مقربة من القنطرة) فى طريقه إلى فلسطين فوصل إلى غزة بعد تسعة أيام، وهذا سير سريع لجيش يقطع الصحراء ولم تكن لديه وسائل النقل الميكانيكية، إذ أن هذه المسافة تزيد على ٢٨٠ كيلو مترا. ولم يضع تحوتمس وقته لأنه كان يعلم أن الذين شقوا عصا الطاعة جمعوا جموعهم عند مدينة مجدو (تل المتسلم - على الحافة الجنوبية لسهل جزريل (التى ذكرتها التوراة تحت اسم Esdraelon jezreel - وفى الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل) وكان هذا الإتحاد تحت رئاسة أمير قادش، فلما تقدمت الجموع إلى مجدو اعتبر تحوتمس الثالث أن هذا اعتداء عليه وعلى حدوده ولهذا هب للدفاع عنها.

ترك الجيش غزة ووصل بعد ذلك بسلام إلى بلد يقال له «يحم Yehem» بعد مسيرة أحد عشر يوما لم يلق فيها الجيش أى مقاومة. وفى هذا البلد علم من رجال مخابراته أن الأعداء جمعوا جموعهم فى مجدو وكانت هذه الجموع مؤلفة من رجال ثلاثمائة وثلاثين زعيما من زعماء سوريا وفلسطين. وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق اثنان منها يدوران حول سفح جبال الكرمل والثالث طريق مباشر صعب المرتقى ولكنه يوصل رأسا إلى مجدو. عقد القائد الشاب مجلسه الحربى فكانت نصيحة قواده له أنه ليس من الحكمة أن يخاطر بسلامة الجيش وحذروه من اتخاذ طريق الجبال الذى يبدأ من مكان يسمى «عرونا» وقالوا له بأنه لا يأمن أحد على سلامة الجيش فى ممر ضيق لا يتسع إلا لمسير

عربة واحدة ولكن تحوتمس صمم على رأيه وقال إنه لا بد من مفاجأة العدو من هذا الطريق وأصدر أمره إلى الجيش ليستعد للتحرك فى فجر اليوم التالى حيث وصلوا فى آخر اليوم إلى مدخل الممر . وفى صباح اليوم التالى أقسم تحوتمس أن يكون فى طليعة جيشه وأن يسير على قدميه فلما انتهى من اجتيازه أراد الزحف مباشرة إلى مجدو ، ولكن ضباطه ألحوا فى الرجاء أن ينتظر هناك حتى يتم تجمع الجيش ،وقدتم ذلك بعد سبع ساعات. وعسكر المصريون عند مدخل« وادى قينا Kina »وفى فجر اليوم التالى هجم الجيش المصرى على شكل نصف دائرة على مجدو ، ولم يلبث المدافعون عنها أن ولوا عند بدء الهجوم تاركين معسكرهم بمافيه وكان كل همهم أن يدخلوا المدينة المحصنة ،ولكن الذين كانوا داخلها أغلقوا الأبواب وأخذوا يساعدون رجالهم بجذبهم إلى أعلى الأسوار وذلك بعمل حبال من ملابسهم . ويذكر لنا النص المصرى بأنه لولا أن الجنود المصريين شغلوا أنفسهم بنهب المعسكر لأمكنهم الإستيلاء على المدينة ، وقد كلفتهم هذه الغلطة أنهم ظلوا سبعة شهور فى حصارها حتى استسلمت استسلاما تاما ، وقدم جميع من كان فيها من الزعماء ولاءهم وخضوعهم، ولكن زعيم قادش كان قد فر بعد المعركه . وبعد الإستيلاء على مجدو اتجه تحوتمس شمالا مستوليا على البلاد كلها بغير عناء ولم يذكر إلا أسماء ثلاثة من المدن ربما حاولت ألا تفعل ما فعلته الأخرى فاضطر لتأديبها [1] .

وإذا نظرنا إلى بيان الغنائم التى وقعت فى أيدى المصريين لهالنا ثراء تلك البلاد . فكثيراً ما جاء ذكر العربات الحربية المصفحة بالذهب والفضة وكذلك الأوانى الذهبية والأسلحة ، وقد ذكر تحوتمس أيضاً سبعة قضبان

---

(١) هذه البلاد الثلاثة هى « ينعم » (وتقع على بعد ٩ كيلو مترات من طبرية) و « نجاسا » (وهى مدينة نوخاشش وكانت قريبة من حلب) أما الثالثة فاسمها «حرنكر» لم يعرف مكانها على وجه الدقة .

من نوع ثمين من الخشب اسمه « مرو » كانت مصفحة بالفضـــة لتحمل سرادق العدو .

كانت حملته على مجدو فاتحة لحملات أخرى بلغ عددها جميعاً ستة عشر حملة كان يقوم بها عند إقبال الصيف ويرجع إلى مصر فى أوائل الشتاء فيقضى وقته فى إصلاح حالة البلاد أو الإشراف على تنفيذ ما كان يأمر به من معابد أو مبانى . وقد رأى تحوتمس فى حملاته التى تلت الحملة الأولى ضرورة اعداد بعض الموانى السورية لتكون قواعداً للأسطول المصرى إذ أنه فى الحملات الخمسة الأولى كان يتقدم ويستولى فى كل حملة على بعض بقاع جديدة ولكن كان دون وصوله إلى بلاد الفرات عقبة كؤود وهى الاستيلاء على مدينة قادش الحصينة التى كانت مركز المقاومة للنفوذ المصرى ،والتى كان يتزعمها ويتزعم غيرها أميرها الذى كان على رأس المتحالفين فى أول حملات تحوتمس . فلما انتهى تحوتمس من إعداد كل شىء وضمن تعاون الأسطول مع الجيش البرى سواء فى النقل أو فى التموين هاجم قادش واستولى عليها فى حملته السادسة التى كانت فى العام الحادى والثلاثين من حكمه .وفى حملته الثامنة وصل إلى الفرات واستولى على مدينة قرقميش ، وقد أقام على ضفة الفرات إلى جانب لوحة جده لوحة أخرى ، وقد فقدت كلاهما ولم يعثر عليهما حتى الآن .

ونعرف من سياق قصة حربه أنه كان قد أعد لعبور الفرات سفنا حملت أجزاؤها على عربات.صنعت هذه السفن فى جبيل ونقلت إلى قرقميش وأدى استخدامها إلى فتح أقاليم الفرات أمام الجيش المصرى. وبدأت مملكة « ميتانى » تحس بحاجتها إلى صداقة مصر فقدمت ولاءها وهداياها وكذلك فعلت مملكة أخرى آريه وهى مملكة « خيتا » فى آسيا الصغرى التى بدأت منذ أيام تحوتمس الثالث تظهر فى صفحات التاريخ ، وكان أول هذا الظهور هو تقديمها الهدايا الثمينة مع رسول خاص لطلب صداقة ملك مصر . وكذلك فعلت ممالك أشور وبابل وأصبحت مصر منذ هذه الحملة صاحبة النفوذ فى غرب آسيا ، كما أصبحت

جميع ثغور فلسطين وسوريا ،وجزر البحر الأبيض المتوسط داخله تحت نفوذ مصر بفضل أسطولها القوى .

واستمرت حملات تحوتمس بعد ذلك إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة فى العام الثانى والأربعين من حكمه وكانت مدينة قادش أعلنت العصيان مرة أخرى يؤازرها ملك ميتانى ، وانضمت إليها مدينة « تونيب » التى كانت غير بعيدة من مدينة حماه الحالية . وبسقوط مدينة قادش وتحطيمها المرة الثانية قضى على كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى فى تلك الأصقاع .

قضى تحوتمس الثالث بعد هذه الحملة إثنى عشر عاما على العرش لم يحدث خلالها ما يجعله يسير إلى آسيا فان البلاد كلها دانت له ، وكانت ترسل هداياها وما قرره عليها من جزية كل عام إلى طيبة، وكان الحكام المصريون فى جميع هذه البلاد ينفذون أمر الجالس على عرش طيبة الذى امتدت رقعة ملكه من الفرات فى الشمال إلى نباتا فى الجنوب أى كان طول امبراطوريته نحو ٣٢٠٠ كيلو مترا .

شخصية تحوتمس الثالث :

إشتهر اسم تحوتمس الثالث كقائد حربى من الطراز الأول . رأيناه يضع الخطط وينفذها ويلجأ إلى أساليب جديدة فى فن القتال كما رأيناه أيضاً يتحلى بشجاعة نادرة ، ولم يكن يتطلب من أحد من جنوده أن يفعل أمراً لا يستطيع هو بنفسه أن يفعله ، ويكفى موقفه يوم عقد مجلسه الحربى فى « يحم » ويوم تقدم الجيش على قدميه فى ممر « عرونا » لنعرف أنه كان جنديا ممتاز الصفات فى كل شىء .

ولكننا نعرف من الوثائق الأخرى أن ميزاته الحربية لم تكن إلا إحدى نواحي عظمته ،فقد حكم امبراطوريته الواسعة بالحزم واللين وكان يعرف كل

ما يحدث فى أرجائها وكان كما قال عنه وزيره « رخ - مى - رع » كالصقر يرى كل شيء .

ادرك تحوتمس أنه لن يستطيع الإبقاء على امبراطوريته إذا لم تقم على أساس المودة ، ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه بل قربهم وثبتهم فى وظائفهم وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة ، ولكنه رأى ان يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه ومع أبناء كبار الرجال ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين .

وكانت رحلات تحوتمس الثالث إلى بلاد سوريا غير مطبوعة بالطابع الحربى فقط بل إنها كانت مطبوعة أيضاً بطابع آخر . فقد أصدر تحوتمس أمره إلى رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحا من حيوان أو فواكه أو زراعات ، ونرى صورا لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات على جدران إحدى القاعات التى بناها فى معبد الكرنك ، صوروا على جدرانها كل ما أمر بإحضاره إلى مصر ، ونعرف انه كان من ضمن ما أدخلوه إلى مصر فى ذلك الحين الدجاج والرمان .

وليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى أن بعض مظاهر الفن والحضارة السورية والعراقية بدأت تظهر فى البلاد ، وبدأ كثير من الأسيويين يستقرون فى وادى النيل وكانت لهم الحرية التامة فى ان يعيشوا كما كانوا يعيشون فى بلادهم ويعبدوا آلهتهم الأسيوية كما يحلو لهم . وكان تحوتمس الثالث يقدر شجاعة رجاله فيغدق على من يميز نفسه على أقرانه جميع أنواع الترقيات والهدايا . فنرى مثلا فى تاريخ حياة أحد ضباطه « من - إم - حب » الذى دونه على جدران مقبرته فى طيبة كيف كان الملك يكافئه فى كل مرة يظهر فيها الشجاعة مثل اليوم الذى أنقذ فيه حياة الملك يوم أن هاجمه أحد الفيلة أثناء صيدها فى سهول الفرات ، ويوم أسعفه ذكاؤه فهجم على الفرس التى اطلقها زعيم قادش

فى الحملة السادسة عشرة لتحدث الاضطراب بين الصفوف فى العربات التى كان يجرها الذكور من الخيل.ولكن « أمن إم حب » هجم على الفرس وقتلها.

وليس هنـــاك ما هو أوقع فى النفس مما فعله لتخليد ذكرى الملك سنوسرت الثالث فى بلاد النوبة والسودان ، فإن سنوسرت الثالث اهتم كثيراً بهذه المنطقة وحصنها ووضع لوحات عند حدودها وأصلح كثيراً فى إدارتها ، فلما نزل تحوتمس إلى تلك البلاد ورأى بعينيه أعمال جده الذى حكم قبله بأكثر من أربعمائة عام لم يسعه إلا أن يأمر بتأليهه وتشييد المعابد باسمه وأمر بأن يرسمه الفنانون وهو يقدم القرابين له باعتباره إلها حاميا للنوبة .

أما نظرة هـــذا الفرعون إلى الحكم وكيف يجب أن يعامل الناس فاننا نقرؤها على جدران مقبرة الوزير « رخ مى رع » وهى وصايا هـذا الملك لوزيره يوم أسند اليه منصب الوزارة ورسم له الطريق الذى يجب أن يسير عليه ، وهى وصايا لم تكن دستوراً صالحا للماضى فقط بل إنها صالحة لكل زمان ومكان وفيها تحليل نفسى للشعب والصلة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم .

كبار رجال ذلك العهد :

كانت أكثر أعوام حكم تحوتمس الثالث سنوات حرب فلهذا كنا نتوقع أن يصبح لقواده العسكريين الذين كانوا دائماً حوله فى حروبه المركز الأول فى البلاد ،وأن تصبح لهم الكلمة الأولى فيها. ولكننا إذا درسنا جيدا حياة رجاله الذين خلفوا آثارا وراءهم نرى أن بعد نظر هذا الحاكم جعله يضعهم فى مكان لا يتعدونه حتى لا يفلت الزمام من يده . ونحن نعرف كثيراً من أسماء ضباطه الذين أبلوا بلاء حسنا فى الحروب والذين حظوا بإنعـــامه وعطفه ،ولكن لانرى واحداً منهم وصل إلى مركز رئيسى كبير بل أن إدارة البلاد المالية والقضائية والدينية بقيت بعيدةعن رجال الجيش ليتفرغوا لبناءالإمبراطوريه ويحافظوا عليها .

كانت طيبة فى أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر الأبيض ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ومعادن أخرى وأحجار كريمة ومصنوعات مختلفة. وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلى فرعون . وكثيراً ما سجل كبار موظفى ذلك العهد هذه المناظر على جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلا جامعا لحضارات بلاد الشرق القديم فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم وحاصلاتها . وقد زال أثر هذه الحضارات فى كثير من بلاد آسيا وجزر البحر الأبيض والسودان وأصبحنا نعتمد على مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب . وأهم المقابر فى طيبة لدراسة الحالة الاجتماعية فى مصر فى ذلك العهد ودراسة حضارات الشعوب الأخرى هى مقابر الوزراء أمثال «أوسر» و «رخ مى رع» وبعض كبار الكهنة مثل مقبرة «منخپر رع سنب»[1] الذى كان الكاهن الأكبر لآمون وبعض كبار رجال الدولة أمثال «پويمرع»[2] و «أمنمحات بن تحوتمس» [3].

---

(١) كان لهذا الكاهن مقبرتان هما رقم ٨٦ ، ١١٢ فى طيبة — ومقبرته الهامة منشورة فى كتاب *Davies, The Tomb of Menkheperasonb, Amenmose and Another.*

(٢) صاحب مقبرة رقم ٣٩ من مقابر طيبة وكانت أهم وظائفه الإشراف على الأعمال الإنشائية وقد نشر المرحوم ديفز مقبرته بما فيها من رسوم .

(٣) كان أمنمحات مدير بيت الوزير أوسر وكان المدبر لجميع أعماله وبخاصة المالية منها — ومقبرته رقمها ٨٩ *Davies & Gardiner, The Tomb of Amenemhat.*

و « أنتف »[1] و « إمونزح »[2] وبعض القواد أمثال « أمن إم حب »[3] و «أمون مس»[4] ولكن أهم الشخصيات جميعا كانت شخصية الوزير «رخ مى رع» ونقوش مقبرته أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر[5] .

السنوات الأخيرة من حياة تحوتمس الثالث :

كانت خيرات العالم القديم تتدفق على خزائن فرعون ، وسرعان ما دبت فى مصر وفى جميع بلاد الشرق حياة جديدة ، كما أخذ شأن طيبة يزداد من يوم إلى يوم . ولم يدخر تحوتمس الثالث جهدا فى تزيينها لتصبح جديرة بأن تكون عاصمة العالم المعروف فبنى فيها المعابد والهياكل وأقام المسلات ، ولم يقتصر نشاطه على الكرنك أو الاقصر أو فى جبانة طيبة بل نرى هذا النشاط شاملا لجميع أرجاء الوادى ففى جبل برقل فى دنقلة أقام المعابد وكذلك على طول النيل فى بلاد النوبة ، وفى جميع البلاد الهامة فى الصعيد وفى الدلتا ، كما نعرف أيضا ان المعابد المصرية بنيت فى كثير من بلاد آسيا وأصبح الإله أمون - رع معبودا فى كافة أنحاء الأمبراطورية .

ولم يذهب تحوتمس الثالث إلى آسيا بعد الحملة السادسة عشرة التى ظل بعدها على العرش إثنى عشر عاما ولم يكن ذلك راجعا إلى فتور همته أو ضعف صحته لتقدمه فى السن ، وإنما كان مرجعه إلى استتباب الأمن والنظام فى كل مكان . إذ نعرف مثلا أنه لم يتردد عن القيام بحملة إلى السودان فى العام الخمسين من

---

(١) مقبرته رقم ١٥٥ ولوحته فى اللوفر . كان أنتف يشغل وظيفة رئيس التشريفات وكان حاكما لإقليم أبيدوس والواحات .

(٢) كان إمونزح من ضمن حكام الأقاليم وكانت دندرة ضمن اختصاصه ولكنه إلى جانب ذلك كان من كبار رجال القضاء .

(٣) مقبرة هذا القائد فى طيبة ورقمها ٨٥ وفيها تاريخ حياته وأعماله التى قربته إلى تحوتمس الثالث .

(٤) مقبرته رقم ٤٢ وهى فى حالة سيئة الآن وكان «أمون - مس» رئيسا للرماة ومقبرته منشورة فى كتاب ديفز عن منخبر رع سنب وأمون - مس وغيره .

(٥) خير مرجع لدراسة هذه المقبرة هو كتاب ديفز *Davies, The Tomb of Rekh-mi- Re at Thebes.*

حكمه وقد قضى هناك أكثر من سبعة شهور فلو كان ممن يحبون الدعة أو الراحة لما سافر بنفسه لإخماد فتنة قامت هناك . لقد ذهب بنفسه ولم يكل ذلك إلى فرد آخر من قواده بالرغم من أنه كان قد قارب السبعين من عمره .

ومن المحتمل أن يكون تحوتمس الثالث قد بدأ حياته الزوجية غير الموفقة مع حتشپسوت كما ذكرنا ، ولكنه تزوج أيضاً من أميرة أخرى اسمها « سات - إعح » فلما كبرت « مريت - رع - حتشپسوت » إبنة الملكة حتشپسوت وأصبحت فى سن الزواج اتخذها زوجة له لأنها كانت الوريثه الشرعية، وأنجب منها ابنه « أمنحتپ » الذى خلفه على العرش . ومات تحوتمس الثالث بعد أن ملأ سمع الدنيا وبصرها وكان ابنه أمنحتپ قد جاوز عامه الثامن عشر وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة وممارسة الرياضة البدنية ، وكان رجاله الذين ولد أكثرهم فى عهده، يقومون ساهرين على أحوال الإمبراطورية ، فلا عجب إذا كان قد مات وهو مطمئن على مستقبل امبراطوريته .

مات تحوتمس بعد حكم أربعة وخمسين عاما فى اليوم الثلاثين من الشهر الثالث من فصل الشتاء وكما ذكر القائد أمون - إم - حب فى مقبرته « صعد إلى السماء واتحد مع الإله رع واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذى خلقها . فلما جاء اليوم الثانى وأشرقت الشمس وأضاءت السماء جلس على عرش أبيه الملك « عاخپرو - رع » (أمنحتپ الثانى) واتخذ لنفسه الألقاب الملكية » ودفنت مصر فى مقبرته فى بيبان الملوك ملكا من أعظم الملوك الذين حكموا فى الأرض ثم التفت حول ابنه الشاب وهى واثقة انه خير من يحمل العبء ويستمر فى تحقيق رسالة أبيه .

أمنحتپ الثانى :

تفتحت عينا الأمير أمنحتپ ليرى مصر وبلاد الشرق القديم تحنى رأسها لأبيه فلما شب عن دور الطفولة لم يكن ليسمع إلا دقات طبول الحرب، ولا شك

أنه متع ناظريه وأذنيه وهو يرى والده العظيم يقود جنوده عاما بعد عام ليعود بعد شهور قليلة وقد حمل جنوده ما قدمته البلاد الأسيوية من جزية أو من هدايا، وليرى أيضا الأمراء العصاة يمشون مكبلين بالأغلال فى مواكب النصر.

كانت مصر فى ماضى أيامها تعيش آمنـــة فى بلادها لا تهتم إلا بأمورها وتأمين طرق تجارتها مع غيرها من البلاد، وإذا كانت قد اهتمت بتوطيد أقدامها فى مكان خارج حدودها فانها لم تهتم إلا بالجنوب كما حدث فى الأسرة الثانية عشرة. ولكن تعرضها للمذلة أثناء غزو الهكسوس جعلها تفكر فى الانتقام لكرامتها، وأرادت أن تبعد الخطر عن حدودها الشرقية وتستأصل كل مكامن الشر حتى تطمئن على نفسها، وكان أول من نفذ هذه السياسة على نطاق واسع هو تحوتمس الأول.

ولكن حتشبسوت كانت على غير رأى أبيها فلم تهتم على الإطلاق بآسيا بل أرادت أن تحيى السياسة القديمة وهى الاقتصار على العلاقات التجارية وبخاصة مع الجنوب فأرسلت حملتها الشهيرة إلى بلاد بونت، واهتمت بإصلاح حالة البلاد وترميم ماتهدم من معابدها وبخاصة أثناء حكم الهكسوس، وأقامت المبانى الفخمة فى طيبة وضنت بموارد البلاد أن تذهب فى حروب فى آسيا لم تكن تؤمن بها أو بنتائجها.

ولكن هذا الاتجاه السلبى نحو إحياء التجارة، والاتجاه نحو الجنوب بدأ يحدث رد فعل جديد، وأخذت بعض الولايات الأسيوية تتخلص من النفوذ المصرى، ورأى بعض المصريين ومنهم الكهنة، الذين كانوا يشجعون الحرب للإستفادة من المغانم، أن الخطر بدأ يظهر مرة أخرى، ثم جاءت الضربة التى ضربها الحزب المناوىء لحتشبسوت وتولى تحوتمس الثالث عرش البلاد.

فلما جاء اليوم الذى تولى فيه أمنحتب الثانى عرش أبيه لم يتردد فى اتباع خطواته ولم يظهر ميلا نحو الدعة أو المسالمة، بل أسرع ليظهر بطولته،

وهكذا ماتت سياسة السلم وترك آسيا وشأنها بموت حتشپسوت ، ولم يقدر لها أن تظهر من جديد ، ولو فى صورة أخرى ولأسباب أخرى ، إلا فى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة فى عهد إخناتون .

ولندع الآن الحديث عن ذلك ونعاود سرد قصتنا عندما بدأ أمنحتپ الثانى حكمه وهو فى ميعة الشباب فوضع التاج المزدوج فوق رأسه وقبلته البلاد ملكا مؤلهـا تدين له إمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم .

كانت الأيام كلها أيام فتوح وحرب وكان حديث الشعب كله هو ما يرويه الجنود العائدون من القتال من قصص وأخبار، وكلهم يريد أن يضفى على نفسه هالة من البطولة صادقة كانت أو كاذبة . وكان الشعب يحب ذلك كله إذ كان يرى أثر هذه الحروب فى الرخاء الذى أخذ يغمر البلاد وفى النهضة التى شملت كل مرافقها . وأدرك تحوتمس الثالث أنه لا بقاء لهذا الملك الواسع العريض إلا إذا خلفه على العرش ملك قوى الشكيمة محب للحرب ولهذا أسلم ابنه منذ صغره إلى أحد ضباطه ليشرف على تربيته التربية العسكرية اللازمة ونحن نرى الأمير الصغير الذى لم يكن قد بلغ الحلم مرسوما فى قبر مربيه فى طيبة وقد أخذ يتلقى عنه درسا فى الرماية [1] ويستمع إلى معلمه وهو يقول :

« شـد القوس حتى أذنك مستعملا كل ما فى ذراعيك من قوة وثبت السهم . . . يا أمير أمنحتپ » .

وأنشأ تحوتمس الثالث مدرسة فى قصره فى طيبة ليتعلم فيها ولى عهده ومعه كثيرون من أبناء ضباط أبيه وكبار رجال البلاد وأبنـاء أمراء آسيـا الذين يقاربونه فى السن ليشبوا جميعا وقد ارتبطوا برباط الصداقة معه لكى يخدموه

(١) قبر «مين» رقم ١٠٩ فى طيبه وهو أحد الضباط الذين حاربوا مع تحوتمس فى صدر أيامه وأصبح بعد ذلك حاكما لمدينة « ثنى » على مقربة من أبيدوس .

فى مستقبل أيامه خدمة الصديق للصديق وهى خير وأجدى من خدمة العبد للسيد .

ولسنا نشك فى أن تحوتمس الثالث ، وكان قد أصبح شيخا متقدما فى السن ، كان راضى النفس وهو يرى ولى عهده يشب صحيح الجسم مغرما إلى أبعد حد بجميع أنواع الرياضة من رمى بالسهام، إلى براعة فائقة فى التجديف، وفى الجرى، ونعرف من لوحته التى عثر عليها فى عام ١٩٣٦ بجوار « أبو الهول » فى الجيزة وتصف حبه الرياضة والفروسية أنه عندما أبلغوا أباه غرامه بالجياد وأظهروا الملك شفقتهم على الأمير سر الملك سروراً كبيراً من ذلك لأن الإله وضع فى قلبه حب الفروسية وأنساه شهوة الجسد لأن الإله قد أراد أن يكون حامياً لمصر[1] .

وعاش تحوتمس الثالث حتى أتم ابنه العام الثامن عشر من حياته فلما تربع على العرش وجد حوله رجال أبيه الذين ساعدوه فى إنشاء وإدارة الأمبراطورية كما وجد الخزائن ملأى، والبلاد آمنة، ولكن لم يلبث حتى وصل إلى سمعه أن بعض الولايات السورية الشمالية انتهزت فرصة موت تحوتمس الثالث وأرادت التخلص من الحكم المصرى فعز ذلك على الملك الشاب وعده استخفافا به . واندفع نحو سوريا على رأس جيشه بكل ما فى الشباب اليافع من اندفاع ، فهزم كل من لم يقدم له الولاء ، وكان انتقامه شديداً وأتى بما لم يأت به أحد أجداده من قبل إذ مال إلى التنكيل بأعدائه، وأحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة وقد قتل ستة منهم أمام الإله أمون فى طيبة أما السابع فقد أرسله إلى نباتا ليشنق هناك أمام أمون سيد جبل برقل .

---

(١) اكتشفها الأستاذ سليم حسن فى عام ١٩٣٦ ونشرها فى مجلة *Annales du Service* XXXVII, p. 129-134 - وقد ترجمها بعد ذلك كل من الأثريين فارى وفان دى والـ على حدة، كما ترجمها الأستاذ سليم حسن مرة أخرى إلى اللغة العربية فى كتابه مصر القديمة جـ ٤ ص ـ ٦٤٦ ـ ٤٨ (القاهرة ١٩٤٨) .

وكان لهذا العمل أثره فسرعان ما عرفت آسيا أن الجالس على عرش مصر قادر على الإحتفاظ بهيبته ، ولهذا أخذت جميع المدن ترسل هداياها وتبعث بخيرات بلادها وكان فى مقدمة هـــذه البلاد مملـكة ميتانى نفسها التى شجعت العصيان ومدينة قادش التى لعبت دورا رئيسياً فيه .

كانت هذة الحملة أولى حملاته على آسيا وقد أتبعهـا بحملة أخرى فى السنة التاسـعة ، ولـكنها كانت حملة تفتيشية أكثر منها حملة حربية لأن الثورة التى قيل عنها أنها قامت فى فلسطين لم تـكن إلا فتنة صغيرة محلية فى إحدى المدن . ويقص أمنحتب الثانى أخبار هاتين الحملتين على لوحتيه الشهيرتين وإحداهما فى الـكرنك منذ وقت طويل وعثر على الثانية فى عام ١٩٤١ فى منف [١] إذ أمر الملك بإذاعة إنتصاراته على هاتين اللوحتين فى أكبر معابد مصر وهما معبدا بتاح فى منف وأمون رع فى طيبة [٢] ، وقص فيهما الـكثير مـن حوادث بطولته الشخصية وجرأته وقوته البدنية . وآثاره غير قليلة فقد زاد كثيراً فى معبد الـكرنك وفى منف وكذلك فى كثير من بلاد النوبة والسودان ومن بين هذه الآثار تمثـال راكع وفى يديه إناءان كان فى معبد له فى جهة النجعة على مقربة من شندى على مسافة تقل عن سبعين ميلا شمال الخرطوم، أى أن أمنحتب زاد فى الإتجاه نحو الجنوب ومن المحتمل أن يكون قد وصل النفوذ المصرى إلى أبعد من ذلك ، ولـكن ليس لدينا حتى الآن آثار من هذه الأسرة عثر عليها جنوبى الخرطوم .

---

(١) اللوحة الأولى عثر عليها فى الـكرنك منذ وقت بعيد وقد نشرها ــ LEGRAIN, *Annales du Service*, IV (1903), p. 126 ff.

أما الثانية فقد نشرها مكتشفها AHMED BADAWI, *Annales du Service* XLII, p.1. ff.

أنظر أيضاً كتابه موكب الشمس الجزء الثانى صفحة ٥١٨ وما تلاها .

(٢) أمر أمنحتب الثانى بتحديد ملـكه فى الشمال والجنوب وأوفد أحـد رجاله فى السنة الرابعة من حكمه فوضع لوحة على الضفة اليمنى للفرات بجوار لوحات أبيه وجده الأكبر ووضع الثانية فى الجنوب فى معبد نباتا .

وقد أحاط أمنحتپ الثانى نفسه برجال جدد بل يكاد يكون من المؤكد أنه لم يرض عن كثيرين ممن كانوا فى خدمة أبيه ، وقرب إليه شبانا وخاصة ممن كانوا رفقاءه فى طفولته . وفى جبانة طيبة نرى مقابر هؤلاء الموظفين ومن أهمها مقبرة «قن أمون» الذى كان يتمتع بنفوذ كبير ورسمت على جدرانها الهدايا التى كانت قدمت الملك فى عيد السنة الجديدة ، ومقبرة «وسرحات» ومقبرة «پاسر» وغيرها وكذلك مقبرة «أمون إم أپت» الذى حل محل الوزير «رخ مى رع» ، وجدران هذه المقابر مغطاة بمناظر تكمل مناظر مقابر عهد تحوتمس الثالث فى دراسة الحياة الاجتماعية لبلاد آسيا وغيرها ، إذ ظل تمثيل تقديم الهدايا والجزية كما كان فى عهد أبيه وزاد عليها الميل لتصوير مناظر الصناعات المختلفة والحفلات المنزلية بما فيها من بذخ وتوفير السرور .

وهناك شيء من الخلاف بين الأثريين فيمن كانت زوجته الملكية وأكبر الظن أنها كانت أخته من أبيه الملكة «تاعا» التى أصبحت فيما بعد أما للملك تحوتمس الرابع الذى خلفه على العرش .

وكان للفرعون أمنحتپ الثانى خمسة أولاد من الذكور أسلمهم إلى مرب اسمه «حقر نحح» رسمهم جالسين على ركبتيه فى قبره فى طيبة ولكن أسماءهم - ما عدا اسم الأمير تحوتمس - قد محيت عمدا فيما بعد بسبب الخلاف الذى دب فى العائلة بعد موت والدهم ، بعد أن قضى ستة وعشرين عاما فى الملك ودفن فى قبره الذى أعده فى وادى الملوك .

تحوتمس الرابع :

لم يكن تحوتمس الرابع ولى العهد الشرعى وإنما تولى العرش عقب نزاع بينه وبين غيره من أخوته ، وإذا كانت آثار هذا الملك لا تتحدث صراحة عن ذلك فان اللوحة الشهيرة باسم «لوحة الحلم» ، وهى التى أقامها بين ذراعى «أبو الهول» فى الجيزة ، تحمل فى ثناياها أنه لم يكن هو الأمير

صاحب الحق فى الملك . فإن تحوتمس الرابع قد أقام هذه اللوحة فى العام الأول من حكمه ويقص علينا فيها أنه كان يصطاد يوما من الأيام فى صحراء الأهرام عندما كان أميراً وجلس فى ظل تمثال «حورختى (أى تمثال أبو الهول) وغلبه النعاس فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكا فى المستقبل وسيضع التاج على جبينه ويطلب منه إذا تحقق ذلك أن يرفع الرمال التى تجمعت حوله لانها تكاد تخنقه ولا يستطيع التنفس . ويقول تحوتمس إن هذه النبوءة الإلهية تحققت وأنه أمر برفع الرمال .

ولو أمعنا النظر فى هذه القصة لرأينا فيها محاولة لتبرير وجوده على العرش إذ لو كان الأمير الشرعى لما كان هناك داع لهذه القصة المخترعة . كما أننا نعرف فى الوقت ذاته من مقبرة المشرف على تربيته أن نزاعا ما حدث بين الأمراء فمحيت أسماؤهم ما عدا تحوتمس الذى أصبح فيما بعد ملكا على البلاد . وربما كانت مؤامرته لإبعاد أخيه صاحب الحق قد أغضبت كهنة أمون الذين لم يقروه على ما فعله فحدثت بينه وبينهم جفوة جعلته يتجه نحو كهنة الشمس ويبذل كل ما استطاع لإحياء عبادة رع وحورختى ، بل إننا نجد أيضا انه شجع عبادة قرص الشمس « أتون » وكان أول من أمر برسمه وهو يعطى الحياة كما نرى ذلك فيما بعد فى عهد حفيده إخناتون .

ومهما كان الأمر فإن تحوتمس الرابع أثبت جدارته ، فما كاد يجلس على العرش حتى بدأت بعض المدن السورية فى الثورة فذهب إليهم على رأس جيشه وأعاد النظام ، ورجع محملا بالغنائم وأحضر معه أسرى كثيرين بنى لهم حيا خاصا فى طيبة . وكذلك فعل عندما نزل إلى السودان لإطفاء نار ثورة شبت هناك فنزل اليها بنفسه ايضا . وقد استن تحوتمس الرابع سنة جديدة عندما زين مقدمة عربته الحربية بمناظر تمثل ساحة القتال ، فان هذه المناظر التى أصبحت فيما بعد تملأ واجهات المعابد بدأت كما رأينا على مقدمة عربة

الملك ، وهذا المنظر وان صغرت مساحته إلا إن الفنان الذى رسمه راعى فيه جميع التفاصيل وحشر فيه مناظر متعددة روعيت فيها الدقة التامة [1] .

كان تحوتمس الرابع آخر ملوك مصر المحاربين الذين قامت الإمبراطورية على سواعدهم وهو أيضا آخر ملوك هذه العائلة الذين ذهبوا على رأس الجيش إلى آسيا ، وجعل هيبة مصر تحتل المكان الأسمى فى سوريا وفى العراق وفى آسيا الصغرى . كانت هناك ممالك ميتانى وبابل وأشور وخيتا فى آسيا، وكانت تتنافس فيما بينها ، وأهمها جميعا إذ ذاك مملكة «ميتانى» التى بدأت تحس بخطر مملكة «خيتا» الناشئة وأخذت تخطب ود مصر فشجع هذا التقارب بل أراد أن يوثق أوصر المودة بزواجه من إبنة الملك « إرتاتاما » ملك ميتانى فأرسل إليه ستة رسل يطلب يدها وأخيرا قبل أن يرسلها مع الرسول السابع .

وهذه الأميرة الميتانية هى التى سميت بعد ذلك بالاسم المصرى «موت ام أويا » وأصبحت أم «أمنحتپ الثالث» الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه .

ويرى بعض المؤرخين [2] ان اختلاط دم الفراعنة بالدم الآرى كان سببا مباشرا لإدخال الطراوة وحب الملذات فى دم أمنحتپ الثالث ، ولكن ليس فى تاريخ الجنس الآرى بوجه عام ما يجعلنا نقبل مثل هذا الرأى على علاته ، فانهم جنس محارب شديد المراس ، وإذا كان أمنحتپ الثالث غير ميال بطبيعته إلى الحروب فهذا أمر آخر وربما كان راجعا إلى عوامل أخرى .

---

(١) وجدت هذه العربة فى مقبرته فى وادى الملوك وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى، ويلوح أن رسم المناظر الحربية على مساحة صغيرة كان هو أيضا السبب فى رسم مثل هذه المناظر على جانبى الصندوق الشهير الذى عثر عليه فى مقبرة الملك « توت عنخ أمون » .

(٢) أنظر كتاب « مصر » تأليف دريوتون وفانديه (الترجمة العربية ـ القاهرة ١٩٥٠ ص ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

وبالرغم من أن تحوتمس الرابع تربع على العرش وهو فى سن العشرين فانه مات فى ريعان شبابه إذ لم يحكم أكثر من تسع سنوات فقط ولكن نشاطه الذى رأيناه فى الحرب لازمه أيضا فى إدارة البلاد فنرى آثاره فى كثير من أرجاء مصر [1] ، ونرى فى طيبة كثيرا من مقابر رجاله الذين رافقوه فى حروبه وعاونوه فى إدارة ملكه الواسع ، وقد امتازت مقابر هذه الفترة برسم المناظر الحربية وعرض الجنود وبخاصة فى مقابر « نب أمون » و « ثانى » و ثنونا . [2] وقد تزوج تحوتمس الرابع أكثر من واحدة وولد له بضع ذكور وعدد غير قليل من الإناث .

ودفن فى قبره فى وادى الملوك وقد سرق هذا القبر فى أيام الرعامسة وعثر فيه فى أوائل هذا القرن على كثير مما تركه اللصوص . وبموت هذا الملك بدأت مصر فترة جديدة فى تاريخها .

---

١ كان آخر عمل قام به هذا الملك هو إقامة مسلة الملك تحوتمس الثالث ظلت ملقاة فى مكانها بالكرنك خمسة وثلاثين عاما ولم يؤد أمنحتب الثانى واجبه فى إقامتها .

(٢) DAVIES, *The Tombs of Two Officials of Thothmes IV.*

مقبرة نبأمون رقم ٧٥ أما مقبرة ثانى فهى رقم ٧٤ وفيها مناظر هامة لعرض الجنود وقبر ثنونا رقم ٦٧ ، وكان من المقربين جدا للملك .

الأسرة الثامنة عشرة

القسم الثانى - أيام السلم

أمنحتب الثالث يتولى الملك :

قضت مصر قرنا كاملا وهى تؤسس إمبراطوريتها ، فمنذ أن تولى تحوتمس الأول عرش البلاد وتطلع بعينيه نحو آسيا لم يتراخ هو أو واحد من خلفائه فى توطيد هذا الملك، بل أن مصر لم تحس بسلامتها وتؤمن أنها قد تخلصت إلى الأبد من خطر فلول أعدائها الهكسوس إلا بعد أن رأت تحوتمس الثالث يدك أسوار قادش ويقود زعماءها فى الأغلال فى موكب نصره وقضى عليهم وعلى كل من كان يناصرهم من زعماء المدن الأخرى .

ومنذ اليوم الذى اتصلت فيه مصر بتلك البلاد ، بدأ أسرى الأسيويين يستوطنون أرض النيل ، وكان جنود مصر يذهبون إلى آسيا ، ويأتى الكثيرون من سكان بلاد الشرق القديم إلى طيبة فأصبحت أولى بلاد العالم وكعبة القصاد ، وفى مثل هذه الظروف كان أمرا طبيعيا أن تتغير الحياة الإجتماعيه فى مصر وأن يتسع أفق المصريين ويخرجوا من عزلتهم الهائئة ويخففوا من غلواء تقاليدهم الدينية والإجتماعية بعد أن اتصلوا بالشعوب الأخرى ، وبدأت تتسرب إليهم آراء وتقاليد لم يكن لهم بها عهد من قبل .

ونحن نحس ونرى أثر هذا التغيير فى حياة المصريين كما صوروها فى جبانة طيبة ، وكما عرفناها من آدابهم ولغتهم وكما وصلت إلينا من أخبار ملوكهم : وليس أدل على هذا التغيير من أن مصر لم تعد تعبأ كثيراً بالتقاليد القديمة

القاسية ولم ترى غضاضة فى أن ترى تحوتمس الرابع يتزوج من أميرة من ميتانى أو أن ترى ابنه من هذه الأميرة ، وهو الذى تبع أباه فى حكم البلاد يجلس على العرش ، بل بلغ من تغير الحياة الإجتماعية أن هذا الأمير نفسه لم يجد مايدعوه لأن يتزوج اميرة من أميرات البيت المالك ويجعل منها الزوجة الأولى بل فضل عليهن فتاة من الشعب وهى التى أصبحت فيما بعد ملكة البلاد وأم ولى عهدها.

ونرى أثر هذا التغير الإجتماعى أيضا فى معاملة أمنحتپ الثالث لزوجته «تى» فللمرة الأولى فى تاريخ فراعنة الدولة الحديثة نرى الملكات تعمل لهن التماثيل الكبيرة جالسات إلى جوار الملوك أو يذكرن معه دائما على آثاره حتى على الجعارين التذكارية التى كان يأمر هذا الملك بتوزيعها من آن لآخر .

دخلت مصر منذ تولى أمنحتپ الثالث فى فترة جديدة من حياتها فقد كان حاكمها الجديد غير ميال إلى الحرب بطبيعته ، وكانت الأمور قد استتبت فى آسيا ولم يعد هناك من تحدثه نفسه بالخروج على حكم مصر أو منازعتها ، وكانت خزائن فرعون تفيض بأكداس الذهب والفضة، وجميع ما فى العالم من ثروة وفن يأتون به إليه هدية أو جزية من جميع أنحاء ملكه . وكان الملك الشاب ميالا إلى الفن وميالا إلى المتعة والجمال ، فطبع البلاد بطابعه وأخذت مصر تبنى المعابد الفخمة الجميلة والقصور الباذخة وأخذ بنوها يميلون للترف والتمتع بما فى دنياهم من رفاهية وملاذ ، ولم يقصر المعماريون المصريون أو رجال الفن وأصحاب الحرف عن السير فى ركاب الاتجاه الجديد فإذا بنا نرى تغيرا فى شتى النواحى وبدأت الفنون تحتل المكانة الأولى ، وبدأت مصر تتجمل وتجنى ثمار جهادها الطويل الشاق .

ويكفى أن يقف الزائر فى معبد الأقصر ويمتع ناظريه بجمال نقوشه ويتأمل نسب أبهائه وأعمدته ليحس بأن فن العمارة خطا خطوات واسعة كبيرة ، فإذا ذهبنا إلى البر الغربى وزرنا مقابر الأشخاص الذين عاشوا فى أيامه مثل « رع - موسى » و « خرو - اف » و « خع ام حات » و سررو » وغيرها أو تأملنا بقايا معبده الجنازى خلف تمثالى ممنون اللذين يمثلانه .أو قرأنا ما ذكره هذا

الملك على لوحته الشهيرة التى يصف فيها ذلك المعبد فإنا نحس بأنفسنا وقد انتقلنا إلى ماض بعيد كله عظمة وثروة وجمال ومن ذا الذى يملك نفسه من الإعجاب عندما يقرأ فى وصف المعبد :

« كان لا يسر قلب جلالته شىء مثل إقامة المبانى العظيمة التى لم يبن مثلها منذ خلق العالم . وقد أقام جلالته لأبيه أمون معبدا فخما فى الجهة الغربية من طيبة فجعل منه حصنا خالدا . بناه بأجود أنواع الحجر الجيرى من كتل ذات حجم كبير وزين جميع أجزائه بالذهب وحلى أرضيته بالفضة وكانت أبوابه مغطاة بصفائح من الذهب . لقد زاد جلالته من حجمه وأكثر من أبهائه وأتمه ليبقى إلى الأبد ، ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان ومن الحجر الرملى الصلد ومن جميع أنواع الأحجار الجيدة ، وكانت صناعتها تامة وستبقى إلى الأبد . وكانت أحجامها الكبيرة تضىء الوجود أكثر من السماء ، وكان انعكاس أشعتها فى وجوه الناس مثل الشمس عندما تضىء فى مطلع النهار » .

ولم يكن أمون وغيره من الآلهة هم وحدهم الذين استفادوا من حب هذا الملك للبناء ، فإنه لم يترك وسيلة دون إرضاء ذوقه الفنى وذوق زوجته . فبنى لها قصرا على الضفة الغربية من النيل على مقربة من معبده الجنازى جعل منه ومن أبهائه معرضا للذوق الفنى الرفيع وكان يقضى فيه أوقات سروره هو والمقربون من أصدقائه ورجال حاشيته وجواريه ، وكانت زوجته « تى » تحب النزهة وأرادت أن يكون لها بحيرة كبيرة على مقربة من القصر فتم لها ما أرادت بعد أسبوعين فقط وكانت تخرج فى زورقها هى والملك وبعض الوصيفات ليتمتعوا جميعا بالهواء الطلق . .

وكان أمنحتب فى صدر شبابه قد أظهر بعض الرغبة فى ممارسة الصيد ، ونعرف من آثاره أنه خرج أكثر من مرة لصيد البقر الوحشى وغيره بل أنه أغرم فى وقت من الأوقات بصيد الأسود ، ولكن هذا الحب للرياضة والفروسية لم يكن أصيلا فيه بل كان نزوة شباب عارضة أو تقليدا من تقاليد

البلاط وسرعان ما سئم الملك هذا النوع من النشاط وترك نفسه على سجيتها يستمتع بالحياة الباذخة بين قصوره وزوجاته والمئات من جواريه ، ولم يفكر مرة واحدة فى زيارة أجزاء ملكه الواسعة ويعطى سكان آسيا فرصة واحدة لرؤية فرعون واقفا فى عربته الحربية المصفحة بالذهب وخلفه جحافل جنوده، بل ترك كل هذا وراءه ولم يعطه من عنايته أكثر من الإبقاء على صلات المودة بينه وبين الأمراء الأسيويين بقبول هداياهم والرد على تحياتهم .

والناس على دين ملوكهم . فلم تلبث الحياة الاجتماعية فى مصر كلها أن اتجهت نحو الدعة والاستمتاع بالحياة ، وكانت أسيرات الحرب خير معوان على ذلك ، فلم تقتصر حفلات الطرب والرقص على القصور أو منازل كبار الموظفين بل شمل ذلك جميع الطبقات . ونشأت فى طيبة مشارب الجعة وفيها المغنيات والراقصات المحترفات وكان يرتادها العمال وغيرهم من طبقات الشعب، ولا نستغرب بعد ذلك أن يعم خطر هذه المشارب فنقرأ فى بردية من البرديات تحذير مدرس لتلميذه من ارتيادها واصفا له ما يجرى فيها من أعمال تنافى الخلق الكريم .

ركن أمنحتب الثالث إلى حياة الاستمتاع بين زوجاته وجواريه، وطلب من ملك ميتانى وكان أسمه «سوتارنا Soutarna » وهو ابن خال أمنحتب أن يزوجه إحدى بناته فأرسل اليه « كيلوجيبا Kilougepa » لتأييد المودة بين البلدين.[1] وكأن هذا أصبح تقليدا جديدا إذ بعد أن مات سوتارنا تولى الملك بعده ابنه « توسراتا Tousratta » فأرسل اليه أميرة صغيرة السن وهى « تادوجيبا Tadoughepa » فى الوقت الذى كان فيه أمنحتب مريضا طاعنا فى السن .

ولم تقتصر مصاهرته على بنات مصر وبنات ميتانى بل تزوج من أميرات بابليات وأشوريات وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات

---

(١) كان زواجه من كيلو جيبا فى السنة العاشرة من حكمه وقد جاءت ومعها ٣١٧ من وصيفاتها الميتانيات تزوجن على الأرجح من موظفى البلاط وضباط الجيش ومن كانوا مقربين إلى الملك .

من الفتيات الجميلات اللاتى كن يرسلن اليه مع الجزية وكان يلح فى طلبهن ، وهكذا انقلبت حياة هذا الملك إلى حفلات يقيمها فى قصره وأغرق نفسه إغراقا فى نوع من الحياة لم يعرفها أحد ممن سبقوه .

أمنحتب الثالث بين الدين والسياسة :

لسنا نعرف ما الذى حدث تماما بين تحوتمس الرابع وبين كهنة أمون حتى بدأ ينظر إليهم بشىء من القلق، وأراد حفظ التوازن بتشجيع كهنة رع وعبادة رع فكان عصره بداية لحركة آتت ثمارها فيما بعد . ولم يقتصر التجديد فى عهد تحوتمس الرابع على إحياء عبادة الشمس والتجديد فيها ، بل مشى إلى جانبها نوع آخر من التجديد فى الفن وبدأنا نحس فى فن الأسرة الثامنة عشرة باتجاهات لم يكن لنا بها عهد من قبل ، وهى اتجاهات تعطى للفنان الحرية فى التعبير عما يحسه وإبراز عبقريته الشخصية بدلا من اتباع أساليب معروفة لا يحيد عنها .

وجاء ابنه أمنحتب الثالث فلم يرجع عن السياستين بل نعلم أكثر من ذلك بأنه جعل من أكبر أبنائه وولى عهده الأمير « تحوتمس » كبيراً لكهنة پتاح [1] وكانت إقامته فى منف . وأخذت الاتجاهات الفنية التى بدأت فى الظهور فى عهد تحوتمس تتقدم وتظهر أكثر وضوحا ، وبدأنا نرى حياة الفراعنة كسائر البشر وأصبح للفنان حرية رسم الملك كما كان يراه وليس كما يجب أن يكون .

كان هذا التطور فى الأفكار الدينية والاتجاهات الفنية متمشيا مع تغير الحياة الاجتماعية فى مصر ، ولا يخالجنا الشك فى أن مثل هذه التغييرات فى حياة الشعب لم ترض المتزمتين من رجال الدين ومن المحافظين أو أبناء

(١) كان تحوتمس وليا للعهد ولكنه مات فى حياة أبيه ودفن فى سقارة . وبهذا أصبح أخوه أمنحتب هو صاحب الحق فى ولاية العهد . أنظر : أحمد بدوى — فى موكب الشمس ج ٢ ، ص ٥٦١ — ٥٦٢ وانظر أيضا كتابه *Memphis* . ص ٥٩ وما بعدها .

العائلات القديمة بينما وجدت قبولا وتشجيعا من الطبقات الأخرى ـ وخاصة بين الموظفين والصناع ـ تلك الطبقات التى بدأت تغير حياتها وتحتل مركزا اجتماعيا لم يكن لها من قبل . وليس هناك من شك أيضاً فى أن حياة أمنحتپ الثالث لم يرض عنها الكثيرون من أهل عصره ، وبالرغم مما بناه من معابد باسم أمون رع فإن كهنة أمون رع لم ينظروا بعين الرضى إلى إحياء عبادة الشمس ولم ينظروا أيضاً بعين الرضا إلى تحلل الحياة الإجتماعية تقليداً لفرعون الذى استخف بكل التقاليد ، كما أصبح للكثيرين من غير المصريين أو الذين لم يكونوا من دم مصرى خالص رأى مسموع فى البلاط الذى ابتعد عنه بعض أبناء كبار الموظفين القدماء فكان ذلك أيضاً سببا من أسباب الجفاء .

أما فى السياسة فلم تكن الحالة خالية من الشوائب ، فقد أصبح اعتماد أمنحتپ الثالث فى حكم إمبراطوريته على صلته بملوك هذه البلاد . وكان يعتقد أن تبادل رسائل المودة بينه وبينهم كاف لحفظ الإمبراطورية ، أو أن زواجه من بنات الملوك أو الأمراء كفيل بجعل هذه الدول والمدن راضية بالحكم المصرى إلى الأبد ، وفات أمنحتپ ومستشاروه أن سياسة السلم وتبادل رسائل المودة والهدايا لم تكن إلا معبرة سواء بالحق أو بالباطل عن شعور الحكام فقط ، أما شعور الشعوب نفسها وشعور الدول الأخرى المعادية فهذا أمر لم يحسبوا له حسابا بينما كان فى الحقيقة عاملا مهما فى سير الحوادث . لقد قضى أمنحتپ الثالث ستة وثلاثين عاما على العرش ، لم يرسل خلالها إلى آسيا حملة واحدة فنسى أكثر الناس جيش فرعون وقوته ، وبدأوا يحكمون على مصر بما كان يقترفه حكامها فى تلك البلاد أو ما يسمعونه من أخبار ممن كانوا يعودون من مصر .

وكان أمنحتپ الثالث فى أواخر أيامه شخصاً مهدما محطم الصحة بالرغم من أنه كان دون الخمسين لأنه أفرط فى ملذاته ، وكانت السلطة مركزة فى يد زوجته « تى » والقليل من الموظفين الذين كانوا طوع إرادتها . ورأى هذا الملك بعد وفاة ابنه الأمير تحوتمس أن يشرك معه فى حكم البلاد ابنه الثانى أمنحتپ

الرابع الذى كان قد تزوج من أخت له اسمها « نفرتيتى » فأخذ أمنحتب يحكم فى عهد أبيه وأقام فى طيبة مقر عبادة الإله أمون رع والعاصمة الأولى للبلاد .

كان كل شىء فى مصر فى حاجة إلى الإصلاح بل إلى التغيير ، وكان العرش فى حاجه ملحة إلى ملك نشيط محارب مثل تحوتمس الثالث أو على الأقل مثل تحوتمس الرابع ليحاول عمل شىء لتدعيم البناء الذى بدأ يتصدع ، ولكن أمنحتب الرابع كان شابا حالما ذا إحساس دينى عميق ونفس شاعرة ، فلم يكن الرجل الذى يستطيع مواجهة الموقف الدقيق الذى كانت فيه البلاد ولهذا لم يكن بد من حدوث الصدام ولم يكن هناك بد من أن تسير الأمور من سىء إلى أسوأ .

أمنحتب الرابع :

تولى أمنحتب الرابع الملك شريكا لأبيه وأقام معه فى طيبة ولكن منذ أن أصبح له شىء من الأمر بدأ يفكر فى الدعوة إلى عبادة الشمس واختار أحد مظاهرها وهو « أتون » الذى عبر به عن القوة الكامنة فى قرص الشمس إلها له وأقام له معبداً على مقربة من معبد الكرنك .

وتدل جميع الشواهد على أن أمنحتب الرابع لم يشتط فى أول دعوته ولم يبادىء كهنة أمون بالعدوان ، بل أن كل ما فعله هو دعوته إلى عبادة أتون وجعل منه إلهه المفضل وتبعه دون شك بعض رجال البلاط وكثير من عامة الناس وبدأ كهنة أمون يحسون بالخطر الجديد الذى أخذ يهددهم فبدأوا يخلقون المصاعب أمام الملك الجديد .

وإذا درسنا آثار هذه الفترة نرى أن أمنحتب الرابع قد احترم جميع الآلهة وبخاصة ما كان منها متصلا بعبادة الشمس مثل رع وحوراختى وغيرهما، وإذا كان قد نادى بعبادة أتون فان أتون لم يكن إلها أجنبيا عن مصر فان اسمه معروف منذ الدولة القديمة أى قبل أن يولد أمنحتب الرابع بألف عام ، كما أن

إحياء عبادة الشمس وشكل قرص الشمس وهو يمد شعاعه بالحياة كانا أمرين معروفين فى عهد تحوتمس الرابع ، إذ نعرف أنه فى عهد هذا الملك بالذات بدأ الفن المصرى يتحرر من كثير من قيوده القديمة ويتجه نحو أساليب واقعية تمثل الحياة كما هى ، وتظهر ما فى الطبيعه من جمال ،فكانت أكثر زخارف القصور بل وأدوات الزينة والأثاث تميل إلى الاعتماد على رسم الزهور ومختلف النبات والحيوان والطيور والأسماك .

واستمر تطور الفن فى عهد أمنحتب الثالث ونشأت فى أيامه المدرسة الفنية التى مهدت لظهور مدرسة العمارنة فيما بعد .

ولم يمض زمن طويل على أمنحتب الرابع فى طيبة حتى بدأ يشتد تعصبه لدينه الجديد ووقف فى وجه كهنة أمون وغير اسمه من أمنحتب الرابع إلى اسم جديد لتأكيد صلته بمعبوده فاختار اسم « أخ - إن - أتون (اخناتون) » وترجمتها « المفيدلأتون » ، وانقسم الناس وبدأت المتاعب أمامه واضحة ، وربما كان أمنحتب الثالث والده غير راض عن هذه الحركة الجديدة التى زادت من متاعبه ، وخصوصا وأن ملك مصر فى آسيا بدأ ينهار وخسرت مصر جزءا كبيرا من ولايات سوريا الشمالية وانفض عنها كثير من حلفائها ، وانقطع ما كان يأتى من جزية من بعض تلك البلاد .

كان أمنحتب الثالث فى ذلك العهد شخصا محطما جنت عليه حياة البذخ والإفراط فى الملذات كما سبق القول ، ومن كان فى مثل هذه الحالة وفى مثل هذا السن لا يمكن أن يرضى عن انقسام أو عن حرب أهلية وعلى الأخص إذا تناول ذلك إلهه أمون الذى تفتحت عيناه على عبادته وقضى حياته يقيم له المعابد ، ليس فى طيبة فقط بل فى جميع البلاد سواء فى الشمال ، وبخاصة فى منف أو فى النوبة أو السودان . وربما كان عدم رضاء الأب وزوجته تى عن عمل ابنهما من بين الأسباب التى دعته إلى ترك طيبة فاختار مكانا بين طيبة ومنف فى مديرية أسيوط وجعل منه عاصمة جديدة له .

كان ذلك فى السنة الرابعه من حكمه فذهب إلى هذه المدينة الجديدة التى سماها « أخت أتون » أى « مشرق أتون » ووضع لوحات حدودها على جانبى النيل وبنى معبـــده وقصوره ومدينته الجديدة فى الناحية الشرقية من النيل ومكانها الآن على مقربة من قرية تل العمارنة مركز ملوى ، فى مديرية أسيوط .

واستمر العمل فى إنشاء المدينـــة الجديدة عامين كاملين انتقل بعدهما « إخناتون » ومعه عائلته ورجال قصره ومن تبعه من خاصته إلى تلك العاصمة الجديدة فاستقر هناك وأقسم يميناً سجلها على اللوحات بأنه لن يغادر حدودها طالما كان حياً ، وفى هذه الجملة بالذات ما يجعلنا نحس بالمرارة التى كان يعانيها من كهنة أمون ومن المحافظين من رجال الدولة الذين لم تعجبهم هذه الحركة الجديدة . لم يترك إخناتون طيبة إلا بعد أن أعلنها حرباً لا هوادة فيها على أمون وعلى غيره من الآلهة ، ومن ضمنها أوزيريس ، وكان اسم أمون بالذات موضع حقده فأمر بمحوه أينما كان حتى ولو كان فى اسمه أو إسم أبيه . وانصرف إخناتون بعد ذلك إلى عبادة إلهه فى « أخت أتون » صاماً أذنيه عن سماع أى شىء تاركا الحبل على الغارب ، وغير مهتم بما كان يجرى فى داخل مصر أو خارجها .

وفى مثل هذه الظروف كان من الضرورى أن يحدث تغيير كبير فى إدارة البلاد . فأقصى إخناتون من لم يتبعه فى دينه الجديد ، وقرب الذين استطاعوا الحصول على ثقته بما كانوا يبدونه من حماس صادق أو مصطنع ، فأصبحت وظائف الدولة أو أكثرها فى أيدى فئة حديثة العهد بفن الحكم فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى خبرة الموظفين الأكفاء ، خصوصا وأن الحالة فى آسيا ازدادت سوءاً على سوء وأصبحت مملكة خيتا تغير على سوريا وتضمها ولاية بعد أخرى إلى ممتلكاتها ، كما أخذت مدن عديدة فى فينيقيا وفلسطين تستقل بأمورها أو تغير إحداها على الأخرى ، وزاد الطين بلة

أن جماعات من بدو الصحراء أخذت بدورها تحدث اضطراباً فى الأمن وأخذ بعض الزعماء يستخدمها فى محاربة منافسيه .

لم يترك الحكام المصريون أو الزعماء الأسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا التجأوا إليها . فأرسلوا الكتب وأرسلوا الرسل إلى طيبة وإلى إخناتون. كان إخناتون لا يهتم بهم فالتجأوا إلى الملكة « تي » فى طيبة فأخذت بدورها تنبه ابنها . وازدادت النصيحة وازداد التحذير حتى أصبح ذلك فى أذنى إخناتون ضجيجاً فصم أذنيه عامداً ورفض أن يفعل شيئاً غير عبادة إلهه أتون ، ووضع الأناشيد فى مدحه والذهاب إلى المعبد ومكافأة المنافقين من مادحيه .

وبدأت المؤامرات على حياة الملك وكاد المتآمرون مرة من المرات أن يصلوا إلى غرضهم لولا يقظة رئيس حراسه الذى أسرع للقبض عليهم عندما علا صراخ الحراس[1] ، وخشى إخناتون على حياته فانزوى فى قصره وقرب إليه المتملقين المداهنين وعلى الأخص شخص غير مصرى الأصل إسمه «توتو» دخل فى خدمته خادما فى القصر ولم يلبث أن صار صاحب الأمر والنهى فيه ، وكثيراً ماورد اسمه فى رسائل الأمراء الأسيويين الذين كانوا يستعينون بنفوذ هذا الشخص للوصول إلى مآربهم وإخفاء حقيقة الحالة عن الملك[2] .

ولنترك الآن إخناتون ورجاله ، ونترك إمبراطورية مصر تتفكك وتنهار ولنتحدث قليلا عن ديانة إخناتون .

---

(١) تعرف تفاصيل هذه الحادثة من مقبرة « محو » رئيس شرطة مدينة أخت ــ أتون أنظر ــ DAVIES, *The Rock Tombs of El - Amarna* الجزء الرابع لوحة ٢١ وما بعدها .

(٢) كان يسمى « دودو » فى المكاتبات وله مقبرة فى تل العمارنة ــ أنظر الجزء السادس من مؤلف ديفز عن مقابر العمارنة لوحة ١٧ ــ ٢٢ .

ديانة أتون :

إن مصادرنا الرئيسية لدراسة الحركة الدينية التى قام بها إخناتون هى ما خلفه لنا على لوحات الحدود التى أقامها لتحديد مدينته الجديدة وما بقى على جدران مقابر تل العمارنة وما وصل إلينا من بقايا معابده فى الاقصر وغيرها من البلاد لأن إخناتون أقام إلى جانب أهم المعابد فى البلاد معابد أو هياكل للإله أتون لكى يتعبد فيها الناس .

وبالرغم من أن إخناتون فشل فى حركته وبالغ أعداؤه وفى مقدمتهم كهنة أمون فى القضاء على آثاره وعلى ذكراه واعتبروه ملحداً خارجا على الدين ، وأسقطوا اسمه واسم عائلته من كشف أسماء الملوك فإن ما وصل إلى يد العلماء وبخاصة بعد حفائر البعثتين الألمانية والإنجليزية فى تل العمارنة كاف لإعطائنا صورة عن هذه الحركة الدينية وما فيها من آراء .

وقد كتب كثير من الباحثين فى هذا الموضوع لعلاقته الوثيقة بموضوع هام وهو نشأة التوحيد ، وقد نظر كل باحث إليه من زاوية مختلفة فجاءت آراؤهم متباينة . ولسنا هنا فى معرض تحليل هذه الديانة أو إعطاء تلخيص للآراء المتباينة فيها بل يكفى أن نذكر النقط الآتية للإحاطة بأهم مبادئها :

أولا — كانت الحقيقة « ماعت » هى الأساس الذى ارتكزت عليه ديانة أتون ، فقد طلبت من الناس أن يجعلوها نصب أعينهم وأن يسموا الأشياء بأسمائها ولا يلتجئوا إلى النفاق والمداهنة . وكان أثر هذا المبدأ كبيراً على الفن فقد تحرر الفنانون من القواعد القديمة وأخذوا يرسمون الملك وزوجته وأولاده فى مواقف لم يحلم برؤيتها أحد من قبل ، نراها مرسومة على جدران المعابد أو المقابر مثل مداعبة فرعون لزوجته أمام الناس فى الطريق أو تقبيل أولاده أو تصويره وهو يأكل بشراهة على إحدى موائد الطعام .

ثانياً — كره إخناتون تصوير إلهه على صورة من الصور سواء أكانت إنسانية أو حيوانية ، وجعله فقط قرص الشمس الذى تعطى أشعته الحياة للناس أجمعين .

ثالثاً — كان أتون هو الإله الواحد الذى لا شريك له ولكن مثل هذا التعبير كان يطلق على عدد كبير من الآلهة ومنها أمون ، ولهذا لم يكن جديداً على الديانة المصرية ولكن الجديد هو تحريم عبادة إلهة أخرى فى الوقت نفسه .

رابعاً — ومن أهم النقط فى هذه الديانة أن «إخناتون» كان هو وحده ابن أتون وهو الذى كان مكلفا بعبادته ، أما الناس فكانوا يعرفون أتون بعبادتهم لابنه ورسوله إخناتون ، وهذه النقطة بالذات هى التى وقفت حائلا بين الناس وبين الاستمرار فى هذه الديانة بعد موت إخناتون .

خامساً — لم تكن ديانة أتون لمصر وحدها بل كانت للعالم كله فبسبب هذا الإله عاشت الأسماك فى البحار والوحوش فى الأدغال والزواحف فى أجحارها والنبات فى الحقول . وبالرغم من أننا نعرف الكثير عن العبادات فى هذا الدين فإنه يلوح أنه لم يتعرض للمعاملات بين الناس ولم يدخل عليها أى تعديل .

سادساً — لم يكن هناك معنى لبناء معابد مغلقة ذات حجرات وصالات تنتهى بهيكل قليل الضوء وإنما كان المعبد يتكون من بهو كبير يتوسطه مذبح ليتمكن كل شخص من الاستمتاع بضوء الشمس والتطلع إليها . ولكن هذا لم يمنع إخناتون من اتقائه لحرارة الشمس إذ نراه فى منظر من المناظر يسير تحت مظلة لاتقاء وطأتها .

سابعاً — كان إخناتون هو الرسول والواسطة بين أتون والناس ولكن لم يمنع ذلك وجود كهنة لأتون سواء فى العمارنة أو فى البلاد الأخرى التى نشأت فيها معابد لهذا الإله .

ثامناً — إذا دققنا فى فحص ديانة أتون لوجدنا أنها أول محاولة للاتجاه نحو التوحيد ونحو التخلص من عبادة آلهة متعددة فى وقت واحد ، ولكنها لم تصل إلى الكمال الذى وصلت إليه الديانات السماوية فيما بعد .

تاسعاً — ليس هناك شك فى أن أناشيد إخناتون لإلهه كانت ذات أثر مباشر على المزامير وأن المزمور ١٠٤ يكاد يكون منقولا عن النشيد الكبير وليس من قبيل توارد الخواطر . أما كيفية وصول هذا النشيد إلى العبرانيين ، فمن المحتمل أن يكون قد حفظ فى آسيا وبقى فى آدابها تتناقله الأجيال حتى جاء الوقت الذى بدىء فيه بكتابة التوراة فى القرن الثامن قبل الميلاد .

عاشراً — لم يتخذ أتون زوجة له ولم يكن للنساء شأن به أو حتى فى كهنوته . وبالرغم من أننا نعرف أن نفرتيتى كانت القوة الكامنة وراء الحركة كلها فإن اسمها لم يقرن بأى وظيفة فى معبد أتون ولم يكن لها بهذا الدين أى شأن خاص .

وخير ما نفعله الآن هو تقديم ترجمة حرفية للنشيد كما جاء فى إحدى مقابر العمارنة[1] .

نشيد إخناتون

أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء ،
يا أتون الحى ، (يا) بداية الحياة .
عند ما تبزغ فى الأفق الشرقى ،
تملأ كل البلاد بجمالك ،

(١) DAVIES, *The Rock Tombs of El Amarnah*, VI p 29 ff.
أنظر أيضاً ERMAN, *The Literature of the Ancient Egyptians*, P. 288 - 291
وأحدث ترجمة باللغة الإنجليزية هى ترجمة ولسون (*J.A. Wilson*) فى كتاب PRITCHARD *Ancient Near Eastern Texts* (1950), *P.* 369 - 371 .

أنت جميل ، عظيم ، متلألىء ، وعال فوق كل بلد :
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها ،
لأنك أنت « رع » وتصل إلى نهايتها ،
وتخضعها لابنك المحبوب .
وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض ،
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك .

وعند ما تغرب فى الأفق الغربى ،
تسود الأرض كما لو كان حل بها الموت .
ينام (الناس) فى حجرة وقد لفوا رؤوسهم ،
فلا ترى عين عينا أخرى ،
ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رؤوسهم ،
فلا يدركون ذلك .
يخرج كل أسد من عرينه ،
وجميع الزواحف (تخرج) لتلدغ ،
ويلف الظلام كل شىء ويعم الأرض السكون ،
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه .
وعندما يصبح الصباح ، وتطلع من الأفق ،
وعندما تضىء كآتون أثناء النهار ،
تطرد الظلمة وتهب أشعتك .
فالأرضان فى عيد كل يوم ،
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،
لأنك أنت الذى أيقظتهم .

يغسلون أجسامهم ويلبسون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعتهم ابتهالا عند ظهورك ،
والناس جميعا يؤدون أعمالهم .
وتقنع كل الحيوانات بمراعيها ،
وتزدهر الأشجار والنباتات .
والطيور التى تطير من أعشاشها ،
(تمد) أجنحتها لتمدح قوتك ،
وتقف الحيوانات على أرجلها ،
وكل ما يطير أو يحط ،
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم .
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،
لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط .

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء ،
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا .
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه ،
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه ،
لأنك تعنى به وهو فى الرحم .
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم ،
عند ما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس ،

فى اليوم الذى يولد فيه ،
تفتح فمه ، وتمده بكل مايحتاج اليه .
وعندما يصرخ الفرخ (الـكتكوت) وهو داخل البيضة
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش ،
وعند ما تتم خلقه داخل البيضة ، تجعله يكسرها
ويخرج من البيضة وهو يوصوص إذا ماحان موعده ،
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها .

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها !
إنها خافية على الناس .
أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له !
لقد خلقت الدنيا كما شئت .
عندما كنت وحدك ،
الناس والماشية والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه ،
وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه .

« فى » بلاد سوريا والنوبة وأرض مصر ،
تضع كل شىء فى مكانه .
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
يحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له .
يختلف الناس فى لغاتهم ؛
كما يختلفون أيضاً فى طبائعهم ،

يمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض ،
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية .
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر ،
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس ،
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك ،
وأنت سيدهم جميعاً ، (سيدهم) الذى يشغل نفسه من أجلهم ،
سيد كل أرض ، الذى يشرق لأجلهم ،
أنت أتون (شمس) النهار ، عظيم البهاء .

أنت الذى يعطى الحياة (أيضا) لكل البلاد الأجنبية البعيدة ،
لأنك خلقت نيلا فى السماء ،
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال ،
مثل (أمواج) البحر ،
لتروى حقولهم التى فى قراهم ،
ما أجمل أعمالك يارب الأبدية !
فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام ،
أما النيل (الحقيقى) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .

تغذى أشعتك كل مرج ،
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك ،
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت .
فالشتاء يبرد أجسامهم ،

والحرارة تجعلهم يحسون بك .
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها ،
وحتى ترى كل ما صنعت ،
وذلك عند ما كنت وحيدا .
تشرق فى صورتك كأتون الحى ،
لامعا ، مضيئا ، فى جيئتك ورواحك .
جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها ،
(وسواء أكانت) مدنا أو بلادا أو حقولا ، طريقا أو نهرا ،
فان كل عين تراك فوقها مشرقا ،
لأنك أتون (شمس) النهار على الأرض .

أنت فى قلبى ،
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك « نفر—خپرو - رع ، وا ع—إن —رع »
لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك و (مدركا) لقوتك .
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ،
وخلقت (الناس) كما شئت أن تصورهم .
فهم يحيون عند ما تشرق ،
ويموتون عندما تغرب ،
إنك أنت الحياة بعينها ،
ويعيش الإنسان (فقط) إذا أردت .
تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب ،

ويترك الناس أعمالهم عند ما تغرب فى الغرب ،
ولكن عند ما (تشرق) ثانية
يزدهر كل شىء لأجل الملك . . .
لأنك أنت الذى خلقت الأرض ،
وأنت الذى خلقتهم (أى الناس) لأجل ابنك .
الذى ولد من صلبك ،
ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، . . . اخناتون
وزوجة الملك العظيمة . . . نفرتيتى
عاشت ممتعة بالشباب دائما وإلى الأبد .

عائلة إخناتون :

عندما جاء إخناتون إلى تل العمارنة كانت له ابنة واحدة فقط وهى « مريت ـ أتون » ، ولكن بعد عامين اثنين أصبحنا نرى عائلته مكونة منه ومن زوجته ومن بنات ثلاث وهن « مريت أتون » وثانية اسمها « ماكت أتون » وثالثة هى « عنخس إن پا أتون » وتوالت بعد ذلك ثلاث بنات أخريات حتى بلغ عددهن ستا دون أن يولد له ولد واحد . وليس يعنينا من بناته غير اثنتين الأولى وهى « مريت ـ أتون » والثالثة « عنخس إن پا أتون » أما الثانية فقد ماتت صغيرة فى حياة أبويها .

كانت حياة إخناتون ونفرتيتى هادئة بين أطفالهما منذ حضورهما إلى العمارنة فى العام السادس من حكمه حتى العام الثانى عشر لا ينغص حياتهما منغص لأن إخناتون انصرف عن الدنيا كلها ليتعبد لإلهه ويفسر تعاليمه محيطا نفسه بأتباع مخلصين يشاركونه عقيدته أو بأتباع منافقين يريدون الانتفاع من ورائه .

وظل أبوه أمنحتب الثالث فى طيبة ومات فيها [1] أما أمه الملكة « تي » فلم تذهب بعد موت زوجها إلى العمارنة وظلت فى طيبة . ولكن فى العام الثانى عشر كانت الأمور قد وصلت إلى نهايتها من التحرج فرأت « تي » نفسها مضطرة لاتخاذ خطوة حاسمة لإصلاح المعوج من الأمور . فسافرت إلى « أخت أتون » وقضت فيها وقتا غير قصير كانت فيه ضيفة عزيزة على ابنها ولم تجد أى غضاضة فى الذهاب إلى معبد أتون وتقديم القرابين له كما كانت راضية عن الحياة فى المدينة الجديدة ولم تمانع فى صنع تماثيل لها أثناء وجودها هناك .

ولكن هذا الرضاء وهذا الاحتفاء بأتون كانت وراءه أغراض أخرى لأنها توصلت بذلك للحصول على ثقة ابنها ثم أخذت رويدا رويدا تفهمه ما وراء اندفاعه من خطر عليه وعلى البلاد .

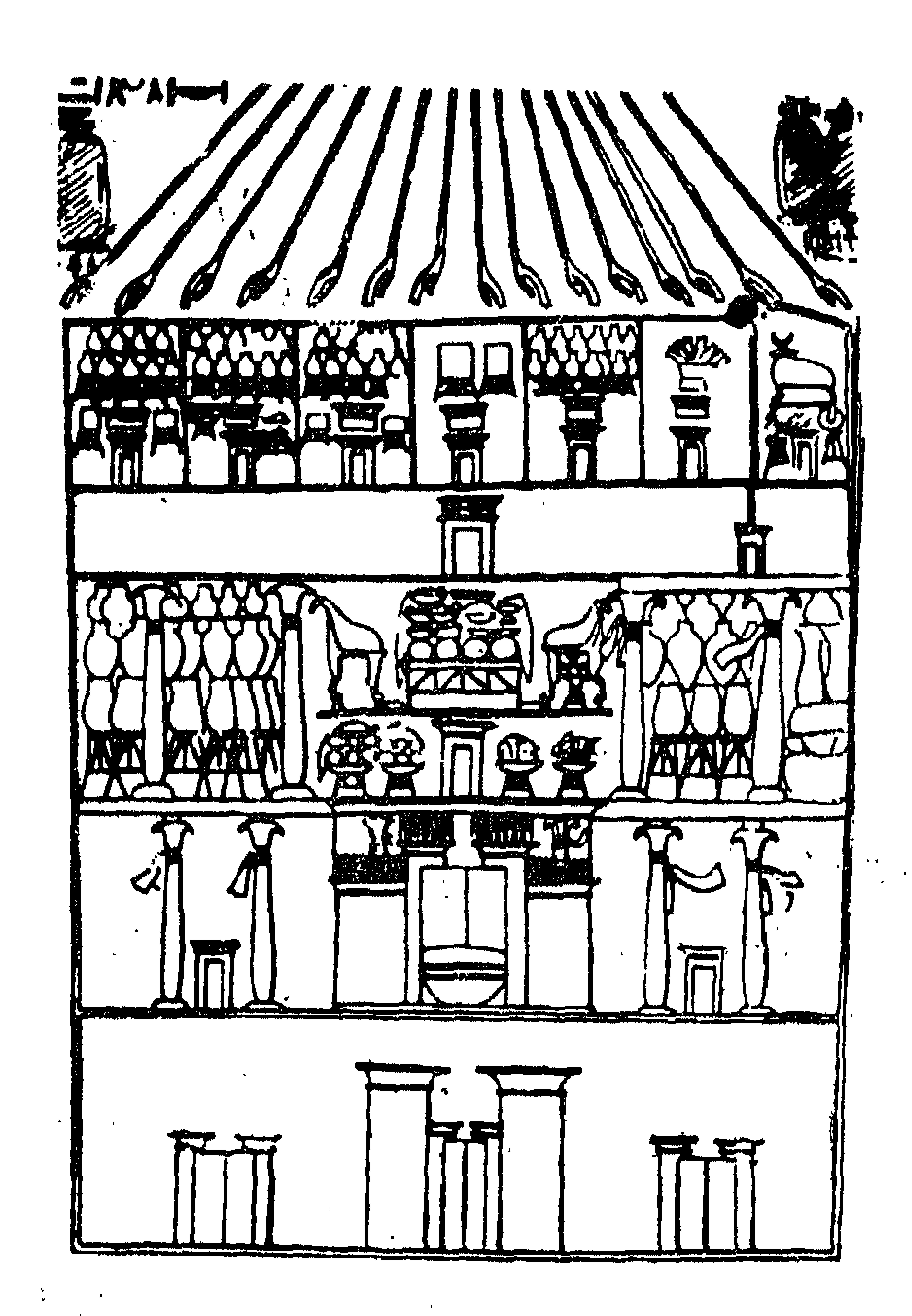
ولسنا نعرف تماما ما حدث بين إخناتون وأمه وإنما الذى نعرفه أن زيارتها لأخت أتون كانت بداية الشقاق بين إخناتون ونفرتيتى ، إذ نجحت الأم أو كادت تنجح فى تحويل ابنها عن الدين الجديد ولكن نفرتيتى ظلت مخلصة لمبادئها وأنكرت على الملكة « تي » تدخلها . ومهما كان الأمر فإن « تي » تركت العمارنة وخلفت وراءها صدعا لم تقو الأيام على إصلاحه فقد وصلت الجفوة بين إخناتون ونفرتيتى بعد ذلك بقليل إلى أن كلا منهما عاش بعيداً عن الآخر فبقى إخناتون فى القصر الملكى وعاشت نفرتيتى فى بيت جميل فى ضاحية فى جنوبى المدينه أسمه « حات ـ أتون » أى قصر أتون .

عاش إخناتون فى قصره مع ابنته الكبرى « مريت أتون » التى جعل منها السيدة الأولى فى القصر وأمر بأن تزال أسماء نفرتيتى من جدران السراى

---

(١) ربما كانت وفاة أمنحتب الثالث عام ١٣٧٥ ق . م . أى فى العام الخامس من حكم إخناتون وهناك بين العلماء من يرى أنه عاش حتى العام العاشر على الأقل ولكن ليس هناك دليل قاطع فى هذا الأمر .

وأن توضع أسماء ابنتها فى مكانها ، أما نفر تيتى فأبقت كل شىء على ما كان عليه وظلت أسماء زوجها فى مكانها على الجدران وظلت تعيش مع باقى بناتها فى تلك الضاحية .



أحد قصور إخناتون فى تل العمارنة ، ونرى مدخله الكبير وأبهاءه واحدا بعد الآخر، وقد امتلأت الحجرات الداخلية بالمآكل وبأوانى الجعة .

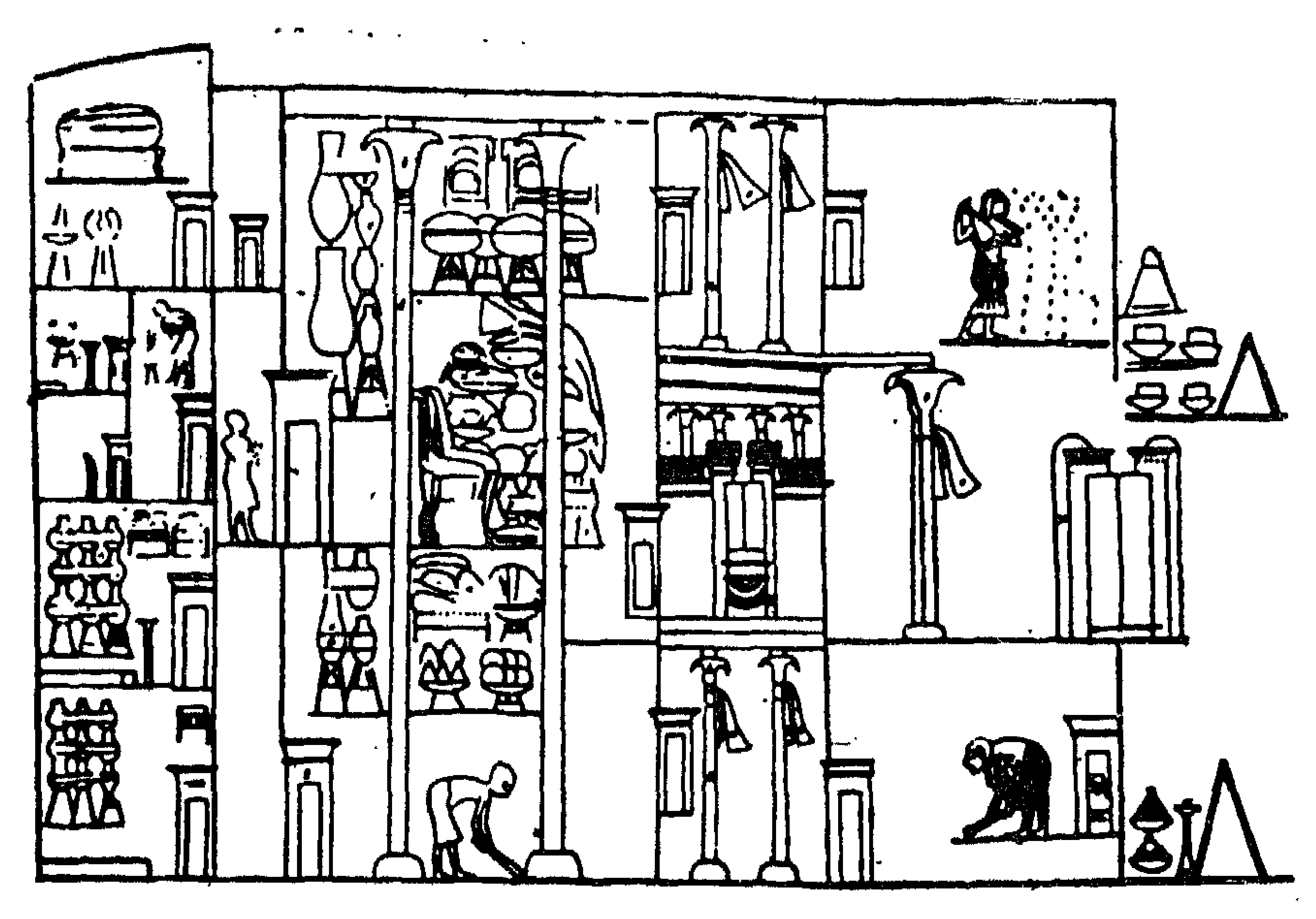
ومن المرجح أنه كان لإخناتون أخوة صغار من أبيه أو أبناء أخوته ، ولا نعرف إن كانوا قد جاءوا مع « تى » أو كانوا فى العمارنة من قبل زيارتها . ويعنينا من هؤلاء الأمراء اثنان أحدهما اسمه « سمنخ ـ كا ـ رع » الذى كان

عزيزاً على إخناتون ومقربا منه فزوجه من « مريت أتون » وأشركه معه فى الملك ، أما الآخر فكان أصغر منه وكان اسمه « توت ـ عنخ ـ أتون » فأقام مع نفرتيتى .

كان تزويج « سمنخ كارع » من « مريت أتون » وإعلانه شريكا فى الملك ضد رغبة نفرتيتى ، خصوصا وأن ذلك كان تنفيذاً لسياسة خاصة وهى محاولة تقريب وجهات النظر بين إخناتون وكهنة أمون . ولسنا نعرف من الذى كان يدبر هذه المؤامرات كلها فإذا أردنا أن نحصر الظنون فإننا لا نجد فى هذه الفترة غير ثلاثة أشخاص وهم الملكة تي وقائد الجيش الذى ظهر على مسرح الحوادث بعد قليل وهو « حور محب » ورجل آخر بدأ حياته فى الجيش ثم أصبح من كبار رجال القصر وحصل على رتب كهنوتية كبيرة وكان السبب الأكبر فى تقربه من إخناتون وتقدمه فى البلاط راجعا إلى زوجته التى كانت مربية لنفرتيتى .

وليس لدينا دليل قاطع على تدبير « تي » لسفر سمنخ كارع إلى طيبة مع زوجته وربما كان الرجلان الآخران أو أحدهما ، هما اللذان أرادا ذلك . وعلى أى حال فإن رحلة « سمنخ كارع » وإقامته الطويلة فى طيبة لم تغير من جوهر الأمر شيئاً فإن إخناتون ظل فى مدينته ولم يعلن سمنخ كارع أو يعلن إخناتون تراجعهما عن عبادة أتون ، ولكن بعد سنوات ثلاث أى فى العام التاسع عشر من حكم إخناتون تلاحقت حوادث غامضة . فمات سمنخ كارع واختفى اسم زوجته وكان موته أو اغتياله فى طيبة ، فقد وجدت مومياؤه هناك فى القبر الذى كان قد أعد للملكة « تي » فى وادى الملوك . وتلاه إخناتون بعد عام أو أكثر ودفن فى قبره فى العمارنة وتولى بعده « توت عنخ أتون » الذى كان قد تزوج ـ أو أعلن زواجه عند توليه العرش ـ من الإبنة الثالثة لإخناتون وظل فى « أخت أتون » .

ويلوح أن إخناتون حاول فى أواخر أيام حياته أن يكون له وريث بعد أن وصلته الأخبار السيئة من طيبة عن موت أو قتل سمنخ كارع وزوجته ، فتزوج ابنته الثالثة «عنخس إن پا أتون» التى لم يزد عمرها إذ ذاك عن إثنى عشر عاما على الأكثر ولكنها لم تلد له إبنا كما كان يريد بل ولدت ابنة سموها



القصر نفسه مرسوما بطريقة أخرى حسب المنظور المصرى

« عنخس إن پا أتون الصغرى » كما ثبت من نقش على حجر عثرت عليه البعثة الألمانية فى الأشمونين [1] .

فلما لم يتحقق ظن إخناتون فى إنجاب وريث للعرش زوج هذه الإبنة من أمير صغير وهو توت عنخ أتون الذى كان لا يزيد عمره عن تسع سنوات ، وأعلنه خليفة له ، ولكن لم يطل به العمر كثيراً فمات إخناتون فى العام الحادى

---

(١) BRUNNER, "*Eine neue Amarna-Prinzessin*", *ZAS*, LXXIV (1938), 104 - 108 .

والعشرين من حكمه على الأرجح [1] ، وهناك بعض الشك فى أنه دفن فى القبر الذى أعده لنفسه .

كان توت عنخ أتون مقيما قبل زواجه مع الملكة نفرتيتى ، ولهذا ربما كانت راضية عن سير الأمور فى هذه الفترة . على أى حال فاننا لم نعد نسمع شيئاً عن هذه الملكة ولم يعثر لها على قبر ، وبالرغم من أن الملك الصغير بدأ حكمه فى العمارنة مخلصاً لديانة أتون ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا .

رسائل العمارنة :

جاء ذكر رسائل العمارنة عند حديثنا على إهمال إخناتون لشئون ملكه وسد أذنيه عن سماع الشكاوى التى كان يرسلها بعض الحكام المصريين من آسيا ، وبعض الأمراء الأسيويين الموالين لمصر . وقد عثر على هذه الرسائل فى تل العمارنة فى المبنى التى كانت تحفظ فيه المراسلات وهى مكتوبة كلها على ألواح صغيرة من الطين المحروق باللغة الأكدية الدارجة كتب أغلبها كنعانيون أو مصريون يعرفون تلك اللغة .

وقد عثرت عليها إحدى الفلاحات عند أخذ السباخ من تلك المنطقة فى عام ١٨٨٧ ومن ثم وجدت طريقها إلى تجار الآثار وتفرقت فى كثير من متاحف العالم ومجموع المعروف منها ٣٣٧ رسالة [2] ، لقيت ما هى جديرة به من اهتمام لأنها أهم المصادر التاريخية التى توضح لنا ما كانت عليه الحالة السياسية فى بلاد سوريا - فلسطين وبابل وأشور وميتانى وخيتا فى أواخر أيام أمنحتب الثالث

---

(١) K. C. SEELE, *King Ay and the Amarna Age*,
وانظر كذلك لوحة ٦٣ نقش رقم ١ فى كتاب *City of Akhenaten*, Part I حيث يوجد نقش باللغة الهيراتيقية يذكر العام الحادى والعشرين .

(٢) ترجم أولبرايت أهمها فى كتاب *Ancient Near Eastern Texts* ص٤٨٣ - ٤٩٠ ونرى فى مقدمة فصله بيانا بالمؤلفات المختلفة عن هذه الرسائل .

وطيلة أيام إخناتون بل إن منها ما كان قد أرسل إلى سمنخ كارع خليفة إخناتون على العرش .

توضح لنا هذه الرسائل الصلة التي كانت بين مصر وتلك البلاد ، وتوضح لنا الكثير من أساليب المراسلات الدولية في ذلك العهد وما كان يدور بين ولايات سوريا وبين غيرها من تطاحن ومؤامرات .

كانت مملكة ميتاني في شمال العراق ،وكانت تربطها بمصر صلات من الود والمصاهرة ولكن مملكة خيتا (في الأناضول) الناشئة الطموحة أرادت أن تستولى عليها في عهد سوبيلوليوما فاستغاث ملك ميتاني بمصر فأرسل إليه أمنحتب الثالث نجدة ساعدته في صد الخيتيين . وأدرك ملك خيتا أنه لن يتمكن من تحقيق أطماعه في آسيا ما دام النفوذ المصرى قويا ولهذا أخذ يؤلب بعض الأمراء الأسيويين ليشقوا عصا الطاعة فاستجاب له أميران طموحان وهما أمير قادش الذى بسط نفوذه على سهل سوريا الشمالى وهزم الأمراء الموالين لمصر ثم عبد أشرتا ملك الأموريين الذى أخذ يهاجم مدن الساحل الفينيقى وتبعه في ذلك ابنه عزيرو الذى كان يتظاهر دئما بالولاء لمصر ويرسل الرسائل مؤكداً إخلاصه وينفى ما يقال عنه . وأخذت المدن تستغيث بفرعون مصر ولكنه كان يعيش في عالم آخر ، ولم يهتم حتى بمقابلة الرسل الذين أتوا من آسيا ليبسطوا حقيقة الأمر . وكان عزيرو واثقا من فوضى أمور البلاط في العمارنة وكان يعتمد على صديقه « توتو » أحد سقاة إخناتون المقربين حتى لا تتدخل مصر أو ترسل بعض جنودها . وبعد أن تم لعزيرو ما أراد على الساحل الفينيقي شمال مدينة جبيل بدأ يهاجم المدن الأخرى على الفرات منضما إلى جيوش الخيتيين فسقطت مدينة « نى » وحاصروا « تونيپ » فأخذت تستغيث بملك مصر : « أن عبدتك مدينة تونيپ تقول من ذا الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيپ دون أن ينتقم لها منخپريا (تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب مافعل بها ؟ إن آلهة مولانا الملك وتماثيله مازالت لدينا وليسأل مولانا في ذلك

المتقدمين فى السن من رجاله ليعرف إذ كنا نقول الحقيقة أو لا نقولها . إذا لم تدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا مثل ما صنع مع مدينة « ني » وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا ملك مصر » . وأخذ أهالى تونيپ يستغيثون مرة بعد أخرى وهذه آخر رسالة لهم:

« والآن فإن مدينتك تونيپ تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لنا . لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم تتلق رداً منه » .

ومن الغريب أن إخناتون كلف أحد موظفيه بعمل تحقيق فما كان من ذلك الموظف إلا أن باع نفسه لعزيرو ووقف إلى جانبه فى محاربة المخلصين لمصر للقضاء عليهم . وتكشف لنا هذه الرسائل عن وجود خطر آخر وهو وجود قبائل سامية تسمى قبائل الخابيرو (وربما كان هو الاسم الذى أطلق على العبرانيين فيما بعد) ، وكانوا قبائل من البدو المقيمين فى شرق الأردن يؤجرون أنفسهم للقتال ، فاستعان بهم بعض الأمراء للإستيلاء على حصن مجدو ثم أخذوا يهددون أورشليم فسقطت بدورها وهكذا أصيب النفوذ المصرى بضربات قاصمة فى سوريا وفى مدن الساحل الفينيقى وفى أعلى الفرات وفى فلسطين بينما كان إخناتون يقيم فى مدينته مقسما ألا يغادرها حتى يموت ، موزعا وقته بين الصلاة لآتون والاستماع إلى رياء وملق رجال بلاطه الفاسدين .

واستغاث بعض هؤلاء الأمراء بأمه الملكة « تى » وكتبوا إليها ، وأرادت تى أن تنقذ الموقف ولكن ابنها المسالم أبى أن يفعل شيئاً لإنقاذ الموالين له من فتك الحيثيين وقبائل الخابيرو . وأخذت الأمور تزداد سوءاً فى داخل مصر وفى إمبراطوريتها حتى انتهت أيام إخناتون وتولى توت عنخ أتون العرش وتيسر للقائد حورمحب أن يقوم ببعض المجهود لاستعادة بعض ما فقدته مصر .

نهاية ديانة أتون :

أحدثت ديانة آتون إنقساما كبيراً فى البـــلاد ووقف الكهنة وأكثر العائلات القديمـة المحافظة من إخناتون موقف العـداء أو على الأقل موقفاً سلبيا انتظاراً لتطور الحوادث . ولم يكن للملك الفيلسوف من قوة أو نفوذ يقاوم بهما التيار لو لم يكن من ورائه الجيش يدين بالولاء للعرش وظل بعيداً عن المنازعات الداخلية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى رجل حكيم مصلح وهو القائد حور محب الذى ظل على رأس الجيش طيـلة هذه الفترة ولم يحـارب الدعوة الجديدة ولم يكن من مؤيديها المخلصين المتحمسين ، بل ظل مخلصاً لواجبه فقط .

ويريد بعض الباحثين فى تاريخ هذه العائلة أن يروا أن القبر الذى يوجد فى تل العمارنة باسم « پا ـ أتون ـ أم ـ حب » والذى لم ينتهى العمل فيه ، هو قبر كان قد بدأه « حور محب » أو أمر إخناتون بعمله له عندما أقام فى تلك المدينـة فترة من الوقت ، ولـكن هـذا الرأى لا يخرج عن دائرة الظن أو الاحتمال .

فلما جلس « توت ـ عنخ ـ أتون » على العرش كان فى مسيس الحاجة إلى رجال مخلصين لإنقاذ البلاد ممـا كانت فيه وقد وجد ذلك فى رجلين أحدهما « آى » الذى أشرف على إدارة البلاد وحاول أن يصلح ما استطاع ، والآخر « حور محب » الذى ظل فى منف بعيداً عن طيبة وعن تل العمارنة وبذل كل ما فى وسعه لإصلاح الموقف فى أسيا .

وهناك احتمال بأن حور محب ذهب مرة حوالى العام الثانى عشر من حكم إخناتون فى حملة إلى سوريا ولـكن هناك أيضاً ما يكاد يكون حقيقة واقعة وهو أنه فى العـام الأول من حكم توت عنخ أتون ذهب على رأس الجيش لإعادة الأمن إلى بعض ولايات فلسطين وفينيقيا . أما فى سوريا وفى شمـال

الفرات فقد كانت الحالة متحرجة إلى أبعد الحدود وكانت خيتا ، بدأت تدخل فى عصرها الذهبي وتوسعت كثيراً على حساب مصر منذ أواسط حكم أمنحتب الثالث وزادت فى أواخر أيامه وطيلة أيام إخناتون .

وليس هناك من شك فى أن التحاما ما حدث بين مصر وخيتا أو على الأقل بين جيوش مصر والمدن المؤازرة لخيتا ، وقد ادعت النصوص الخيتية بأن النصر كان لها كما ادعت النصوص المصرية (مقبرة حور محب فى سقارة ومقبرة حوى فى طيبة وصندوق توت عنخ أمون) بأن النصر كان لها أيضا ، وربما كان كل من طرفى النزاع قد حقق جزءاً مما كان يرمى إليه فادعى النصر الكامل .

وكان من المستحيل أن تبقى الأمور فى مصر على ما كانت عليه. فقد رأينا كيف تراجع إخناتون فى أعوامه الأخيرة ، وكيف أرسل « سمنخ كا رع » إلى طيبة ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل لأن كهنة أمون الأقوياء رفضوا إلا إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ورفضوا أى حل وسط .

وقضى « توت عنخ أتون » ثلاث سنوات فى العمارنة ولكنه قبل أن يغادرها إلى طيبة رضخ أو رضخ مشيروه لمشيئة كهنة أمون وأنصارهم وغير اسمه إلى « توت عنخ أمون » وقد عثر له ولزوجته فى تل العمارنة على آثار بعد تغيير أسمائهما بإدخال أمون فيها ثم انتقل نهائياً إلى طيبة . ولاقت الدعوة إلى عبادة أتون المصير المحتوم ، فقد سلط كهنة أمون أنصارهم على آثار أتون وآثار إخناتون فحطموها أينما كانت، وخربوا المدينة وخربوا القبور وفتكوا بما فيها من موميات واعتبروا المكان بأكمله مكانا نجسا ، أما موقف توت عنخ أمون من ذلك كله فإننا نراه واضحا كل الوضوح فيما خلفه من آثار فإن موارد الدولة كلها وثروة البيت المالك خصصت لإصلاح مافسد وإقامة ما تهدم من المعابد أو أوقف العمل فيه ، ورضخ الملك الشاب لجميع اشتراطات الكهنة وإن ادعى فى لوحته بأنه فعل ذلك عن طيب خاطر ، وهذا بعض ما جاء فى لوحته [1] :

---

(١) أحدث ترجمة لهذه اللوحة هى ترجمة بنت (*J. Bennett*) فى مجلة *JEA*, XXV (1939), p. 8*ff*

وها هو يتحدث عن أعماله « فكر جلالته فى عمل مشاريع يحبها قلبه باحثاً عن أى عمل مفيد ليؤدى خدمة لأبيه أمون . وصنع له تمثالا نحيا من الذهب الجيد . بل وفعل له خيراً مما كان قبل ذلك إذ جعل محفة تمثاله على ثلاثة عشر عموداً بينما كانت محفة ذلك التمثال العظيم على أحد عشر عموداً فقط » . كان ذلك دون شك ترضية لكهنة أمون إذ صنع تمثالا من الذهب بدلا من التمثال الذى عسى أن يكون إخناتون قد أخذه من قبل، كما جعل محفة التمثال الجديد أكبر من سابقتها . ولم يكن هناك مجال لأولئك الدخلاء الذين أقحموا أنفسهم على الكهنوت فعاد الأمر من جديد إلى أبناء العائلات فيقول توت عنخ أمون فى موضع آخر « وعين كهنة ومرتلين من بين أبناء وجهاء البلاد وكان كل منهم ابنا لرجل معروف وهو أيضا رجل ذو اسم معروف». أما المعابد المصرية الأخرى التى أصابها الخراب فقد نالت التعويض اللازم لإعادة العبادة فيها،وضوعفت ثروات المعابد بل وكانت أيضا فى بعض الأحيان ثلاثة وأربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب ولازورد وفيروز .وهكذا عاد الملوك رغم أنفهم إلى حظيرة أمون وانتصر كهنة أمون انتصارا كاملا، وكان يوم تسليم « توت عنخ أمون » للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

ولكن إذا كانت هذه النكسة قد أصابت ديانة أتون فإن الفن ظل يتمتع بالكثير من حريته . فنحن نعرف أن المبالغة الكثيرة فى تصوير الأشخاص وصنع التماثيل خفت حدتها ابتداء من السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون،فلما جاء توت عنخ أمون إلى طيبة أخذ الفنانون يعودون إلى الأسلوب القديم ولكنهم لم يتحرروا تماما من أسلوب العمارنة . فنرى فى محتويات مقبرة توت عنخ أمون ، وفى المقابر الأخرى التى نشأت فى عهده أو فى عهد آى ، وأوائل أيام حورمحب كثيرا من الحرية التى اعتدنا أن نراها فى عمل الفنانين منذ أيام أمنحتپ الثالث .

وحكم توت عنخ أمون نحو عشر سنوات عاش السبعة الأخيرة منها فى طيبة ومات دون أن يكون له ولد من بعده، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة التى حكمت نحو ٢٢٠ سنة (١٥٧٠ — ١٣٥٢) بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو « آى » الذى لعب دورا كبيرا أثناء حياة إخناتون ،وكان دون شك المدبر لانتقال توت عنخ أمون إلى طيبة، وصاحب الرأى الأول فى البلاد وصاحب الصلة الكبيرة بكهنة أمون .

ومن الجائز أن كهنة أمون لم يرضوا بعودة توت عنخ أمون إلى طيبة وجلوسه على عرش البلاد إلا بعد حصولهم على ضمانات كافية بألا يتكرر ما حدث من إخناتون ، وربما كان من بين هذه الضمانات ما كان يسعى إليه آى وهو الجلوس على العرش فاشترك مع توت عنخ أمون فى الحكم كما اتضح أخيرا ، إذ عثر على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمها المشترك .

عثر على أحجار من هذا المعبد ضمن مبانى الصرح الثانى فى الكرنك وهو الصرح الذى أقامه حورمحب واستخدم فى مبانيه كثيرا من الأحجار التى كانت مبعثرة فى الكرنك ومن بينها أحجار من المعابد التى أقامها إخناتون وخلفاؤه.

ولسنا نجهل عداء حورمحب لآى ، ولسنا نجهل عداءه فيما بعد لذكرى إخناتون وعائلته ولهذا ، يدهشنا أن نراه قد حطم اسم توت عنخ أمون وآى على جدران ذلك المعبد ثم هدمه ورمى بأحجاره فى صرحه الذى بناه ، حيث ظلت فى مكانها حتى عثر عليها فى أوائل عام ١٩٥٠ [1] .

وهذا يفسر لنا سبب وجود آى مرسوما على جدران مقبرة توت عنخ أمون يقوم بأداء بعض الطقوس الدينية لمومياته وهو يلبس لباس الملك ،

---

(١) أشار شفرييه إلى هذه الأحجار فى تقريره فى مجلة أخبار مصلحة الآثار عام ١٩٥٢ كما أفاض فى الحديث عنها سيلى فى مقاله فى *JNES* , XIV (1955) ص ١٧٦ وما تلاها .
وقد أراد سيلى فى مقاله المذكور (ص ١٧٨ ـ ١٨٠) أن يثبت أن آى كان جدا لتوت عنخ أمون وكان والدا لأبيه أما أمه فكانت إحدى بنات أمنحتب الثالث ولكن ماقدمه سيلى من أدلة غير كاف لقبول هذا الرأى قبولا نهائيا .

ويفسر لنا أيضا حرصه على الزواج من أرملة توت عنخ أمون إن كان قد تم ذلك ليكون توليه العرش شرعيا من جميع الوجوه .

إخناتون بين ناقديه والمعجبين به :

قلما حظى ملك أو عصر بما حظى به إخناتون وعصره من اهتمام الناس، ولو أردنا حصر ما كتب عن ثورة العمارنة ودياناتها لزاد عن بضع مئات من المؤلفات والمقالات وذلك بسبب ما جاءت به تلك الثورة من آراء دينية وما نتج من تحرر فى الفن .

وليس من شأن هـذا الكتاب أن يقف طويلا عند هذا الموضوع أو يعطى تفصيلا أكثر مما أعطيناه، ولكن الواجب يحتم علينا أن نشير إلى بعض نقط مهمة ترددت فى بعض الأبحاث التى كتبها علماء محققون من المشتغلين بدراسة التاريخ .

فقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر إلى تمجيد إخناتون تمجيداً كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب، ويدعو إلى ما يقرب من الوحدانية، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب بل ذهب بعض المؤرخين وخاصة برستد إلى التأكيد بأن نشيده هو أصل المزمور ١٠٤

ويحمل البعض الآخر على إخناتون حملات منكرة ويتهمه بالضعف وتضييع الإمبراطورية، بل وينكر عليه أن أناشيده أو آراءه كانت مبتكرة، ويغالى البعض الآخر فيحاول الحط من قيمته بإلقاء ظلال من الشك على خلقه، ولكننا إذا غفرنا للفريق الأول مغالاته - إذا كانت هناك حقيقة أى مغالاة - فإن الفريق الآخر متحامل دون شك على الرجل وتتصف أعمالهم بحب الطعن وتلمس الأخطاء بل وخلقها خلقا . وربما كان بعضهم يفعل ذلك

عن حسن نية تقليداً لغيره ،ولكن البعض الآخر يتبع فى ذلك سنة استنها بعض الكتاب من الأجانب وهى التقليل من أهمية تاريخ الشرق وبخاصة مصر وهم مدفوعون فى ذلك إما بالتعصب الدينى أو بالتعصب الاستعمارى .

كان إخناتون فيلسوفا ومفكراً من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم ، وإذا كانت المرارة قد تملكت نفسه بعد أن رأى الصعاب فى نشر دينه الجديد فأهمل شأن الحرب فربما كان لذلك أسبابه ،وربما كان أيضا عن عقيدة راسخة فى المحبة والإخاء بين الناس ، وكراهية منه فى القتل والتخريب .

وأراد بعض الباحثين أن يثبت أنه لم يكن لإخناتون أى فضل بل أن الأمور فى ذلك العصر كان يجب أن تأخذ الطريق الذى أخذته سواء فى الدين أو فى الفن ، بل ويغالى صاحب ذلك الرأى فيقول إنه لم يكن هناك مناص من حدوث ما حدث «حتى إذا لم يكن إخناتون سوى غرارة من نشارة الخشب »[1] ، ولكن هذا الرأى لا يمكن أن يثبت أمام النقد الصحيح فإن شخصية إخناتون كانت المحور الذى دارت عليه الحوادث كلها .

ورأى البعض الآخر أن الأمر لم يكن أمر دين أو أمر تنافس سياسى بين إخناتون كملك على العرش وبين سلطان كهنة أمون وثروتهم بل كان نزاعا بين العمال وبين الأغنياء المتملكين لثروة البلاد ، وإن هذه الفتنة لم تنتهى إلا بعد أن قضى عليها حورمحب[2] . ويهب أثرى آخر فيهاجم هذا الرأى مهاجمة شديدة ويفنده ويثبت خطأه ليضع بدله رأيا آخر وهو أن ثورة إخناتون لم تكن إلا نتيجة للصراع بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش ، وأن النصر لأحد الفريقين جاء أيضاً على يدى القائد حورمحب[3] .

---

(١) L.A.WHITE, *"Ikhnaton : The Great Man and the Culture Process", in JAOS*, LXVIII (1948), 91 ff.

(٢) K. PFLUGER, *Haremhab und die Amarnazeit;* p. 76 No. 5

(٣) HELCK, *Der Einfluss der Militarführer in der 18. aegyptischen Dynastie*, p. 73 ff.

ولكن الأدلة التي ساقها « هلك » لم تكن أحسن حظا من أدلة « فليجر » التي هاجمها، والواقع أن الأمر كان أبسط من ذلك كله ،ولن يمكننا أن ننسج من خيالنا وآرائناواحساساتناالحالية فى القرن العشرين صورة لما كانت عليه الحالة فى عصر يبعد عنا بأكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة ، خصوصاً إذا ندر ، بل إذا انعدم ، الدليل على مانقول .

تبقى بعد ذلك نقطة هامة وهى أثر دعوة إخناتون على ديانة العبرانيين وصلة نشيد إخناتون بالمزمور ١٠٤ بالذات . كان المؤرخ الأمريكى الكبير چيمس هنرى برستد أكثر المتحمسين لهذا الرأى وقام بعمل المقارنة بين الاثنين وخرج من بحثه أو من أبحاثه بأن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب توارد الخواطر بحال من الأحوال .

ولا شك أن مثل هذا الرأى لا يمكن أن يطيب قبوله لمن امتلأت نفوسهم تعصبا للكتاب المقدس ، فأخذوا يتشككون فى ذلك يقولون تارة إن آراء إخناتون لم تكن جديدة على الديانة المصرية بل وأن تعبيراته عن وحدانية إلهه كانت معروفة قبله واستمرت قرونا طويلة بعد موته ، ويقولون إن بدوا جهلاء مثل العبرانيين الذين كانوا يعملون فى أشق الأعمال ويذوقون العذاب على أيدى المصريين ، لا يمكن أن يفهموا مثل هذا النشيد أو يعجبوا به أو بغيره[1] . ولكن حجج هذا الفريق غير مقنعة ويمكن لأى باحث أن يضع كلا من النشيد والمزمور إلى جوار بعضهما ليتأكد من أن نشيد إخناتون هو دون شك أصل المزمور ، أما كيف ومتى وصل إلى العبرانيين فهذا موضوع آخر .

كان إخناتون عظيما من عظماء التاريخ ليس فى مصر وحدها وإنما فى تاريخ العالم ، وكانت صيحته دعوة جديدة فى آذان العالم لم يكن الناس قد تهيأوا لها

(١) أهم ما ظهر فى الموضوع هوما قدمه ولسون فى كتابه J. A. WILSON, *The Burden of Egypt* (*Second Impression*, 1954) p. 227 *ff* .
وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم الحضارة المصرية ص ٣٦٤ وما بعدها .

إذ ذاك ، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية فى عهده فهذا أمر آخر . ولو سألنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام إذا كان إخناتون ملكا من الملوك المحاربين ، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال كما حدث لمن كانوا قبله ومن كانوا بعده ، أما أناشيده وآراؤه وأثر ثورته فى الفن فهى باقية وستظل باقية كإحدى مفاخر الحضارة المصرية ، وسيظل اسم إخناتون وثورته الدينية أسماء لامعة فى تاريخ الفكر فى العالم .

توت عنخ أمون :

إذا درسنا آثار توت عنخ أمون وعصره فإنا نجد أنه بالرغم من كونه شابا صغير السن ضعيف البنية فان مصر أخذت تنهض من كبوتها وتستأنف حياتها العادية . فأما عن البناء فقد نشطت حركته كثيرا وانشغل المهندسون أولا فى إصلاح ماتخرب ثم أخذوا فى تشييد معابد فى جهات متعددة من مصر شمالها وجنوبها .ولم يقتصر الأمر على طيبة بل تعداها إلى منف وإلى منطقة أهرام الجيزة كما ترك آثارا أخرى فى شمال السودان .

ولسنا فى حاجة إلى تفكير طويل لندرك أن ما خلفته حركة إخناتون من انقسام وعداوات جعل مهمة تنظيم داخلية البلاد أمراً غير يسير،وأن الأمر كان محتاجا إلى شخص قوى حازم يضرب ضربة قوية لإصلاح كل ما فسد . ولكن توت عنخ أمون كان صغير السن وكانت الأمور تتجه نحو كهنة أمون الذين أسكرتهم خمرة النصر ، كما اتجهت الأمور أيضاً إلى تركيز السلطة فى أيدى الذين شملهم اضطهاد إخناتون فبدأوا بدورهم يضطهدون من اضطهدوهم من قبل .

ولكن مع هذا كله فقد ظل الفن على ازدهاره، ولم يتقلص نفوذ مصر فى النوبة وشمال السودان،وظل حكام السودان يأتون ومعهم زعماء هذه البلاد

إلى مصر ليقدموا ولاءهم وهداياهم ، أما فى آسيا فانا لم نسمع بأى حملات حربية غير الحملة التى يحتمل أن يكون قد قام بها حور محب كقائد للجيش فى السنة الأولى من حكمه وهى التى نرى إشارات إليها فى تاريخ حياة هـذا القائد وكذلك فى مقبرة حوى (رقم ٤٠ فى طيبة) وعلى أحـد الصناديق التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ أمون .

ومات توت عنخ أمون وهو فى ريعان الشباب إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ودفن فى قبر صغير ربما كان قد أعد لغيره ، وملأوا حجراته الأربعة ،وكدسوا فيها الأثاث وما اعتادوا وضعه مع الملوك تكديسا ، ولونوا بعض الجدران على وجه السرعة . ونحن إذ نقف اليوم فى هذا القبر الصغير تستولى علينا الدهشة ونسائل أنفسنا كيف اتسعت هذه المساحة لما نراه فى قاعات المتحف المصرى من آثار كثيرة وكيف يتلاءم هذا القبر المتواضع مع ذلك الأثاث الفخم الكثير ولكن هذا التعجب لا يلبث أن يزول عندما نفكر فى أن الملك توت عنخ أمون لم يكن قد أعد لنفسه قبرا ملائما فلما مات فى هذه السن المبكرة وضعوا مع بعض الأثاث الجنازى الشىء الكثير من المتاع الشخصى فى ذلك القبر غير الملائم . (أنظر أشكال رقم ٢١ - ٢٤)

وليس يعنينا هنا أن نصف آثار هـذا الملك ولكن مهما حاولنا فإنه لا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى الصور التى تمثله مع زوجته ، نراهما مرسومين على العرش وعلى غيره ، ونرى الملكة الشابة أمام زوجها تناوله الزهور مرة (انظر الصورة الملونة على الغلاف) وتناوله السهم مرة أخرى فى منظر من مناظر الصيد . لقد كان الزوجان هادئين سعيدين ووجدا من يحمل عن عاتقهما أعباء الملك ولكن صحة الملك الشاب جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة تاركا زوجته الشابة تحت رحمة الأقدار .

وعندما كشف عن قبر توت عنخ أمون وجدت باقة زهر صغيرة وضعتها الملكة الشابة الحزينة بيدها فوق صندوق المومياء فكانت تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذى تركها وأخذ طريقه وحده إلى العالم الآخر .

رأت عنخس إن أمون نفسها وحيدة ووجدت الملك يخرج من بيت أبيها فعز عليها أن تسكت على ذلك، وقامت بمحاولة جريئة. أرسلت الأرملة الشابة رسولا إلى ملك خيتا وصاحب النفوذ الأكبر فى آسيا والذى أخذ يقوض إمبراطورية مصر فيها ومعه رسالة تقول فيها : « مات زوجى وليس لى ابن ، ويقولون عنك إن لك أبناء كثيرين . فإذا أرسلت إلى ابنا لك فانه يستطيع أن يصبح زوجى . ولن أقبل بحال من الأحوال أن أتزوج واحداً من رعاياى فإن ذلك شيء أمقته» ودهش الملك سوبيلوليوماس لهذا الطلب فأرسل رسولا خاصا إلى بلاط مصر ليتأكد من أنه ليست هناك خدعة وعاد الرسول ومعه رسالة من الملكة قالت فيها : « لماذا تقول « إنهم يريدون خديعتى » ؟ فاذا كان لى ابن فهل كان فى وسعى أن أكتب إلى أجنبى كاشفة عن مصيبتى ومصيبة بلادى ؟ إنك أهنتنى بقولك هذا . إن من كان زوجا لى قد مات وليس لى ابن فهل يتحتم على أن أتزوج من أحد رعاياى ؟ إنى لم أكتب إلى أحد سواك . الكل يقولون إن لك أبناء كثيرين فارسل إلى واحدا منهم ليصبح زوجى » .

وأدرك سوبيلوليوماس أن هذه فرصة سانحة ليمد نفوذه فأرسل أحد أبنائه ولكن المؤامرة فشلت، ونعرف أن الأمير قتل قبل وصوله إلى مصر.[1]

ربما فعلت عنخس إن أمون ذلك بعد وفاة توت عنخ أمون مباشرة ، وقبل أن يتزوجها آى ، إذا كانت قد تزوجته حقا ، فان ذلك أمر ما زال مشكوكا فى صحته . على أى حال فاننا لم نعد نسمع عنها شيئا ، وربما تكون أيضا قد حوكمت عندما عرف تآمرها ، ولسنا نعرف عنها خبرا أو

---

(١) كان المعتقد الى عهد قريب أن نفرتيتى هى التى كتبت الخطاب الى ملك خيتا وأن حورمحب هو الذى أحبط المؤامرة ولكن الوقت الذى حدثت فيه تلك الحوادث كان بعد موت إخناتون بعشرة سنوات على الأقل وبهذا ينحصر الظن فى أرملة توت عنخ أمون ـ أنظر ما كتبه O.R. GURNEY, *The Hittites* (1952), p. 31-23
النص الكامل لهذه الوثيقة ترجم ترجمة حديثة عن الحيثية بمعرفة جوتزة وهو منشور فى كتاب *Ancient Near Eastern Texts*, p. 319 مع المراجع الخاصة به .

قبرا ولم يرد اسمها على جدران مقبرة آى التى أنشأها لنفسه فى الوادى القبلى خلف أبواب الملوك على مقربة من مقبرة أمنحتب الثالث، إذ نرى على جدران تلك المقبرة اسم زوجته تى فقط .

ولم يحكم آى أكثر من ثلاث سنوات شيد فيها بعض المبانى أهمها هيكله فى جبل أخميم ، وبعد موته تطلعت الأنظار نحو منافسه القوى حور محب إذ لم يكن هناك غيره يصلح لإنقاذ البلاد مما تردت فيه .

حور محب :

عرفنا « حور محب » عندما كان قائداً للجيش وأشرنا إلى ولائه لواجبه وعدم تطلعه نحو العرش كما عرفنا فيه يقظته فى تأدية واجبه . وبالرغم من أن حور-محب ولد فى بلدة تسمى حات نسوت (مكانها الآن الكوم الأحمر أمام الشيخ فضل فى مديرية المنيا) [1] فإنه لم يبن قبره هناك عندما كان موظفاً كبيراً فى عهد توت عنخ أمون بل بناه فى جبانة منف التى قضى فيها أكثر أيام حياته والتى كانت مركزاً للجيش .

وقد عثر على هذه المقبرة منذ عهد غير قصير وسرقت أحجارها وبيعت فى الأسواق ووصل بعضها منذ أواخر القرن الماضى إلى متاحف أوروبا والبعض الآخر وصل إلى المتحف المصرى . وقد تجلت فى مناظرها حياة حور محب كرجل حرب فنرى فيها مناظر الأسرى والإشارة إلى ما قام به فى العام الأول من حكم توت عنخ أمون وكذلك ما قام به نحو لاجئى فلسطين وجنوبى سوريا عندما بدأت

(١) أحدث الأبحاث عن مكان هذه المدينة هى أنها الاسم الدينى لعاصمة الأقليم السابع عشر من أقاليم الوجه القبلى وقد درس هذا الموضوع جيدا الأستاذ كيس — H. KEES, *Aegypt. Zeitschr.* LVIII, p. 98-99

أنظر أيضا : GAUTHIER, *Dict, Géogr.* T. IV, p. 86

وأخيرا جاردنر فى كتابه GARDINER, *Onomastica* II, § 106 ff

جيوش خيتا فى مهاجمة تلك البلاد فهربوا إلى مصر بعد أن تفشى بينهم الجزع والجوع [1] .

ونعرف أيضاً عن هذا القائد أنه كان مغرماً منذ صدر شبابه بالأدب وتحصيل العلم ولهذا نرى توقيره الكبير للإله تحوت واعترافه بما أنعم به عليه . سطر هذا كله على تمثاله الذى وضعه فى معبد بتاح فى منف وفضل أن يمثله جالساً يكتب بدلا من تمثيله وهو فى مظهر آخر إذ كان هذا أقرب إلى نفسه وإلى طباعه المتواضعة .

ويظهر أن موت إخناتون وإعلان توت عنخ أمون العودة للدين القديم لم يقض عليه ما أصاب البلاد من فوضى واضطراب ، بل أن ذلك فتح الباب أمام الانتقام والتخريب ، وكان الفقير هو الضحية الأولى دائماً فى ذلك الوقت العاصف المضطرب ومات آى فسعى الملك سعياً إلى حور محب إذ كان الناس جميعاً وبخاصة الفقراء قد سئموا الانقسام والفوضى وعدم الطمأنينة ، فلما خلا العرش سار حور محب إلى طيبة يصحبه إله المدينة التى ولد فيها وهو الإله حور حيث تمت مراسيم تتويجه هناك وانتقل إليه الملك دون إراقة نقطة دم واحدة وتزوج من الأميرة « موت نزم » من أميرات البيت المالك القديم . لقد نشأ حور محب نشأة حربية وقضى صدر شبابه فى الجيش وكان

---

(١) كتب كورت فايجر بحثا عن حور محب وجمع شتات هذه الأحجار التى بعثرت بين متاحف ليدن وبرلين وفينا وبولونيا ولندن وليننجراد واللوفر والقاهرة ونشر ذلك فى بحثه

K. PFLUGER, *Haremhebs Laufbahn bis zur Thronbesteigung*, 1936 .

وقد كتب المؤلف نفسه فى عام ١٩٤٦ مقالا عن حور محب وقوانينه فى مجلة *Journal of Near Eastern Studies*, VOl. V, p. 260 - 276

ولكن أحدث الأبحاث عن حور محب هو ما كتبه أخيراً جاردنر GARDINER, *The Memphite Tomb of the General Haremhab*, in *Journal of Egyptian Archaeology*, VOL. 39 (1953) p. 3 *ff* .

كما نشر جاردنر أيضاً فى العدد نفسه من المجلة مقالا آخر عن تتويج حور محب :

The Coronation of King Haremheb, p. 13 *ff* .

فى وسعه أن يحصـــل على أمجاد كثيرة إذا سيره نحو الفتح وإحضار الغنائم ولكنه كان رجلا حصيفا وكانت تجارب الحياة قد صقلته فعرف أن الاستقرار الداخلى أجدى بكثير من إفناء موارد البلاد فى حروب غير مأمونة النتيجة ، خصوصاً وأن البلاد كانت فى حالة تكاد تصل إلى اليأس ، فكان همه الأكبر هو الإصلاح الداخلى وإزالة كل آثار سنوات حكم إخناتون ومن جاء بعده .

وهناك احتمال كبير فى أن حور محب أراد استقرار الأمور فى آسيا فعقد معاهدة بينه وبين مورسيل الثالث ملك خيتا ضمنت له استقرار الأمور على الحدود واندفع بعـــد ذلك بكل ما أوتى من خبرة وذكاء وهمة نحو الإصلاح الداخلى فسن القوانين العديدة وأمر بإصلاح المعابد وترميمها كما نعرف أيضـــاً أنه أمر بعمل تفتيش على مقابر الملوك لأنه حدثت بعض الاعتداءات عليها ، وسرق بعضها فى فترة الاضطرابات . وخير ما يعطينا فكرة عن حالة مصر وتدهورها وما كان يقع على الفلاح المسكين من ظلم وما تفشى بين الموظفين من الفساد والرشوة هو مرسوم قوانينه الذى أبقى عليه الزمن حتى الآن . وهـذا هو ملخص هذا المرسوم الهـام كما قسمه فليجر [١] .

يبدأ المرسوم بألقاب حور محب وبعض جمل المديح فيه ، ثم يذكر بأن الملك كان يقضى الليل والنهـار فى التفكير فيما يمكن عمله لإصلاح مصر وأنه أخذ قلما وقرطاسا من البردى وكتب فيها ما يأتى :

١ ـ التشريع الأول خاص بالعقوبات التى توقع على كل من يعوق السفن التى تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة ، وكان عقاب ذلك جدع الأنف والنفى إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة .

(١) نشر فليجر بحثه باللغة الانجليزية فى عام ١٩٤٦ (أنظر الصفحة السابقة)
وقد ترجمه إلى الفرنسية العالم البلجيكى فان دى وال B. VAN DE WALLE, *Le Décret d'Horemheb, Chronique d'Égypte*, No. 44 (1947), p. 230 - 238.

٢ — والجزء الثانى يختص بالإجراءات التى تتخذ فى حالة سرقة سفن تكون محملة بالضرائب الخاصة بالدولة وتكون مرسلة إلى الملك .

٣ — وثالث الإجراءات ما يوقع على من يفعل ذلك أيضاً أو يحول دون وصول سفن محملة بأشياء مستحقة لزوجة الملك أو إلى المعابد .

٤ — والجزء الرابع يختص بمعاقبة الموظفين الملحقين بمكتب قرابين الملك الذين يذهبون إلى قرية من القرى لأخذ نبات « كث » ويجعلون أرقاء بعض الناس يشتغلون فترة من الزمن دون رضاء سادتهم .

٥ — والقسم الخامس خاص بالإستيلاء على جلود الحيوانات كجزء من الضريبة ومعاقبة الجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للإستيلاء على هذه الجلود دون وجه حق .

٦ — والقسم السادس خاص بالإجراءات ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين وما يحدث من تلاعب من موظفى الضرائب .

٧ — وسابع هذه الأقسام هو العقاب الذى يوقع على من يأخذ من الفلاحين النبات المسمى « سم » والذى كان ضروريا لعمل الجعة بحجة أنه يؤخذ لأجل ضرائب الملك .

٨ — ثم تأتى بعد ذلك العقوبات التى توقع على من يظلم الفلاحين بأخذ بعض الحبوب أو الخضروات دون وجه حق باسم الملك .

٩ — وتاسع التشريعات يختص بالعقوبات التى توقع فى حالة اقتراف جريمة من الجرائم لم نعرف كنهها بالضبط نظرا لتحطيم النقش فى هذا الجزء ، غير أننا نرى فيها اسم مدير البلاد الأجنبية وأنه يعطى ذهب الملك إلى بعض الناس.

١٠ — وعاشر هـــذه التشريعات خاص بمنع القسوة أو كثرة العمل على الأرقاء .

فإذا ما انتهى هـذا الجزء الخاص بالتشريعات والعقوبات فإن المرسوم يبدأ بذكر الاصلاحات الإدارية التى أمر حورمحب بعملها ويبدأ هذا الجزء بمقدمة يتحدث فيها بأنه سار فى جميع أنحاء البلاد وعرف ما يجرى هناك ولهذا قام بإصلاح المحاكم ، وكان قضاتها من بعض الموظفين والكهنة ، وبعـد أن أصلح شئونهم المادية اعتبر أن اعتداء أحد أعضائها على العدل وظلمه للناس بسبب رشوة أوغيرها إنما كانت جريمة كبرى أى جزاؤها القتل .

ونظم أيضا أمور الجيش ورتب لجميع أفراده على اختلاف أسلحتهم ودرجاتهم ما يكفل لهم الطمأنينة كما رتب لهم أيام راحة خاصة .

وكان آخر ما ذكره فى هذا المرسوم أنه وضع تنظيما خاصا للبروتوكول فى السراى ومراتب الموظفين وأيهم يتقدم على الآخر .

ويقول حورمحب فى مرسومه هذا الذى عدد فيه إصلاحاته بأنه إذا طال به العمر سيقيم المعابد للآلهة وأنه سيجدد مولده مثل القمر ثم يختمه قائلا « إنكم تستطيعون رؤية هذه المراسيم التى أمر جلالتى بتجديدها عند إصلاح البلاد كلها بعد أن رأى جلالتى أعمال الظلم التى كانت تقترف فى هذه البلاد ».

ونحن إذا تتبعنا حالة البلاد فى عهد حور محب فإنه لا يخامرنا أى شك فى أنه نجح فيما أراده، فعادت لمصر ثقتها فى نفسها وعادت الطمأنينة إلى النفوس فلما مات فى عام ١٣١٩ ق . م . بعد أن حكم ثلاثين عاما ترك وراءه بلادا مطمئنة ، وهكذا ختمت الأسرة الثامنة عشرة أيامها بملك عظيم وهو حور محب كما بدأتها بملك عظيم وهو أحمس الأول .

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٢٠ — ١٢٠٥ ق . م .)

أسرة جديدة :

حكم حور محب ثلاثين عاما أعاد فيها إلى البلاد أمنها وسلامتها. وكان الرجل فى مستهل حياته غير راغب فى الملك ولم يسع بعد ذلك فى يوم من الأيام إلى توطيد أركان الحكم لمصلحته الشخصية أو مصلحة بلده الذى نشأفيه فى مصر الوسطى أو لمصلحة أحد من أهله . ولسنا نعرف إن كان هو الذى اختار قبل موته أحد زملائه فى الجيش ليجلس من بعده على العرش أو أنه ترك هذا الاختيار لغيره ، لكننا نعرف أن العرش بعد موت حور محب انتقل بسهولة ودون أى اعتراض إلى زميل قديم فى الجيش يسمى رمسيس(فى اللغة المصرية رع ـ مس ـ سو) ، وكان شيخا طاعنا فى السن ، وكان هو ونجله سيتى من القواد العسكريين ، وكان كل منهما يشغل مركز الوزير فى الوجه القبلى فى وقت من الأوقات ، وكانا من ذوى النفوذ الكبير فى الجيش ، وفى الإدارة .

وكان رمسيس هذا من الدلتا ومن مدينة صان الحجر بالذات التى كانت مقر عبادة الإله ست منذ عصر الهكسوس ، وكان لهـــذا الإله منذ الدولة القديمة احترام خاص فى شرقى الدلتــا ، ولهذا لا نستغرب أن نرى رمسيس الأول قد سمى ابنه « سيتى » نسبة اليه ولا نستغرب أيضا إذا كان الملك رمسيس الأول بدأ يفكر تفكيراً جدياً فى الإلتفات إلى تانيس وجعلها مركزاً هاما فى إدارة البلاد .

وبالرغم من أن الملك رمسيس الأول قد حكم أقل من عامين فإنه استمر على إدارة البلاد بحزم ونجح كل النجاح فى السير على سياسة حور محب . فمنذ اعتلائه للعرش أراد أن يشترى تعضيد كهنة أمون فبدأ فى إقامة المبانى

العظيمة له فى الكرنك إذ أن رمسيس الأول هو الذى بدأ فى إنشاء بهو الأعمدة الكبير، ولم يقف الأمر عند ذلك بل أنه فى هذه الفترة القصيرة أنشأ معابد مختلفة فى الشمال وعلى الأخص فى منف وفى النوبة وبدأ فى تشييد قبر له فى وادى الملوك لم يكن تم جزء كبير منه يوم موته . وتلاه على العرش ابنه سيتى الأول الذى يعتبر بحق من أهم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر .

الملك سيتى الأول :

كان سيتى الأول عند موت أبيه فى منتصف الحلقة الخامسة من عمره ، وكان له من خبرته وتجاربه ومن ذكائه الفطرى ما أهله للقيام بالدور العظيم الذى كان مقدراً له أن يقوم به .

فقد قضى سنوات شبابه وهو يعمل ضابطاً فى الجيش وبخاصة على حدود مصر الشرقية ، كما تقلد وظائف عدة وكان قائداً للفرسان ، كما أوكل إليه حور محب بعض الوظائف الكبيرة فى الدولة . ولا شك أنه كان قد تتبع كل اصلاحات حور محب وكان من منفذيها كما كان ساعد والده الأيمن خلال العامين اللذين جلسهما على العرش ، فلما آل إليه الملك وجد أن خير ما يفعله هو أن يسير على نمط أبيه ونمط حور محب ، وكان له من شبابه وخبرته ماجعله يبدأ عصراً جديداً فى تاريخ البلاد فسمى أولى سنوات جلوسه على العرش أنها بدء عصر البعث « وهم ـ مسوت : ترجمتها الحرفية تكرار الولادة » .

ولم يكد يجلس على العرش وتنتهى حفلات التتويج حتى أصدر أوامره لإتمام مالم يتمه أبوه من مبان ، كما أصدر أمره أيضاً بإصلاح مالم تتسع أيام حور محب لإصلاحه مما تسبب عن ثورة إخناتون الدينية من تخريب فى المعابد، ولكنه فوجىء بقيام ثورة وراء الحدود الشرقية فأسرع لإخمادها وترك لنا أخبار انتصاراته على جدران معبد الكرنك، ورسم لنا فيها الحصون التى أعادها إلى حظيرة الطاعة بعد أن هزم بدوسينا وجنوبى فلسطين «الشاسو» وهى الحصون

التى كانت تمتد من القنطرة حتى رفح [1] . وأراد سيتى أن يعيد لمصر مجدها القديم فتقدم مع جيشه فى فلسطين ، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا الطاعة بمؤازرة وتحريض مملكة « خيتا » تجمعوا فى بيسان وأن بعضاً منهم تجمعوا فى بلد يسمى « حماه » (وهى غير مدينة حماة السورية) والبعض الآخر فى بلدة « ينعم » فلم يمكن سيتى الأول أعداءه من التجمع سويا فى مكان واحد بل أرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه قضت عليهم بسهولة وتم له النصر ودانت له فلسطين وفينيقياً والجزء الجنوبى من سوريا وبخاصة البقاع ومدينة قادش .

وكان سيتى الأول يريد متابعة انتصاراته ليؤدب الثائرين الآخرين ويقابل جيوش خيتا ولكن أنباء ثورة أخرى على حدود مصر الغربية اضطرته للعودة مكتفياً بما ناله من غنائم وانتصارات .

كانت الحالة فى شمال إفريقيا بدأت تدخل فى دور من عدم الاستقرار على إثر الهجرات الهندوأوروبية التى أخذت تجتاح كل بلاد الشرق القديم فى ذلك العهد ، وكان من أثر هجرات هذه الشعوب ونزول بعضها على شاطىء شمال إفريقيا أن بعض تلك القبائل نظر بعينيه نحو مصر لمهاجمتها والاستقرار فيها ، ولكن سيتى الأول هزمهم فى موقعتين سجل أخبارهما على معبد الكرنك أيضاً إلى جانب أخبار معاركه الأخرى فى سينا وفلسطين وسوريا .

ولسنا نستطيع أن نحدد تاريخ حربه فى ليبيا بالضبط ولكن من المؤكد أن تلك الحملة كانت بعد استيلائه على قادش وقبل أن يعود مرة ثانية إلى آسيا ليحارب « خيتا » أى أن التاريخ المرجح لهاتين المعركتين أنهما كانتا فى السنة الثانية من حكمه .

---

(١) وكان هذا الطريق يسمى طريق حورس وهو أقدم طريق حربى فى العالم . وقد بحث موضوعه جاردنر فى مقاله GARDINER, *The military road between Egypt and Palestine, JEA, Vol. VI* (1920), *pp.* 99 *ff* .

كان سيتى الأول قد اتخذ حياة وحروب تحوتمس الثالث مثالا يحتذيه ، وكان يعرف أنه طالما كانت « خيتا » بعيدة عن متناول يده فأنها لن تتوقف عن الاستمرار فى دسائسها لتأليب سوريا وفلسطين على مصر خصوصا بعد أن تغلبت على بلاد « ميتانى » فى أعالى الفرات وأصبحت وجها لوجه أمام مصر ، وتطلعت نحو سوريا لتصبح تابعة لها .

ومصادرنا عن حرب سيتى مع خيتا هى مادونه على جدران معبد الكرنك ، وكانت المعركة التى دارت بينه وبين الخيتيين فى شمال مدينة قادش وعاد منها سيتى منتصراً ومعه الأسرى والغنائم . وحفظت المصادر الخيتية أخبار هذه الحرب ونعرف مما كتبوه أن ملك خيتا كان يريد أن يتفادى الحرب مع مصر ويقول إنه لم يكن طالبا لشهرة أو مجد لأنه يمقت الحروب، ولكنه يزيد على ذلك طبعاً أن جيوشه انتصرت . والرأى الأرجح هو أن تلك المعركة لم تكن حاسمة ولم يستفد منها أحد الطرفين ولم تؤثر بحال من الأحوال على مملكة «خيتا» ، وإن كانت قد أثمرت فى شيء فقد أثمرت فى جعل مملكة خيتا تعرف أن مصر فى عهد سيتى الأول غيرها فى عهد إخناتون ، وأن فرعون لن يسمح لقوة أجنبية أن تتدخل لإشاعة الفوضى على حدود مصر الشرقية . وذهب سيتى أيضاً فى حملة على بلاد النوبة وهو يذكر ذلك على آثاره كما يذكر أيضا بلاد « ناهارينا » (أعالى الفرات) و « خيتا » و « آلاسا » (قبرص) وربما كان ذكر هذه الأسماء على آثار سيتى استمرارا للتقليد القديم الباقى من أيام تحوتمس الثالث أو ربما كانت هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها .

ومن المحتمل أن تكون حملات سيتى الأول فى آسيا وإفريقيا اقتصرت على السنوات الأولى من حكمه ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد عقد معاهدة مع خيتا ليحترم كل من مصر وخيتا حدود الآخر وبذلك اطمأن على حدوده وانصرف بكل ما أوتى من قوة لتوطيد الأمن فى البلاد ، وإنشاء المبانى العظيمة فيها .

ويطول بنا الحديث إذا أردنا تعداد المهم من آثار الملك سيتى ويكفى أن نشير إلى أعماله فى الكرنك وبخاصة صالة الأعمدة العظيمة وإلى معبده فى طيبة (معبد القرنة) وإلى قبره فى وادى الملوك الذى يمتاز بأنه أهم المقابر جميعا وكذلك تلك الدرة بين معابد الفراعنة ألا وهى معبده العظيم فى أبيدوس .

وإذا درسنا آثار هذا الفرعون فإن أهم ما يستلفت نظرنا هو المستوى العظيم فى جمال النقوش فإننا نرى من نقوش قبره فى طيبة ومعبده فى أبيدوس أن المدرسة الفنية التى وصلت إلى أوج ازدهارها فى عهد أمنحتب الثالث ظلت على تقاليدها فأخرجت فى عهد هذا الملك روائع فنية من أجمل ما وصل إلى أيدينا من عهد الفراعنة .

وقد استحدث الفنانون فى عهد سيتى الأول أمراً جديدا وهو رسم المعارك الحربية مفصلة وفى حجم كبير على جدران المعابد إذ أن مصر لم تعرف ذلك من قبل، وكان أول من استحدث رسم المعارك هو تحوتمس الرابع عندما زين عربته الحربية بمناظر انتصاراته فى المعارك كما قلنا قبل الآن ، وقد حفظ لنا الزمن أيضاً صندوقا من عهد توت عنخ أمون رسم على أحد جانبيه معركة حربية فى آسيا وعلى الجانب الآخر معركة حربية فى الجنوب ، ولكن فى عهد سيتى الأول رسمت هذه المعارك على جدران المعابد وهو التقليد الذى اتبعه خلفاؤه من بعده .

واهتم سيتى بالمناجم فأرسل الحملات المختلفة وخاصة للحصول على الذهب ويرجع إلى أيامه تاريخ بردية مناجم الذهب فى متحف تورين بإيطاليا وهى أقدم وثيقة جغرافية فى التاريخ عنى فيها الرسام بتوضيح الطرق المختلفة وكتب عليها ما يساعد المطلع عليها لمعرفة الطريق إلى تلك المناجم .[1] كما حفر كثيرا

---

(١) كانت هذه البردية منذ أيام لبسيوس عام ١٨٤٢ مدار أبحاث كثيرين من علماء الآثار وظن البعض أن مكانها هو وادى العلاقى ولكن أهم الأبحاث عنها هى ما نشره ج . و . مرى فى كتاب JOHN BALL, *Egypt in the Classical Geographers* (Cairo, 1942), *p* 180 *ff*.

من الآبار فى الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم مثل بير وادى عباد التى أقام إلى جانبها معبداً صغيراً وهو المعبد المعروف باسم معبد «الرديسيه».

ولم تقتصر آثار سيتى على مصر والصحراء بل وجدت له آثار كثيرة فى بلاد النوبة وشمال السودان وبخاصة فى «سيسيبى» و «نورى» و «جبل برقل» كما عثر له على آثار غير قليلة فى مصر وفى لبنان .

وكان سيتى الأول متزوجا من سيدة تسمى «تويا» من المرجح أنها كانت أختا له ، ولدت له ولدين وبنتا . ومات أكبر الولدين فى حياة أبيه فآلت ولاية العهد إلى الأمير الثانى وكان اسمه رمسيس الذى اشترك مع أبيه فى حكم البلاد لتدريبه وتزوج من اخته الأميرة «سات - رع» وقد خلف هذا الأمير أباه بعد أن حكم سبعة عشر عاما (١٣١٨ - ١٣٠١) ودفن فى قبره فى طيبة وقد أبقى الزمن على موميائه وهى من أحسن المومياوات المحفوظة فى المتحف المصرى.

رمسيس الثانى :

لم يبلغ ملك من ملوك مصر ما بلغه رمسيس الثانى من شهرة فى التاريخ ، فقد استطاع هذا الملك الذى حكم سبعة وستين عاما أن يفرض اسمه وشخصيته على عصره وعلى العصور التالية وملأ البلاد كلها بآثاره .

ونحن نعرف معرفة اليقين أن رمسيس الثانى لم يكن مدعيا أو موهما أهل عصره عندما ذكر على آثاره أن أباه اختاره ليكون وليا للعهد أو أنه أشركه معه فى أمور البلاد ، فان هذا أصبح الآن حقيقة من الحقائق ، ولكننا لا نعرف عمره بالضبط عندما مات أبوه وإن كنا نرجح أنه لم يكن يقل عن الخامسة

= حيث قال «مرى» بأن هذه المنطقة تنطبق على بير أم الفواخير فى طريق قنا — القصير وقد نشر بعد ذلك «جويون» مقالا جديدا عن تاريخ هذه البردية وكل ما كتب عنها ووافق على رأى مرى فى أنها واقعة فى وادى الحمامات وذلك فى بحثه GEORGE GOYON, *Le Papyrus de Turin, Annales du Service* XLIX, p. 337 - 392 .

والعشرين من عمره ، إذ كان أبا لطفلين ذهبا معه إلى الحرب أو لتلقى الجزية فى بلاد النوبه كما نرى ذلك منقوشا على جدران معبد بيت الوالى [1] .

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى عهد الملك سيتى الأول لوجدنا أنه بدأ حكمه بالحرب عندما ذهب لإخضاع بدو الشاسو ، ثم تقدم حتى استولى على قادش والتحم بجيوش خيتا وانتهى الأمر بينه وبين « خيتا » بعقد معاهدة صداقة ظلت محترمة حتى مات الملك سيتى الأول ، وكان حد المملكة المصرية الذى يفصلها عن حد مملكة خيتا عند نهر الكلب شمالى بيروت بقليل .

وعندما تولى رمسيس الثانى الملك بعد أبيه لم يبدأ بنقض هذه المعاهدة بل وجه همه قبل كل شىء إلى توطيد حكمه فأمر بإنهاء جميع ما كان قد بدأه أبوه من معابد ولم يطل أجله ليتمه مثل معبد أبيدوس أو معبد القرنة أو مبانيه المختلفة فى الكرنك .

وكانت خطوته التالية هى التفكير فى استغلال مناجم الصحراء متبعا فى ذلك سياسة أبيه من قبل . فلما انتهى من كل ذلك حوالى السنة الرابعة من حكمه ذهب فى رحلة لزيارة أطراف ملكه فى آسيا . وليس فى استطاعتنا أن نعرف الباعث على ذهابه إلى آسيا أو الذى حدث أثناء هذه الرحلة وجعله يصطدم بمملكة خيتا ، ولكن من المحتمل أن مملكة خيتا هى التى بدأت بتحريض بعض الأمراء على الثورة أو العصيان ، وأن حملة رمسيس الثانى إلى آسيا كانت لتوطيد النفوذ والاطمئنان على حاميات الموانىء وخطوط المواصلات . ثم عاد مرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه بعد أن عبأ جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش خيتا التى كانت قد ألبت الكثيرين من سكان سوريا ضد مصر ، وتجمعت فى قادش لصد جيوش مصر التى كانت فى طريقها إلى هناك .

---

(١) أحدث الأبحاث عن اشتراك رمسيس الثانى مع أبيه فى الحكم هو ما كتبه كيث سيلى فى بحثه *The Coregency of Ramses II with Stety I and the Date of the Great Hypostyle Hall at Karnak.* (Chicago, 1940).

وقد عثر فى الكرنك على ما يؤيد نظريات سيلى فى موسم ١٩٥٣ — ١٩٥٤

معركة قادش :

كان ملك خيتا فى ذلك الوقت يسمى « موتلى » ولم يترك وسيلة من الوسائل إلا التجأ إليها ليجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية تمحق نفوذ مصر وسيادتها فى آسيا . ولهذا لم يكتفى بأن يضم اليه ، سواء بالوعد أو بالوعيد ، الساخطين على مصر أو الطامعين فى إرضاء خيتا ، بل استعان بشعوب أخرى كثيرة وأخذ منها جنوداً مرتزقة وكان من بين هذه الشعوب سكان من جزر بحر إيجه ، وإمارات آسيا الصغرى ، وبلاد الفرات إلى جانب جيش بلاده . وتقدم بكل هذه الجموع إلى قادش وهى المدينة المحصنة ذات الموقع الاستراتيجى الهام ، والتى نعرفها منذ أيام تحوتمس الثالث بأنها باب سوريا الشمالية وما يليها . وتقدم رمسيس الثانى ومعه أربعة جيوش أحدها « جيش أمون » والثانى « جيش رع » والثالث « جيش بتاح » والرابع « جيش ست » وذلك إلى جانب جنود مرتزقة بعضهم من الشردانا الذين سبق أن أسرهم ، والبعض الآخر من الأموريين الذين ربما أمكن تجنيدهم فى فلسطين . اتخذ رمسيس الطريق الحربى القديم وكان معه جيش أمون تتبعه الجيوش الأخرى ووصل إلى بلاد كنعان واتجه شمالا متتبعا الشاطىء حتى شمال بيروت ، إذ ترك لوحة عند مدخل نهر الكلب مؤرخة فى السنة الخامسة أى فى هذه الحملة ، ومن هناك توغل إلى الداخل حتى وصل إلى وداى نهر العاصى .

وحدث إذ ذاك أن قبض الجنود المصريون على جاسوسين من بدو فلسطين (الشاسو) كان أرسلهما « موتلى » ليعرفا تحركات الجيوش المصرية ، وإذا وقعا فى الأسر يقصان قصة متفقا عليها ليضللا المصريين . واعترف الجاسوسان بعد ضربهما بمواقع جيوش خيتا ولكنه كان اعترافا مرتبا من قبل إذ أنهما قالا بأن « موتلى » تقهقر بجيوشه إلى حلب عندما علم بتقدم الجيوش المصرية ، ولكن الحقيقة أن الجيوش كلها كانت مختبئة وراء مدينة قادش منتظرة حضور جيوش مصر لملاقاتها .

وأراد رمسيس أن يسرع خلف عدوه ولم ينتظر حتى تلحق باقى جيوشه به فعبر نهر العاصى ومعه جيش أمون . وكان أقرب جيوشه إليه بعد ذلك هو جيش رع الذى كان على مسيرة بعيدة ، أما جيشا بتاح وست فكانا بعيدين جدا . وكان سير رمسيس خطأ من الناحية الحربية لأن تجمع القوات أحد الأسس الحربية الهامة وكانت هذه القاعدة متبعة دائماً فى حروب أجداده ، ولكن تسرعه فى التقدم ومعه جيش واحد فقط ، وتصديقه لما قاله الجاسوسان وعدم تنظيمه لإدارة مخابراته كما كان يفعل تحوتمس الثالث كلفه ثمنا كبيراً كما سنرى .

عبر رمسيس الثانى نهر العاصى (الأورونت) وعسكر بجيشه فى الشمال الغربى من المدينة ولم يكن يعلم أن ملك خيتا وحلفاءه كانوا خلف التلال وأنهم قاموا فى الوقت نفسه بحركة التفاف وانسحبوا إلى ماوراء قادش على الشاطىء الآخر من النهر . فلما وصل جيش رع وبدأ فى عبور النهر انتظر المتحالفون حتى وصل الجنود إلى الشاطىء الآخر ، وعند ذلك هجموا على جيش رع هجوما مفاجئا فلم يستطع أن يلم شمله ويصمد للحرب ، بل ولى الجنود طالبين المعسكر المصرى فحدث اضطراب كبير ولم يكن فى وسع رمسيس الثانى إلا أن يحاول جمع شتات جنوده ليدافعوا عن أنفسهم . ولكن هذا الهجوم المفاجىء كان قد خلع قلب جيش رع وجيش أمون الذى كان للملك بمثابة الحرس الخاص وتخلى عن رمسيس أكثر رجاله فلم ير بدا من الاعتماد على نفسه فاندفع بين المهاجمين .

---

(١) نشر شارل كونتز نصوص ومناظر وترجمة معركة قادش فى كتابه
KUENTZ, *La Bataille de Qadesh, Le Caire*, 1928 - 1934 .
ولكن منذ عام ١٩٠٣ نشر برستد بحثا وافيا عنها فى :
BREASTED, *The Battle of Kadesh (Decennial Publ . of the University of Chicago V* (1903), *p.* 81 - 126 .
وقد عالج هذه المعركة من الناحية الحربية الميجر برن : BURNE, *JEA VII* (1921), *p.* 191 - 195
وأشار إليها مرة أخرى فى كتابه *The Art of War on Land, p.* 36 - 47
ولكن أحدث الأبحاث عن مدينة قادش وعن بعض النقط الغامضة فى هذه المعركة نجده فى كتاب GARDINER, *Onomastica, Vol. I* (1947) *p.* 137 *ff* .

يقص علينا رمسيس الثانى قصة هذه المعركة فى قصيدة شعرية نقشها على جدران عدة معابد ، فى الأقصر وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى أبيدوس وفى إحدى البرديات كما صور لنا أهم مناظر المعركة على واجهات بعض المعابد ، و نعرف منها أنه رغم ترك جنوده له فانه صمد وحده للقتال، وكان عمله هذا مثلا فى الشجاعة لجنوده من جيشى أمون ورع فلم يمض غير قليل حتى ثبتت قلوبهم والتحموا مع العدو، وبذلك تفادى رمسيس الثانى ورجاله كارثة محققة، والفضل فى هذه الحركة الأخيرة يرجع دون شك إلى وصول نجدة لم يكن أحد يتوقع وصولها فى ذلك الوقت، وهى نجدة من شباب الفلسطينيين المجندين (ثياروناـ بلغة الكنعانيين معناها الشباب أو الفتيان) وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة الضباط المصريين ووجدت حرج مركز رمسيس فمالت على العدو ميلة واحدة فسببت تغيراً فى سير المعركة وأنقذت رمسيس مما كان فيه ، وربما كان نجاح هذه الفرقة راجعا إلى انشغال الجيوش المتحالفة فى نهب معسكر المصريين .

وانتهى اليوم الأول دون أن يكون النصر الحاسم فى جانب رمسيس أو فى جانب أعدائه ، وكانت باقى الجيوش قد وصلت على الأرجح كما كان شعور جيشى أمون ورع بالندم حافزاً للجميع على استئناف القتال فى اليوم التالى، فمالوا جميعاً على العدو حتى كادوا يفنوه، كما تقول النصوص المصرية، فطلب المتحالفون من رمسيس العفو وقبل رسلهم الأرض بين قدميه وسلموه كتابا من ملكهم . ويذكر لنا رمسيس أن ملك خيتا قال له « ليس من المستحسن أن تقتل رعاياك فقد قتلت منهم بالأمس مئات الألوف وها أنت قد يتمت أولادهم ورملت نساءهم ولم تترك لهم وارثا ، فلا تكن قاسيا معنا فالعفو خير من العقاب فامنحنا نسيم الحياة » ونصح ضباط رمسيس سيدهم بأن يقبل خضوع العدو فقبل رمسيس أن يكف عن القتال ، واتفق الطرفان المتحاربان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر وألا يتدخل فى شئون رعاياه . وعاد رمسيس وجيوشه إلى

مصر دون أن يضم مدينة قادش إلى أملاكه ، واقتصرت أمبراطورية مصر فى آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا وعلى الأخص الموانىء التى كانت على الشاطىء .

ونحن إذ ننظر فى تاريخ هذه المعركة الآن ، ونقرأ ما كتبه عنها المصريون وما سطروه على واجهات المعابد فاننا نجد أنفسنا عاجزين عن فهم السبب الذى جعل رمسيس الثانى لا يجنى ثمرة انتصاره ، إن كان حقيقة قد سحق أعداءه فى اليوم الثانى ! ! ولكن ربما كان الحق هو أن الحرب لم تكن فاصلة وأن رمسيس كان يحارب فى يومه الثانى ونفسه مملوءة بالألم والحسرة لهرب جنوده من حوله عند اشتداد الخطر عليه ، إذ نراه يكرر هذا الألم فى نصوصه التى يصف فيها المعركة ويتحدث عن فجيعته فى جنوده إذ تركوه وهو إلههم وسيدهم معرضا للموت ، وجروا طلبا للنجاة . وربما كانت حالته النفسية هى السبب فى قبوله الصلح وهو فى انتصاره مادام رجاله لا يستحقون الإعتماد عليهم . يقول رمسيس أن مركبات العدو التى كان عددها ٢٥٠٠ مركبة ، وفى كل عربة منها ثلاث رجال قد أحاطوا به وكانوا مقسمين إلى وحدات ، بينما « لم يكن معى قائد أو ضابط مركبة أو ضابط من المشاة ولا حامل درع فقد تركنى مشاتى وفرسانى فريسة أمام العدو ولم يثبت واحد منهم لمحاربته » .

وعاد رمسيس إلى مصر فملأ البلاد كلها بأنه انتصر وسحق أعداءه وأن أباه أمون وقف إلى جانبه وأنه أباد عشرات الألوف بسيفه [1] ، ولكن مثل هذه الإدعاءات والتشبيهات الشعرية لا تغير من حقيقة الأمر شيئا وهى أنه إذا كانت هناك نتيجة هامة واحدة من وراء هذه المعركة فهى بقاء رمسيس على قيد الحياة ، واحتفاظ مصر ببعض ممتلكاتها فى فلسطين والشاطىء الفينيقى .

---

(١) كثيراً ما تساءل المؤرخون فيما بينهم عن عدد جنود جيش رمسيس أو عدد جنود أعدائه المتحالفين ويرى ماسبرو (MASPERO, *Struggle of the Nations*, p. 212 *note* 4) أن عدد جيوش خيتا المتحالفة كان حوالى ٢٠٠٠٠ على الأكثر منها ٧٥٠٠ من فيلق المركبات والباقى من المشاة بينما كان مجموع جيوش رمسيس الأربعة لم يزد على ١٥ إلى ١٨ ألفا .

وإذا رجعنا إلى المصادر الخيتية وبخاصة ما كشفت عنه الحفائر فى الأعوام الأخيرة، فاننا نقرأ قصة أخرى تختلف عن قصة المصادر المصرية . فقد كان النزاع بين مصر وخيتا يتركز فى السيادة على بلاد الأموريين (مملكة أمورو Amurru التى كانت مدينة قطنا « تل المشرفة الآن » عاصمة لها) وقد انضم ملكها « بنتشينا » (Bentešina) إلى مصر ووقف إلى جانبها ولم يخضع لتهديدات ملك خيتا ومن آزروه . فلما كانت معركة السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى جمع كل من ملكى مصر وخيتا كل قواته وألقاها فى المعركة، ولكن بينما تتحدث النصوص المصرية عن النصر، وأن ملك خيتا تقدم يطلب الصلح نرى النصوص الخيتية تصف هزيمة المصريين ، وتقول إن جيوش خيتا لاحقتهم حتى دمشق[١] .

ويقف المؤرخون بين هذين القولين ولكن الرأى الأرجح هو تفضيل قصة ملك خيتا لأن مملكة أمورو أصبحت منذ تلك الحرب موالية لخيتا واختفى اسم ملكها « بنتشينا » ليحل محله اسم أحد الزعماء واسمه « سابيلى » (Sapili) كملك فى قطنا ومعترفا بسيادة ملك خيتا[٢] .

بعد معركة قادش :

وإذا تتبعنا الأحداث كما روتها المصادر المصرية فانا نجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى لتصديق المصادر الخيتية، إذ لم يمض عامان على معركة قادش حتى

---

(١) وهذا هو النص الذى خلفه لنا خاتوسيليس عن حروب أخيه ضد رمسيس الثانى فى معركة قادش: « فى الوقت الذى كان موتلى (أوموتليس) يحارب فيه ملك مصر ومملكة أمورو ثم هزم ملك مصر ومملكة أمورو (موقعها كان على شاطىء البحر الأبيض بين البحر وأعالى نهر العاصى) عاد بعد ذالك إلى مملكة أبا (المنطقة حول دمشق) وهزم أخى موتليس مملكة أبا أيضا وعاد إلى بلاد خيتا ولكنه تركنى فى مملكة أبا » . *Ancient Near Eastern Texts* (1950), *p.* 319 .

(٢) ALEXANDER SCHARFF UND ANTON MOORTGAT, *Aegypten und Vorderasien im Altertum*, *p.* 359 - 360 .

كانت فلسطين نفسها قد ثارت بأسرها وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر إذ كانت عسقلان من بين المدن التي وجد رمسيس الثاني نفسه مضطراً للإستيلاء عليها. ولم يهمل رمسيس، بل سارع إلى إخماد الفتنة وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وكذلك بعض بلاد الأموريين وبخاصة حصن «دبور» التي دارت عنده إحدى المعارك الهامة. وربما كانت هناك حاميات خيتية تغلب عليها رمسيس عند استيلائه على مدينة «تونيب» فأعادت هذه الحملة إلى مصر سيادتها على تلك البلاد كلها، وعلى الشاطىء الفينيقي وربما بعض جزر البحر الأبيض. ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم إشارات قليلة إلى هذه الحملة التي وردت فيها أسماء خيتا ونهارينا ورتنو وقطنا وكريت وقبرص وبابل وأشور مع ذكر خضوعها لمصر، وربما كان في ذلك شيء من المغالاة والأرجح أن أكثر هذه البلاد آثر السلامة فأرسل وفوده إلى ملك مصر ومعهم الهدايا طالبين مودته والاطمئنان إلى التحالف معه.

ومهما يكن من أمر فإن حملة العام الثامن — وليست حملة قادش في العام الخامس — هي التي كانت سبباً في ذيوع اسمه كأحد الفراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التي ورثها عن تحوتمس الثالث، وكانت هذه الحملة أيضاً درساً قاسياً لمملكة خيتا أجبرها على احترام مصر وعدم التدخل في أمر ولاياتها.

ومضت على هذه الحرب أعوام طويلة مات فيها الملك موتلي فنشب نزاع عائلي بين ابن الملك وكان يسمى «أورخي - تشوب» (Urchi - Tešup) من إحدى المحظيات وبين عمه المسمى «خاتوسيلي» (Khattu - Sili) وقد انتهى النزاع بتغلب خاتوسيلي على ابن أخيه واستيلائه على العرش. وكان لهذا النزاع الشديد أثره في آسيا وبخاصة في بلاد الفرات وشمال سوريا إذ أن مملكة أشور كانت قد بدأت تدخل في فترة من فترات قوتها ومد سلطانها على غيرها.

ولم يقف رمسيس الثانى مكتوف اليدين أمام هذا النزاع ، وأخذ يناصر « أورخى - تيشوب ». وأراد « خاتوسيلى » أن يشترى صداقة مصر حتى يتفرغ لملاقاة أشور ولهذا أراد عقد معاهدة صداقة معه ، ورحب الملك رمسيس الثانى بها ووقعها الطرفان فى العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس أى عام ١٢٨٠ قبل الميلاد ، وكان أصلها مكتوبا بالخط المسمارى على لوح من الفضة وقد ترجم الأصل إلى اللغة المصرية وبقى على أثرين أحدهما على جدران الكرنك والآخر فى الرمسيوم ، كما عثر أيضاً لحسن الحظ على الأصـــل الخيتى فى خرائب بوغازكوى [1] ، وليس فى هذه المعاهدة غير تأكيد الصداقة وأن كلا من مصر وخيتا لا يعتدى على الآخر ، ويسلمه المجرمين الفارين إلى بلاده ويشهد كل منهما آلهة بلاده على ما يقول .

وبر كل من خاتوسيلى ورمسيس بوعده، وأراد ملك خيتا أن يوثق هـذه الصلة فجـاء زائرا إلى مصر ومعه ابنته ، وكثير من رجاله ، ليزفها زوجـة إلى رمسيس . وقد أقام رمسيس أعياداً كبيرة واستقبل ضيفه خير استقبال ، وأمر بتسجيل هـذا الحادث العظيم على لوحات كبيرة وضعت فى المعـابد المهمة كما نقشت أيضاً على جدران عدة معابد أخرى ، وكان حضور ملك خيتا إلى مصر فى العام الرابع والثلاثين من حـكمه وكان فى مصاهرة هـذين البيتين ما كفل الأمن والطمأنينة فى غربى آسيا ، ولو إلى حين .

---

(١) عثر على أصل المعاهدة على لوحين من الطين المحروق فى حفائر فنكار فى بوغازكوى فى الأناضول فى عام ١٩٠٦ ولكن النص لم يدرس وتعرف قيمته إلا فى عام ١٩١٦ . وقد نشر لانجدون مع جاردنر (Gardiner-Langdon) ترجمة له فى : *J. E. A. Vol.* VI, *p.* 179 *ff*.

أنظر أيضا كتاب ديلابورت عن الخيتيين DELAPORTE, *Les Hittites, p,* 135-7 .

أما أحدث الترجمات عن هذه المعاهدة فهى المنشورة فى كتاب :

Ancient Near Eastern Texts (1950)

وقام بترجمة النص الخيتى ألبرشت جوتزه ص ٢٠١-٢٠٣ وترجم النص المصرى جون ويلسون ص ١٩٩ - وقد أضاف كل منهما قراءات جديدة وأعطى بيانا بجميع المراجع الهامة .

ولكن هذا السلام لم يدم طويلا لأن المتاعب بدأت تتوالى على خيتا بعد موت « خاتو سيلي » ، وربما كان جزء من هذه المتاعب راجعا إلى تنازع عائلي في البيت المالك ، ولكن السبب الأكبر المباشر كان ناشئاً عن هجرات هندو - أوروبية تدفقت على هذا الجزء من الشرق ، ونزلت إليه من أواسط آسيا أقوام كالجراد ومعها نساؤها وأطفالها ، وكانت كل هجرة منها تتبعها أخرى لتستقر في آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه وفي بلاد اليونان وفي شمال أفريقيا . كان بعضهم يصل عن طريق البر والبعض الآخر عن طريق البحر ، وما لبثت مملكة خيتا أن هوت ودالت من أثر هذه الهجرات فكانت أولى ممالك آسيا التي قضى عليها خطر تلك الشعوب . ومن المرجح جداً أن يكون خطر هذه الشعوب بدأ يدق على أبواب مصر من الشرق (أي من ناحية سوريا وفلسطين) ومن الغرب من ناحية ليبيا ، وربما كان هذا الخطر هو السبب المباشر الذي جعل رمسيس الثاني يبني سلسلة من الحصون في الجهة الغربية من مصر مثل حصن الغربانيات (على مقربة من برج العرب)[1] وحصنا آخر عند العلمين [2] وكان آخر هذه الحصون يقع داخل الحدود الحالية لمصر ، وهو الحصن المكتشف حديثاً عند زاوية أم الرخم إلى الغرب من مرسى مطروح [3] .

ولكن دفع هذا الخطر لم يقع على كاهل رمسيس الذي كان قد أربى على الثمانين بل وقع على كاهل ابنه مرنبتاح كما سنرى .

---

(١) لم يبق من حصن الغربانيات إلا القليل وكان في وسطه معبد باسم رمسيس الثاني بقي منه عمود من الجرانيت نقل أثناء الحرب العالمية الثانيه إلى مركز البوليس في برج العرب .

(٢) عثر على بقايا أحجار من المعبد أثناء عمليات الحرب العالمية الثانية وقد قام جاسبر برنتن بنشر هذه الأحجار في مجلة جمعية آثار الأسكندرية وأشار اليها ألن رو في كتابه (أنظر ٣) ص ٦ ، ٧ .

(٣) ALAN ROWE-A *History of Ancient Cyrenaica* (*Cahier* 12 *of Suppl. Annales du Service.*) 1948.

عائلة رمسيس الثانى وآثاره :

حكم رمسيس الثانى ٦٧ عاما وتزوج من كثيرات ، كما أنجب أولاداً كثيرين من محظيات وزوجات ثانويات ، ولهذا لا نعجب إذا كان عدد أولاد وبنات هذا الملك زاد عن ذرية أى ملك مصرى آخر . فنحن نعرف أنه كان متزوجا من بعض أميرات البيت المالك مثل الملكة « نفرتارى » الشهيرة والملكة « إست نفرت » كما تزوج أيضاً من إبنة ملك خيتا وهى التى أطلق عليها الإسم المصرى « معات نفرو رع » وكان لها حق الزوجات الأوليات ، كما نعرف أيضا أنه تزوج ثلاثة من بناته أما عدد أبنائه وبناته فقد كان وفيرا[1] . وكان أولاده الذكور يتقلدون جميعا وظائف مهمة فى الدولة ، وأهم هؤلاء الأولاد ابنه « خع إم واست » الذى فكر والده فى السنة الثلاثين من حكمه فى جعله وليا للعهد . وكان هذا الأمير مهتما بالآثار القديمة فكان يرمم كل ما يجده فى حاجة إلى ترميم ، ولهـــذا نرى اسمه على المعابد فى طول البلاد وعرضها كما كان على خبرة عظيمة بالأمور الدينية وتقاليد الدين واشتهر بعد وفاته بأنه كان ساحرا عظيما ، ولكن هذا الأمير توفى فى العام الخامس والخمسين من حكم والده ودفن على مقربة من قرية نزلة البطران التى لا تبعد كثيرا عن أهرام الجيزة .

ومات أكثر أبنائه الأوائل فى حياته ولهـذا خلفه ابنه الثالث عشر « مرنبتاح » من زوجته « إست نفرت » على العرش وكان أبوه قد اختاره فى العام الخامس والخمسين من حكمه ليكون وليا للعهد بعد موت أخيه « خع إم واست » .

---

(١) حاول بعض المؤرخين حصر أولاد رمسيس من بنين وبنات ولكن أعـــدادهم تختلف وذلك لظهور أسماء جديدة من آن لآخر . ونعرف من بينهم أسماء ٥٩ بنتا على الاقل أما عدد الذكور فقد عد بعضهم ٧٩ ويؤكد أحد المؤرخين أنهم أكثر من ١٠٠ .

وإذا أردنا الحديث عن آثار الملك رمسيس الثانى فإننا لا نقول أكثر من أنه لا تكاد توجد منطقة أثرية فى مصر لم يرد فيها اسمه ويكفى أن نشير إلى معابده العديدة فى الكرنك أو فى الجزء الأمامى من معبد الأقصر، أو الرمسيوم أو أبيدوس، أو معابده المتعددة فى النوبة وبخاصة معبد أبو سمبل لنعرف مدى نشاطه المعمارى المنقطع النظير . وكثيرا ما نقرأ أن رمسيس الثانى كان يجرؤ على أخذ ما يجده من آثار من سبقه من الملوك — حتى والده — وينسبها إلى نفسه ، وهذا صحيح ولكنه لا يغير من الحقيقة وهى أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعنة آثارا فى جميع نواحى المملكة وأكثرهم حبا للعظمة والفخامة .

ولم يكن رمسيس الثانى يقيم دائماً فى طيبة إذ أن أباه بنى قصراً ومقراً ملكيا فى شرقى الدلتا . وقد أحب رمسيس الإقامة فى الشمال فنشأت هناك مدينة كبيرة وهى « پر - رعمسس » وقد ظن بعض الأثريين أنها هى مدينة صان الحجر كما يؤكد البعض الآخر أنها كانت فى المكان الذى تشغله الآن بلدة قنتير فى مركز فاقوس حيث عثر الأستاذ محمود حمزة على جزء من قصر له [1] . ومات رمسيس بعد أن شبع من دنياه ، وملأ سمع الدنيا وبصرها فى حياته وترك اسمه يرن فى آذانها حتى الآن ، ودفن فى قبره فى وادى الملوك إلى جوار آبائه وأجداده .

الملك مرنبتاح :

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم رمسيس الثانى تدهورا فى الإمبراطورية المصرية بسبب هجرات الشعوب الهندو — أوروبية التى كانت تعيث فساداً فى

---

(١) لكل من الرأيين أنصار وما زلنا فى انتظار حفر منطقة قنتير للبت فى هذا الأمر وآخر من تناول هذا الموضوع هو الأستاذ جاردنر فى كتابه *Onomastica II p. 172 ff.* وقد ترك الأمر دون ترجيح رأى بصفة نهائية ، ولكن الأستاذ لبيب حبشى يعد بحثا جديداً خاصا بهذه المدينة يؤيد فيه رأى حمزة بأدلة جديدة ونرجو أن يظهر مؤلفه قريبا .

جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط . ولم يكن مرنپتاح شابا صغيراً عندما آل إليه الملك بل كان يقرب من الستين ، وقد بذل كل ما يستطيع لصد هذا التيار . وربما ذهب مرنپتاح إلى آسيا فى السنة الثالثة من حكمه أو يكون قد أرسل جيشا لإخماد بعض الثورات التى قامت فيها كما ذكر لنا فى لوحته الشهيرة باسم « لوحة اسرائيل » ،[1] ولسنا نستبعد أن يكون ذلك من أثر المتاعب التى سببتها الهجرات . وسواء أصحت واقعة حربية فى آسيا أو أنها كانت فقط للفخر والمباهاة أو أن هذه الحرب لم تكن فى السنه الثالثه بل كانت بعد انتهائه من حربه الليبية فى السنة الخامسة ، فإن الحرب التى اقترن اسمها باسم مرنپتاح وخلدت الآثار المصرية ذكرها هى انقاذه للبلاد من الهجوم الذى شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم ، وكانوا يرمون من ورائه إلى الاستيطان فى مصر . فقد تمكن أحد رؤساء القبائل التى كانت قد استقرت على ساحل ليبيا أن يجمع إليه عدة قبائل من الشعوب الهندو — أوروبية وأن يهجموا تحت إمرة «مرى» على مصر ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، فدارت بينهم وبين مرنپتاح معركة عند مكان يسمى « پرير » فى غربى الدلتا . وقد استمرت هذه المعركة ست ساعات انتهت بهزيمة ساحقة للمهاجمين ففر منهم من فر وقتل من قتل ووقع تسعة آلاف من الأسرى فى أيدى المصريين .

---

(١) لوحة اسرائيل كانت قائمة فى معبد مرنپتاح الجنازى وكانت فى الأصل لوحة فى معبد أمنحتب الثالث أخذها مرنپتاح ونقش على ظهرها ذلك النص . وقد ترجمها شبيجلبرج SPIEGELBERG, *A. Z.* 34 (1896), *P.* 1 - 25

كما ترجمها أيضا برستد BREASTED, *A. R. III* § 602-617 وأخيرا نجد ترجمة أحدث لها فى:
Ancient Near Eastern Texts, p. 376-8

وفيها إشارات إلى حملته الليبية وإلى انتصاره فى آسيا . وجاء ذكر « اسرائيل » للمرة الأولى فى هذه اللوحة : « ينعم أصبحت كأن لم تكن ، وإسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة ، وأصبحت حورو (أى فلسطين وما جاورها) أرملة لمصر » .

ولم يطل حكم مرنبتاح بل مات بعد ثمان سنوات ودفن فى قبره فى طيبة . وقبل أن نترك أيام حكم هذا الملك يحسن بنا أن نشير إشارة عابرة إلى موضوع كثيرا مانصادفه مقرونا باسم هذا الفرعون وهو موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر . فمنذ العثور على اسم إسرائيل على لوحة انتصاراته اعتقد الكثيرون أن الخروج حدث فى عهده . ولكن هذا الرأى لم يجد سندا من التاريخ وظلت الآثار المصرية على صمتها تجاه هذا الأمر .

ولكن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين واحتساب الزمن ثم ماجاء من نتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنبتاح أمراً مستحيلا ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولهذا نرى كثيراً من أسماء الفراعنة تتردد فى الأبحاث المختلفة فبعض الباحثين يرى أن فرعون الخروج كان تحوتمس الثالث وبعضهم يرى أنه كان ابنه أمنحتب الثانى كما أن هناك من يقول إنه كان أمنحتب الثالث ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن خروجهم من مصر كان على إثر موت إخناتون ، وأراد أن يربط بين خروجهم من مصر وثورة إخناتون الدينية .

بل ظهر أخيراً رأى آخر وهو أن خروج بنى اسرائيل من مصر لم يكن فى عهد مرنبتاح وانما كان قبله بنحو ٤٠٠ سنة إذ كان فى عهد الهكسوس [١] . وكل ما نستطيع أن نؤكده أنه لم يظهر فى الآثار المصرية أو الآثار الفلسطينية مايحدد وقت الخروج تحديدا تاما وسيظل هذا الموضوع مفتوحا للمناقشة حتى ظهور أدلة جديدة [٢] .

---

(١) J. VON BECKERATH, *Tanis und Theben*, p. 67 *ff*.

(٢) هنالك أبحاث لا حصر لها عن موضوع التوفيق بين معلوماتنا التاريخية والأثرية وبين ماورد عن بعض الأنبياء فى التوراة ، وأكتفى بذكر أحد المؤلفات الحديثة التى يجد فيها القارىء مراجع مختلفة إذا أراد البحث :

UNGER, M. F., *Archaeology and the Old. Testament*, Michigan, 1954.

نهاية الأسرة التاسعة عشرة :

وجاء بعد مرنبتاح مغتصب للملك يدعى « أمون مس » ولا ندرى كيف استولى على العرش ، وفى ذلك دليل على اضطراب الأمور فى البلاد لأن « أمون مس » لم يلبث حتى خلعه مغتصب آخر اسمه « مرنبتاح سابتاح » فانتقم منه وخرب قبره فى وادى الملوك . وقد حكم سابتاح ست سنوات تمكن خلالها من عمل قبر عظيم له ، ثم خلعه عن العرش الملك « سيتى الثانى » الذى حكم هو الآخر ست سنوات مات بعدها ميتة طبيعية . ويلوح أن سيتى كان ذا صلة بالبيت المالك القديم وربما كان أيضا نائبا للملك فى السودان أثناء حكم سلفه ، وبالرغم من ضعفه والجو المضطرب الذى عاش فيه فقد تمكن من تشييد بعض آثار فى مختلف أرجاء مصر ، كما شيد لنفسه قبراً فى طيبة بعد أن اغتصب لنفسه فى مبدأ الأمر قبر «سابتاح» و «تا ـ وسرت» . ورغم كل ذلك فقد بقى لمصر نفوذها فى النوبة وفلسطين وظلت جزية البلدين تأتى سنوياً إلى مصر .

لقد بدأت مظاهر التدهور تشمل البلاد منذ أواخر أيام رمسيس الثانى أى فى أعوام شيخوخته ، وزاد الطين بلة أن من خلفه على العرش كان شيخا مسنا وكان له أخوة وأخوات وأبناء أخوات كثيرون ، وكان هؤلاء جميعاً ومعهم الحاشية وحكام البلاد والكهنة ذوى مطامع وأغراض، ولم يجدوا من يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده ، ولهذا لا يدهشنا أن نرى هذا التغيير والتبديل فى الوصول إلى العرش ، فربما كان كل هؤلاء الذين وصلوا إلى الملك أو الذين كانوا يعاونونهم ويدفعونهم إلى الأمام من نسل الملك رمسيس الثانى .

ولنترك ذلك الآن لنرى ماذا حدث عند وفاة الملك « سيتى الثانى » . لقد خلفه على العرش وريثه الشرعى واسمه « رمسيس سابتاح » ، ولكن لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا ، ولهذا ظل بضع سنوات ثم اختفى من العرش وتمزقت البلاد شر ممزق وأخذ الحكام يحاربون بعضهم ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم ، وفى تلك الأيام المضطربة العصيبة تمكن شخص من أصل سورى اسمه « إرسو » من الوصول إلى العرش .

ونحن نعرف قصة تنصيبه لنفسه ملكا من بردية هاريس[1] عندما وصف رمسيس الثالث حالة البلاد الحزينة التى أنقذها منها أبوه « ست — نخت » فقد قال إن مصر غزيت من الخارج وظل الناس عدة سنوات دون حاكم عليهم ومرت سنوات اضمحلال كان الرجل فيها يذبح جاره ، فتمكن هذا السورى من تنصيب نفسه ملكا على مصر ونهب ممتلكات الناس وأهمل المعابد فغضبت عليه الآلهة وسلطت عليه رجلا إختارته وكان هذا الرجل هو « ست — نخت » . وهكذا نشأت عائلة جديدة وهى الأسرة العشرون التى وقع على أكتافها عبء كبير وهو إنقاذ البلاد مما هى فيه بعد أن وصل التفكك فى مصر إلى أسوأ الحالات .

---

(١) *Harris Papyrus* I, *PL* - 75 .

الأسرة العشرون

(١٢٠٠—١٠٩٠)

رمسيس الثالث :

جاء إنقاذ مصر من ورطتها على يدى الملك « ست نخت » الذى لم يجلس على العرش أكثر من عامين بين ١١٩٧ ، ١١٩٥ ق . م . وقد ترك منذ البداية لابنه المسمى رمسيس إدارة البلاد ، ولهذا فمن الجائز أن يكون « ست نخت » هذا أحد الأمراء المتقدمين فى السن من البيت المالك القديم جمع حوله الناس وأراد تخليص البلاد مما آلت إليه ، وكان ابنه رمسيس هو الرأس المدبر والمنفذ لجميع الإصلاحات فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى أشد الحاجة إلى من كان مثله .

وحكم رمسيس الثالث واحداً وثلاثين عاما كانت فى الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين، وسنرى أن جميع جهوده أثمرت فى البداية ولكنه عندما تقدمت به السن بدأت عوامل الإنحلال مرة أخرى تظهر من جديد .

أشرنا عند الحديث عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة إلى ماورد فى بردية هاريس خاصا بالسورى « إرسو » والإشارة إلى غزو أجنبى لمصر . وليس المقصود من هذا أن إرسو جاء على رأس جيش من سوريا لاحتلال مصر وإنما كان ذلك ناتجاً عن أحد أمرين أولهما احتمال حدوثه بسبب هجرة من هجرات الشعوب التى كانت تعيش فى الناحية الشرقية من مصر وفى غربها ، والتى كانت منذ عهد رمسيس الأول تواقة إلى الاستيطان فى وداى النيل ، فكانت هذه الهجرة سببا فى اضطراب الأمور فوق ما كانت عليه من اضطراب، أما الفرض الثانى فهو أنه ربما كان إرسو من زعماء الجنود المرتزقة الذين كانوا فى الجيش ، جمع حوله رجاله وحاول الاستيلاء على السلطة لمصلحته . فمنذ أيام

تل العمارنة ، بل وقبل ذلك ، نعرف أن الأسيويون بدأوا يفدون إلى مصر ويستقرون فيها وكان منهم فى عهد إخناتون رجال ذوو نفوذ فى البلاط ، وتبعهم منذ أيام الفتوحات وإحضار الأسرى عدد آخر ، وكذلك عند ما استعان بهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة رمسيس الثانى فى الجيش .

كان الشرق القديم مسرحا للمتاعب فى ذلك العهد ، وقد رأينا ما سببته هجرات الشعوب الهندو - أوروبية من نكبات ، ورأينا أيضا أن بعضها جاء واستقر فى آسيا وقضى على مملكة « ختى » فى النهاية ، والبعض الآخر استقر فى ليبيا . وتمكنت « ختى » بتحالفها مع مصر إيقاف الكارثة إلى حين ، ولكن السيل كان اقوى مما تتحمله جدرانها فلم تلبث أن انهارت مقاومتها . أما مصر فقد ظل لها حتى عهد رمسيس الثالث نفوذها فى فلسطين وفينيقيا وإن كان لم يبق لها نفوذ ذو شأن فى سوريا أو غيرها من البلاد .

وكان من حسن حظ مصر أن الدرس القاسى الذى لقنه مرنبتاح لهذه الشعوب نجح فى إيقاف محاولاتها للاستيلاء على مصر من ليبيا لوقت غير قصير ، ولهذا لم تحاول الاستفادة من الموقف بعد وفاته أو حتى فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثالث ، فلما استأنفت هذه الشعوب مهاجمتها لمصر من ليبيا كان رمسيس الثالث قد أعاد تنظيم أمور بلاده وأصبحت البلاد بفضل إصلاحاته قوية متماسكة .

ولكن قبل هذه الحملة الليبية التى كانت فى السنة الخامسة من حكمه وجد رمسيس الثالث نفسه مضطراً لإخماد ثورة فى بلاد «أمورو» كما تشير إلى ذلك نقوش معبد مدينة هابو التى تتحدث عن زعيم أمورو الذى « أصبح لا شىء وانقطعت ذريته » .

حــــروبه :

فى السنة الخامسة من حكمه هجم جيش كبير من الليبيين وحلفائهم من « السپد » و « الماشوش » من الشعوب الهندو — أوربية على مصر . أما

السبب فى هذا الهجوم فربما كان راجعاً إلى تدخل رمسيس الثالث فى شئونهم الداخلية ومساعدته لأحد الليبيين الذين كانوا يعيشون فى مصر ليكون حاكما عليهم . وسواء أكان ذلك هو السبب الرئيسى أو أن غزوهم كان تكرارا للمحاولات السابقة منذ عهد سيتى الأول فإن الليبيين وحلفاءهم من « شعوب البحر » هزموا شر هزيمة على حدود الدلتا الغربية عند ما كانوا فى طريقهم إلى منف . ولو تتبعنا دروب الصحراء لوجدنا أن هذه المعركة إما أن تكون قد حدثت على مقربة من الفرع الكانوبى أى فى نهاية الطريق الساحلى ، أو عند « كوم أبو بللو » وهى إحدى المدن المصرية الهامة فى ذلك العهد وأمام الدرب الموصل من الصحراء إلى الدلتا عن طريق وادى النطرون . وقد ذكرت لنا نصوص معبد مدينة هابو أن جثثهم أصبحت أكواما وأن رمسيس الثالث أخذ من بينهم أسرى كثيرين ووزعهم على الحصون المختلفة ليعملوا فيها .

حملة السنة الثامنة :

ثم حدثت بعد ذلك معركة أخرى هامة كانت دون شك أهم أعماله الحربية وأبعدها أثراً فى حياة مصر . فقد اجتاحت الشعوب الهندو ـ أوروبية (شعوب البحر) بلاد خيتا وبلاد قدى (بين أسيا الصغرى وشمال سوريا) واحتلت كيليكيا وقبرص واستولت على مدينة قرقميش على الفرات ، وكانت هذه الشعوب فى تلك الهجرة العظيمة مؤلفة من « البلست » « والثكرت » و« الشاكا روشا » و « الداينونا » و « الوشاش » وكلها شعوب هندو ـ أوروبية جاءت فى موجة من موجات الهجرة ، وجاء بعضهم بطريق البر ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم على عربات تجرها الثيران ، والبعض الآخر على سفن حربية . ولم يهمل رمسيس الثالث فى دفع هذا الخطر فاستعد له وجمع أسطولا كبيراً كما جمع جيشاً برياً وسار لملاقاة أعدائه الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق . وقد حفظت لنا جدران معبد مدينة هابو صوراً مفصلة لهذه المعارك

من برية وبحرية وهى تمثل لنا صوراً من أول صدام بين مصر والشعوب الأوروبية نرى فيها الصراع المميت بين المتحاربين، ونرى كيف نجح المصريون فى القضاء على أسطول هذه الشعوب كما نجحوا أيضاً فى تمزيق الجيش البرى العظيم ، وكانت أولى نتائج هـذا الانتصار دحر هـذه الشعوب وإنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له عند غزو الهكسوس إن لم يزد عنه ، ولم تنقذ مصر نفسها فقط بل أنقذت غرب آسيا معها إذ أن فلول الأساطيل المتحالفة لم تقم لها بعد ذلك قائمة ولم يصبح لمن بقى حياً من جيوشهم أى كيان تاريخى .

حملة العام الحادى عشر :

وإذا كان رمسيس الثالث قد تمكن فى حملة العام الثامن من القضاء نهائياً على قوة شعوب البحر فى آسيا فإن قوة هذه الشعوب وحلفائهم الليبيين ظلت بعد حملة السنة الخامسة على تماسكها ، وهاهم مرة أخرى يعيدون تنظيم أنفسهم وخاصة شعب « الماشوش » ويهاجمون مصر تحت إمرة ابن زعيم ليبيا المسمى « مششر » فى العام الحادى عشر من حكمه . فوقفت جيوش مصر تصد هذا الغزو فأوقعت بالقادمين هزيمة كبرى على حدود الدلتا وارتدوا إلى الصحراء فتبعتهم الجيوش المصرية نحو عشرين كيلو متراً وأفنت منهم عدداً كبيراً، وأسرت كثيرين كان من بينهم «مششر» نفسه، وبهذا تخلص رمسيس الثالث من أعدائه فى الغرب كما تخلص من أعدائه فى الشرق واستطاع أن يقضى بعد ذلك وقتاً هادئاً يعيد فيه تنظيم أمور البلاد .

حملة أسيوية أخرى :

ولم يغب عن ذهن رمسيس بعد اطمئنانه على حدوده الغربية أنه من الضرورى أن يعيد لمصر أملاكها فى آسيا ، وأن يؤمن حدوده ويطهر سوريا

وفلسطين من بقايا شعوب البحر الذين عساهم أن يكونوا قد استقروا هناك .
وقد ذكر أخبار حملته هذه على جدران معبده فى مدينة هابو ونعرف منها أنه حاصر خمس مدن حصينة ، ربما كانت قادش واحدة منها ، وإذا لم تكن النصوص المصرية وقوائم أسماء البلاد المقهورة فيها شيء من المبالغة أو أنها منقولة عن قوائم أخرى من الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة فإن رمسيس الثالث يكون قد وصل إلى الفرات وهو حد كانت مصر قد فقدته منذ عهد طويل .

أما «شعوب البحر» فقد تفرقت ، واستقر بعضها كسكان مسالمين فى كثير من نواحى البحر الأبيض المتوسط وأصبحت أسماء بعض هذه الشعوب علما على البلاد حتى الآن، ومنهم البلست مثلا الذين أصبح اسمهم يطلق على فلسطين منذ ذلك العهد ، والشردانا الذين أصبحت جزيرة «سرديتيا» تسمى باسمهم ، و «ثكر» الذين من المحتمل أن يكونوا أعطوا اسمهم لجزيرة صقلية وغيرهم .
وإذا كانت هذه الشعوب قد فشلت فى مصر فإنها نجحت فى أمكنة أخرى مثل بعض بلاد الساحل فى آسيا الصغرى وعلى ساحل فينيقيا حيث أمكنهم التغلب على طروادة وعلى إسرائيل .

ولا شك أن هذه الحروب المتتالية كانت عبئاً على خزينة مصر ، ولكن البلاد استطاعت أن تصمد للتجربة وأمكنها بعد ذلك أن تعوض ما فقدته وتملأ خزانتها من ممتلكاتها الأسيوية ومما وقع فى أيديها من مغانم أثناء الحروب، وكذلك مما أخذ يتدفق على هذه الخزائن من مناجم الذهب والمعادن الأخرى التى أعيد العمل فيها .

نظرة عامة :

بنى رمسيس الثالث معبده فى مدينة هابو وبنى أمامه مدخلا على شكل قلعة أسيوية وإلى جواره قصراً لسكناه . وأغدق عليه وعلى جميع معابد مصر الهبات

من أرقاء وأراضي ومال . ونحن إذ نقرأ تفاصيل هذه الهبات فى بردية هاريس ونعرف مدى ثراء كهنة المعابد وسلطانهم وما كان لديهم من أرقاء يعملون فى الأراضي الخاصة بالمعابد فإننا لا نملك أنفسنا من التفكير عن مدى أثر هذا الثراء على نظام الدولة من ناحية، وعلى الدخل القومى من ناحية أخرى . فقد كان للإله أمون ـ رع وحده ثروة طائلة ، إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠٪ من أراضى البلاد المزروعة (جميع الآلهة الأخرى كانوا يمتلكون ٥٪ أخرى) وكان لأمون ٨٦,٥٠٠ من الأرقاء الذين يعملون فى أراضيه ، وكان له خمسة قطعان من الماشية لا يقل مجموعها عن ٤٢١,٠٠٠ رأسا كما كانت له حدائق فى طول البلاد وعرضها وكثير منها فى الواحات، كما كانت له مناجم الذهب فى النوبة، وكانت له تسع مدن فى سوريا تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام ، وغير ذلك من الموارد ، وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك، فلا عجب إذا أصبح كهنة أمون هم القوة المسيطرة على شئون البلاد . ولم يكن رمسيس الثالث وحده هو المسئول عن إغداق هذه الثروة على الكهنة ولكنها كانت، فى الحقيقة، ثروة تكدست على المعابد منذ أجيال ، ولم يكن فى وسع أحد من الفراعنة أن ينتقص شيئاً منها بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يأمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه .

لم تكن هذه المسألة هى الحالة الوحيدة الشاذة فى البلاد ، بل كانت هناك حالات أخرى لا تقل عنها أثراً ومنها ابتداء تولى الأجانب وظائف الدولة العامة وبخاصة فى البلاط . ونعرف على سبيل المثال أنه كان حول رمسيس الثالث فى قصره أمناء أجانب عديدون لهم السلطان الأكبر عليه ، كما ملأوا قصره فى آخر أيامه بالفتيات الجميلات سواء من أسرى شعوب البحر أو من الأسيويات أو المصريات . وكان يقضى أوقاته بينهن كما نرى ذلك فى الصرح الأمامى المشيد أمام معبد مدينة هابو ، إذ نرى على جدرانه فى الطابق العلوى رسوما تمثل رمسيس الثالث وهو يداعب فتياته أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية .

وهكذا انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا فى القصر الملكى خمسة غير مصريين أحب الاستماع إلى نصيحتهم له فى الإكثار من الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة ، وخاصة من الأزمة الاقتصادية التى سببت ارتفاعا كبيرا فى أسعار الحبوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل . ساءت الحالة الاقتصادية حتى اضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الإضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم إلى حالتهم دون جدوى . وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون وعند ذلك اضطر كبار الموظفين إلى محاولة تهدئتهم . وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر الوزير أن يتدخل لإعطائهم مايستحقونه. وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من فوضى، كما تعطينا أيضا فكرة عن مدى رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن أمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة من عطف، بل إننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الإضراب تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » ، وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم خمسين غرارة من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة أمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس

الثانى ليطعم المضربين، ووصف كبير الكهنة عمله «أن مافعله جريمة كبرى»[1].
وهكذا كانت تسير الأمور فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ،
والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك سادر فى ملذاته ،
والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة ، ولهـــذا لاندهش إذا قام أحد وزراء
رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى « أتريب » ولكن الثورة
لم تنجح . وبالرغم من أنها كانت إنذارا له فإنه لم يتعظ حتى بدأ أهله أنفسهم
يحسون أن حياته أصبحت خطرا على البلاد أو أنه أصبح لا قيمة له
فدبروا مقتله .

وقد عرفنا تفاصيل هذه المؤامرة من بردية هاريس . لقد دبرتها إحدى
زوجاته لأنها أحست أن الملك لايريد أن يجعل من ابنها «پنتاؤور» وليا للعهد ،
ولهذا صممت على قتل الملك العجوز وإعلان ابنها ملكا وكان يعاونها فى
تدبيرها اثنان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الأنصار فى البلاط
وخارج القصر . ولسنا نعرف مدى نجاح المؤامرة فى الخارج ولكنا نعرف
أنه بعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة (تى ؟) وپنتاؤور
والموظفين الكبيرين فى البلاط عشرة آخرون من الموظفين وكذلك ست
نساء كن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج .

ومن أوراق التحقيق فى هـذه القضية نعرف أنه كان من بين الأربعة
عشر موظفا الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من الأجانب . وظهر أثناء نظر
القضية أن ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من

---

(١) W. SPIEGELBERG, *Arbeiter und Arbeiterbewegung unter den Ramessiden* (*Strassburg* 1895).

وقد نشر نصها جاردنر فى كتابه *Ramesside Administrative Documents* (*London* 1948).

وفى عام ١٩٥١ ظهرت ترجمة حديثة لها وهى ترجمة أدجرتون W. F. EDGERTON, *JNES*, *Vol*. X *No*. 3 (*July* (1951), *p*. 137 - 145.

من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع هناك نساء بعض المتآمرين ، وكانت نتيجة هذه السهرة أن انتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاء إلى قفص الإتهام . أما الأحكام التى صدرت عليهم فإن الأمـــير پنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حكم عليهم بالإعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم . وبرىء أحد القضاة أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه . أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة « تى ؟ » فلا نعرف العقاب الذى وقع عليهم .

وهكذا انتهت حياة رمسيس الثالث بكارثة ، ولـكن إنصافا للرجل يجب ألا ننسى أنه كان فى صدر أيامه آخر الملوك العظام الذين حاربوا ولم يفرطوا فى الإمبراطورية ، وكان أيضا آخر البنائين الذين تركوا آثارا خالدة على الدهر ، فإن معبد مدينة هابو من خير ما شيده ملوك الدولة الحديثة .

لقد أنقذ رمسيس الثالث البلاد من فوضى كانت غارقة فيهـا ، وكانت الخمسة وعشرون عاما الأولى من حكمه أيام مجـد نسبى فى حياة مصر . ولن ينسى له التاريخ انه أنقذ بلاد الشرق القديم ، وليس مصر فقط ، من خطر داهم كان كفيلا بالقضاء على جميع المدنيات مثل ما حـدث فى خيتا وفى الهند ، ولـكنه انتصر ودون انتصاره فكانت مناظر حروبه ومناظر المعركة البحرية وهى أول معركة بحـــرية كبرى فى العالم وأول معـــركة بين مصر وأوربا (١١٨٧ ق . م .) .

مات رمسيس الثالث عام ١١٦٤ ق . م . ونفسه مملوءة بالحسرة على جحود الناس وتلاه على عرش مصر ابنه رمسيس الرابع .

خلفاء رمسيس الثالث :

كانت وفاة رمسيس الثالث فى عام ١١٦٤ وكانت نهاية الأسرة العشرين فى عام ١٠٩٠ أى أن خلفاء رمسيس الثالث وهم من رمسيس الرابع حتى رمسيس

الحادى عشر حكموا أقل من خمسة وسبعين عاما . لقد رأينا مبادىء الإنهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سىء إلى أسوأ ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة . وأخيرا حدث مالا بد من حدوثه وهو استيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين وإعلان كبير كهنة أمون وكان اسمه « حريحور » ملكا على مصر .

كان هؤلاء الملوك الرعامسة متشابهين فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان الكهنة وفى عجزهم عن مواجهة الأزمة الاقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين أيضا فى عدم استطاعتهم إيقاف الفوضى والانحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة .

كان هؤلاء الملوك يعيشون فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كهنة أمون ، أما عن نفوذ مصر خارج حدودها فإننا نستطيع أن نقول إنه أخذ يقل تدريجيا فى آسيا حتى اقتصر على فلسطين ، ثم أخذ يتضاءل أيضا حتى زالت هى الأخرى كبلد تابع لمصر ، ولكن ظل نفوذ مصر فى بلاد النوبة كما كان عليه من قبل ولم يتأثر بما كان حادثا فى البلاد . ورغم إقامة الملوك فى الدلتا فإنهم ظلوا على عادتهم فى اتباع التقليد القديم وهو الدفن فى طيبة ، وظلت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها ، وقد عثر فيها على كثير من الوثائق سواء من الملفات البردية أو الأوستراكا وقد أمدتنا بالقبس الذى نعرفه عن هذا العصر المظلم[1].

---

(١) إن البرديات والأوستراكا التى عثر عليها فى دير المدينة على أكبر جانب من الأهمية وهى أهم مصادرنا عن دراسة الحياة الاجتماعية لمصر فى ذلك العهد . وقد سبقت الإشارة إلى بردية الإضراب وهناك بردية أخرى وهى التقارير عن حالة العمل فى الجبانة :
G. BOTTI AND T. E. PEET, *IL Giornale Della Necropoli di Tebe* =

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو رجال الإصلاح ، ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خبراً اللهم إلا إشارات عابرة مثل ماتحدثت به بردية هاريس أو بردية مالت عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من إصلاحات وإنشاءات فى المعابد، أو تصميم مقبرته فى إحدى برديات متحف تورين أو العمل فى محاجر الصحراء . ولكن أهم ما جاء من عهده هى البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والانحلال فى البلاد والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء . وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سابقه وأهم ما وصل إلينا من عصره بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً هاما لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام[1] .

وتلاه رمسيس السادس وأهم آثاره قبره فى أبواب الملوك ومقبرة « پن نوت » فى عنيبة ببلاد النوبة ، وقد حكم هذا الملك أربع سنوات فقط ولكنه ترك اسمه فى كثير من بلاد مصر وشمال السودان . وتلاه كل من رمسيس السابع ثم الثامن ثم التاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر وإن كان رمسيس التاسع قد اشتهر فى التاريخ فإن ذلك بسبب برديات سرقات مقابر الملوك فى عهده ، وكان ذلك نهاية مايمكن أن يصل إليه اضطراب

= (*Turin* , 1928)

وكذلك بردية سرقة المقابر

T. E. PEET, *The Great Tomb-robberies of the Twentieth Dynasty* (*Oxford*, 1930)

وهناك عدة مقالات مثل مقال شرنى J. CERNY, *Flactuations in Grain Prices during the Tewntieth Egyptian Dynasty, in Archiv Orientalni,* VI (1933) p. 173 ff.

(١) عثر على هذه البردية فى الأقصر حوالى عام ١٩٢٩ فى جهة الخوخة عند تنظيف قامت به مصلحة الآثار لبعض المقابر وقد بيعت هذه البردية بعد رفض المتحف المصرى لشرائها إلى متحف بروكاين بأمريكا ـ وقد نشرها ALAN GARDINER, *The Wilbour Papyrus* (3 Vols.) Oxford, 1948.

الأمور . ولكن قبل أن نتحدث عن قضية سرقة المقابر يحسن بنا أن نلقى نظرة عامة على الحياة الاقتصادية والروح المعنوية فى البلاد لنعرف الأسباب التى أدت إلى هذه الحالة .

لقد رأينا بدء الأزمة الاقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث وكيف كان ارتفاع أثمان الحاجيات ، وبخاصة القمح ، سببا فى إضراب العمال إذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل «دبن» من النحاس ولكن الأسعار ارتفعت فى ذلك العهد قليلا فكان هذا دليلا على اضطراب الحالة الاقتصادية فى بلد زراعى . وظل ارتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع ارتفاعا جنونيا فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ١,٥ دبن ثم ارتفعت مع مرور الوقت إلى ٤ دبن وكذلك ارتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغراوة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية إلى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع، أى أصبحت البلاد فى حالة إفلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لا يجدون ما يسد رمقهم ، فلم يبق أمامهم الا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شىء ، خصوصا وأن المحاكم اصبحت لاقيمة لها إذ كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى مايحكم به الإله . فإذا اتهم أحد الناس شخصا آخر بسرقة فإن المتشاكيين يذهبان إلى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الإله ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما . ويبلغ الكاهن المتقاضيين بعد ذلك بما حكم به الإله وهو حكم نهائى لارجعة فيه ، ولا يعتمد إلا على شىء واحد وهو الحصول على إقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها . وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالإله يحكم لمن يستطيع أن يثبت أنه شخص تقى وذلك بتقديم ما يستطيع تقديمه للكهنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك، أى أن القضايا التى كان يفصل فيها الكهنة هى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى، بل وصل الأمر بهم أن كان تعيين الموظفين

فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم يرجع أخيراً إلى وحى آلهة المعابد وحكمهم، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ، وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين إلى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرها .

ولذلك لا يدهشنا أن نرى أثر هذا الانحلال يتسرب إلى جميع مرافق الدولة ، وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات .

بدأت سرقات المقابر منذ عهد غير قصير ولكنها زادت جداً فى عهد الرعامسة ، وكانت فى البداية فى مقابر الأفراد ثم تعدتها إلى مقابر الملوك . ولم يكن ما حدث فى البر الغربى سراً بل كان يحدث علناً لأن السارقين كانوا مطمئنين إلى أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن إغضائهم وسكوتهم ، إلى أن لعب الحسد دوره بين حاكم شرقى طيبة وبين حاكم غربى طيبة الذى كان مسئولا عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر . كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم يتردد « پاسر » حاكم الشرق فى التقدم بتقرير للوزير ينبئه بالحالة السيئة التى وصلت إليها الجبانة التى يشرف عليها زميله « پا ور عا » . وكانت هناك تحقيقات أولية وعوينت المقابر فوجدت اللجنة أن ما قاله پاسر غير حقيقى ، لأن تسعة مقابر من مقابر الملوك العشرة التى عينها وجدت سليمة كما وجدت مقبرتان من مقابر الملكات الأربعة سليمة . واعترف التقرير بأن محتويات مقابر الأشخاص كانت مبعثرة وملقاة على وجه الأرض . وتركزت نتيجة التحقيق فى أن پاسر شخص كاذب ، واعتبر « پا ور عا » أن هذه النتيجة تبرئة له ولرجاله فاحتفلوا بذلك احتفالا كبيراً وعبروا النيل إلى البر الشرقى وهتفوا هتافات عدائية أمام بيت پاسر

وحدثت مشادة كلامية قدم على أثرها « پا ور عا » تقريراً للوزير ضد «پاسر» وفتح التحقيق من جديد فاكتشف المحققون هذه المرة أشياء خطيرة واعترف بعض المتهمين تحت تأثير تعذيبهم بالحقيقة، كما ذكر الشهود ما سمعوه أو رأوه وقد دون كل ذلك فى تلك البردية . ومن هذه البردية المعروفة باسم بردية « أبوت » نقف على كثير من تدهور الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد ونظام التحقيق والقضاء، ولكن أهميتها الكبرى هى فيما يمكن أن نقف عليه من معلومات عن المقابر التى سرقها اللصوص وموقعها فى الجبانة بالنسبة إلى بعضها وإلى المعابد الكبيرة ، وهى معلومات ساعدت وستساعد رجال الآثار فى أبحاثهم وحفائرهم فى هذه الجبانة الهامة .

وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبير كهنة أمون أمنحتپ الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة، وهو كبير الكهنة الذى نرى اسمه ظاهراً واضحاً فى معبد الكرنك والذى بدأ بتقليد جديد إذ نرى كبير الكهنة مرسوما على قدم المساواة مع الملك ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى الحق فى شىء بل أن الملك كان بكل تأكيد أقل نفوذاً وجاهاً ومالا من كبير كهنة أمون، ولكن التقاليد كانت حتى ذلك الحين تجعل الملك مقدما على كل من يحيط به وإليه ينسب كل فضل وإذا رسم على معبد أو على حائط قبر فهو مارد يتسامى فى طوله، وكل من حوله يرسمون فى حجم صغير .

ولكن « أمنحتپ » الذى كان يجمع إلى عمله ككبير للكهنة فى جميع المعابد المصرية أعمالا هامة أخرى مثل إشرافه على خزانة فرعون ووظيفة حامل خاتم الملك لم يكن فى حاجة إلى هذا التملق، فحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال أمون وضرائبه بواسطة كتبة المعابد وليس بواسطة موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأساً إلى خزانة

المعابد ولا تمر بخزانة الدولة وهكذا وضع « أمنحتپ » الأساس للسياسة التى ستنتهى باستيلاء الكهنة على العرش[1] .

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاما رمسيس آخر وهو رمسيس العاشر ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى سبعة وعشرين عاما .

وقعت فى تلك السنين بعض أحداث هامة وظهرت فى البلاد فكرة لتطهير الدولة من أدرانها وسميت هذه الفترة بعصر النهضة « حرفيا : تجديد المولد » وقد بدأ ذلك العصر فى السنة التاسعة عشرة من حكم هذا الملك [2] ، وربما كان الموحى بهذه الفكرة هم كهنة أمون الذين أرادوا لمصر أن تبدأ عهدا جديدا أساسه الحكم الدينى وكان التاريخان يكتبان جنبا إلى جنب . فنرى أن العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادى عشر يوافق العام الأول ، وفى وثيقة أخرى (نقش على الجدار الخارجى الشمالى من قاعة العيد فى معبد أمنحتپ الثانى بالكرنك بين الصرحين التاسع والعاشر) أن السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك نفسه توافق العام السابع من عصر النهضة ولكن هذا العصر لم يدم أكثر من تسع سنوات لأننا نرى فى ختام ذلك الوقت أن كبير الكهنة « حريحور » أصبح ملكا لمصر .

كان حريحور من رجال الجيش ومن المرجح أنه كان من نسل الكهنة وفى الوقت ذاته ممن كانوا يتصلون بنسبهم إلى البيت المالك القديم ، وكان

---

(١) نعرف من الأقوال التى جاءت على ألسنة الشهود فى قضية سرقة المقابر أنهم كانوا يؤرخون بعض الحوادث فى سنة « حرب أمنحتپ كبير الكهنة » مما يحملنا على الإعتقاد بأنه كانت هناك ثورة قام أمنحتپ بالقضاء عليها ، وكان القائمون بهذه الثورة من الأجانب وربما كانوا من الجنود المرتزقة فى الجيش .

(٢) كتب شرنى عن هذا الموضوع بحثا فى CERNY, *JEA*, Vol. XV, p. 194 ff. كما ظهر بحث آخر فى مجلة *Journal of Near Eastern Studies*, Vol. VII, *July* 1948 p. 157 ff.

حريحور فى وقت من الأوقات حاكما للسودان ، وأخيرا وصل إلى الملك . وليس من المستغرب أن يكون الكهنة قد وصلوا إلى الملك ولكن الأمر المستغرب أن يظل الكهنة فترة طويلة منذ عهد رمسيس التاسع حتى نهاية عصر رمسيس الحادى عشر دون اتخاذ هذه الخطوة .

ظلت الأسرة العشرون نحو مائة سنة وعشرة على العرش فقدت فيها مصر أملاكها فى آسيا ولكن نفوذها فى بلاد النوبة ظل كما كان من قبل ، لأن مناجم الذهب كانت ملكا لآمون ، وكانت خيراتها تأتى إلى معابده . وكان كبار كهنته يحسنون اختيار الحكام ويمدونهم بكل ما يكفل لهم السلطة فى أقاليمهم واشتهر من بينهم فى هذه الفترة العصيبة أكثر من فرد واحد مثل بانحسى الذى استدعاه الملك مرة لإخماد فتنة فى الشمال ومثل حريحور الذى أصبح مؤسس أسرة الكهنة فيما بعد [1] .

وفى معبد خونسو بالكرنك نستطيع أن نرى بوضوح كيف تطور الأمر . فمنذ تعيين حريحور كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته كمدير الخزانة وقائد الجيش جميع عناصر القوة فى البلاد . فنراه فى مبدأ الأمر يذكر اسم الملك باحترام على النقوش ثم نراه يضع اسمه إلى جانب اسم مولاه وبعد ذلك نراه يقدم اسمه على اسم الملك نفسه وينتهى الأمر بأن نراه وحده يحمل تاج الوجهين القبلى والبحرى على جبينه ويتسمى بألقاب الفراعنة . وهكذا انتهت الدولة الحديثة بانتهاء الأسرة العشرين ودخلت مصر بحق فى فترة اضمحلال وهى الفترة التى بدأت فى الواقع منذ أواخر أيام رمسيس الثالث .

---

(١) اقرأ عن هذه الفترة H. KEES, *Herihor und die Aufrichtung des Gottesstaates* (*Gottingen*, 1936)

الفصل الثامن

العصر المتأخر

أيام الإضمحلال (١٠٩٠ – ٧٢٠ ق . م)

الأسرات الواحدة والعشرون حتى نهاية الرابعة والعشرين

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٩٠ – ٩٤٥)

حريحور وعائلته :

أعلن حريحور نفسه ملكا وحكم فى طيبة ، ولكنه كان إذ ذاك شيخا طاعنا فى السن ولم يعمر طويلا . ولسنا نعرف عن أيام حكمه إلا القليل مما خلفه فى طيبة وبخاصة بدؤه بالعناية بالمقابر الملكية التى اعتدى عليها اللصوص، فقد أمر باعادة دفن بعض الملوك الذين جردهم اللصوص من أكفانهم . ولكن فى الوقت الذى كان يحكم فيه حريحور فى طيبة كان هناك ملك آخر فى الشمال يحكم فى مدينه « تانيس - صان الحجر » فى شرقى الدلتا وكان لهذا الأخير واسمه « نسو با نب دد » وهو المعروف باسم « سمندس » الكلمة العليا على الدلتا وعلى مصر الوسطى حتى أسيوط على الأرجح .

ولسنا نعرف حتى الآن شيئا عن أصل سمندس أو صلته بالبيت المالك القديم اللهم إلا أن زوجته « تا نت أمون» كانت من العائلة المالكة وأصبح لزوجها حق تولى العرش بعد زواجه منها كالمعتاد. وليس هناك دليل على حدوث احتكاك بين البيتين المالكين فى الشمال والجنوب بل نكاد نجزم بأن سمندس، وهو الذى كان أقوى وأكثر نفوذا ،لم ينظر إلى عمل حريحور كأنه عمل عدائى .

ولم تمض إلا سنوات قلائل حتى مات حريحور وخلفه فى طيبة ابنه « بعنخى » الذى كان فى وقت من الأوقات حاكما للسودان الشمالى وكان قائدا للجيش فلم يدعى الملك كابيه وإنما احتفظ لنفسه فقط بمنصب كبير كهنة أمون واعترف بأحقية البيت المالك فى تانيس فى الجلوس على العرش .

ومضت الأيام وازدادت الصلة بين ملوك تانيس وكهنة أمون، وكان سمندس قد مات وخلفه على العرش الملك بسوسينس الأول « پا سبا ان خع نوت » فوثق البيتان الصلة بينهما بأن تزوج بينزم أكبر أولاد بعنخى من (ماعت كارع) بنت بسوسينس . فلما جاء اليوم الذى مات فيه بسوسينس الأول أعلن نفسه ملكا كما فعل حريحور من قبل ، وعند ذلك ترك لابنه « ماساهرتا » وظيفة كبير الكهنة . ولكن هذا الإبن لم يلبث إلا فترة قصيرة مات بعدها فتولى أخوه « منخپر رع» مكانه وكان ذلك فى عهد الملك « أمن إم أپت» الذى كان يحكم فى تانيس وكان ذلك بين العام السادس عشر والعام الخامس والعشرين من حكم هذا الملك .

وكان كبير الكهنة « منخپر رع » ذا شخصية قوية عرف بدهائه كيف يخضع ثورة قامت بها طيبة ونفى بسببها كثيرون من أهلها إلى الواحات الخارجة ، فأراد مصالحة الأهالى وقبل أن يعودوا إلى وطنهم — بناء عن وحى إلهى طبعاً — كما أصدر أمره بأن رغبة الإله أمون هى ألا ينفى أحد مرة

أخرى . وجاء الوقت الذى أعلن فيه « منخبر رع » نفسه ملكا ويرى بعض المؤرخين أنه تسمى باسم پسوسينس الثانى ، وهكذا استمر الحال بين تانيس وطيبة إلى أن انتهت أيام الأسرة الحادية والعشرين فقد كان يقيم الملك فى شرقى الدلتا ويحكم كبير الكهنة فى طيبة ، ولا شك أن مثل هذه الحالة المرتبكة لم تساعد على استقرار الأمور أو تنقذ مصر مما كانت تعانيه . والوثائق التى تحت يدنا عن هذا العصر قليلة ويحتار المؤرخ فى التوفيق بين ما يقرؤه فيها . وقد بدأت حفائر تانيس منذ عام ١٩٣٩ تلقى بشىء من الضوء على هذا العصر ، وساعدتنا على حل بعض النقط ولكن ما زالت هناك نقط غيرها تنتظر ما عسى أن يظهر فى تلك المنطقة أو غيرها من معلومات .

وفى تلك الفترة المضطربة نجد أمامنا ثلاث نقط هامة فى التاريخ لا بد من الإشارة إليها ولو بشىء من الإيجاز .

رحلة الكاهن « ون - أمون » إلى لبنان : [1]

ليس هناك ما هو أدل على انهيار نفوذ مصر فى آسيا مما حدث لهذا الكاهن فى رحلته إلى لبنان، ليحصل على شىء من خشب الأرز اللازم لتجديد سفينة الإله أمون فى طيبة . فقد انتهى الوقت الذى كان يسجد فيه أمراء غربى آسيا أمام ملك مصر ويمرغون جباههم فى التراب طالبين منه أن يمنحهم نسيم الحياة ، وانتهت أيضاً تلك الأيام التى كان فيها سكان تلك البلاد يبادرون لتلبية أى إشارة تأتى من مصر ، فقد كان آخر عهد فلسطين وفينيقيا بالنفوذ المصرى أيام أن كانت جيوش رمسيس الثالث تجوس خلال تلك البلاد وتحميها من إذلال « شعوب البحر » وحبهم للنهب وسفك الدماء . وها نحن

---

(١) عثر على هذه البردية في بلدة الحيبة فى مديرية المنيا عام ١٨٩١ واشتراها العالم الروسى جولينيشف وهى الآن في موسكو وقد ترجمها صاحبها ثم ترجمها برستد أما الترجمة التى يعتمد عليها الجميع الآن فهى ترجمة إرمان لها فى كتابه عن الأدب المصرى القديم .

الآن فى عهد الملك سمندس وأيام أن كان حريحور فى طيبة أى لم يكد يمر سبعون عاما على موت رمسيس الثالث حتى نرى مبعـــوث مصر عرضة للسخرية بل وللسرقة منه ، فإذا ما أشار إلى حق مصر وحق أمون لم يجد إلا ابتسامة الاستهزاء من حاكم جبيل الذى رفض مساعدته بعد أن نهبه اللصوص وأخذوا الأشياء التى كانت معه والتى جاء بها من مصر ليقدمها ثمناً للأخشاب التى كان يود الحصول عليها .

سافر الكاهن « ونأمون » من طيبة إلى تانيس حيث حصل على معونة الملك « نسوبا نبدد ـ سمندس » وأقلع فى سفينة تجارية يملكها بحار سورى . وسرق ما معه جماعة من شعب الـ « ثكل » ومن بينها الأوانى الفضية التى كان يريد أن يقدمها هدية إلى أمير جبيل . وأثناء سفره بالبحر من صور إلى جبيل وجد معـه جماعة من الـ « ثكل » ورأى إحدى غرائرهم وكانت تحتوى على فضة وزنها ٣٠ دبن ولمـا كان بعض أفراد من هذا الشعب هم الذين سرقوا منه ٣١ دبن فإنه أخذ هذه الغرارة رهينة عنده . وعندما وصل الجميع إلى جبيل تقدم بالشكوى إلى أميرها « زكر بعل » طالباً حمايته واسترداد حقه . ووجد هذا الأمير أن ذلك معناه حدوث متاعب له مع الآخرين الذين كانوا قرصاناً فى البحر الأبيض وكانت لهم قوة ، وفى الوقت ذاته كانوا جيرانا له . ورفض أمير جبيل أن يستقبله وطلب منه مغادرة بلده . وأقام الكاهن المسكين تسعة عشر يوماً فى الميناء ، وفى كل يوم يسمع ما يسيئه ويأمرونه بالرحيل والعودة إلى مصر . وكان ونأمون قد أحضر معه تمثالا للإله أمون معتقداً أن وجود هذا التمثال معه سيذلل الصعاب ولـكن تقديره قد خاب فلم يعتن أحد بأمون أو يأبه له من بين الرجال الرسميين . ولـكن يلوح أن ما أصاب الكاهن حرك الشعور الدينى عند بعض الناس فأصابت أحد الشبان نوبة ، وأخذ يتحدث وهو فى نوبته العصبية طالباً إحسان معاملة أمون ورسوله وأن يقدموا الاحترام لتمثال أمون فاتح الطريق . وقبل «زكر بعل »أن يقابل

ونأمون واتفق معه على أن يرسل الكاهن خطاباً إلى سمندس طالبا أن يرسل له شيئاً من المال . فلما عاد الرسول أمر أمير جبيل بارسال ٣٠٠ من رجاله ومعهم ٣٠٠ ثور لقطع الأخشاب وإحضارها . فلما جاء وقت رحيله كان أعداؤه القدماء من شعب الثكل واقفين له بالمرصاد لينتقموا منه عندما يغادر الميناء فأخذ ونأمون يبكى ويندب حظه. وأراد أمير جبيل أن يرفه عنهفأرسل إليه طعاما ومعه مغنية مصرية لتسرى عنه بأغانى وموسيقى بلده . وفى اليوم التالى تمكن الأمير من إقناع أهالى الثكل بأن يتركوه وشأنه حتى يغادر الميناء . وسواء أكانت نجاته بحيلة بارعة من ذلك الأمير أو لم تكن ، فإنه استطاع أن يهرب من أعدائه ولكن ريحاً مضادة اضطرته للالتجاء إلى جزيرة قبرص وهناك كاد يقتله أهلها ووجد أخيراً من استطاع أن يتفاهم معه باللغة المصرية كما استطاع أن يترجم بينه وبين ملكة قبرص التى عطفت عليه عندما عرفت قصته . وإلى هذا الحد من القصة يقف النص المحفوظ الذى وصل إلينا،ولسنا نعرف بعد ذلك كيف وصل ونأمون إلى مصر، ولكننا ندرك من القصة ما وصلت إليه هيبة مصر فى فينيقيا وفى غيرها . وهذه القصة مثل من خير الأمثلة لسهولة القصة المصرية وحسن تصويرها ، وما يتخللها من مواقف الدعابة وتعطينا صورة عن أدب هذا العصر إلى جانب الصورة التى توضحها لنا عن حالة مصر المحزنة إذ ذاك .

خبيئة الدير البحرى :

وإن كان لملوك الأسرة الحادية والعشرين حسنة من الحسنات فهذه الحسنةهى عنايتهم بإصلاح ماحدث من اعتداءات على موميات الملوك السابقين فى فترات الضعف والإنحلال منذ عهد الملك رمسيس التاسع . وبالرغم من أن بعض الباحثين حاول أن يلصق بالكهنه تهمة تشجيع سرقة المقابر للحصول على الذهب فانه لا يمكننا قبول هذا الإتهام بسهولة فاننا نعرف أن هؤلاء الكهنة

بذلوا كل ما فى وسعهم لإعادة دفن الملوك وأخذوا ينقلون مومياتهم من مكان إلى مكان حتى جمعوها أخيرا فى مكان واحد فى إحدى المقابر القديمة على مقربة من الدير البحرى . وكان الكاهن الأكبر الذى نفذ هذا المشروع العظيم هو بينزم الذى جعل من هذا المكان مستقرا لموميات أسلافه وما بقى من دفناتهم الأصلية ، وكذلك موميات أجداده الأقربين كهنة وكاهنات أمون . واقتفى من جاءوا بعده أثره فى تكديس الموميات فى هـذا المكان . واحتفظ الزمن بهذه الوديعة الغالية منذ الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٨٧١ عندما تمكن بعض لصوص الآثار من عائلة عبد الرسول فى قرية القرنة من معرفة هـذا المكان واستطاعو أن يضللوا جميع الناس إذ ظل الأمر سرا بين ثلاثة أخوة كانوا يذهبون فى أوقات متباعدة دون أن يشعر بهم أحد لنقل جزء مما هناك يعيشون منه حتى يذهبوا مرة أخرى، فلم يدخلوا المكان إلا ثلاث مرات فى عشر سنوات . وأخذت آثار ملكية بين تماثيل وأوراق بردية ، تظهر فى أسواق أوروبا ومصر وأجمعت التحريات على أن مصدرها جميعا هو أحد أفراد عائلة عبد الرسول ووكيل قنصل انجلترا فى الأقصر الذى كانت تحميه الإمتيازات الأجنبية . ولم ينجح التحقيق أو التهديد فى عبد الرسول على الاعتراف أو حمل أهل القرنه أو التجار الآخرين على تقديم أى دليل يساعد المحققين فاضطر المحققون للإفراج عنه مؤقتا .

وهنا حدثت المعجزة . فقد خرج هذا الشخص مزهواً وطالب بأن يكون له النصف جزاء ما لاقاه من سجن وتعـذيب . واختلف الأخوة فيما بينهم وتشاجروا فأبلغ أحدهم وهو محمد عبدالرسول مدير قنا بأنه مستعد للاعتراف وأرشد عن المكان .

وجاء رجال الآثار ولم يكن أحد فى العالم يحلم بما كان هناك . فى هذا المكان الموحش استقرت موميات الفراعنة العظام أمثال سقننرع وأحمس

وتحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى وغيرهم وغيرهم ، آلاف السنين ، وهذه هى المومياات الملكية التى توجد الآن فى المتحف المصرى ، أما البرديات وغيرها من الآثار التى تعد بالآلاف فقد كانت جزءا من محتوياته .

وبعد ذلك بسنوات قليلة أرشد محمد عبد الرسول نفسه عن مكان بكر فى داخل حدود معبد الدير البحرى وهناك عثروا على مقبرة كبيرة مملوءة بتوابيت الكهنة والكاهنات وهى المجموعة العظيمة الموجودة فى المتحف المصرى الآن ويرجع تاريخها إلى ذلك العهد . وفى عام ١٩٣٤ كشفت أعمال مصلحة الآثار عن مكان آخر فيه توابيت إحدى عائلات الكهنة من الأسرة الواحدة والعشرين أيضاً ، ومن بينها مومياء وتوابيت « نسبا قاشوتى » وعائلته .

اكتشاف مقابر صان الحجر :

وكأن الحظ أبى إلا أن يحالف هذه الفترة من تاريخ مصر ، فكما احتفظت الأيام بسر الكهنة وبقيت خبيئة الدير البحرى إلى عصرنا الحاضر حيث أمكن إنقاذ الجزء الأكبر منها ، فإن هذه الأيام كانت كريمة أيضا وذلك باحتفاظها بمقابر بعض ملوك الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٩٣٩ عندما عثر عليها أعضاء بعثة الحفر الفرنسية التى كانت تعمل فى صان الحجر (تانيس) مقر ملوك هذه الأسرة .

وكان من ضمن المقابر التى وجدت سليمة لم تمسسها يد مقابر الملك پسوسينس الأول ومقبرة الملكة « موت نزمت » زوجته كما وجد إلى جانب قبر هذا الملك قبر كبير الكهنة ورئيس الرماة فى عهده وأسمه « أوندباد ندد » وعثر كذلك على مدفن « الملك أمنأوپت » وغيره من الأمراء .

وبالرغم من أنه معروف لنا أن هذا العصر كان وقت إنحلال وتدهور فإن الأشياء التى عثر عليها وبخاصة الحلى الذهبية قد أثبتت أن الذوق الفنى والمهارة فى صناعة الحلى لم تتدهور فى مصر . كما أن كميات الذهب والفضة التى دفنت

مع هؤلاء الملوك تثبت غناهم الكبير ويكفى لزائر المتحف المصرى أن يدخل قاعة تانيس ويرى ما عثر عليه فى هذه المقابر ليقف على الكثير مما يذهله ويأخذ بتفكيره .

وقبل أن نترك تاريخ هذه الأسرة ونتحدث عن نشأة الأسرة الثانية والعشرين يجدر بنا أن نضع فى ذهننا أن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التى لم يتفق عليها علماء الآثار اتفاقا كاملا حتى الآن، وربما كان حظنا فى معرفة ترتيب كبار كهنة أمون فى طيبة خيرا من حظنا فى معرفة تتابع ملوك تانيس بالرغم من حفائر صان الحجر الأخيرة ومحاولات المسيو مونتيه لترتيبهم .

وليس أمامنا من سبيل غير الاكتفاء بما لدينا من معلومات عن هذا العصر المضطرب حتى يحين الوقت لظهور وثائق جديدة تزيد من معلوماتنا عن ترتيب هؤلاء الملوك وبخاصة فى أواخر أيام الأسرة .

الأسرة الثانية والعشرون (١٧٤٥ — ٧٤٥ ق . م .)

أصل ملوك الاسرة :

منذ فجر التاريخ المصرى كان غرب الدلتا هدفا لهجرات أفراد أوجماعات من سكان ليبيا ، ونعرف منذ أيام الملك « نعرمر » مؤسس الأسرة الأولى أنه حاربهم وانتصر عليهم. واستمرت هذه المحاولات والغزوات الصغيرة طيلة التاريخ المصرى ولكنها لم تأخذ صورة عنيفة إلا فى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة عندما هدفت هجرات بعض الشعوب الهندو — أوروبية إلى محاولة الاستقرار فى الدلتا بعد غزوها ، وقد وقع عبء صد غزوات هذه الشعوب على عاتق الملكين مرنبتاح ثم رمسيس الثالث كما أسلفنا .

ولكن قبل أن يتولى الملك مرنبتاح الحكم كان بعض هؤلاء الشعوب ، الذين كانوا قد استقروا فى ليبيا وفى غيرها من البلاد على ساحل البحر

الأبيض المتوسط، قد أخذوا طريقهم إلى الجيش المصرى كجنود مأجورين، ثم أخذ عدد هؤلاء الجنود المأجورين فى الازدياد، واتخذ بعض الملوك من بينهم رجال حرسه وبعض موظفى بلاطه، ثم مهد هؤلاء الطريق لأبناء جلدتهم وخصوصا من شعب «الماشوش» للحضور والإقامة فى مصر فى حاميات فى طول البلاد وعرضها. وهكذا حصلت هذه الشعوب التى كانت فى ليبيا بطريق السلم على ما لم تنله بطريق الحرب، وأصبح للكثير من زعمائهم مكان مرموق.

ويعنينا من أمر هؤلاء الزعماء أو رؤساء «ما» العظام (اختصارا لكلمة ماشوش) شخص واحد اسمه «شاشانق» عرفنا اسمه من حادث ارتبط به فى أواخر أيام رئيس الكهنة «بينزم». فقد كان شاشانق يعيش فى ذلك الوقت فى بلدة «إهناسيا» زعيما لعائلة قوية هناك وقد مات ابن له يسمى «نمرود» فدفنه فى أبيدوس. وحدث اعتداء على قبره فذهب «شاشانق» شاكيا إلى الملك فى تانيس فاهتم بالأمر وسافر بنفسه إلى طيبة ومعه الشاكى ليستمعوا إلى حكم الإله أمون فى ذلك الأمر، فحكم وحى الإله بإدانة الجناة وأرسل الملك ترضية للشاكى تمثالا باسم ابنه ليوضع فى معبد أوزيريس فى أبيدوس.

وليس هناك شك فى أن هذا الحادث يوضح لنا أمرين هامين أولهما قوة بعض العائلات التى من أصل ليبى ومحاذرة الملك وكبير الكهنة من إغضابهم، والأمر الثانى أن هؤلاء الليبيين كانوا قد تمصروا تمصيرا تاما واعتنقوا ديانة المصريين وأصبحوا كغيرهم من سكان البلاد.

ولكن يحق لنا أن نتساءل مرة أخرى عن «شاشانق» هذا وعن أصله والجواب يأتينا عن طريق لوحة أقامها كاهن من إهناسيا ووضعها فى السرابيوم [1] وفيها نسبه الذى ينتمى إلى هذه العائلة ومنها نعرف أن شاشانق والد نمرود كان من أسرة ليبية استقرت وقتا ما فى إحدى واحات الصحراء

(١) MARIETTE, *Le Serapeum de Memphis* 1857, III pl. 3 ; *Breasted*, A.R. IV, § 785 - 792

الغربية (على الأرجح الواحات البحرية) ثم نزحت إلى إهناسيا واستقرت فيها منذ ستة أجيال. وهي تنحدر من شخص يسمى «يويوواوا» الذي كان يعاصر أواخر أيام الرعامسة وكانت هذه العائلة قد بدأت تمصرها فى الواحات ولهذا لم يمض غير قليل حتى أصبح «موسن بن يويوواوا» أحد كهنة الإله «حرىشف» سيد مدينة إهناسيا، وقد بقى هذا المنصب الكهنوتى فى العائلة التى أخذت تثرى ويزداد نفوذها. ونجح شاشانق الذى تحدثنا عنه فى حصوله على مركز رئيس الحامية الحربية الليبية فى المنطقة وبذلك جمع فى يده السلطتين الدينية والحربية. ولم يطل عمر «نمرود» ابن «شاشانق» ليؤدى عملا هاما ولكن ابنه وكان يسمى «شاشانق» مثل جده، كان طموحا مد سلطانه حتى الدلتا وأصبحت تل بسطة (پرباستت ـ الزقازيق) مركزاً له، وهذا هو السبب الذى حدا بمانيتون إلى القول بأن هذه الأسرة أصلها من تل بسطة. ولكن شاشانق هذا لم يقم بثورة لخلع الملك «پسوسينس» الثانى بل انتظر حتى مات ميتة طبيعية فتقدم يعاونه غيره فاستولى على العرش فى تانيس ولم يظهر أى عداء للبيت المالك بل إنه كرم ذكرى سلفه وأتم مالم يتم من أعماله، وزوج ولى عهده وكان يسمى «أوسركون» من ابنة پسوسينس وكانت تسمى «ماعت ـ كا ـ رع» ليجعل مركز العائلة شرعياً من جميع الوجوه.

ومن هذا نرى أنه بالرغم من أن أجداد هذه العائلة كانوا غريبين عن البلاد إلا أنه كان قد مضى عليهم ستة أجيال بعد تمصيرهم واعتناقهم للديانة المصرية. ولم يكن لهؤلاء الملوك وطن آخر يعرفونه، أو يعتمدون فى حكمهم للبلاد على قوة أخرى أو ينقلون خيراتها، أو يفرضون جزية لبلد آخر على الشعب. ولهذا فانه من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد أنه استعمار ليبى أو أن مصر فقدت استقلالها وأصبحت محكومة بغير أبنائها. ففى كثير من بلاد الأرض فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحاضر عائلات ملكية من أصل أجنبى، ولكن لم يقل أحد أن انجلترا محكومة بالألمان أو أن اليونان

وبلجيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية أو أنها فاقدة لاستقلالها لأن ملوكها الحاليين من أصل ألمانى غير وطنى .

الملك شاشانق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م.):

لم يجد شاشانق الأول صعوبة فى استيلائه على الملك فى الشمال ولكن كهنة أمون فى طيبة لم يرحبوا بهذا التغيير الذى رأوا فيه ما يهدد مركزهم وثروتهم، ولم تكن هناك مندوحة من حدوث صدام بينهم وبين أى شخص يريد الحد من سلطانهم ، ولهذا لم يعترفوا لشاشانق فى بداية حكمه بملك مصر بل إنه كان فى نظرهم « رئيس « ما » العظيم : شاشانق » كما كتبوه على لوحة مؤرخة فى السنة الثانية من حكمه إذ ورد اسمه كما ذكرنا دون الألقاب الملكية . ولكن لم يمض غير قليل حتى حدث التصادم وفر كثير من هؤلاء الكهنة إلى السودان واستقروا فى مدينة نباتا ولم يطل بهم الزمن حتى أسسوا أسرة ملكية هناك ، كما نفى بعض منهم إلى الواحات الخارجة .

ولنترك شاشانق يوطد من سلطته ويصلح ما استطاع من الإصلاح لتوحيد البلاد وتنقية إدارتها من نفوذ كهنة أمون ، ونلق بنظرنا نحو الشرق لنعرف ماذا كان يحدث على حدود مصر ، وصلة مصر بما كان يجرى هناك من أحداث . لقد رأينا أثر هجرات الشعوب الهندو — أوروبية على غربى آسيا ، ورأينا كيف استطاع رمسيس الثالث أن ينقذ مصر من شرورها وينقذ ممتلكاتها ، ولكن خلفاءه الضعاف لم يستطيعوا السيطرة على هذه الممتلكات فسرعان ما تفككت إلى دويلات صغيرة وأخذت بعض الشعوب الهندو — أوروبية مثل البلست (الفلسطينيين) يستقرون على الشاطىء كما بدأت شعوب أخرى تستولى على الموانىء ، وفى الوقت ذاته أخذت قبيلة إسرائيل تغير على على البلاد وتوطد لها ملكا جديدا فى فلسطين . ونحن نعتمد فى دراسة هذه الفترة من تاريخ غرب آسيا على رواية التوراة وعلى القليل من الآثار ومنها

نعلم أن مصر لم تقطع علاقاتها نهائياً بتلك البلاد بل أن تجارتها استمرت مع الموانى فى أيام الأسرة الواحدة والعشرين كما نعرف أيضاً أنه فى أواخر أيام هذه الأسرة لم تقف بعيداً عن الأحداث التى كانت تجرى على حدودها .

ظهر الملك داود فوحد الأسباط وكون مملكة اسرائيل ، وكان لا بد له من شن الحرب على من قاوم سلطانه وأرسل قائده اليهودى « يوآب » ليؤدب إدوم ففر أميرها واسمه « هدد » ملتجئاً إلى مصر ومعه عدد من رجاله ليفر من المذبحة فوجد كل ترحاب من ملك مصر الذى كان على الأرجح پسوسينس فأنزله فى قصر خاص ورتب له المرتبات وأقطعه ورجاله أرضا ليعيشوا من خيراتها بل زاد ملك مصر على ذلك بأن زوجه من أميرة مصرية كانت أختا لزوجته .

وبناء على رواية التوراة أيضا نعرف أن ملك مصر لم يكن على علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان بن داود خلف أباه على العرش وكانت علاقته بالبلاط المصرى على خير حالة، وكانت تجارته آمنة بفضل مصاهرته لملك مصر الذى أعطاه إحدى بناته زوجة له . ومن قصة التوراة أيضاً نعرف أن الملك المصرى (على الأرجح پسوسينس) هاجم جنوبى فلسطين (كنعان) واستولى على مدينة « جزر » وأحرقها ثم أعطاها هدية أو مهراً لابنته عند زواجها .

وحكم سليمان وقتا طويلا على عرش إسرائيل ومكنته صلته بمصر ومصاهرته لبيتها المالك من الحصول على المهندسين والفنانين الذين اشتركوا مع الفينيقيين فى بناء هيكله الشهير فى أورشليم ، وجمع سليمان ثروة عظيمة من التجارة وبخاصة تجارة الخيول وظل طيلة حياته على صلته الودية وولائه لمصر . وفى أيامه تولى شاشانق الأول الملك فظلت الصلة الودية كما كانت، ولكن هذه الصلة لم تمنع ملوك مصر من النظر إلى مصلحتهم الخاصة إذ أننا نعرف أيضا أن صلة سليمان بملك مصر لم تمنع الأخير ، وكان شاشانق الأول ، من أن

يرحب بعدو سليمان وهو « يربعام » الذى كان يرى نفسه أحق بمملكة اسرائيل منه لأن يربعام كان من سبط إفرايم ، فلما مات سليمان عاد يربعام إلى فلسطين وحدث إنشقاق كبير فلم يتبع « رحبعام » بن سليمان إلا سبطان من الأسباط الإثنى عشر وتبع يربعام عشرة منها .

وليس هناك شك فى أن نجاح يربعام كان بسبب تأييد مصر وتمهيدها له ، ولهذا لا نعجب إذا ظل يربعام مواليا لها ، ولا نعجب أيضا إذا كان رحبعام يعتقد أن مصائبه كلها أتت من مصر . وبقى رحبعام يحكم على جزء من البلاد وكانت أورشليم هى عاصمته التى كدس فيها كل ماجمعه داوود وسليمان من ذهب وفضة وذخائر أخرى . ولسنا نعرف السبب الذى جعل شاشانق يغضب على إسرائيل فان المصادر المصريه لم تحتفظ لنا بشىء عن هذه الحملة إلا القليل المسطر على واجهة الصرح الثانى بالكرنك ، ولكنه لا يعدو أن يكون سجلا بأسماء بعض البلاد التى دانت لشاشانق بالطاعة فى فلسطين . ولكن التوراة تذكر لنا أنه « فى السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق « شيشاق » ملك مصر على أورشليم واستولى على كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شىء » وتزيد رواية التوراة (الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٦) فتقول بأنه أخذ كل التروس الذهب التى صنعها سليمان وكان عددها مئتى ترس من ذهب مطرق وثلاث مئة مجن من ذهب مطرق (الملوك الأول : ١٠ : ١٦ - ١٨) .

كان لهذه الحملة الحربية أثر عظيم فى فلسطين ولبنان ، وتوطد مركز مصر هناك ، وأخذ ولاة فينيقيا يتسابقون للحصول على رضاء مصر فكانوا يضعون فى معابدهم تماثيل ولوحات باسم ملك مصر . وظلت هذه الصلة الطيبة وقتا طويلا بعد شاشانق ، وعادت لمصر بعض سمعتها ومكانتها فى تلك البلاد . أما الثروة العظيمة التى حصل عليها هذا الملك من غزوته الفلسطينية فقد مكنته من إقامة مبانى كثيرة أهمها جميعا قاعته العظيمة فى الكرنك وصرحه الذى بناه أمام هذه

القاعة وهو أعظم صرح فى مصر على الإطلاق ، وقد مات صاحبه دون أن ينقش جدرانه فظلت حتى الآن كما تركها .

خلفاء الملك شاشانق الأول :

لم يهمل شاشانق الأول أمر وظيفة رئيس كهنة أمون فعين فيها ابنـــه « يوأبت » فكان كاهنا أعظم وفى الوقت ذاته كان يحمل لقب « الرئيس العظيم لمـا » أو « رئيس الجيوش الـكبير » . وظل يوأبت فى هذا المنصب طيلة أيام حكم أبيه فلما مات شاشانق بعد أن حكم واحداً وعشرين عاما خلفه على العرش ابنه واساركون « أوسركون » ، فكان من أوائل أعماله أنه وضع ابنه وكان اسمه شاشانق فى هذا المنصب لأنه خاف من أخيـه لئـلا يترتب على وجوده ووجود أبنـائه على عرش كهنة طيبة أسرة أخرى كهنوتيه تنافســـه فى حكم البلاد .

وكان الكاهن الأكبر شاشانق قوى الشخصية فحصل من والده على الإذن له بوضع اسمه فى خانات ملـكية ، كما نراه أيضاً قد ورث منصبه بعد وفاته إلى ابنه « حور ـ سا ـ إيسى » الذى اتبع تقليد أبيه فى وضع اسمه داخل خانة ملـكية وكان معاصراً للأيام الأخيرة من حكم جده واساركون ، كما كان أيضا فى وظيفته فى أيام الملك « تكلوت الأول » الذى خلف واساركون على العرش . وعندما توفى الملك « تـكلوت الأول » خلفه على العرش الملك « واساركون الثانى » وقد أراد هذا الأخير أن يحصل لنفسه على ثروة كهنة أمون فوضع ابنه المسمى نمرود كبيراً لـكهنة طيبة وكان قبل ذلك كبيراً لـكهنة إهناسيا ، وأصبح نمرود بذلك سـيداً لطيبة وللصعيد ، وزوج ابنته المسماه « كارو ـ معم » إلى أخيـه « تـكلوت » الذى أصبح ملـكا فى الشمال وتسمى باسم تـكلوت الثانى . ومن ثمرة هذا الزواج ولد ابن اسمه « وساركون » أصبح فيما بعد كبيراً لـكهنة طيبة فى العام الحادى عشر من حكم والده تكلوت الثانى .

لم يكن تولى واساركون لوظيفة كبير الكهنة إلا تنفيذا لسياسة خاصة فقد كان طفلا صغيراً عندما أسند إليه هـــذا المنصب ، ولم يكن من السهل على الفرع الآخر من العائلة أن يترك السلطة والمال طواعية واختياراً فحدثت فتن وثورات فى طيبة جعلته يفر منها ويلتجىء إلى الجنوب . ولكن حزبه تمكن بعد ذلك من إعادة طيبة إلى هدوئها وعاد واساركون فى العام الخامس والعشرين من حكم تكلوت الثانى إلى عرشه الكهنوتى . وعلى أحد جدران معبد الكرنك نرى فى أحد النقوش كيف استقبله أهل طيبة بحماس عظيم ، وربما كان فراره من طيبة فى العام الخامس عشر من حكمه ، واستمر بعيدا عنها عشر سنوات . ولكن لم تلبث الثورات أن قامت مرة أخرى ووصل إلى عرش كهانة أمون شخص آخر وهو « حور ـ سا ـ إيسى » ، الذى نعرف أنه كان فى هذه الوظيفة فى العام السادس من حكم شاشانق الثالث (شاشانق الثانى أعلن أبوه تكلوت الثانى أنه شريكه فى الملك ولكنه مات فى حياة أبيه ولم يحكم بمفرده) وربما كان « حور سا ـ إيسى » هـــذا هو الذى تزعم الثورة ضد واساركون .

ولكن لم يمض غير عام واحد حتى عاد واساركون مرة أخرى وظل بعد ذلك فترة طويلة فى منصبه إلى أن مات فى العام ٣٩ من حكم شاشانق الثالث . وقد تخللت هـذه الفترات ثورات متعددة كانت إحداها فى العام الأخير من حياته وقد سببت هـذه الثورات اضطرابا كبيراً ليس فى أمور طيبة فقط بل فى مصر كلها ، وبعد موت واساركون خلفه فى عرش كهنة طيبة حور سا ـ إيسى الثانى الذى كان فى هذا المنصب نفسه عند نفى واساركون .

وفى بداية تولى حور ـ سا ـ إيسى لمنصبه الكهنوتى فى طيبة بدأت الأمور تأخذ صورة جديدة نتيجة لعدم الاستقرار والتنازع ، إذ أن الآثار التى أقيمت فى الكرنك لم تعد تؤرخ بحكم شاشانق الثالث أو خلفائه بل باسم ملك آخر اسمه «پا ـ دى ـ باست» الذى يعتبره مانيتون مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين .

الأسرة الثالثة والعشرون :

انقسمت مصر على نفسها من أثر هذه الثورات المتتالية ، وضعفت سلطة الملوك فقويت سلطة أمراء الأقاليم إذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشية من سطوة جاره ، أو طمعا فى توسيع رقعة ملكه،ولهذا لم يجد «پا ـ دى ـ باست» كثيراً من المقاومة عندما أراد خلق عائلة مالكة جديدة حكمت فى الشمال فى تل بسطة ، بينما كان هناك ملك آخر فى «صان الحجر» . ويظهر أن «پا دى باست» حكم جزءاً كبيراً من غربى الدلتا وحصل على معونة كهنة طيبة بينما ظل كهنة منف على ولائهم للبيت المالك القديم الذين ظل لهم النفوذ على شرقى الدلتا ومصر الوسطى .

ومهما كان الحال فاننا نعرف تماما أن الأسرة الثانية والعشرين ظلت على العرش لمدة خمسين عاما على الأقل بعد ظهور «پا دى باست» ويظهر أن البيتين المالكين تقاتلا فى البداية ثم اصطلحا فيما بينهما، وقبل كل منهما الأمر الواقع وصار فى مصرأسرتان ملكيتان تحكمان فى وقت واحد . ولكن لم يكن لواحد من هذين البيتين حكم كامل على البلاد التى يحكمها أمراؤها ، إذ أن هؤلاء الأمراء كانوا يعيشون شبه مستقلين وكان لكل منهم جيشه الخاص وبلاطـــه .

✻ وإذا رجعنا إلى عرش كهنة طيبة فاننا نرى أن الكاهن الأكبر «حور سا إيسى» أصبح له الحق هو الآخر فى كتابة اسمه داخل خانة ملكية . وقبل أن ينتهى حكم «پا دى باست» انتهت أيام «حور سا إيسى» فى طيبة وخلفه فى العرش الكهنوتى شخص آخر يسمى«تكلوت»الذى أرخ بعض آثاره فى السنة السادسة من الملك «شاشانق الرابع» الذى يلوح أنه جاء بعد الملك «پا دى إيسى» . ثم جاء بعد ذلك «واساركون الثالث» وغيرهما . وفى الواقع إن توالى الحوادث فى هذه الفترة من تاريخ مصر غامض ومرتبك ، وبالرغم من حفائر

صان الحجر فإنه مازال ينقصنا الكثير من المعلومات لنستطيع تحديد تولى الملوك فى كل من الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أو نحدد الصلة بينهما أو بين احد هذين الفرعين وكهنة أمون . [1]

وقد ترك ملوك الأسرة الثالثة والعشرين بعض الآثار فى الصعيد الأعلى وبخاصة فى طيبة . وامتاز عصر واساركون الثالث بحادثين مهمين أولهما حدوث فيضان عال جداً فى الأقصر حطم الرصيف وتدفقت المياه إلى معبد الأقصر وأتلفت كثيراً فيه فأمر الملك بترميم ما تهدم وبناء رصيف آخر. أما ثانى الحادثين الهامين فإن الملك واساركون الثالث لم يتبع ماتبعه آباؤه من قبل بوضع أحد ابنائهم فى وظيفة كبير كهنة أمون بل أنه زاد على ذلك بأن وضع ابنته « شپ ـ ان ـ أوپت » فى هذه الدولة الكهنوتية باسم « زوجة أمون الإلهية » ولم يمض غير قليل حتى زاد نفوذ الزوجات الإلهيات لأمون وغطى على نفوذ كبار الكهنة وكانت « شپ ـ ان ـ أوپت » أولى سلسلة من السيدات استمر نفوذهن لمدة قرنين من الزمان .

الأسرة الرابعة والعشرون :

وصلت الحالة الداخلية فى البلاد إلى الحضيض ، ولم يقتصر الأمر على وجود بيتين مالكين فقط بل ادعى آخرون الملك فلما جاء اليوم الذى مات فيه « شاشانق الخامس » ادعى أكثر من أمير من الأمراء أنه أحق بالملك وأعلن استيلاءه على العرش إلى جانب الفرع القديم فى تل بسطة ، وكان أهم هؤلاء أمير مدينة « صا الحجر » فى غرب الدلتا الذى أسس بيتا مالكا جديداً وهو الأسرة الرابعة والعشرون ، وكان هذا الأمير يسمى « تف ـ نخت » الذى وجد أن هناك ملكا

---

(١) نعرف أنه بعد انتهاء حكم شاشانق الثالث حكم ملكان آخران وهما « پامى » و « عا ـ خپر ـ أن ـ رع ـ ستپ ـ ان ـ رع » وهو شاشانق الخامس ، لكنا لانعرف عنهما شيئاً هاما أو آثارا ذات أهمية .

آخر ينافسه فى إهناسيا وآخر فى الأشمونين وثالثاً فى تل بسطة ورابعاً فى تانيس . . . إلخ ولكن رغم كل هذه المصائب فى الدلتا فان طيبة بقيت على شيء من الهدوء يحكمها كهنتها .

لم يكن «تف ـ نخت» كغيره من الأمراء بل امتاز عليهم جميعاً بالكثير من القوة والطموح ، ولهذا أراد أن يكون لقبه الذى وضعه أمام إسمه حقيقة واقعة وصمم على إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه وأن تكون مصر بأسرها مملكة واحدة كما كانت فى جميع أدوار عظمتها .

وتيسر لـ « تف ـ نخت » أن يخضع جميع أقاليم غرب الدلتا لحكمه ثم ثنى بشرق الدلتا وترك كل من اعترف بسيادته من الأمراء فى مكانه إلى أن تم له إخضاع الدلتا بأكملها . ووجه عنايته بعد ذلك إلى مصر الوسطى ولكن الأمور كانت تسير سيراً آخر ، إذ أن هذه الحالة السيئة التى دفعت بـ « تف ـ نخت » إلى إنقاذ مصر دفعت أيضاً غيره للتقدم لإنقاذها ، ولم يكن هذا المنقذ الآخر إلا الملك « بعنخى » الذى أرسل من نباتا فى شمال السودان جيشاً لتخليص البلاد مما وصلت إليه من فوضى ، وهكذا قدر لجيوش بعنخى أن تصطدم بجيوش « تف ـ نخت » ثم بجيوش ابنه « باك ـ ان ـ رنف » . وانتهى الصراع بانتصار جيوش الجنوب وتأسيس أسرة ملكية جديدة وهى الأسرة الخامسة والعشرون وبدء عصر نهضة جديدة فى مصر ، ولكن قبل أن نسرد تفاصيل هذا الصراع يحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء لنعرف أصل مملكة نباتا والأسباب التى جعلت ملوكها يفكرون فى إرسال جيوشهم إلى الشمال .

الفصل التاسع

اليقظة

(٧٢٠ — ٦٦٥ ، ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .)

الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة العشرون

مملكة نباتا وحملة بعنخي :

لم يتأثر جنوبى وادى النيل كثيراً بأحداث الشمال إذ ظلت طيبة المسكن الأبدى لأمون وظل الكرنك مركز عرش كبير كهنته ، وكانت بلاد كوش بما فيها من مناجم للذهب ملكا لأمون . ومنذ أن عظم نفوذ كهنة طيبة فى أواخر أيام الدولة الحديثة حكموا الجنوب حكما يكاد يكون مباشرا وبخاصة طيلة عهد الأسرة الحادية والعشرين .

فلما رأى كهنتها أن دولتهم قد آذنت بزوال ورفضوا الاعتراف بشاشانق وحدثت ثورات طيبة أخذ أكثرهم طريقه نحو الجنوب حيث كان جبل برقل مركزاً هاما لعبادة الإله أمون رع منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وحيث كانت مدينة نباتا التى تقوم عند سفحه ملأى بالمعابد الهامة والقصور ، وأصبحت مدينة ذات أهمية تجارية .

ولا شك أن الكهنة عند رحيلهم من طيبة أخذوا معهم شيئا غير قليل من ثروة أمون ، ولهذا تيسر لهم أن يعيشوا هناك فى بحبوحة من العيش وأن يستمروا فى سيادتهم وفى تحويل أمر القضاء بين الناس إلى ألاعيب الوحى وأساليب الكهنه الملتوية . ولم يطل بهم الأمر حتى أعلن هؤلاء الكهنة أنفسهم سادة على الجنوب بعد أن صاهروا أهل البلاد وانشأوا بيتا مالكا جديداً ادعى منشئه أنه ليس حاكما على كوش فحسب ، بل أنه حاكم على طيبة أيضا كما كانت التقاليد من قبل .

ولم يقطع حكام كوش الجديدون صلتهم بطيبة بل ظلوا يقدسون اسم أمون ويتجهون بقلوبهم نحو الشمال . وحدث فى أيام الأسرة الثالثة والعشرين شيء من التقارب بين طيبة وكوش من الناحية السياسية ولكن لم يستمر ذلك وقتا طويلا ، إذ ظل بيت نپاتا مستقلا فى إدارته ولكن حكامه لم ينزلوا عن دعواهم بأنهم أصحاب الحق فى عرش مصر .

وأول اسم نعرفه من هـــذه الإسرة هو اسم « ألارا » (Alara) الذى خلفه ابنه كاشتا على العرش . وقد بدأ كاشتا يتجه بقلبه نحو الشمال ولكن تحقيق الأمل لم يأت إلا على يد ابنه «پعنخى» الذى خلفه على العرش [1] .

قضى «پعنخى» أكثر من عشرين عاما وهو ملك فى نپاتا قانعا بصلته بكهنة طيبة ولكنه لم يفكر فى إرسال أى جيوش إلى الشمال إلا عندما وصلته الأخبار بأن الملك « تاف ـ نخت » بدأ فى زحفه نحو الصعيد . كانت هذه التقارير تصل إليه من طيبة بانتظام ، ولهذا أرسل أمره إلى طيبة بالمقاومة وإرسال جيش ليحاصر الأشمونين التى كانت قد استسلمت لتاف ـ نخت، وأعد فى الوقت ذاته جيشا أرسله إلى مصر وزوده يوم رحيله بتعليمات لاحترام المعابد وتخليص

---

(١) أحدث الابحاث عن ترتيب أفراد هذه العائلة هو مقال *Dows Dunham and M.F. Laming Macadam, Names and Relationships of the Royal Family of Napata, in J.E.A*, 53 (1949) p. 139-148.

البلاد ممن يعيشون فيها فساداً . لم يرسل بعنخى هذا الجيش غازيا يريد الفتح والنصر، وإنما أرسله ليؤيد أمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها . ولهذا نرى بعنخى يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بأمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة أمون خاشعين . وليست هذه التعبيرات ألفاظ فاتح أجنبي وإنما هى ألفاظ شخص يؤمن بأن البلد بلده وأن أمون إلهه .

ووصل جيش بعنخى إلى طيبة وتقدم بعد ذلك إلى الشمال ، فالتقى بجيش « تاف ـ نخت » الذى كان فى طريقه الى الجنوب فكان النصر حليف جيش الجنوب الذى استمر فى زحفه نحو الشمال منحدرين على بحر يوسف ، حيث خاضوا معركة أخرى شتتوا فيها شمل جيش الشمال على مقربة من مدينة إهناسيا .

وكان نمرود ملك مدينة الأشمونين حليف « تاف ـ نخت » فى هذه المعركة، فتمكن من الفرار ليحصن مدينته وينظم الدفاع عنها، فلما رجع جيش الجنوب إلى هذه المدينة لم يستطع التغلب على حصونها فظل محاصراً لها .

وعلم بعنخى وهو فى نپاتا بأنباء هذه المعارك وساءه أن يترك جيشه مطاردة العدو ويمكنه من الفرار ، ولهذا صمم على أن يذهب إلى مصر بنفسه ليقود الجيش ، فجاء إلى طيبة فى وقت الاحتفال بعيد « أيت » أكبر أعياد البلاد على رأس قوة أخرى . وبعد أن انتهت أيام ذلك العيد أقلع بجيشه حتى وصل إلى الأشمونين التى كانت مازالت تقاوم المحاصرين . ورأى بعنخى أنه من الصعب أن ينالها بهجوم مفاجىء فالتجأ إلى طريقة أخرى وشيد خارج الأسوار جسراً كبيراً بنى فوقه برجا عالياً وأخذ رماته يمطرون المدينة وابلا من سهامهم . ورأى نمرود أن المجاعة أخذت تفتك بجنوده ، وأن هذا الحصار الطويل أنهك قوى الجميع ، وأنه لاحول له ولا قوة أمام هذه الجيوش الجرارة فقرر

الاستسلام وأرسل من يفاوض پعنخي لتسليم المدينة بمن فيها ، وفى الوقت ذاته أرسل زوجته لمقابلة زوجات پعنخي لتدافع عن زوجها وتبرر دفاعه عن مدينته، فحصلت على وعد بالعفو عنه . وفتحت المدينة بعد ذلك أبوابها ودخل پعنخي إلى قصر نمرود حيث قدم إليه كل ثروته وما لديه من حلى وجواهر . وتقدم پعنخي لزيارة حظائر الخيل فهاله ما وصلت إليه من هزال ، وكان الملك السودانى محبا للخيل فثارت ثائرته والتفت إلى نمرود قائلا له إن جريمته فى تجويع الخيل آلمته أكثرمن جميع آثامه الأخرى ، واستولى پعنخي على أموال الملك المهزوم وقسمها بين خزينة أمون وخزينته الخاصة .

واستأنف پعنخي زحفه إلى الشمال دون أن يجد أى مقاومة جدية حتى وصل إلى منف وهناك جاءه أمير إهناسيا وغيره من أمراء البلاد لتقديم هداياهم وولائهم ، ولم يشذ عنهم غير اثنين فقط وهما أميرا الفيوم وأطفيح لأنهما لم يكونا فى طريق الفاتح . ولم يضيع پعنخي وقتا أو مجهوداً لمحاولة إخضاعهما بل تركهما حتى ينتهى من امر منف . فلما وصل إليها أراد من فيها أن يقاوموا الزحف ولكنهم هزموا فارتدوا متحصنين وراء الأسوار القوية.وحاصرت جيوش پعنخي هذه المدينة ولكن الحصار لم يكن دقيقاً إذ تمكن « تاف ـ نخت » من الوصول إليها ومعه ثمانية آلاف رجل وأخذ ينظم الدفاع عنها فأوجد ذلك حماساً كبيراً بين الأهالى، خصوصا وأنه كان يوجد فى المدينة مؤن كافية لأوقات طويلة كما أنها تقع على النيل الذى كان يجرى فى الناحية الشرقية من أسوارها . وبعد أن اطمأن « تاف ـ نخت » إلى حسن الدفاع غادر منف ليلا ليجمع جيشا من الدلتا ويهاجم به جيوش پعنخي ويخلص المدينة .

تضايق پعنخي من ذلك وأراد أن يضع حدا لهذا الموقف فجمع مجلسه الحربى فأشار البعض باستمرار الحصار وحبذ البعض الآخر هجوما شديدا على الأسوار، ولكن پعنخي أدرك بثاقب بصيرته وجود نقطة ضعيفة فى الأسوار تصلح لأن تكون مركزا للمهاجمة . كان النيل مرتفعا وكانت السفن الراسية إلى

شرقى المدينة تثبت نفسها بحبال تربط فى أقرب المنازل إلى السور ولهذا قرر بعنخى أن ينقض على منف من هذه الناحية خصوصا وأن أهلها كانوا يتوقعون الهجوم من الناحيه الغربية التى زادوا فى تحصينها .

وبمساعدة أسطوله استطاع بعنخى أن يستولى على السفن الموجودة خارج الأسوار، واستطاع جنوده أن يتسلقوا بسهولة فدخلوا المدينة وفاجأوا المدافعين عنها ودارت مذبحة كبيرة ، ونهبوا البيوت ولكن المعابد والهيا كل لم يصبها أذى ، وأخيرا استسلمت منف ودخلها بعنخى وتوجه رأسا إلى معبد بتاح حيث استقبله كهنته واعترفوا به ملكا .

وما أن ذاع خبر سقوط منف حتى سارع أمراء الدلتا إلى تقديم ولائهم وخضوعهم ، ثم زار بعنخى مدينة إيون (هليوبوليس) حيث اعترف به أيضا كهنة الإله رع ملكا على مصر . ثم تقدم بجيوشه نحو الشمال حيث جعل معسكره عند أتريب (بنها) فتلقاه ملكها بترحاب كبير ووضع كل أمواله تحت تصرفه . فلما رأى الأمراء والملوك الآخرون ذلك استأذنوا ليعودوا بهداياهم وعادوا بها إليه ولم يشذ فى عدم تقديم الولاء إلا مدينة واحدة فقط وهى مدينة « مسد » التى ربما كانت مكان قرية مسطاى الحالية على مقربة من قويسنا ، فأرسل بعنخى حملة لتأديبها وأهداها إلى أمير أتريب مكافأة له على ما أبداه من اخلاص .

ورأى « تاف نخت » أن الجميع قد تخلوا عنه فالتجأ إلى مستنقعات الدلتا وأدرك أنه لا فائدة من المقاومة فأرسل يستغفر بعنخى ويقدم ولاءه فقبل منه بعنخى ذلك ، فاستسلم وأقسم يمين الولاء وحذا حذوه كل من أميرى الفيوم وأطفيح ، وبهذا أصبح بعنخى سيد مصر والسودان دون منازع .

وترك بعنخى كل هؤلاء الأمراء ومنهم تاف - نخت يحكمون بلادهم باسمه ، وكان الواجب عليه أن يظل بجيوشه بعض الوقت فى مصر حتى يطمئن على سير الأمور ولكن حدث العكس إذ أنه بمجرد أن انتهى من قبول

خضوع الأمراء فقفل عائدا إلى نباتا فكان هذا الخطأ من جانبه سببا فى تجديد المشاكل بعد سفره، خصوصا وأنه لم يعين موظفين يمثلونه فى البلاد أو يترك فيها حاميات بل اطمأن إلى وعود هؤلاء الأمراء .

الملك « تاف ـ نخت » مرة أخرى :

لم يكن الملك تاف ـ نخت صادقا فى تقديم ولائه ، فإنه لم يكد يطمئن إلى عودة بعنخى وجيوشه إلى نباتا حتى بدأ مرة أخرى يوطد سلطانه . واستمر فى تلقيب نفسه بأنه حاكم القطرين وسيد الدلتا والصعيد .[1] وقد استمر حكمه عشرة سنوات على الأقل بعد حملة بعنخى على مصر ، ثم تلاه بعد موته ابنه « باك ان رنف » المعروف لليونانيين باسم « بوخوريس » والذى حكم ست سنوات واشتهر بين اليونانيين شهرة عظيمة بأنه أحد عظماء المشرعين الستة فى مصر .

ويظهر أن همة « تاف نخت » لم تقف عند حدود مصر بل وجد نفسه مسئولا عن سلامة حدودها من الشرق عندما أخذ الخطر الأشورى يدق أبواب سوريا وفلسطين ، إذ نعرف من التوراة (الملوك الثانى ١٧) أنه بعد فتح الملك تيجلات بلسر الثالث لبعض البلاد السورية فى عام ٧٢٥ ق . م . ورجوعه إلى بلاده ، تحالف هوشع ملك إسرائيل مع ملك مصر .

أما نجله « باك ان رنف » فأراد بدوره أن يحمى بلاده من قوة أشور فأخذ يثير بلاد فلسطين ووعد الثوار بالمساعدة ، ولكن جيوش فلسطين المتحالفة هزمت شر هزيمة كما هزم الجيش الذى أرسله « باك ان رنف » عند رفح هزيمة شديدة ، وكانت هذه الهزيمة درساً قاسياً « لباك ان رنف » جعلته

---

(١) نعرف ذلك من لوحة فى متحف أثينامؤرخة فى السنة الثامنة من حكمه وهى تتعلق بتقديم هبة منه إلى معبد صا الحجر : وقد نشرت هذه اللوحة عدة مرات كان آخرها ما نشره CAPART, *Recueil de monuments égyptiens*, 2eme série, 1905, PL. XCII.

لا يعاود التدخل فى شئون فلسطين وسوريا . فالتفت إلى إصلاح الدلتا وأخذ فى سن القوانين وكان يجلس للقضاء بين الناس، وكانت أحكامه تشتهر بالتعمق والحكمة.[1] وحكم «بوخوريس» ستة أعوام لم تنتهى إلا بحضور الملك «شاباكو» خليفة بعنخى لاستعادة مصر ، وإذا صدقنا رواية ما نيتون فإن «بوخوريس» لم يمت ميتة طبيعية بل أن «شاباكو» أسره وأمر بإحراقه عقابا له .

وهكذ تكون الأسرة الرابعة والعشرون مكونة من ملكين فقط وهما «تاف نخت» وابنه .

وإذا نظرنا إلى موضوع الصراع بين «بعنخى» و «تاف ــ نخت» نظرة محايدة فاننا نجد أن كلا من الرجلين كان جديراً بالإعجاب . وكان بطلا وطنيا هاله ما وصل إليه أمر مصر من خراب وفوضى فتقدم لإنقاذها . كان «تاف ـ نخت» رجلا شجاعا طموحا وصاحب سياسة ، وكان «بعنخى» أيضا شجاعا وطموحا ولكن لم يكن له علم بفن الحكم ، ولو أنه كان يمتاز كثيراً على خصمه بقوة جيشه وموارده المالية والتأييد الدينى.لقد دافع كل منهما عما كان يعتقد أنه حق له وفيه مصلحة للبلاد . وربما كان من سوء الطالع أن يصطدم هذان البطلان ولكن مهما كان الأمر فإن حياة كل منهما وأسلوب كفاحه يدل على وعى قومى ويقظة وطنية ، جاء أحدهما من الجنوب وجاء الآخر من الشمال ، وكان هم كل منهما أن ينقذ مصر مما حل بها من تفكك وما آلت اليه من انهيار .

وفى الواقع أن هذه الفترة وهى فترة الصراع كانت بداية لعصر جديد أخذت تستيقظ فيه مصر من سباتها الذى قضت فيه عدة قرون ، وكانت

---

(١) Diodorus I, 65, 79, 94.

أيام الأسرة الرابعة والعشرين القصيرة ، ثم ظهور الأسرة الخامسة والعشرين وهى بدء النهضة الكبيرة التى ظهرت فيما بعد .

خلفاء بعنخى :

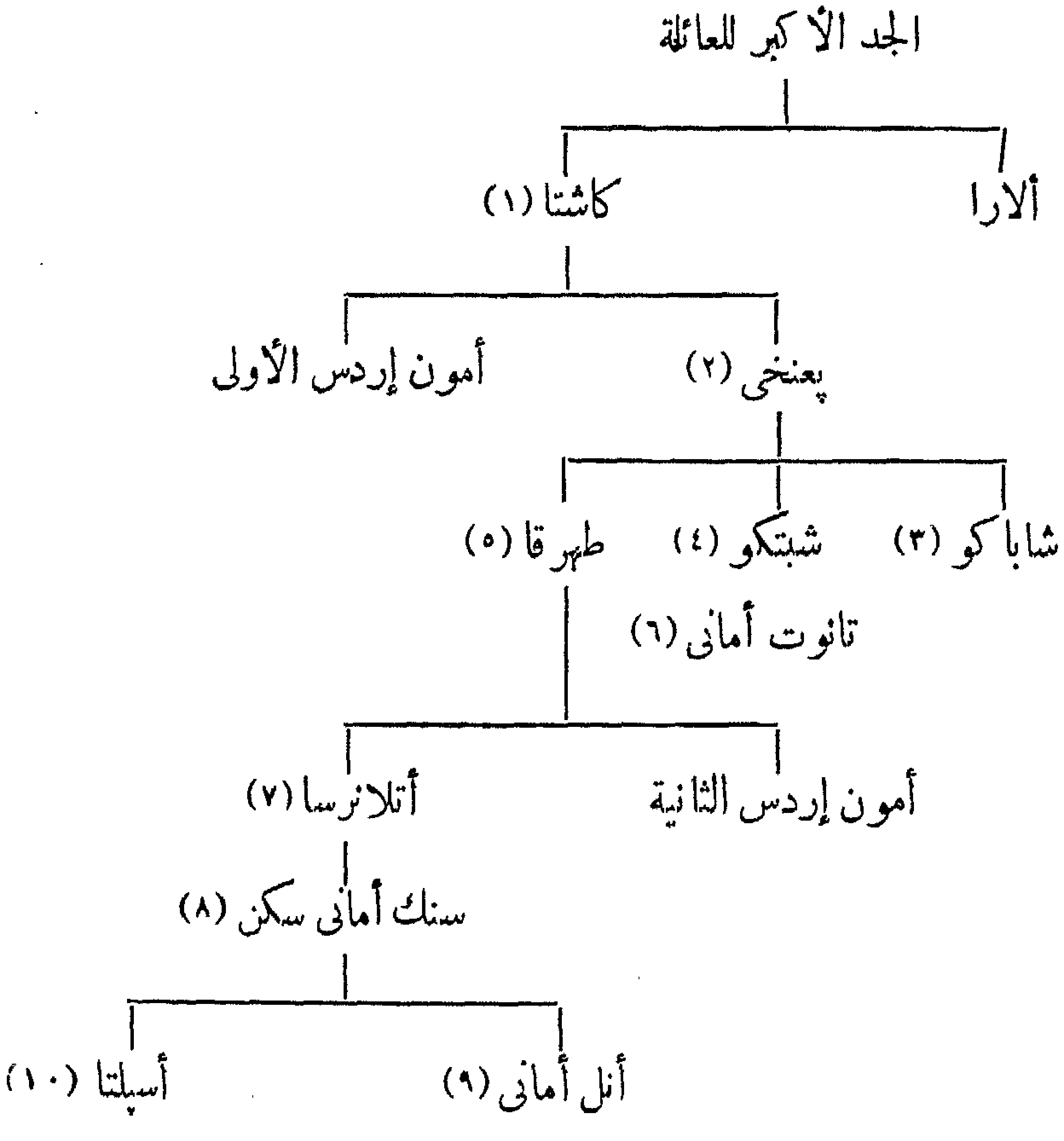
قبل أن يغادر بعنخى مدينة طيبة جعل الأميرة « شپ ـ ان ـ أوپت » ابنة وساركون الثالث ، التى كانت حتى ذلك الوقت الزوجة الألهية لأمون ، تتبنى أخته « إمنرديس » (أو أمون إردس) وبهـذا ضمن لنفسه وأسرته ثروة أمون .

ولم يظهر بعنخى بعد رحيله عن مصر اهتماما بأمرها، وترك « تاف ـ نخت » و « باك ـ ان ـ رنف » يفعلان مايشاءان فى الدلتا دون أن يرسل من يؤدبهما وظل قانعا بأن طيبة ، والصعيد بوجه عام ، لم يعتد عليها معتدى .

والمتتبع لحياة بعنخى تتولاه الدهشة لهذا المسلك الذى جعله يغادر مصر سريعاً إلى نپاتا ولا يحرك ساكنا بعد ذلك . فقدكان كل شىء سائراً فى مجراه العادى فى نپاتا على مانعلم، ولم تحدث هناك ثورات أو يقوم مطالب آخر بالملك ولهذا لا يمكن أن يكون تصرفه ناتجاً إلا عن حالة نفسية خاصة لم نعرفها بعد .

وبعد موت بعنخى خلفه ابنه « شاباكو » فعز عليه أن يصل الحال فى شمال الوادى إلى ما وصل إليه ، ولهذا أسرع نحو الشمال فأنهى أيام « باك ـ ان ـ رنف » كما سبق القول وأقام كثيراً من المبانى الدينية، كما بدأ سياسة المودة نحو دولة أشور فأرسل إلى الملك سرجون الثانى بهدايا ، فلما تلقى من سرجون هدايا أخرى تأكيدا لمودته اعتبر شاباكو أن مدلول ذلك أنه أصبح سيد بلاد آسيا ورسمه مصوروه على الآثار وهو يمسك بناصية الأسيويين الذين أصبحوا عبيدا له .

الملوك العشرة الأول من عائلة نباتا [1]



وحكم شاباكو نحو ستة عشر عاما ثم تلاه على عرش نباتا أخ له من أبناء بعنخى أسمه « شبتكو » جاء إلى مصر ومعه أخ شاب فى العشرين من عمره وهو طهرقا الذى كان منذ حداثة عمره مغرما بالحرب وكانت فيه صفات أبيه وهمته . كان أمراء الدلتا قد عادوا شيئاً ما إلى سلطتهم القديمة ، وكانت بينهم عدوات وحروب ، ولكن طهرقا تمكن من تهدئة الحالة بعض الشيء خصوصاً وأن الخطر الأشورى كان قد بدأ يطل برأسه مرة أخرى .

(١) مقتبس من مقال دنهم وماكدم فى مجلة *JEA*, 35 (1949) p. 149

مات سرجون الثانى فخلفه على عرش نينوى ابنه سنخريب (Sennacherib) الذى قرر أن يغزو فلسطين فاجتمعت مدنها فى حلف لمقابلة المهاجمين، وأرسلت مصر تؤازرهم ووقفت إلى جانبهم . وأرسل «شبتكو» جيشاً إلى الحدود تحت قيادة أخيه طهرقا ولكن سنخريب كان يهزأ بمساعدة مصر، وأراد رجاله أن يحذروا أهل أورشليم أثناء حصارهم من الاتكال على معونة مصر فقالوا لهم جملتهم المأثورة التى احتفظت بها التوراة موجهين الخطاب إلى حزقيا : « على من اتكلت حتى عصيت علىّ ؟ هوذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها . وهكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه (الملوك الثانى ـ الاصحاح ١٨ : ٢٠ ـ ٢٢) . ولكن أورشليم لم تستسلم وسار سنخريب لمهاجمة جيش مصر، وفى ذلك الوقت حدثت معجزة جعلت سنخريب يفر بفلول جيشه عائداً إلى بلاده إذ تفشى وباء الطاعون فى الجيش الأشورى . وتروى التوراة قصة إنقاذ أورشليم وتفسرها تفسيراً دينياً ويرويها هيرودوت ويفسر رجوع الجيش المهاجم وهزيمته تفسيراً روائياً (Herodotus,II, 141) وهو أن الجرذان انتشرت فى معسكر الأشوريين وقرضت القسى وكنانات السهام وجلد التروس ففر الجنود لأنهم لم يجدوا ما يحاربون به . ولم يحاول سنخريب مرة أخرى أن يغزو فلسطين ومات مقتولا بيد أبنائه فى عام ٦٨١ ق . م . وخلفه ابنه «أسار هدن» الذى لم يكن من بين المتآمرين فثأر لدمه واستولى على العرش . وفى العام نفسه مات شبتكو فخلفه على العرش أخوه طهرقا بن بعنخى .

الملك طهرقا :

وجه طهرقا كل نشاطه إلى الإصلاح الداخلى وبخاصة فى إقامة المبانى الفخمة فى جهات مصر المختلفة وكانت طيبة بطبيعة الحال أكثر البلاد استئثاراً باهتمامه . ولم يقم طهرقا فى طيبة بل فضل الإقامة فى صان الحجر ليكون قريبا

من حدوده الشرقية لأنه بحكم تجربته الشخصية كان يعلم أنه لا أمان لمصر طالما كانت أشور مستمرة فى تطلعها نحو الغرب . ولهذا ترك إدارة طيبة والصعيد إلى رجل من خـــيرة رجاله وهو « منتومحات » وركز جهوده لدرء الخطر الخارجى الذى كان يتهدده .

بقى طهرقا فى شمـال مملكته يرقب الحوادث ويدبر المؤامرات ضـــد الأشوريين ليقوم الفلسطينيون والفينيقيون بثورات ربمـا تنتهى بانسحاب الأشوريين من فلسطين . وكان هو المحرض على ثورة فى مدينة صور سببت تعباً كبيراً للأشوريين واضطرت « أسار هدن » أن يأتى بنفسه على رأس جيش لمحاصرتها ولـكنه لم يستطيع التغلب على المدينة لمناعتها . وأراد أن يؤدب مصر فترك صور محـاصرة وتقـدم نحو وادى النيل عن طريق سينا يسـاعده بدو الصحراء الذين أمدوه بآلاف الجمال لنقل المؤن والمياه، وكانوا أدلاءه فى السير حتى وصل إلى وادى الطميلات . ومن وادى الطميلات قصد رأسا إلى منف فقوبل بمناوشات مستمرة فى طريقه ، ولـكنه رغم ذلك وصلها بعد خمسـة عشر يوما فحاصرها واستولى عليها ووقعت فى يده ثروتها ، وكذلك عائلة طهرقا ومن بينهم زوجاته وأولاده وبناته . ويفتخر ملك أشور فيما سطره عن هـذه الحملة أنه استأصل شأفة الـكوشيين وقضى على سلالتهم ، ولـكن هذا كان بعيداً عن الحقيقه إذ ظلت لطهرقا قوته ولم يتعد حـكم الأشوريين المباشر حدود الدلتـا ، ولـكن جميع الحـكام ومن بينهم « منتومحات » . اعترفوا بسيادة ملك أشور ودفعوا له الجزية . وفى هـذه الأوقات العصيبة كان أهم اسمين من أسماء حكام البلاد الوطنيين هما « نخاو » بن « باك ـ ان ـ رنف » و « منتومحات » وكان أولهما أمير صا الحجر وكان الثانى أمير طيبة . واعتقد « أسار هدن » أن الأمور دانت له وأنه أصبح بانتصاره ملكا على الدلتا وعلى الصعيد وعلى كوش . وبعد سنوات قليـلة عاد طهرقا مرة ثانية ليسترد ما فقـده فاستولى على منف وجمع حوله الأمراء وهزم الحامية الأشورية وقام « أسارهدن » على رأس جيشه

لإخضاع مصر ولكنه مات فى الطريق ، ولم يواصل الجيش سيره إلى مصر بل عاد ثانية إلى بلاده . وإذا كانت حملة « أسار هدن » لم يكتب لها النجاح ونجت مصر من ويلات الحرب فإن « أشور بانيبال » ابن «أسار هدن » جمع جيشا من السوريين والأشوريين وأرسله لمهاجمة مصر فاستولى على منف وفر طهرقا إلى طيبة . وقام بعض أمراء الدلتا بهجومهم على الأشوريين لطردهم وكادوا ينجحون فى ذلك لولا أن « أشور بانيبال » أسرع بإرسال جيش آخر أخمد الثورة ، ثم اندفع الجيش نحو طيبة . ودافع منتومحات ولكنه لم يستطع رد المهاجمين ووقعت طيبة فريسة للعدو ، ولكن يظهر أن التخريب كان محدودا فتمكن منتومحات بعد ذلك من إصلاح ما تهدم ، وطهر المعابد والهيا كل من رجس الذين دخلوها دون أن يتطهروا ، وفى أثناء ذلك قبض الأشوريون على الأمراء الشماليين الذين قاموا بالثورة وعلى رأسهم نيخاو وأرسلوهم إلى نينوى . وقد استطاع نيخاو أن يحوز على إعجاب ورضاء الملك الأشورى فأعاده إلى مدينة صا الحجر وغمره بالهدايا وزاد على ذلك بأن منح إمارة أتريب إلى ابنه پسمتك .

ومات طهرقا فى نپاتا عام ٦٥٩ ولكنه رغم وجوده فى الجنوب فان كهنة طيبة وكهنة منف كانوا يعتبرونه الحاكم الشرعى للبلاد ، وكانوا يؤرخون الآثار باسمه ومدة حكمه ، بالرغم من أن الأمور كانت قد تغيرت ، وكان هناك فى صاالحجر من ادعى الملك كما كانت هناك الحاميات الأشورية ومن والاها من أهل البلاد. ومما يستحق الذكر أننا نجد على إحدى لوحات السرابيوم أن أحد العجول قد نفق وكان ذلك فى العام العشرين من حكم پسمتك الأول وأرخه الكهنة فى العام السادس والعشرين من حكم طهرقا .

وخلف الملك « تانوت — أمانى » عمه طهرقا على عرش نپاتا وقد ذكر لنا فى إحدى لوحاته كيف أصبح ملكا وأنه قبل موت عمه رأى حلما فسروه له بأنه سيصبح ملكا على الشمال والجنوب وأنه سيسترد مصر من الأشوريين.

وما أن تم تتويجه حتى جمع جيشاً وسار إلى الشمال لتحقيق هذه الرؤيا فوصل إلى طيبة وكان فيها «منتومحات» و«شب ـ ان ـ أوپت» الثانية وقوبل منهما ومن جميع الأهالى باستقبال المنقذ ، ثم سار حتى وصل إلى منف واضطر لخوض معركة مع أمراء الدلتا الذين كانوا موالين للأشوريين فهزمهم. وظل فى منف ليتلقى هدايا وولاء بعض الأمراء الآخرين ولكنه لم يقو على الإستيلاء على أكثر مدن الدلتا ولم تلبث الأخبار أن جاءت منذرة بوصول جيش من أشور فلم يبق فى الشمال ، وفر عائدا إلى طيبة فتبعته جيوش أشور وسقطت طيبة فى أيديهم وذاق أهلها مرارة الأسر والذل وذاقت معابدها الأمرين من النهب والتخريب .

وعاد جيش أشور نحو الشمال، وحاول «منتومحات» قدر استطاعته إصلاح ما تخرب وظل على ولائه لنپاتا ، وهناك أثر مؤرخ فى العام الثامن من حكم « تانوت ـ أمانى » عثر عليه فى طيبة مع أنه كانت هناك عائلة مالكة أخرى جديدة فى صا الحجر . وقنع ملك نپاتا بما حدث ولم يحاول بعد ذلك استعادة طيبة أو طرد الأشوريين من البلاد بل ترك هذا الواجب لأبناء الشمال وبخاصة حفيد « تاف نخت » الذى شاءت الأقدار أن يحقق وحدة البلاد وأن ينهضها من كبوتها ، الأمر الذى لم يتيسر لجده أن يحققه .

الاسرة السادسة والعشرون

(٦٦٣ – ٥٢٥ ق.م.)

نظرة عامة :

كان القرن السابع قبل الميلاد من أهم الفترات فى التاريخ القديم ، ففى هذا القرن من الزمان كانت دول الشرق القديم تتصارع فيما بينها تصارعا مميتا أفنى قواها . فقد رأينا دولة أشور وقد مدت سلطانها على جيرانها ولم تقنع بذلك

بل رمت بعينيها إلى الغرب فضمت دويلات سوريا وفلسطين إليها بل أنها ضم
مصر أيضاً . ولكن اليقظة التي سرت فى بلاد وادى النيل جعلت الشم
والجنوب يفتحان أعينهما على الحقيقة الرهيبة وهى أن دوام تفكك البلا
سيسبب خرابها التام، فسعى « تاف ـ نخت » من غرب الدلتا و « يعنخى » م
دنقلة ليعيدوا للبلاد مجدها . وما كانت هذه اليقظة لتجعل مصر تصبر على الهوا
الجديد ، فاذا كان بيت نباتا ترك راية الجهاد يائسا ، فإن أمراء صا الحج
سلالة « تاف ـ نخت » حملوها وتقدموا الصفوف حتى تم لهم النصر والفوز

ولكنا قبل أن نتحدث عن قصة هذا الصراع يجب أن نلقى نظرنا بعيد
عن وادى النيل لنعرف بعض العوامل الأخرى التى كانت تأخـــذ دورها ف
توجيه أحداث هذا القرن الفريد فى تاريخ العالم . كانت بلاد اليونان قد اجتازت
دور تكوين حضارتها وأخذت شعوبها وشعوب جزرها، ومحلاتها التى أنشأته
فى آسيا الصغرى ، أو فى شمال إفريقيا، تنشد نصيبها من الحياة سواء فى التجارة
أو فى ميدان الحروب ، وكانت فى ذلك الوقت عاملا مهما فى حوادث البحر
الأبيض المتوسط . وكان اتصال هذه الشعوب بمصر وشاطىء سوريا ذا أثر
كبير على الحوادث التى كانت على وشك الظهور . أما فى الناحية الأخرى من
آسيا فقد كانت هناك حركة من نوع مختلف ففى جبال إيران كان يعيش بعض
شعوب من أصل هندو ــ أوروبى قضت قرونا طويلة بين الجبال تحيا حياة
البداوة ولكنها بدأت فى هذا العصر بعينه تدخل فى دور جديد وسرعان
ما بدأت تؤثر على بلاد ما بين النهرين ولم تلبث أن كان لها الفـــوز . وإذا
ذهبنا إلى أبعد من ذلك نحو الشرق لرأينا أيضاً أنه فى كل من الصين والهند
بدأت الحياة الاجتماعية تدخل فى دور جديد ، وفى الهند بالذات كانت الديانة
الأصلية للبلاد قد بدأت تمتزج بديانة الشعوب الهندو ـ اوروبية التى كانت قد
غزت الهند من قبل ونتج من صلة الهنود بحضارة كل من بلاد ما بين النهرين
ومصر آراء دينية جعلت تتطور مع الزمن حتى وصلت إلى هذا العصر ،

ووجدت بين حكماء الهند القـــدماء من يدعو إلى فلسفة جديدة . كان هذا العصر هو فجر مولد « الجينية » التى كانت الأثر المباشر لظهور «بوذا العظيم» مؤسس البوذية التى ما زالت دينا من أهم أديان العالم حتى اليوم ، والتى كانت منذ نشوئها وانتشارها معيناً لـكل ما ظهر من ديانات أو فلسفات فى العالم القديم . فإذا عدنا إلى مصر مرة ثانية من هـــذه الجولة السريعة فإننا نراها ترزح تحت النير الأشورى وتئن من تخريب معابدها ونهب كنوزها، ولـكن هذه الضربة لم تقض على حيويتها فلم تلبث إلا قليـــلا حتى أفاقت وأخذت ترسم لنفسها طريق الخلاص .

لم تـكن مصر وحدها هى التى كانت فى مهب هذه التيارات المختلفة بل كان كل حوض البحر الأبيض المتوسط فى حالة عدم استقرار وبخاصة فى فلسطين والشاطىء الفينيقى وكان سبب ذلك ظهور الدويلات اليونانيـــة وهى فى عنفوانها ووجود جيوش أشور فى غرب آسيا .

ومنذ هذا العصر أصبح لدى دارسى التـاريخ مصـدر هام وهو ما كتبه المؤلفون اليونانيون عن بلاد الشرق ، وعن بلادهم وصلتها بغيرها ، ولهذا أصبحت مؤلفاتهم إلى جانب المصادر المصرية من آثار البلاد هى المعين الذى نلتجىء إليه لنشفى غلتنا . وكثيراً ما تتفق كتابات اليونانيين مع ما خلفه المصريون من آثار ولـكن هناك اختلافات كثيرة أيضاً ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين المصدرين ويتخذ طريقه بينهما ولـكن هذا الاختلاف على وجه العموم لا يغير شيئاً من الصورة الأصلية لأنه اختلاف فى التفاصيل فقط .

طرد الأشوريين من مصر :

ليس لدينا مصدر عن طرد الأشوريين من مصر إلا ما سمعه هيرودوت ممن كانوا معاصرين له (زار هيرودوت مصر حوالى عام ٤٤٥ ق . م .) أو مما قرأه فى كتابات من سبقوه ، وكانت قصته عن الملك الأول صورة

للخيال الإغريقى الخصب . فالمرجح أن بسمتك حاول عن طريق الكهنة ووحى الآلهـــة أن تكون له السلطة الكاملة فى البلاد وأن يدين له الأمراء ولكنه فشـــل فى ذلك وربما اضطر للإختفاء وقتا من الأوقات فى مستنقعات الدلتا . وعاود بسمتك نشاطه ولكن فى هـذه المرة إستعان بجنود مأجورين من الإغريق أمده بهم صديقه « جيجس » (Gyges) ملك ليديا فكان هذا الجيش عونه فى إخضاع الأمراء ثم طرد الأشوريين من مصر، ففر هؤلاء إلى فلسطين وتحصنوا فى اسدود [1] .ورأى بسمتك — كما رأى أحمس الأول فى حرب الهكسوس قبل أكثر من ٩٩٠ عام — أنه لا اطمئنان له إلا إذا اجتث الشر من جذوره ولهذا تبعهم إلى هناك وأنتهز الفرصة فأخذ يعيد لمصر شيئا من مركزها الممتاز فى غرب آسيا .

ولكن رواية هيرودوت ليست بهذه البساطة فإنه يقول إن الأمراء كانوا يخشون أن يسعى واحد منهم لينصب نفسه ملكا عليهم . وكان عددهم إثنى عشر فأخذوا المواثيق بينهم وبين بعضهم ألا يعتدى واحد منهم على آخر . وكانت هناك نبوءة بأن الذى سيصبح من بينهم ملكا هو الذى سيصب ماء قربانه فى هيكل بتاح من إناء من البرونز ، ولهذا اتفق هؤلاء الأمراء على ألا يذهب أحد منهم إلى معبد بتاح لتقديم القرابين بمفرده بل كانوا يذهبون مجتمعين . وحدث فى يوم من الأيام أنهم كانوا فى المعبد وأرادوا أن يصبوا الماء على القرابين ووقفوا صفاً ، وجاء الكاهن بالكؤوس الذهبيه فأعطى كل واحد منهم كأسا ليتناول فيه الماء ولكن حدث خطأ فلم يحضر إلا أحد عشر كأسا فقط وكان بسمتك آخر الأمراء فى الصف فأنقذ الموقف بسرعة بديهته فخلع خوذته البرونزية ومسكها فى يده فصب له الكاهن الأكبر الماء دون أن يلتفت أحـــد إلى مغزى ذلك . واتضح لهم فيما بعد أن النبوءة

---

(١) HERODOTUS II, 147-157.

تحققت وصار من المحتم أن يصبح پسمتك ملكا ولـكنهم لم يقتلوه لثقتهم من حسن نيته واكتفوا بنفيه إلى مستنقعات الدلتا فى نفس المكان الذى اختبأ فيه جده من يعنخى . وذهب پسمتك يوما من الأيام إلى معبد « بوتو » ليسأل الوحى عما يخبئه له القدر فجاء الوحى بأن الانتقام سيأتى من البحر عندما يصل رجال من البرونز ، ولم يمر إلا وقت قصير حتى نزل إلى شاطىء الدلتا على مقربة من المكان الذى كان يعيش فيه « پسمتك » قرصان من اليونانيين والكاريين يلبسون دروعا وخوذات من البرونز فعرف فيهم الرجال الذين تحدثت عنهم النبوءة فأغراهم بالوعد والمال وحالفوه وكانوا عونه فى التغلب على الأمراء الآخرين .

هذه هى رواية هيرودوت ، ولـكن الذى نعلمه من المصادر الأخرى أن القائد المسمى « جيجس » كان صديقاً لپسمتك وكان جيجس هذا قد اغتصب عرش مملـكة ليديا فأرسل له جنوداً مرتزقة من المدربين على القتال بكامل عدتهم لمعاونته . وبعد أن أصبح پسمتك سيداً لمصر كلها طرد الأشوريين أيضاً بمعونة هؤلاء الجنـــد لأن جيجس وپسمتك كان كل منهما مهدداً بالأشوريين ولهذا تحالفا على تحطيم جيوشهم فى مصر وفى غرب آسيا .

وما أن تم الأمر لپسمتك الأول ودانت له الدلتا كلها وتخلص من جنود أشور حتى بدأ يفكر فى الوجه القبلى وثروة أمون فى طيبة . وبالرغم من ولاء منتوحات للبيت المالك فى نپاتا ووجود الأميرة « شپ ان أوپت » الثانية إبنة يعنخى كزوجة إلهية لأمون وإلى جوارها الأميرة (أمون إردس) الثانية إبنة طهرقا كابنتها بالتبنى ، فإن كهنة طيبة ومنتوحات لم يجدوا أمامهم مفراً فى النهاية من الإذعان لپسمتك وقبول سيادته ، وقبلت «شپ ان أوپت» الثانية أن تعترف بتبنى إبنة پسمتك وكانت تسمى «نيت إقرت» (نيتوكريس) لتكون بعدها زوجة إلهية لأمون وبذلك يضمن لنفسه هذه الثروة الضخمة .
ومن النص الذى يروى لنا احتفالات التبنى نعرف بيان الممتلكات التى

آلت إلى نيتوكريس ، وكانت كثيرة وفى أقاليم عدة فى الجنوب والشمال . ولم يذهب پسمتك إلى طيبة ليحضر هذه الاحتفالات بل أناب عنه أحد خلصائه المسمى (سماتاوى تاف نخت) الذى كان حاكما لاقليم إهناسيا وفى هـذا الحفل سميت نيتوكريس باسم (شپ ان أوپت) وأصبحت ثالثة زوجة إلهية لأمون تحمل هذا الإسم .

ولم يطمئن پسمتك إلى ولاء كهنة طيبة وخاف من اتصالهم بنپاتا ولهـذا عين أحد الرجال المخلصين له وهو « نس ناو ياو » فى وظيفة حاكم الجنوب وكان مقره فى إدفو ، وكان الغرض من هذا الأجراء بطبيعة الحال الحد من سلطة منتوبحات لأنه كان من سلطات حاكم الجنوب الجديد أن يكون له الإشراف على الحامية التى كانت فى إلفنتين لتعزيز حراسة الجنوب .

وقام پسمتك بإصلاحات عديدة وأنشأ جيشاوأسطولا كان قوامهما الجنود المرتزقة من الأجانب وعدد غير كبير من المصريين ، وقام بإصلاحات كثيرة فى المعابد . وقد طال حكم هـذا الملك حتى زاد على الخمسين عاما (٦٦٣ — ٦٠٩ ق . م .) ولم يمت إلا بعد أن رأى الإستقرار قـد شمل البلاد وبدأت تجارتها فى الأزدهار بفضـــل تشجيعه المستمر للتجار الإغريق الذين كثر توافدهم على مصر لا ستيطانها . وإذا كنا نحمد لپسمتك الأول جهاده لتحرير البلاد من الأشوريين ونحمد له همته وكفاءته فى القبض على ناصية الأمور ، فإننا لا نحمد له استمراره فى استقدام الجنود اليونانيين إلى مصر وتشجيعه بكل الوسائل للتجار اليونانيين ، إذ أن نتيجة ذلك كانت إبعاد المصريين الوطنيين عن حياة الجندية الصحيحة واعتماد ملوكها على الأجانب لحفظ الأمن ، وفى ذلك دون شك إضعاف للروح القومية . كما أخذت الثروة تتكدس فى أيدى التجار اليونانيين الذين انتشروا فى طول البلاد وعرضها يحميهم نفوذ الحاميات من أبنـاء جلدتهم ، فلم يستطع التجار الوطنيون مجاراتهم فى ذلك الوقت . أما فى الفنون فإننا نعرف أن التقاليد الفنية لم تندثر فى أى وقت

من الأوقات ويكفينا أن نزور مقبرة منتومحات فى طيبة وأن نرى تماثيله أو تماثيل غيره من ملوك أو كهنة الأسرة الخامسة والعشرين لندرك أن المدرسة الفنية وبخاصة فى طيبة لم يصبها الوهن ولم تعدم الابتكار والتجديد مع الوصول إلى المستوى الرفيع ، ولكننا نرى فى الوقت نفسه اتجاهاً جديداً فى الفن والأدب وهو الرجوع لمحاكاة القديم وبخاصة ما كان من الدولة القديمة وأحياناً من الأسرة الثانية عشرة. وما هذا التقليد أو المحاكاة إلا صدى للشعور بالألم الذى أخذ يحس به الكهنة والفنانون المصريون عندما رأوا اليونانيين يقيمون بين ظهرانيهم نخشوا على تراثهم القديم من الضياع إذا هم تركوا للداعين إلى التجديد ثغرة ينفذون منها . ولهذا جاءت هذه المبالغة التى نحسها فى العودة إلى القديم فى كل شيء . ولكن هذه العودة فى ذاتها دليل على أن الحيوية الكامنة قد بدأت فى الذبول ، إذ أنه ما من شعب فى الأرض ينظر دائماً إلى الوراء ويحاول تقليد آبائه وأجداده ويعيش فى جو كالذى عاشوا فيه رغم مرور الأجيال ، إلا وكان ذلك إيذاناً بتدهوره لأنه مخالف لسنة الحياة .

نكاو الثانى (٦٠٩ - ٥٩٤ ق . م .) :

احتفظت مصر أثناء حكم پسمتك الأول الذى زاد على الخمسين عاما باستقلالها واستتبت أمورها ، ولكن الأمور فى غربى آسيا كانت قد وصلت إلى درجة الغليان فإن النزاع بين مملكتى بابل وأشور كان يشتد تارة ويضعف تارة أخرى ، حتى تمكنت بابل بعد جهاد طويل من تخليص نفسها من سيادة أشور . أما مملكة الميديين فى إيران فإنها كانت بدورها قد أخذت تظهر على مسرح السياسة فى العالم القديم ، وأخذوا يكيدون بدورهم لمملكة أشور فتحالفوا مع بابل ودمر الحليفان عاصمة الأشوريين « نينوى » وقضوا على مملكتهم، ثم اقتسم الحليفان الجديدان الميراث بينهما فكان للميدين جزء كبير من وادى دجلة فى شرقه وفى غربه أما بابل فقد آلت إليها سوريا .

وأراد « نكاو » أن يستفيد من الظروف وأن يجعل لمصر صوتا مسموعا فى سياسة هذا الجزء من العالم فقرر معاونة أشور التى أخذت تحاول الثأر لنفسها . جهز جيشا وتقدم به نحو العراق ولكن « يوشيا » ملك يهوذا الذى كان حليفا لبابل تصدى لجيش مصر ، وجهز بمعونة بابل جيشا كبيرا وتقابل الجيشان المصرى واليهودى عند مجدو فكان النصر حليف المصريين وقتل « يوشيا » وخلفه ابنه ، ولكن لم تمض ثلاثة شهور أخرى حتى تمكن جنود « نكاو » من أسره وبعثوا به إلى مصر . وعين « نكاو » فى مكانه أخا آخر له وكان اسمه « اليقيم » ، وغير اسمه إلى « يهويقيم » الذى قبل الخضوع لمصر كما قبل دفع تعويض كبير لها وتقديم الجزية .

وأتم نكاو إخضاع باقى المدن السورية ووصل إلى الفرات ولكن « نبوختنصر » (Nabuchodonosor) ملك بابل جمع جيشاً واعترض المصريين فدارت بين الجيشين معركة كبيرة فى قرقميش ، وكان ذلك حسب رواية التوراة فى العام الرابع من حكم « يهويقيم » (الملوك الثانى : ٢٣ ، ٢٤ وأرميا ٤٦) فدارت الدائرة على جيش « نكاو » وعاد منهزما إلى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق شعور « نكاو » بعد هذه الهزيمة فهل صرف نظره عن محاولاته التدخل فى شئون فلسطين وسوريا ، والتفت لتشجيع التجارة فأنشأ أسطوله الكبير ، أم أنه أراد أن ينشىء اسطولا قويا ليكون دعامة له فى هجومه على سوريا كما فعل فراعنة الإسرة الثامنة والتاسعة عشرة من قبل ! !

وأنشأ « نكاو » أسطولا فى البحر الأبيض ، كما نعرف أيضا من رواية لهيرودوت (Herodotus II § 158-9) أنه أنشأ أيضاً أسطولا صغيراً فى البحر الأحمر ، وأراد أن يكتشف ساحل إفريقيا . فأرسل بعض السفن وفيها ملاحون فينيقيون قضوا ثلاث سنوات فى رحلتهم حول الشاطىء الإفريقى حتى عادوا من بوغاز جبل طارق إلى مصر محملين بجميع خيرات إفريقيا مما

حصلوا عليه فى الموانى التى مروا بها . وكان مما ذكره هؤلاء الملاحون أنهم ساروا دائماً وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم ورفض هيرودوت تصديق ذلك بينما أن هـــذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة لأن ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح .

وكان من أهم الأعمال الإنشائية التى فكر فيها « نكاو » أن يحيى من جديد مشروع توصيل البحرين الأبيض والأحمر وذلك بعمل قناة تسير من مكان على مقربة من الزقازيق حتى تصل إلى البحيرات فى نقطة قريبة من مكان مدينة الاسماعيلية الحالية ، وهى قناة قديمة أنشئت فى أيام الأسرة الثانية عشرة على الأرجح ولكنها كانت تهمل من آن لآخر حتى عفت آثارها. فأراد « نكاو » أن يعيد هـــذا المشروع لتتمكن السفن التى فى البحر الأبيض من الملاحة فى النيل حتى منف ثم تأخذ طريقها فى الفرع البوبسطى ومنها تخرج إلى هذه الترعة فتصل إلى مياه البحر الأحمر . وتحمس «نكاو» لمشروعه ونفذ الجزء الأكبر منه وهلك فيه مائة وعشرون ألفا من المصريين ، ولكن نكاو أمر فجأة بترك العمل لأن نبوءة « بوتو » جاءت بأن الآلهه تأمره بترك العمل لأن هذه القناة ليست فى صالح مصر ، وأنه لن يستفيد منها إلا الأجانب[1]. وهذا المشروع هو بعينه المشروع الذى أتمه دارا الفارسى لمصلحة بلاده وهو أيضا مشروع قناة السويس الذى سبب أكبر النكبات لمصر فى تاريخها الحديث .

خلفاء نكاو الثانى :

تولى عرش مصر بعد نكاو الثانى ابنه پسمتك الثانى ولم تزد مدة حكمه على سبع سنوات . وإن كان هـذا الملك لم يترك وراءه آثاراً كثيرة إلا أننا

---

(١) اهتم پوزنر بالعصر الفارسى وكتب أكثر من مرة عن هذه القناة وآخر أبحاثه مقاله
POSENER, *Le Canal du Nil à la Mer Rouge, in Chronique d'Égypte* No 26 (1938), p. 259-273.

نعرف أنه قد ذهب إلى سوريا — وربما كانت زيارة فقط وليست حملة حربية — كما نعرف أيضاً أنه ذهب مع جيشه إلى جنوبى مملكته ووصل إلى وادى حلفا . وكان هذا الجيش مؤلفاً من يونانيين ومن مصريين ومن سوريين ومن بعض اليهود ، وقد ترك الجنود الكاريون نقشاً يذكرون فيه رحلتهم هذه على ساق أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد أبو سمبل .
ونعرف من أخبار هذا العهد أيضاً أن تجارة اليونانيين وبخاصة المقيمين فى مدينة « نوكراتيس » ازدهرت إلى أبعد الحدود كما كثر عدد الجنود الإغريق وأصبحت هناك ثلاث حاميات رئيسية كبيرة واحدة منها عند ماريا فى غرب مصر على شاطىء البحيرة المعروفة باسم مريوط ، وجيش ثانى فى شرقى مصر فى « دفنة » والحامية الثالثة أو الجيش الثالث كان فى الفنتين .
ونعرف أيضاً أن هذه المدينة الأخيرة أصبحت مزدهرة وكانت تقيم فيها جالية يونانية تعتمد على التجارة . كان حكم پسمتك الثانى بين عامى ٥٩٤ ، ٥٧٨ وتلاه على العرش الملك « واح إب رع » المعروف للمؤرخين باسمه فى الصيغة اليونانية (أپريس) .

« واح - إب - رع » (٥٨٨ - ٥٦٨) :

ونحن نعرف تفاصيل حكم هذا الفرعون - كما عرفنا التفاصيل القليلة من حكم سلفه - من تاريخ هيرودوت ، ومن التوراة ، ومن الآثار القليلة التى أمدتنا بالشىء القليل عن تاريخه .

لم تكن الحالة قد هدأت فى غرب آسيا بل ازدادت سوءاً ، وكان ذلك ناشئاً عن تطاحن الدويلات السورية والفلسطينية فيما بينها والمتاعب التى سببتها أطماع مملكة بابل فى تلك البلاد . وكانت مملكة أورشليم موالية لمصر فقاومت أطماع « نبو ختنصر » فاستولت عليها جيوشه ودمرت أورشليم تدميراً كبيراً وأخذت الآلاف من رجالها القادرين أسرى إلى بابل (الملوك الثانى ٢٥) كما

فر كثير من اليهود إلى مصر خوفا من مذابح الأشوريين فرحب بهم أبريس وسهل لهم العيش فى ربوعها ، وانتشرت جالياتهم فى الأماكن المختلفة ، حتى إلفنتين فى أقصى الجنوب كانت فيها أيضاً جالية كبيرة منهم .

وإذا كانت فلسطين الداخلية أصبحت تحت رحمة بابل، فان مدن الشاطىء كانت تحت رحمة الأسطول المصرى . وقد ذكرت لنا المصادر اليونانية أن أبريس قاد جيشا إلى فلسطين كما هزم أسطول الصيداويين فى البحر . وكان « واح - إب - رع » (ابريس) ميالا إلى اليونانيين مثل من سبقه من ملوك هذه الأسرة ولكن حدث فى أيامه رد فعل لهذا الإيثار للأجانب، وبدأ المصريون يحسون أنه قد آن الأوان لوضع حد لذلك . وجاءت الفرصة عندما استنجد الليبيون بفرعون مصر ليحميهم من تدفق اليونانيين على بلادهم بعد أن وضعوا أقدامهم هناك بعد إنشاء مدينة قيرينه[1] ، واقتسموا فيما بينهم دون وجه حق مساحات واسعة من أملاك الأهالى ، اغتصبوها ضد إرادتهم . وكان «واح - إب - رع» مضطراً لإرسال جيش لمعاونة الليبيين ولكنه لم يرسل أحداً من اليونانيين لأنه خشى ألا يحاربوا بنى جلدتهم فأرسل جيشاً من المصريين ، فوقع الجيش فى كمين وكاد يبيده يونانيو ليبيا . وعند ذلك قامت ثورة مصر كما أعلن من نجوا من الجيش عصيانهم فأرسل « واح - إب - رع » أحد قواده المصريين لتهدئة الحالة ولكن هذا القائد وكان اسمه « أحمس » انتهز الفرصة وقبل مبايعة الجنود له بالملك، وتقدم نحو مصر التى كانت تلتهب بالحماس ضد «واح - إب - رع » فلم يجد حوله غير اليونانيين الذين لم يستطيعوا الثبات أمام الجنود المصريين فدارت الدائرة عليهم ، وأخذوا «واح - إب - رع» نفسه أسيراً ، فأحسن « أحمس » معاملته ، وقبل أن يظل اسمه كملك للبلاد وأن يكون أحمس شريكا له فى الملك . وظل الحال على ذلك نحو ثلاث سنوات إلى أن خان «واح-إب-رع»

---

(١) تأسست قيرينه فى عام ٦٣١ ق . م . على يد دورى يسمى *Battos* أما الثورة فقد حدثت فى عام ٥٧٠ عندما تدفقت عليها أفواج جديدة من اليونان .

العهد الذى قطعه على نفسه واستعان بفلول اليونانيين فى البلاد، وقام حرب بين الملكين فكانت هذه المحاولة سببا فى ازدياد النقمة على اليونانيين خصوصاً وأننا نعلم من النص الوارد على إحدى اللوحات الموجودة فى المتحف المصرى[1] أن أحمس أخذ يذكر المصريين بما أصاب مصر من كوارث بسببهم. وقد مات «واح - إب - رع» فى هذه المعركة وأكرم أحمس رفاته واعتنى بدفنها العناية اللازمة .

أحمس الثانى :

وهكذا أصبح أحمس ملكا على مصر وحده . ويبدأ حكمه فى عام ٥٦٨ وينتهى فى عام ٥٢٥ وكانت أول صعوبة صادفته هى تهدئة ثورة المصريين ضد اليونانيين . فقد كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن أن يطمئن على سلامة البلاد إلا بوجود الجنود اليونانيين لأن الحالة فى غربى آسيا كانت وصلت إلى أبعد حد من السوء ضد مصر، كما أن قوة اليونانيين بوجه عام ازدادت فى البحر الأبيض المتوسط ولم يكن من حسن السياسة إضعاف الجيش وجلب عداوة جميع الدويلات اليونانية وشل اقتصاديات مصر إذا تعرض للتجار الأجانب وطردهم من البلاد .

واستطاع أحمس أن يخرج بلباقة من كل هذه المآزق فأرضى شعور الوطنيين من رجال الجيش باستدعاء اليونانيين من الحاميات التى على الحدود وأرسل المصريين ليحلوا محلهم ، ولكنه لم يسرح اليونانيين بل تركهم يعيشون فى منف وأرضى شعور التجار المصريين الذين كانوا يغيرون من ثراء اليونانيين ومنافستهم بجمعه التجار اليونانيين فى مكان واحد فى مدينة «نوكراتيس» فى غرب الدلتا ، وأرضى اليونانيين بأن سمح لهم أن يحيلوها إلى مدينة يونانية بالمعنى

---

(١) DARESSY, *Rec. des Trav*, 1900, p. 1-9.

الكامل وأن يقيموا فيها معابدهم وأسواقهم ، وسرعان ما ازدهرت وأصبحت مركزاً رئيسياً للتجارة بين مصر وبلاد اليونان وغيرها .

وكان أحمس رجلا لبقا يحسن مقابلة الناس ، وكان ينصرف إلى عمله أثناء النهار فإذا ما انتهى من ذلك ترك لنفسه العنان بين أصدقائه المختارين فى مجالس الشراب . وقد أطال هيرودوت فى وصف هذه الناحية من أخلاقه فهو سياسى داهية ولكنه عربيد لطيف جميل المعاشرة، وبخاصة مع أصدقائه من كبار القواد أو التجار اليونانيين الذين كانوا يأتون إلى مصر .

وعرف أحمس أن الخطر كان كامنا عن يمينه وعن يساره ، فأما عن خطر الغرب فقد حصن أحمس حدوده وأنشأ حاميات كثيرة على الشاطىء وفى الواحات وشجع إقامة الناس فيها وبنى المعابد ، فى سيوة وفى البحرية وفى الخارجة [1] ليجعل من الواحات الحصون الأمامية إذا جد خطر وحدثت مهاجمة لمصر من يونانيي ليبيا . أما فى الشرق فكان الأمر مختلفاً إذ كانت الدولة البابلية تمد بصرها نحو مصر نفسها، واضطر أحمس لأن يخوض معركة فى أوائل سنى حكمه فى فلسطين وهزم العدو جنوده الأغريق . ولكن جيوش بابل لم تستمر فى هجومها على مصر ، ومع ذلك فقد ظل الخطر كامنا واستعد أحمس له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص كما عقد محالفة مع « كرويسوس » ملك ليديا ، وأنهى نزاعه مع قيرينه فصالحهم وتزوج أميرة منها .

نجحت سياسة أحمس كل النجاح وقضت مصر عهدا مزدهراً فى كل ناحية، وأثرت البلاد إثراء كبيراً من التجارة ، واستقرت فيها الأمور ، ولكن فى العام الأخير من حياته أخذت السحب تتجمع ، وكانت العاصفة على وشك

---

(١) كان بسمتك وواح ـ اب ـ زع قد فكرا أيضا فى تعمير الواحات البحرية وأقاما فيها المعابد مثل أحمس الثانى فيما بعد . ; AHMED FAKHRY; *Bahria Oasis*, Vol. I, p, 20-22
Vo. II, 1-24, 75.

الانقضاض على مصر ، ولكنه مات قبل أن تتعرض مصر لهذا الخطر فكان من نصيب خليفته « بسمتك الثالث » التعرض لهذه الكارثة .

بسمتك الثالث :

قضى أحمس الثانى ثلاثة وأربعين عاما على العرش وكان الخطر فى أوائل أيام حكمه آتيا من ناحية مملكة بابل ، ولكن قبل أن يموت أحمس بثلاثين عاما كانت الأمور فى غربى آسيا قد بدأت تأخذ طريقا آخر وذلك راجع إلى ظهور ملك جديد للميدين فى إيران اسمه « كيروش » (Cyrus) استطاع فى عام ٥٥٥ أن يصبح الحاكم المطلق للميدين فى بلاد الفرس ثم انقض كالصاعقة يزيل كل من اعترض طريقه فاستولى على ليديا وأسر « كرويسوس » كما استولى على مدينة بابل نفسها فى عام ٥٣٩ وأصبح سيد غرب آسيا دون منازع ولكنه ظل حيث كان ولم يرم ببصره نحو مصر إلى أن مات حوالى عام ٥٣٠ أى قبل موت أحمس بنحو خمس سنوات .

وأخذ خليفته وابنه قمبيز يعد العدة لإتمام مابدأه أبوه . فأخضع باقى دويلات آسيا الصغرى والجزر اليونانية وجمع جيشاً كبيراً فى آسيا لمهاجمة مصر . وكان أحد القواد اليونانيين من جيش أحمس قد فر إلى قمبيز وأخذ يغريه بمهاجمة مصر ويرسم له الخطة ويدله على مواطن الضعف فى استحكامات البلاد . ولم تطل حياة أحمس ليرى هذا الهوان إذ مات فى العام الذى قرر فيه قمبيز مهاجمة مصر فسار الجيش تحت قيادة الإغريقى الخائن فكانت أول معركة تقابل فيها جيش الفرس مع جيش مصر عند بلوزيوم (تل الفرما) . وبالرغم من استبسال المصريين ومأجورى اليونانيين وحسن دفاعهم تغلبت عليهم جيوش الفرس فارتدوا إلى منف وتحصنوا فيها فتبعتهم جيوش الفرس إلى هناك وأخيراً اضطر المصريون إلى التسليم .

وكان قمبيز مع جيشه فى مصر فأكرم پسمتك الثالث وأحسن معاملته وأطلق سراحه ، ولكن پسمتك حاول مرة أخرى أن يثير الشعور ضد قمبيز فقبض عليه فانتحر . وبعد ذلك سار قمبيز واستولى على طيبة وبعد أن استتب له الأمر أعد جيشين أرسل أحدهما إلى الواحات لكى يحطموا معبد أمون فى واحة سيوه أما الآخر فقد قاده بنفسه ليستولى على بلاد كوش (أثيوپيا).

وهكذا انتهت أيام الأسرتين الخامسة والسادسة والعشرين وصارت مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد محكومة بجيش أجنبى وهو جيش الفرس كما رأت أن هذا العدو الجديد أخذ يمد ببصره نحو الجنوب ليقضى على مملكة نپاتا ويضم السودان إلى امبراطوريته الواسعة .

الفصل العاشر

سد وجزر

الفترة بين قمبيز والإسكندر الأكبر

(٥٢٥ — ٣٣٣ ق. م.)

الأسرات السابعة والعشرون حتى الثلاثين

الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ — ٤١٥ ق. م.)

قمبيز فى مصر :

لسنا نعرف عن أخبار الفتح الفارسى لمصر من المصادر المصرية إلا القليل ، وبخاصة ما أشار إليه « وچا حر رسنت » على تمثاله المحفوظ الآن فى متحف الفاتيكان[1] من أنه كان مرعى الجانب فى بلاط قمبيز وأنه كان أميراً على الأسطول المصرى ، وأنه استطاع أن يجعل قمبيز ذا عواطف طيبة نحو مصر وآلهتها وبخاصة مدينة صا الحجر التى قامت فيها ثورة (وهو يشير بذلك طبعاً

---

(١) G. POSENER, *La Prémière Domination Perse en Egypte* (*Bibl. d'Études*, XI) Le Caire 1936. p. 164-171.
هذا الكتاب هو أهم المصادر عن دراسة هذه الفترة من تاريخ مصر وجمع فيه كاتبه بيانا بكل آثار هذا العصر .

إلى مقاومة المدينة للأجانب عند دخولهم إليها) لم يكن لها شبيه ، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص ممن انضموا إلى قمبيز وتعاون مع الفرس الفاتحين وكان عوناً لهم فى حكم البلاد . أما هيرودوت فيروى رواية أخرى مختلفة فيقول إن الفاتحين عاثوا فى الأرض فسادا وأن قمبيز أساءمعاملة الكهنة والآلهة بل يعزو إليه أنه قتل العجل أبيس . ولكننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فى أن ما ذكره هيرودوت فى إساءة معاملة المصريين وتخريب المعابد كان صحيحا فى البداية ، كما أن رواية « وجا حر رسنت » صحيحة أيضاً بعد أن هدأت الحالة لأنه يذكر أن قمبيز أمر بطرد المعتدين من المعابد وإخراجهم منها بعد أن استقروا فيها ، كما أمر بإصلاحها مما يثبت أن جنوده عسكروا فى هذه المعابد بعد نهبها ، كما أنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن العداء كان مستحكما بين الفرس واليونان ، ولسنا نتوقع من يونانى أن يكيل المدح لعدوه أو يغمض العين عن مساوئه .

أما عن الجيشين اللذين خرجا من طيبة إلى إثيوبيا وإلى الصحراء الغربية فإن قمبيز نفسه كان على رأس أولها وقد بالغ هيرودوت فى قص قصة هذا الجيش وما لقيه من مخاوف ثم جاء استرابون فزاد فى الرواية وتفنن فيها . وعلى أى حال فإن هذا الجيش قد ذهب حقيقة إلى الجنوب وصل إلى مروى[1]، ولكنه أصيب بهزيمة كبيرة على يدى ملوك نپاتا الذين التقوا بهذا الجيش بعد أن خارت قواه وأصابه الجوع والخوف والتعب .

أما الجيش الآخر فكان نصيبه أسوأ من نصيب الأول إذ أنه خرج من طيبة فوصل إلى الواحات الخارجة بعد سبعة أيام وهناك مكث بعض الوقت وأخذ معه ما يلزمه من مؤونة وأدلاء وذهب فى طريقه إلى واحة سيوة ولكن

---

(١) احدث الابحاث لتأكيد وصول قمبيز إلى مروى ما كتبة
G. A. WAINWRIGHT, *The Dale of the Rise of Meroe in JEA* (38) 1952, p. 75 - 77

هذا الجيش بأكمله هلك فى الصحراء ولم يعد شخص منه إلى الخارجة أو يصل جندى واحد إلى سيوة ، وما زال هذا الجيش مطموراً تحت رمال صحراء ليبيا حتى الآن . والسبب الذى دعا إلى غزو أثيوبيا كان دون شك الطمع فى ثروتها وذهبها وحب الغزو والفتح ، أما سبب إرسال جيش على سيوة فكان له دافع آخر . كان العالم القديم ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد يؤمن إيماناً كبيراً بنبوءات الوحى التى تأتى من بعض المعابد واشتهرت فى بلاد اليونان وعلى ساحل البحر الأبيض بعض مراكز للنبوءات كان يؤمن بها الناس إيماناً أعمى واشتهرت من بينها شهرة كبرى نبوءة أمون فى سيوة ، التى كان يحج إليها ملوك وقواد بلاد اليونان يسألونها عن المستقبل فتحققت نبوءاتها . وسئل كهنة أمون فى سيوة عن قمبيز وغزو الفرس لمصر فجاء الجواب بأن الفرس سيرحلون وأن قمبيز سيلاقى سوء المصير فى القريب العاجل .

وكان التنافس شديداً بين الفرس واليونان ، ولهذا كان رد نبوءة أمون مشدداً للعزائم وداعياً إلى اتحاد الإغريق فأراد قمبيز أن يثبت تفاهة هؤلاء الكهنة فأرسل عليهم الجيش لهدم المعبد وقتل كهنته . ويؤكد لنا هيرودوت — الذى كتب تاريخه وزار مصر بعد خمسة وسبعين عاما من هذه الحوادث — أن كهنة أمون فى سيوة سئلوا عن مصير هذا الجيش فقالوا بأنه حدث فى اليوم الرابع بعد أن تركوا واحة الخارجة ، عندما استراحوا فى منتصف النهار ليتناولوا طعامهم ، أرسل عليهم أمون غضبه وانتقامه فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم تحتها .

وسواء أصح ما ذكره هيرودوت بأن قمبيز أصابه الجنون عندما رأى فشله واقترف فظائع كثيرة أو أنه لم يجن ، فإنا نعرف أنه لم يبق فى مصر كثيراً بعد فشله فى السودان ومات فى سوريا وهو فى طريقه إلى بلاده .

دارا ابن قمبيز (٥٢٢ – ٤٨٥ ق . م) :

ترك قمبيز والياً فارسياً على مصر فجعل مركز حكومته فى منف . وما أن جاءت الأخبار بموته حتى قامت ثورة فى ليبيا فأرسل الوالى الفارسى واسمه «أرياندس» حملة لتأديب العصاة فكان الفشل نصيبها ، وقتل قائدها عند عودته إلى مصر عقاباً له . ورأى داريوس (وهذا هو النطق اليونانى لاسمه) أن سياسة أبيه فى الإسراف فى الشدة كانت قاسية وأراد أن يستأنس برأى «وچا - حر - رسنت» فاستدعاه إلى فارس فأشار عليه بعدة أشياء أمر بتنفيذها، ومنها إعادة النظر فى القوانين وإلغاء ما أصدره قمبيز من قانون يقضى بمصادرة إيرادات أكثر معابد مصر ، كما أمر أيضاً بجمع كل القوانين التى وضعت فى مصر حتى نهاية حكم أحمس الثانى لأنه أراد أن تحكم مصر بقوانينها . وأمر أيضاً بإصلاح ما تهدم من المعابد بقدر الإمكان . أتت هذه السياسة الجديدة ببعض النتائج وهدأت الأمور فجاء داريوس إلى مصر عام ٥١٨ وأمر بالاستمرار فى الإصلاحات وإتمام معبد الخارجة الكبير الذى كان أحمس الثانى بدأ فيه ، كما أصدر أوامره إلى الحكام الفرس بمراعاة شعور الناس وتقديم القرابين للآلهة المصرية وبخاصة العجل أبيس الذى كانت لعبادته فى ذلك الوقت الأهمية الكبرى فى عاصمة مصر ، وكان لهذا التسامح أثره بين الفرس فبدأ كثيرون منهم يعتنقون الديانة المصرية ويتسمون بأسماء مصرية .

وأراد «دارا» أن يضمن للفرس ميادين اقتصادية للتجارة ليخرجها شيئاً فشيئاً من أيدى اليونانيين فأمر بإتمام القناة التى لم يتمها «نكاو الثانى» فكان لهذا العمل أثر كبير فى تجارة العالم القديم .

ولم يكن من السهل أن تطأطىء مصر رأسها لهذا العدو الجديد ، ولم تخدع نفسها بالرضوخ للغاصب مقابل بعض إصلاحات أو إقامة بعض المعابد ، ولهذا ظلت شعلة الوطنية ملتهبة فى القلوب وكانت مصر تؤيد من قلبها الإغريق

الذين بدأت الحروب بينهم وبين الفرس تأخـذ شكلا خطيراً لأنهم لم يكونوا مهددين بالقضاء على ثروتهم فى التجارة فقط، بل كانوا مهددين أيضاً بغزو بلادهم، لأن دارا أخذ يعد نفسه لهذه المهمة الكبيرة بإنشاء أسطول ضخم . وجاء عام ٤٩٠ الذى شهد هزيمة الفرس فى موقعة (ماراثون) وبدأ داريوس يعد عدته للانتقام، ومن المحتمل أن يكون قد سحب من مصر بعض جيوشه لاستخدامها فى المعركة القادمة وكان ذلك فى العام الرابع بعـد ماراثون أى فى عام ٤٨٦ ، وعند ذلك هبت ثورة عاتية فى الدلتا ضـد الفرس سببت لهم خسـائر كثيرة وجعلت اليونانيين يظهرون فرحهم الشديد، فصمم داريوس على سحق المصريين والإغريق معا ولـكنه مات فى السنة التالية قبل أن ينفذ وعيده .

خلفاء دارا وجهاد المصريين ضد الفرس :

ونفذ كسركسيس رغبة أبيـه وسار فى السنة الثـانية من حكمه إلى مصر وقضى على الثورة ونشر الإرهاب فى كل مكان . وظلت قبضـة الفرس قوية على عنق مصر طيلة حكمه ، ولم يكن يعزى المصريين إلا سماعهم بأخبار هزائمه فى حربه ضـد اليونانيين . وكان اليهود فى إلفنتين وغيرها من المـدن المصرية أعوانا للفرس ضد المصريين فى نضالهم . وأخيرا مات كسركسيس غيلة وتولى الملك بعده ابنه (ارتاكسركسيس) Artaxerxes (ارتاخشاشا) الأول فى عام ٤٦٤ وبعد أربعة أعوام من حـكمه قامت فى مصر ثورة شديدة فى عام ٤٦٠ كان على رأسها أميران مصريان استطاعا بمـا قدماه من مال أن يحصلا على معونة أثينا فأرسلت إليهما أسطولا من السفن ذات الثلاث طبقات وصلت من البحر الأبيض حتى منف فكان لهذه المعونة أثرها فى انتصار المصريين على الجيش الـكبير الذى أرسله ارتاكسركسيس وكان مكونا من ٣٠٠,٠٠٠جندى، ففرت بقية هذا الجيش إلى منف حيث تحصنوا فى جزء منها وحاصرهم المصريون مدى ثمـانية عشر شهرا حتى وصلت نجدات أخرى . ولم يتمكن المصريون

وحلفاؤهم من الاستمرار فى القتال فتركوا الحصار وعاد الأسطول من مفنر فى طريقه إلى بلاده ولكن الثورة ظلت مستمرة ومات أثناء ذلك أحد الأميرين فظل الآخر وكان اسمه (أمون - حر) على رأس رجاله ينازل الفرس ويجالدهم ويثير الشعور القومى . وكثيراً ما كان يعتمد على أثينا فتارة كانت تلبي نداءه وتارة أخرى تخيب ظنه وتتركه وحده .

وأخيراً جاء عام ٤٤٩ الذى عقد فيه الصلح بين أثينا وفارس ورأى الفرس أن الفرصة سانحة أيضاً لإنهاء الأثر السيء الذى أحدثته قسوتهم فى مصر وأرادوا إرضاء الشعور المصرى بتعيين ابنى زعيمى الثورة فى مكان أبيهما ولكن الثورات استمرت ، وحتى بعد موت ارتاكسركسيس فى عام ٤٢٤ واجتهاد ابنه داريوس الثانى فى مراضاة المصريين فإن الحالة لم تهدأ وأخيراً تحرجت الأمور وأصبحت الثورة عامة فى عام ٤١٠ وهى الثورة الكبرى التى اتخذت شكل حرب مستمرة انتهت بتحرير مصر .

الأسرة الثامنة والعشرون

استقلال مصر :

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً لسوء الحظ عن الثورة العامة التى اجتاحت مصر وأخذت تتسع حتى أصبحت نضالا سافراً عنيفا بين مصر وبين عدوها . وكل ما نعرفه أنه فى عام ٤١٠ وهو عام بدء الثورة أحس المصريون أن موقف اليهود منهم أصبح لا يطاق ولهذا كانت الشرارة الأولى موجهة ضد يهود إلفنتين فهدموا معبدهم هناك ، وتفرق كثير منهم، وانتشرت الحرب بعد ذلك فاستمرت ست سنوات حتى تحررت مصر فى عام ٤٠٤ . وفى عام ٤٠٧ ق.م. كان يهود إلفنتين قد أخذوا يبذلون مساعيهم لإعادة بناء معبدهم الذى هدم

وحرق ونهبت محتوياته انتقاما منهم ومن مظاهرتهم للفرس ، وأخذوا يكتبون الرسائل إلى جميع زعماء اليهود فى الشرق يطلبون مساعدتهم فى ذلك ليبذلوا نفوذهم لدى حماتهم الفرس ليسمحوا لهم بإعادة تشييده ، متعهدين ألا يحرقوا فيـــه أى مأكولات إرضاء لديانة الفرس التى كانت تحرم تنجيس النار إذا وضعت فيها أو لامستها جثث حيوانات ميتة .

وعثر فى خرائب إلفنتين حيث كانت تقيم تلك الجالية على كمية من أوراقها وفيها صور من تلك المراسلات التى تذكر أن حرق معبدهم كان فى العام الرابع عشر من حكم داريوس ، وأن الذى أصدر الأمر بحرقه شخص يسمى « ڤيدارانج » وكان زعيم الجالية اليهودية يسمى « يدونياه بن جمارياه » وكان يكتب باسم الجالية كلها ومن بين رسائله واحدة ربما كانت موجهة إلى الحاكم الفارسى يعرض فيها باسمه واسم جميع الزعماء اليهود أن يدفع له فى منزله كمية من المال (فقد الرقم لسوء الحظ) وألف أردب من الشعير كرشوة له إذا سمح لهم بإقامة ذلك المعبد فى مكانه .(1)

الملك أمون حر : ٤٠٤ — ٣٩٨

كان قائد الثورة هو « أمون ـ حر » الذى أصبح ملكا على البلاد كلها بعد طرد الفرس وأصبح المؤسس والملك الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين .

اعترفت مصر كلها له بالسيادة واعتبرته منقذها من الطغاة ، وذكره كتاب اليونان ، ولكننا لسوء الحظ لم تصلنا آثار هامة من عهده ، والأثر الوحيد المؤرخ هو احدى البرديات الآرامية من إلفنتين ، كانت بين أوراق الجالية اليهودية التى عاشت هناك ، وهى مؤرخة فى السنة الخامسة من حكمه .

---

(١) أهم تلك الرسائل المكتوبة باللغة الارامية ترجمها حديثا جنزبرج ترجمة دقيقة وهى منشورة فى كتاب *Ancient Near Eastern Texts*, p. 491 - 492

ورفق المصريون بمن بقى من اليهود وتركوهم يعيشون حيث كانوا ، ولكن بعد حكم « أمون ـ حر » انتقل الملك إلى بيت آخر وملوكه هم الذين سماهم مانيتون ملوك الأسرة التاسعة والعشرين .

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ — ٣٧٨ ق . م) :

كانت الأسرة الجديدة من مدينة مندس (تمى الأمديد) ويظهر أنه لم تكن هناك حروب عند انتقال الملك من بيت إلى بيت، وربما كان« نايف ـ عاو ـ رود» ويسميه اليونانيون « نفريتس » (Nepherites) من زملاء «أمون ـ حر» فى الجهاد فى حرب التحرير وقد حكم نفريتس ست سنوات أيضاً (من ٣٩٨ ـ ٣٩٢) وكان أهم أعماله التى أراد القيام بها هو تحالفه مع الإسبرطيين ضد الفرس إذ أرسل إليهم قمحا ، وكل مايكفى لإنشاء ١٠٠ سفينة من السفن ذات الثلاث طوابق، ولكن التنافس المرير بين أثينا واسبرطة كان سببا فى تحطيم هذا الأسطول ، وكان هذا سببا فى فى اقتصار نفريتس على إصلاح داخلية بلاده وترك فارس وأثينا وأسبرطة تتنازع دون أن يحاول التدخل فى شئونها .

الملك هكر (أكوريس) ٣٩٢ — ٣٨٠

ولكن خليفته « هكر » خرج على هذه القاعدة وزج بنفسه فى محالفات ضد الفرس ووقف إلى جانب أثينا فى نضالها، ولم يدخر وسعا فى تقديم المال والرجال والمؤونة لمعاونتها . ولم يهمل هكر إصلاح الحالة الداخلية وأنشأ آثارا عدة وأبقى الزمن على اسمه وبخاصة فى محاجر طرة والمعصرة كما عثر على بقايا هيا كل له فى الكرنك وفى مدينة هابو وفى الكاب وغيرها .

ولم تكن الأعوام الأخيرة من حياته هادئة بل ربما مات مقتولا أو أسيراً إذ تلاه الملك « پى ـ سا ـ موت » (Pasamouthis) لمدة عام واحد . ثم خلفه ملك اسمه نفريتس الثانى لمدة أربعة شهور فقط وأخيراً استولى على الملك

أمير قوى لعب دورا كبيراً فى أواخر أيام هكر ولم يكن غريبا عن الارتباك الذى حدث ، وهـــذا الحاكم الجديد هو « نخت - نبف » الأول مؤسس الأسرة الثلاثين .

الأسرة الثلاثون

(٣٧٨ — ٣٤١)

كان إستيلاء « نخت نبف » (نختنبو Necktanebo) على العرش إيذانا بانتصار الحزب المصرى الذى أخذ يضيق ذرعا باليونانيين الذين أظهروا كثيرا من التلون أثناء نزاع مصر مع الفرس ، وأثبتوا فى أيام هكر أنهم غير جديرين بالإعتماد عليهم . ومن المحتمل جدا أن يكون « نخت نبف » وصل إلى الملك بمعونة الكهنة وبخاصة كهنة صا الحجر أغنى وأهم كهنة مصر فى ذلك العهد ، ولهذا كان أول عمل قام به أنه خصص لهم عشر الضرائب المحصلة على تجارة نوكراتيس (نيوت — كارت) وصناعاتها . وظهرت نتيجة مؤامرة اليونانيين على مصر عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمام غزو فارسى جديد كان قوامه جيش جمعه الوالى الفارسى فى سوريا وكان عدد رجاله ٢٠٠,٠٠٠ ومعهم فرقة مكونة من ٢٠,٠٠٠ من مرتزقة الإغريق ، وقد تمكن هذا الجيش من الوصول إلى مصر وتوغل فى الدلتا ولم ينقذ مصر من هذا الخطر إلا فيضان النيل فوقع الجيش فى حيرة ولم يعرف كيف يتقدم فاضطر للتقهقر ثانية إلى آسيا .

وتمتع « نخت نبف » بعد ذلك بشىء من الهدوء وكان نشاطه المعمارى كبيرا فخلف آثارا كثيرة فى أكثر بلاد مصر فى الدلتا والصعيد .

وفى أواخر سنى حكمه أشرك ابنه « چد حر » (Teos) معه فى الحكم وكان على غير رأى أبيه فى الإغريق، فعاود صلته بهم ولم يكد ينفرد بالحكم فى

عام ٣٦١ حتى نراه قد أصبح حليفا لأسپرطة، وساعده ذلك على تأليف جيش وأسطول من الإغريق المرتزقة فتكلف مبالغ طائلة حصل عليها من فرض الضرائب وإلغاء امتيازات كهنة صا الحجر . وأخيرا استولى على جميع ما فى المعابد من معادن نفيسة ليسك منها عملة يدفع بها مرتبات المرتزقة من جنوده. وكان غرض « چد حر » من ذلك جمع جيش كبير ليسير به إلى آسيا ليسحق الفرس، وقد نجح فى جمع جيش كان فيه ٨٠,٠٠٠ جندى مصرى، ١٠,٠٠٠ من مرتزقة الأثينين، ١٠٠٠ من جنود اسپرطة وكان معه أيضا أسطول يزيد عدد سفنه على مائتى سفينة من ذات الثلاث طبقات ، وتقدم « چد حر » على رأس جيشه العظيم واثقا من النصر بعد أن ترك أخاه نائبا عنه فى الحكم .

وسار الجيش ، وارتعدت فرائص الفرس هناك ، وكانت مصر على وشك أن تعيد ممتلكاتها فى فلسطين وسوريا لولا خيانة أخيه له ، إذ تآمر عليه فى غيابه وأرسل سرا إلى ابن «چد حر» وهو نختنبو الثانى ، وكان مع الجيش فى سوريا ، يبايعه بالملك ويطلب منه العودة . عاد الأمير الشاب ومعه الجنود الأسپرطيون وجزء كبير من المصريين فلما رأى الأثينيون ذلك عادوا بدورهم إلى بلادهم. فيئس « چد حر» بعد أن رأى خيانة ابنه وأخيه وجنوده له ، فاتخذ قرارا غريبا والتجأ إلى ملك فارس .

نختنبو الثانى (٣٥٩ – ٣٤١ ق.م.)

لم يكد نختنبو الثانى يعود إلى مصر حتى واجهته فتنة كبرى إذ أراد أحد سلالة الأسرة التاسعة والعشرين من مندس أن ينتهز فرصة هذا الشقاق وينتزع الملك ليعيده إلى بيته . وكاد ينجح فيما أراده ولكن نختنبو الثانى استطاع بمساعدة أصدقائه الإسپرطيين من إخماد الفتنة . وجلس نختنبو الثانى على عرش أبيه . وبدأت مصر فى عهده فترة زاهرة فى حياتها، وبنى هذا الملك كثيرا من المعابد فى جميع أرجاء البلاد وأظهر المهندس والفنان المصريان أن الجذوة لم تزل متقدة فى النفوس فعاد للفن كثير من جماله وأخرج المثالون قطعا فنية تثير الإعجاب.

ونعمت مصر بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاما على الأقل ولكن حوالى عام ٣٤٣ أخذت السحب السوداء تتجمع فى سمائها مرة أخرى عندما صمم الملك الفارسى ارتاكسركسيس الثالث الملقب « أوخوس » على استرداد مصر . وقد حاول الهجوم على الدلتا عام ٣٥١ ولكنه آب بالفشل ثم عبأ بعد ذلك بعدة سنوات جميع قواه فكان جيشه يزيد عددا على ٣٠٠,٠٠٠ جندى ولديه أسطول من ٣٠٠ سفينة كبرى وهاجموا مصر من البر والبحر . وكان الجيش الذى استطاع « نختنبو » جمعه لا يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ من المصريين والإغريق والليبيين فدارت الدائرة على مصر ، واحتل العدو منف وهرب نختنبو الثانى إلى الصعيد حيث استطاع أن يظل هناك كملك مصر عامين آخرين ، إلى أن كان عام ٣٤١ فأرسل الفرس حملة جديدة أتمت فتح مصر ودخلت البلاد مرة أخرى فى فترة قاسية من الخضوع للحكم الأجنبى .

الفرس للمرة الثانية فى مصر (٣٤١ - ٣٣٣ ق . م .)

لم تطأطىء مصر هامتها أمام هذه المحنة الجديدة بل تجددت فيها الثورات . ومن المؤكد أن أحد أمراء الدلتا واسمه « خباشا » قاد حركة المقاومة الوطنية وأعلن نفسه ملكا على البلاد، وقد اعترف كهنة منف به وعثر فى السرابيوم على تابوت مؤرخ فى العام الثانى من حكمه .

ونعرف من مصدر آخر، وهو تمثال من بداية عهد البطالمة معروف باسم تمثال الستراب[1]، بأن المصريين كانوا دائمى الثورة طيلة الأعوام الثمانية التى قضاها الفرس فى احتلالهم الثانى لمصر .

وكان نجم الأسكندر قد أخذ يظهر فى ذلك الوقت وسار فى حملاته الموفقة على آسيا فذهب إليه مصرى من مدينة إهناسيا يسمى « تاف نخت » وكان

---

(١) عن تمثال الستراب SETHE, *Urkunden* II, 11-12

أما عن تابوت خباشا فانظر *Ibidem*, 16-18

معه فى معركة إسوس التى هزم فيها دارا الثالث ملك الفرس ، وكان « تاف نخت » [1] هذا قد استنجد بالإسكندر لينقذ مصر مما تعانيه من ويلات . وفى نفس العام الذى انتهت فيه معركة إسوس سار الإسكندر إلى مصر فلم يلاق عناء فى فتحها ورحب به المصريون واعتبروه منقذا لهم مما كانوا فيه من عناء .

كان الإسكندر قائدا حربيا ممتازا وكان فى الوقت عينه تلميذا لأرسطو الذى ثقفه وأعده للمهمة العظيمة التى كان من نصيبه القيام بها .

وكان الإسكندر يعرف دون ريب الكثير عن أسباب تذمر المصريين من الفرس ، وكان يعرف أيضاً أنه ليس من حسن السياسة إساءة معاملة المصريين، ولهذا نراه منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على أرض مصر يظهر الاحترام الكامل لعادات البلاد ودياناتها، ويقدم القرابين للآلهة المصرية. وحرص الحرص كله على أن يتم تتويجه ملكا على مصر وفق التقاليد القديمة ، وأغدق على المعابد وأمر بإصلاحها فزادت محبة المصريين له . ولم يمض عليه غير قليل حتى فكر فى إنشاء ميناء جديد على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مكان كانت تشغله مدينة صغيرة اسمها « راقودة » فأنشأ فيها مدينته الجديدة التى سميت باسمه، وأصبحت ، وما زالت إلى الآن ، من أهم المدن على شاطىء البحر الأبيض المتوسط إن لم تكن أهمها . ولم يكتف الإسكندر بتتويجه فى منف وهليوپوليس بل زار معبد أمون فى سيوة حيث استقبله كبير كهنتها ورحب به كابن أمون وهى الزيارة التاريخية التى تركت أثرا كبيرا فى نفس الإسكندر إلى يوم موته .

---

(١) SCHAEFER, *Aegypliaca, Festschrift für G. Ebers*, p. 92 ff ; *Urkunden* II, p.1 ff..

دخلت مصر منذ ذلك العهد فى دور جديد من أدوار تاريخها خصوصاً بعد تأسيس أسرة البطالمة . ونترك ذلك كله الآن ونقف عند هـذا الحد من تاريخ مصر بعد أن رأينا كيف تمتعت مصر بامبراطوريتهـا العظيمة فى بعض الفترات ورأينا ما أصابها من ويلات فى فترات أخرى ، لـكنا رأينـا أيضاً كيف كانت مصر تخرج من كل هذه المحن ، ومهما أثخنتها الجراح كانت لاتلبث حتى تسترد عافيتها وتقوم من كبوتها وتستأنف نشاطها القديم .

وقفت فى سرد قصـة « مصر الفرعونية » عنـد زيارة الإسكندر لمصر وتأسيس أسرة البطالمة ، فهل معنى ذلك أن مصر الفرعونية قـد انتهت عند ذلك التاريخ ؟ الجواب بالنفى ، فان مصر الفرعونية لم تنتهى بانتهـاء الأسرة الثلاثين ، وإنمـا يرجع ذلك إلى تقسيم تاريخ مصر الطويل إلى فترات محددة. وإذا كان ملوك البطالمة قـد انحدروا من جد كان أصـله أجنبيا عن مصر ، فإنا نعلم أنهم تمصروا مع مرور الزمن ، ولم يعرفوا لهم وطنا غير وادى النيل ولم يكن لهم ديانة غير ديانة المصريين ، ونعرف أيضا أن آخر من حكم من هذه الأسرة وهى الملكة كليوباتره الشهيرة التى وضعت حدا لحياتها فى عام ٣٠ ق.م. ، أى عند دخول الرومان إلى مصر ، كانت مصرية صميمة فى سياستها وفى أهدافها وفى محاولتها القضاء على نفوذ روما وسلطانها .

وإذا كانت مصر قد آمنت بعد ذلك بالمسيحية ونبذت عنها ديانتها القديمة، ثم فتحت ذراعيها بعـد ذلك لدين الإسلام ولغة العرب فان ذلك لا يعنى أنها تخلصت من تاريخهـا أو تقاليدها أو أن روح مصر الفرعونية قـد عفا عليها الزمن .

إن تاريخ مصر باق وخالد لأنه مرتبط بأرضها المباركة ، وسيحافظ عليه المصريون ويقبلون دائما على دراسته وسيذكرون فى كل لحظة أولئك الأجداد الذين عاشوا قبلهم فوق أرض هـــذا الوطن العزيز ، وسيعتزون بتاريخهم ومجدهم وما ساهموا به فى تقدم الجنس البشرى .

خاتمـــة

لقد مررنا بتاريخ مصر مراً سريعاً ووقفنا فى سرد قصتها عنـــد بعض الحوادث ، ولم نشر إلى البعض الآخر . وبين الحين والحين تكلمنا بإيجاز عن بعض مظاهر حضارتها وحاولنا أن نشـير إشارات عابرة إلى ما توصل إليـه المصريون القدماء فى بعض نواحى مدنيتهم ، على قدر ما يسمح به النطاق الضيق لهذا الـكتاب .

ويبقى بعد ذلك كله نقطة أخرى وهى فضل الحضارة المصرية على غيرها من الأمم . فما من شك فى أن المصريين القدماء قد حققوا الـكثير من التقدم فى مختلف ميادين الفـكر والفن والعلم والأدب والصناعة والزراعة ، ولا شـك أيضاً فى أن ثقافتهم قـد وصلت إلى غيرهم من الشـعوب ولـكن ما هو الدين الذى تدين به الإنسانية لمصر ؟ وما هو الدور الذى قامت به مصر فى تقـدم الجنس البشرى ؟ وما هو أثرها المباشر على الحضارة الغربية بوجـــه عام ؟ والجواب على هذه الأسـئلة يحتاج إلى كتاب كامل بل ولأكثر من كتاب ، ويكفينا أن نشـير فقط إلى بعض تلك الأفضال . ففى ميدان الـكتابة توصل المصريون القدماء إلى اختراعها قبيل الأسرة الأولى أى قبل أكثر من خمسة آلاف سنة ، واستخدموها فى حياتهم اليومية وتركوا وراءهم الـكثير مما ساعدنا على معرفة الحياة التى يحيونها فى ذلك العهد البعيد . فعلى جدران مقابرهم نرى ما كانوا ينتجونه من مصنوعات مختلفة، كما نقرأ فى ألقاب رجالهم الـكثير الذى يدلنا على تقدم فن الإدارة فى البلاد والإهتمام بشكل خاص بنظم الرى وحفر القنوات وكل ما من شأنه تقدم الزراعة وأساليبها . وقسموا السنة الشمسية إلى فصول وقسموا هذه الفصول مجتمعة إلى إثنى عشر شهراً وقسموا كل يوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وكانوا أيضا أول من اخترع المزولة والساعة المـائية لتقسيم ساعات النهار وساعات الليل . ولـكن إلى جانب هذا التقدم فى الزراعة

وأساليبها وحساب الأيام والسنين ، كانت هناك ميادين أخرى كالطب الذى تقدم فيه المصريون منذ عهد بعيد ، إذ نعرف منذ منتصف الأسرة الرابعة اى منذ أكثر من ٤٥٠٠ سنة أنهم عرفوا التخصص فى فروعه فكان هناك أطباء مختصون بالعيون وآخرون مختصون بالأمراض الباطنية ، كما استطاع أطباء الأسنان أن يقوموا بإجراء بعض العمليات الدقيقة فى الأسنان . وكان لاختراع المصريين لورق البردى واستخدامه فى الكتابة أثر كبير فى تقدم العلوم إذ حرص المصريون منذ عهد الدولة القديمة على عمل نسخ من المؤلفات الهامة فى مختلف العلوم والاحتفاظ بها ، فضلا عن استخدامه فى رسائلهم وأعمالهم الإدارية .

وقد لعب البردى دورا كبيرا فى نشر العلوم والآراء فى العالم القديم وما زال اسمه على لسان كل غربى عند ما يشير إلى الورق ، فإن اسمه فى اللغات الغربية مشتق من كلمة « پاپيروس » وهو الإسم اليونانى لهذا النوع من النبات (البردى) الذى استخدم المصريون أليافه لصنع البرديات . ويعرف كل طالب غربى أن أبجديته التى يستخدمها كل يوم فى كتابة رسائله أو استذكار كتبه تسمى الحروف اللاتينية ، وأنها مأخوذة عن الرومان ويعرف بعضهم أن الرومان قد أخذوها بدورهم عن اليونان بل وربما عرف بعضهم أيضا أن اليونان بدورهم قد أخذوها عن الفينيقيين وهم شعب سامى الأصل كان يقطن الساحل السورى فى جزء من لبنان الحالى . ولكن الذى يتتبع هذا الموضوع أكثر من ذلك يصل إلى نتيجة هامة وهى أن الأبجدية الفينيقية استمدت أصولها من بضع مصادر أهمها الكتابة المصرية . وقد عثر فى شبه جزيرة سيناء على نقوش عرفنا منها أصول كثير من الحروف الفينيقية وصلتها بالكتابة المصرية ، وقلما يدرك الغربى الذى يقف معجبا أمام الآثار المصرية ، يتطلع إلى ماعليها من كتابة تصور بعض الأشياء المستخدمة فى الحياة وصور الطيور والحيوانات ، أن بعضها هو الأصل الذى نقلت عنه بعض حروفه التى يستخدمها

كل يوم ، والفضل فى هذا إنما يعود إلى ذلك المصرى القديم الذى عاش منذ آلاف السنين على ضفاف النيل .

ويقف الزائر أمام الهرم الأكبر أو غيره من الآثار ويتطلع بإعجاب إلى عظمته ودقة بنائه وسيطرة القدماء على نحت الأحجار ونقلها ، ولكنه قلما يذهب به تفكيره إلى أبعد من ذلك . فلو لم يتقدم المصريون القدماء فى فنون الرياضيات والهندسة والفلك واستخدام المعادن منذ أجيال عديدة قبل تشييد الهرم لما تمكن معماريو زوسر وسنفرو وخوفو وخفرع من تشييد أهرامهم ، وقد عثر على كثير من البرديات — ولو أنها من عصور متأخرة عن الدولة القديمة — وفيها مسائل رياضية وهندسية مختلفه وحلولها .

آمنت مصر فى بداية حياتها بسياسة العزلة . واطمأنت إلى سلامتها داخل حدودها ، ولكن هذه السياسة لم تستمر طويلا وسرعان ما بدأت مصر تتصل بغيرها وتتعرف على ما يحيط بها من بلاد ، فكان رحالتها أول رحالة يذهبون إلى قلب إفريقيا ليعرفوا الشعوب التى تعيش إلى الجنوب منهم . وما هى إلا دورة من دورات الزمن حتى أخذت الثقافة المصرية تجد طريقها إلى قلب هذه القارة ، وما زالت آثار تلك الحضارة باقية بين بعض تلك القبائل وما زال أهلها يمارسون كثيراً من العادات والشعائر المصرية القديمة حتى اليوم ، ولكن أثر مصر فى الحضارة العالمية كان أبعد وأعمق عندما اتصلت بالبلاد الواقعة إلى الشرق منها .

ألقت مصر عن كاهلها نير الهكسوس ، وكأن هذا الإحتلال الذى خنق البلاد وأوردها موارد الذل والهوان ، كان هو الباعث لها على نفض غبار الزمن عن كاهلها وخروجها وهى ممتلئة قوة وفتوة لتثأر لنفسها ، وتبعد الشر والخطر عن حدودها قدر ما تستطيع ، فأسست امبراطوريتها واتصلت بجميع مدنيات الشرق القديم وجها لوجه ، فأعطت ما أعطته وأخذت ما أخذته . لقد تركت الديانة المصرية ، والحكم والعادات والفنون المصرية أثراً كبيراً فى تلك البلاد

وقد استمر هذا الأثر قرونا عديدة بعد زوال نفوذ مصر السياسى من تلك الأقطار .

ولمصر فضل آخر لا يمكن إغفاله . فقد أشرنا أكثر من مرة فى صفحات هذا الكتاب إلى مقابر طيبة ومعابدها وإلى ما عليها من مناظر قدوم ممثلى الشعوب المختلفة لتقديم الجزية والهدايا إلى الجالس على عرش مصر . إننا نرى فى تلك المناظر شعوب جزر البحر الأبيض وآسيا الصغرى والشاطىء الفينيقى وبلاد الرافدين وفلسطين وبلاد پونت والسودان ، وبعد ذلك مناظر شعوب البحر من الليبيين وغيرهم من الشعوب التى تحالفت معهم . نرى ممثلى تلك الشعوب يلبسون ملابسهم الوطنية ومعهم مصنوعات بلادهم المختلفة وأسلحتهم وخير ما كانت تخرجه تلك البلاد من حاصلات ، أو مصادر الثروة المختلفة من المعادن والأحجار الكريمة وغيرها . لقد زالت من كثير من تلك البلاد آثار تلك العصور ويعتمد المؤرخون على الآثار المصرية لدراسة تلك الفترة الموغلة فى القدم ، فتمدهم بالكثير من المعلومات .

وكان نفوذ مصر الثقافى والتجارى فى فلسطين والشاطىء الفينيقى ، كبيراً منذ أقدم العصور ، وكان للديانة المصرية والأدب المصرى والغناء والموسيقى أثر مرموق فى جميع الأزمنة ، وقد زاد هذا الأثر فى أيام الإمبراطورية . وعندما قام إخناتون بدعوته الدينية ودعا إلى عبادة إله واحد فقط وهو الإله أتون ، القوة الكامنة فى قرص الشمس ، كانت تلك الدعوة هى الصيحة الأولى المعروفة فى تاريخ البشرية ، التى تقرب من التوحيد الذى جاءت به الكتب السماوية فيما بعد .

ومهما قيل عن إخناتون بأنه كان مهملا فى أمور الإمبراطورية فان أناشيده التى تغنى بها فى مدح أتون ظلت أدبا رفيعا ساميا تتناقله الأجيال ، ونشيده الكبير هو الأصل الذى نقل عنه الجزء الأكبر من مزمور ١٠٤ . كما أن بردية « أمنمؤوپى » كانت أيضاً الأصل الذى نقل عنه جامع سفر الأمثال ، وبعبارة

أخرى كان لمصر فضل لا ينكر على العبرانيين فى تكوين جانب من ثقافتهم ، عندما بدأوا ، فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فى كتابة بعض أجزاء من كتاب العهد القديم .

لم يقتصر فضل مصر على نشر الثقافة والعرفان فى البلاد المجاورة لها ، بل تعدتها إلى آفاق أبعد . وقد كان الفينيقيون يذهبون إلى أقاصى بلاد العالم المعروف ، يجوبون بحاره بسفنهم المحملة بالسلع التجارية وأكثرها من المصنوعات المصرية ، والسلع المصرية ، سواء ما كان يصنع منها فى مصر نفسها أو ما كان يقوم الفينيقيون بتقليده ، وهذا يفسر لنا العثور على كثير من الآثار المصرية فى بلاد كثيرة فى أواسط آسيا وفى أوربا ، كما يفسر لنا أيضاً انتشار بعض مظاهر وأوضاع الفن المصرى فى بلاد بعيدة عن مصر مثل الساحل الشرقى من الهند وبعض جزر الملايو ، بل وربما أبعد من ذلك .

ويعتقد المتعلمون فى الغرب أنهم مدينون بالشيء الكثير فى مدنيتهم الحالية لمصدرين أولهما اليونان والرومان ، والثانى الكتاب المقدس فأما الكتاب المقدس فهو نفحة من نفحات الشرق الأدنى ، وقد استمد الكثير من أصوله من بلاد الرافدين ولكنه استمد أيضاً الكثير من مصر ، لأن ثقافتها كانت منذ آلاف السنين هى العنصر السائد فى فلسطين وما جاورها . أما عن اليونان فقد تعلموا الكثير من مصر واعترف الكثيرن ممن وضعوا أسس تقدمهم فى مختلف فروع الحضارة كالقانون والطب والرياضيات والموسيقى أنهم تعلموا ما نشروه بين مواطنيهم من الكهنة المصريين عندما أقاموا معهم فى مصر عدة سنوات . ولم يقتصر فضل مصر على ذلك بل أن روما تعلمت من أثينا كما تعلمت من مصر الشيء الكثير . ويكفى أن نذكر أن فضلها معترف به فى جميع الميادين ، حتى فى ميدان الدين فقد كان للإلهة المصرية « إيزيس » معابد عدة ، فى روما وغيرها من المدن الرومانية فى القرن الأول الميلادى فى أوروبا ، وكان يقوم على خدمة تلك المعابد كهنة من المصريين

يساعدهم كهنة من أبناء البلاد ، وكانت مواكب هذه الآلهة وتمثيل قصتها كل عام ذات أثر كبير على أفكار الناس عامة فى ذلك العهد ، بل أن التمثيليات التى كانت تقام سنوياً فى أعياد الآلهة ، وبخاصة تمثيلية إيزيس وأوزيريس التى كانت تمثل منذ أربعة آلاف سنة وتعتبر أقدم المسرحيات فى تاريخ العالم .

لقد قام المصريون منذ نشأة حضارتهم بدور هام فى تاريخ البشرية ، فقد اخترعوا الكثير من المخترعات التى ساعدت فى تقدم المدنية ، وقاموا بدورهم فى نشر حضارتهم بين من جاورهم من الشعوب . لقد أعطى المصريون لغيرهم كما أخذوا منهم أيضاً ، ومرت عليهم أيام عز وسؤدد كما مرت عليهم أيام ضعف وهوان ، ولكن الروح المصرية بقيت دائماً سليمة فى جوهرها .

ولكن لكل زمن ملابساته الخاصة به ، وما كان حسناً لمصر قبل ألف سنة أو خمسة آلاف سنة لا يمكن أن يظل حسناً وصالحاً على الدوام. إن الشعوب تبقى والمدنيات تزدهر طالما كانت مرنة وتستطيع أن تلائم نفسها مع غيرها ، وأن تتشكل حسب ما يجد عليها من مؤثرات . وإذا كان المصريون اليوم يحتفون بتاريخ بلادهم بصفة عامة ويعتزون بتاريخ مصر الفرعونية بصفة خاصة ، فما ذلك إلا لإيمانهم بأن أجدادهم القدماء قد حققوا الكثير من معجزات المدنية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية ، وأنهم ساهموا فى تشييد صرحها ، وهذا مما يدعو إلى الفخر والاعتزاز .

إننا ما زلنا نعيش فوق تلك الأرض المحبوبة التى عاش فوقها آباؤنا ، وليس فى تلك الحقول الخضراء شبر واحد لم يمتزج ثراه بعرق أولئك الأجداد جيلا بعد جيل منذ آلاف السنين . وهذا النيل المبارك الوهاب ، ما زال يسير بين الشاطئين كما فعل منذ عشرات القرون . وتلك الآثار المنتشرة فى الوادى ، وتلك الأهرام والمعابد التى غالبت الزمن وظلت ترفع هاماتها ، وتطل علينا لتذكرنا بمجد من شيدوها ، إنما أصبحت جزءاً متمما

لهذا الوادى السعيد ، ولن يتم حبنا لهذا البلد العزيز إلا إذا درسنا تاريخه القديم وسرنا مع القدماء جيلا بعد جيل لنعرف ما مر على هذا الوطن من أحداث .

وكم من أسرات حكمت وزالت ، وكم من غزاة جاءوا وذهبوا ، وكم من عتاة حكموا ثم اختفوا مشيعين باللعنات ، وكم من حكماء وفنانين عاشوا فقراء ولكنهم تركوا ثروات خالدة بعد موتهم . لقد أصبحت المعابد الكبيرة آثاراً يزورها الناس ، ونقلت أكثر تماثيل آلهتها إلى المتاحف المختلفة فى أرجاء العالم ، ولكن بالرغم من هذا كله فإن من يزورها يتعلم الشيء الكثير . لقد سكتت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى العازفين ، ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبهائها وحجراتها ، يهتف بمجد مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب الكبير الضخم الذى سطره المصريون بأنفسهم .

إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .

لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت الدول وزال الغزاة وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين . وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه يفيض بالخير والبركات ، وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين .

بعض المراجع الهامة

أهم الكتب التي ظهرت عن تاريخ مصر باللغة العربية هى الكتب الآتية مرتبة ترتيبا أبجديا

أحمد بدوى . فى موكب الشمس . وقد ظهر منه جزءان حتى الآن ظهر أولها فى عام ١٩٤٦ والثانى فى عام ١٩٥٠، ويقف عند الأسرة العشرين .

جون ولسون — الحضارة المصرية (مترجم عن الانجليزية ، وقد نقله إلى العربية أحمد فخرى) - ظهرت الطبعة الثانية من الأصل الانجليزى عام ١٩٥٤ وظهرت الترجمة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٦

دريوتون — ڤاندييه — ، ترجمة عباس بيومى — ظهر الأصل الفرنسى فى عام ١٩٣٨ والترجمة العربية للطبعة الثانية (فى عام ١٩٤٦) وظهرت فى ١٩٥٠

سليم حسن — مصر القديمة ، ظهر منه حتى الآن أحد عشر جزءا ، وقد صدر الجزء الأول فى عام ١٩٤٠ والجزء الحادى عشر فى عام ١٩٥٧، ولم ينتهى مؤلفه من كتابة تاريخ مصر كله .

نجيب ميخائيل — مصر ، الطبعة الثانية يناير ١٩٥٧

أما المراجع العامة عن تاريخ مصر فهى كثيرة ولكنى أختار منها للقارىء السبعة عشر كتابا الآتية :

(1) BREASTED J. H., Ancient Records - (= BAR), 1906

(2) » » , A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest, 2nd edition, 1927.

(3) DRIOTON, É, and VANDIER, J. L'Egypte ("Clio": Les Peuples de l'orient méditerranéen, II) 2nd edition, 1946.

(4) ERMAN, A., and RANKE, H., Aegypten und Aegyptischen Leben im Altertum, 1923.

وهو مترجم إلى اللغة العربية : قام بترجمته عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال فى عام ١٩٥٣ وظهر تحت عنوان « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة »

(5) JUNKER, H. Die Aegypter (Die Völker des antiken Orients: Geschichte des frührenden Völker, III), 1933.

(6) KEES H. Aegypten, Handbuch des Altertumswissenschaft, III, part 1 No. 3. Kulturgeschichte des alten Orients, 1), 1933.

(7) LUCAS, A. Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed 1949.

(8) MEYER, E. Geschichte des Altertums, I-III 1925 - 1937.

(9) OTTO, E, Aegypten, Der Weg des Pharaonenreiches 2nd edition, 1955.

(10) PETRIE, W.M F., A History of Egypt.

(11) PORTER, B. and MOSS, R.L.B. Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs, and Paintings 7 Vols, 1927 - 1949.

(12) PRATT, I. A. Ancient Egypt: Sources of Information in the New York Public Library, 2 Vols 1925, 1942.

(13) SCHARFF, A. and MOORTGAT A., Aegypten und Vorderasien im Altertum, 1950

(14) STEINDORFF ,G. in Baedeker, Egypt and the Sudân Handbook for Travellers, 8th edition, 1929.

(15) WEIGALL, A.E.P, A Guide to the Antiquities of Upper Egypt from Abydos to the Sudan Frontier. 1910.

(16) WILSON, J.A The Burden of Egypt, 2nd edition, 1954.

(17) WRESZINSKI, Atlas zur Aegyptischen Kultnrgeschichte I-III 1923 - 1940

المجلات واختصارات أسمائها :

ABH. BERLIN = Abh. preues. Akad. Wiss. Berlin = Abhandlungen des (königlisch) preussichen Akademie des Wissenschaften (Berlin). Jahrgang ... Philosophich - historische Klasse.

AJSLL = The American Journal of Semitie Languages and Literatures.

AJOS = The American Journal of Oriental Studies.

ASAE = Annales du Service = Annales du service des Antiquités de l'Égypte.

BIFAO = Bulletin de l'Institut français d'archéologie Orientale du Caire.

BMFA = Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston.

BMMA = Bulletin of the Metropolitan Museum of Art

JEA = The Journal of Egyptian Archaeology

JNES = Journal of Near Eastern Studies.

REC. TRAV = Recueil de Travaux relatifs à la philologie et à l'archéologie égyptienne et assyriennes

UNTERS. = Untersuchungen = Untersuchungen Zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens.

Urk = Urkunden = Urkunden des Aegyptischen Altertums.

ZAS = A.Z. = Zeitschrift für Aegyptische Sprache und Altertums kunde.

Aegypt Zeitschr. =

يجد القارىء فى صفحات الكتاب كثيراً من المراجع مذكورة فى الهامش عند مناقشة بعض النقط وسأذكر هنا مراجع أخرى لأجل فائدة القارىء الذى يريد المزيد من الاطلاع ، وسأقتصر على أهمها .

الفصل الأول

« مولد الحضارة ونشأتها »

— عن چيولوچيا القطر المصرى :

HUME, W.F., Geology of Egypt (Survey of Egypt) 2 vols Cairo. 1925 - 1935.

— عن الجغرافيا بوجه عام :

BALL, J., Contribution to the Geography of Egypt, (Survey and Mines Department), Cairo.

— Egypt in the Classical Geographers (Survey of Egypt), Cairo 1924.

KEES, H. Das Alte Aegypten, Eine Kleine Landeskunde, Berlin 1955.

PASSARGE, S. Die Urlandschaft Aegyptens, Halle, 1940.

— عن التاريخ وحساب الزمن :

PARKER, R. The Calendars of Ancient Egypt, Chicago, 1950.

— عن حضارة الفيوم :

CATON-THOMPSON, G., and GARDNER, E. W., The Desert Fayoum, 2 Vols, London 1934.

— عن حضارة مرمدة :

JUNKER, H., Vorbericht über die Grabung auf des neolithichen Siedlung von Merimde - Benisalâme, (Anzeiger der philosophich - historische Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien 1929, 1930, 1932, 1934).

— اقرأ عن حضارة عصر ما قبل الأسرات بصفة عامة الكتب الثلاثة الآتية :

BOVIER - LAPIERRE, P., "L'Egypte Préhistorique", Précis de l'histoire d'Egypte, T. I, Cairo 1932.

SCHARFF, A., Grundzüge des aegyptischen Vorgeschichte (Mor genland : Darstellungen aus Geschichte und Kultur des alten Orients, No. 12), Leipzig, 1927.

HUZAYYIN, S. A., The place of Egypt in Prehistory (Mémoires présentés à l'Institut d'Egypté, XL III), Cairo 1941.

أما كتاب BAUMGAERTEL, E.J. The Cultures of Prehistoric Egypt Cxford, 1947. فيجب عدم الأخذ بكل ما ورد فيه من آراء ، فمن بين تلك الآراء ما لا يمكن التسليم به ، وفى الوقت ذاته فقد حوى معلومات كثيرة هامة .

— عن حضارة البدارى :

BRUNTON, G. and CATON - THOMPSON G, The Badarian Civilization and Predynastic Remains near Badari, London, 1928,

— عن حضارة المعادى :

MENGHIN, O. and AMER, M. The Excavations of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi, 2 Vols, Cairo 1932, 1936.

وارجع أيضا إلى ما كتبه الدكتور ابراهيم رزقانة عن المعادى وغيرها من المناطق فى مؤلفه عن حضارات عصر ما قبل الأسرات .

ـ عن أقدم الصلات بين مصر وآسيا :

SCHARFF, A., "Neues Zur Frage des ältesten Aegyptisch-Balylonischen Kulturbeziehungen", A.Z., L X X I (1935) pp. 89 - 106

- , Die Frühkulturen Aegyptens und Mesopotamiens (Der alte Orient, Vol. 41) Leipzig 1941.

KANTOR, H.J., "The Early Relations of Egypt with Asia" JNES, 1 (1942), pp. 174 - 213.

FRANKFORT, H.J , The Birth of Civilization in the Near East, 1951.

CHILDE, V.G., New Light on the most Ancient East, 4th edition, 1952.

الفصل الثانى

« عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق »

ـ عن تاريخ وآثار هذه الفترة من تاريخ مصر اقرأ المراجع العامة ، والكتب الآتية وقد حوت أسماء كثير من المقالات والأبحاث والكتب الأخرى :

SETHE, K., Beiträge zur aeltesten Geschichte Aegyptens (Untersuchungen III), Leipzig, 1905.

WEILL, R., La IIe IIIe Dynasties, Pris, 1908.

QUIBELL, J.E., Hierakonpolis, 2 Vols 1900, 1902.

— , Archaic Mastabas, Cairo 1947.

SAAD, Z.Y., Royal Excavations at Saqqara and Helwan (1941 - 1945), Cairo, 1947.

أما عن مقابر هذا العصر فى أبيدوس وسقارة وطرخان فيمكن الرجوع إلى مؤلف پورترموس أو مؤلف پرات (انظر المراجع العامة).

الفصل الثـــالث
« الدولة القـــديمة »

— عن آثار زوسر ومجموعة الهرم المدرج :

كتب فى ذلك فيرث وكويبل ، ويكفى أن نذكر هنا مؤلف لاور فقـد حوى ما سبق أن كتبه من كانوا قبله وقد أشار إلى مؤلفاتهم .

LAUER, J.P. La Pyramide à degrés, 3 Vols, Cairo, 1936 - 1939.

— عن الأهرام بوجه عام ، ويشمل ذلك الهرم المـــدرج وأهرام الدولة القديمة والوسطى ، اقرأ :

EDWARDS, I.E.S., The Pyramids of Egypt (Penguin Books), 1947.

وقـد ترجمه إلى العربية مصطفى احمـد عثمان ونشرت الترجمة بعنوان أهـرام مصر ـ القاهرة (مشروع الألف كتاب عام ١٩٥٦) .

LEUER, J.P., La Probleine des pyramides d'Egypte, Paris 1948.

PETRIE, W.M F., The Pyramids and Temples of Gizeh, London 1883.

GRINSELL, L.V., Egyptian Pyramids, 1947.

— عن عمارة الدولة القديمة :

RICKE, H. Bemerkungen zur ägyptischen Baukunst des Alten Reiches I, II, Zürich, 1944.

— عن آثار الدولة القديمة بوجه عام :

VANDIER, J , Manuel d'Archéologie Égyptienne, T.I, II (Paris, 1952 - 1955.

— عن فن النحت والرسم :

SMITH, W.S., A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdom, 2nd edition, Boston 1949.

ـ عن مقابر الدولة القديمة التي تم الكشف عنها في منطقة الجيزة ، يرجع إلى مؤلفات ريزنر (Reisner) ويونكر (Junker) وسليم حسن .

ـ عن مقابر الدولة القديمة في منـــاطق مصر المختلفة وبخاصة في سقارة وأبو صير ودهشور ودشاشة وميدوم والشيخ سعيد والهامية ونجع الدير ودندرة والاقصر وأسوان وغيرها ، يمكن معرفة المراجع الخاصة بها من كتاب پورتر — موس .

ـ عن نظام الإدارة والقوانين :

PIRENNE, J., Histoire des Institutions et du droit privé de l'ancienne Égypte, 3 Vols, Bruxelles, 1932 - 1934.

ـ عن نصوص الأهرام ، مع شرحها وترجمتها .

SETHE, K., Die altaegyptischen Pyramidentexte, Leipzig, 1908 - 1922.

SETHE, K., Ubersetzung und Kommentar Zu den altaegyptischen Pyramidentexten.

عن حضارة الدولة القديمة بوجه عام، مع تفسيرات جريئة لبعض المواضيع :

SPIEGEL, J., Das Werden der altaegyptischen Hochkultur Heidelberg, 1953.

الفصل الرابع
« عصر الفترة الأولى »

ـ النص الكامل لبرديتي « إيپوور » و « نفر روهو » منشوران في أكثر من مؤلف مثل :

ERMAN, A. Die Literatur der Aegypter, Leipzig 1923 (= The Literature of the Ancient Egyptians - translated by A Blackman).

LEFEBVRE, G., Romans et Contes Égyptiens, 1949.

— عن مناقشة هذه النصوص واستخلاص المغزى التاريخى منها :

SCHARFF, A., Der historische abschnitt der Lehre für König Merikarê (Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - historische Abteilung, 1936) München, 1936.

— قصة القروى الفصيح منشورة ترجمتها فى كتابى إرمان وليفقر وغيرهما ولكن المؤلف الرئيسى عنها هو كتاب .

VOGELSANG, F., and GARDINER, A.H. Die Klagen des Bauern (Hieratische Papyrus aus den königliche Museen Zu Berlin, IV, Literarische Texte des Mittleren Reiches, I) Leipzig, 1908.

— وهنالك قصة أخرى من هذا العصر وهى قصة اليائس من الحياة ، يجدها القارىء فى كتب الأدب السابق ذكرها ، ولكن تحليلها وشرح نقطها كان موضع عناية الأستاذ شارف فى بحث خاص .

SCHARFF. A. Der Bericht über das Streitgespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele, Munich 1937.

— عن مقابر هذا العصر ارجع الى :

PETRIE, W.M.F., and BRUNTON G., Sedment, I, II, 2 Vols. London, 1924.

BRUNTON, G., Qau and Badari, 2 Vols. London 1927, 1928.

BRUNNER, Die Texte aus den Gräbern der Herakleopolitenzeit von Siut (Aegyytolog. Forsch.), 1937.

MONTET, P. "Les Tombeaux de Siout et de Deir Rifeh» Kêmi, III (1930), pp. 89-III; VI (1936), pp. 138-155.

NEWBERRY, P.E. Beni Hasan, 4 Vols London, 1893.

— عن انتشار عبادة أوزيريس :

SCHARFF, A. Dic Ausbreitung des Osiriskultes in der Frühzeit und wâhrend des Alten Reiches, Muaich, 1947.

— عن حدوث بعض التطورات فى شكل الأشياء وبعض التمائم والأدوات :

JÉQUIER, G., Les frises d'objets (Mém. de l'Institut F.A.O. T. 47.

SCHAFER, H., Die Entstehung einigen Mumienamulette, ZAS, XLIII, 66.

BRANTON, G., Buttons and Design Scarabs, London 1925.

الفصل الخامس
« الدولة الوسطى »

— عن تتابع ملوك الأسرة الحادية عشرة فى الحكم :

VANDIER, J., L'ordre de succession des derniers rois de la XI dynastie, Studia Aegyptiaca I, pp. 36-47, Rome 1938.

WINLOCK, H.E., The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947.

— عن معبد الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى بطيبة :

NAVILLE, E., The XIth Dynasty Temple at Deir el-Bahari 3 Vols, London 1907 - 1913.

WINLOCK, H.E., Excavations at Deir el Bahri, 1911 - 1931. New York, 1942.

— عن تطور مقابر الأسرة الحادية عشرة المقطوعة فى الصخر :

BRUNNER, H. Die Anlagen der Aegyptischen Felsgrâber bis zum mittleren Reich, 1936.

— عن النقوش التى فى تلك المقابر :

CLÈRE, J.J., and VANDIER, J. Textes de la première période intermédiaire et de la XIème dynastie, 1948.

BUNNER, H. Die Texte aus den Gräbern der Herakleopolitenzeit von Siut, 1937.

GRIFFITH, F. LL., The Inscriptions of Siut and Dêr Rîfeh 1889.

MONTET, P., "Les Tombeaux de Siout et de Deir Rifeh", Kemi, III (1930) pp. 89-111; VI (1936), pp. 381-155.

POLTSKY, H.J. Zu den Inschriften der 11ten Dynastie (Untersuchungen XI) Leipzig 1929.

— عن نصيحة أمنمحات الأول لابنه سنوسرت :

BUCK, A. De, "The Instruction of Amenemmes", Mélanges Maspero I, pp. 847 - 852, Cairo, 1935.

FAULKNER, R.O., Some Notes on"The Teaching of Amenemmes I to his Son" Studies presented to F.LL. Griffith, pp. 69-73 London, 1932.

MASPERO, G. Les Enseignements d'Amenemhait Iᵉʳ a son fils Sanouasrit Iᵉʳ, Cairo 1914.

— عن هيكل سنوسرت الأول بالكرنك :

LACAU, P. and CHEVRIER, H., Une Chapelle de Sésostris Iᵉʳ à Karnak (Service des Antiquités de l'Égypte, Cairo, 1956.

— عن أهرام الأسرة الثانية عشرة ، ارجع إلى كتب الأهرام التي ذكرناها عند ذكر مصادر الدولة القديمة وكذلك كتاب فيرشو عن أهرام هذه الأسرة :

FIRCHOW, O., Studien Zu den Pyramidenanlagen der 12, Dynastie Göttingen, 1942.

— عن تطور مقابر الأسرة الثانية عشرة :

MÜLLER, H.W. Die Felsengraeber der Fürsten von Elephantine, Glückstadt, 1940.

— عن أهم مجموعات الحلى :

BRUNTON, G., Lahun I : The Treasure, London 1920.

WINLOCK, H., The Treasure of El Lahun, New York, 1934.

MORGAN, J. DE, Fonilles à Dahchour, 2 Vols, 1895, 1903.

— عن موضوع العلاقة بين مصر وغيرها من الأمم ، أقتصر على الأبحاث الآتية :

SAEVE-SÔDERBERGH, T., Aegypten und Nubien, 1941.

HÔLSCHER, W., Libyer und Aegypter, 1937.

BISSON de la ROQUE, F., Tod (Fouilles de l'Institut Français, Vol. 17), Cairo 1937.

MONTET, P., Byblos et l'Egypte, 2 Vols, Paris 1928, 1929.

KANTOR, H.J., The Aegean and the Orient in the Second Millenniun B.C., 1947.

الفصل السادس

« عصر الفـــترة الثانية »

المراجع المذكورة فى هوامش صفحات هذا الفصل تـكاد تكون كافية .
وأضيف عليها الأبحاث القليلة الآتية :

ALBRIGHT, W.F. "An Indirect Synchronism between Egypt and Mesopotamia, Circa 1730 B.C." Journal of the American Schools of Oriental Research, No. 99 (October, 1945) pp. 9-18.

ENGBERG, R.M., "The Hyksos Reconsidered" Sudies in Ancient Oriental Civilization, 18, Chicago 1939.

SCHARFF, A. "Ein Rechnungsbuch des könlglichen Hofes aus der 13-Dynastie (Papyrus Boulaq Nr. 18) ZÄS, L VII (1922), pp 51-68.

WEILL, R. "Les successeurs de la XIIe Dynastie à Medamoud" Revue ds l'Egypte ancienne, II (1929), pp. 141-171.

— "Compléments pour La Fin du Moyen Empire Egyptien" BIFAO, XXXII (1932), pp 7-52.

EVERS, H.G., Staat aus dem Stein, 2 Vols, 1929.

WIESNER, Fahren und Reiten in Alteuropa und im alten Orient (Alte Orient, Bd. 38, 2-4) Leipzig, 1939.

ALT, A. "Die Herkunft der Hyksos in neuem Licht", Sächs. Ak. wiss. 101, 6, 1954.

الفصل الســـابع

« الدولة الحديثة »

ذكرت عند مناقشة المواضيع الواردة فى هذا الفصل أكثر من ثمانين مرجعا ، خمسون منها عندحديثى عن الأسرة الثامنة عشرة وأكثر من عشرين عند مناقشة أحداث الأسرة التاسعة عشرة وعشرة مراجع للأسرة العشرين،

وهذه المراجع كافية بوجه عام لدراسة هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر إلى جانب المـــراجع العامة المذكورة فى أول هذا الباب ، وأزيد عليها الأبحاث القليلة الآتية لتوضيح بعض المواضيع التى أشرت اليها :

ـ نقوش مقبرة أحمس بن إبانا منشورة فى SETHE, Urk. IV, p. 8 ff. ومترجمة فى Breasted, A.R. II, § 80 ff. وكذلك نقوش أحمس بن پننخبت ومقبرة إنينى فانها منشورة أيضا فى المؤلفين السابق الذكر .

ـ عن موضوع البلاد التى وردت فى جداول تحوتمس الثالث ، توجد أبحاث كثيرة أختار منها :

SIMONS, J., Handbook for the study of Egyptian topographical lists, Leieen 1937.

JIRKU, A., "Die Aegyptischen Listen palästinensischer und syrischer Ortsnamen", Klio, 38, Leipzig 1937.

GRAPOW, H. "Studien Zu den Annalen Thutmosis des Dritten", Alhand, d. deutsch, Aked. d. Wissenschaft Zu Berlin, 1947.

ـ عن تل العمارنة بوجه عام ، ارجع إلى كتـاب پورتر ـ موس ، ففيـه أهم المراجع . أما عن تخطيط المنازل.

RICKE, H., Der Grundriss des Amarna-Wohnhaus, Leipzig, 1932.

وقد ظهر فى السنوات القريبة بحث عن الإلهة «ماعت» فى ديانة اخناتون :

ANTHES, R., Die Maat des Echnaton von Amarna, Supplement to the American Orienal Society 14, Baltimsre, 1952.

ـ عن وظيفة نائب الملك فى النوبة :

REISNER, G., J.E.A., VI (1920), p. 28-55; 73-88.

GAUTHIER, H. Rec. Trav., 39 (1921), p. 179-238.

ـ عن حفلة تنصيب الوزير واختصاصاته ونصائح الملك له :

SETHE, Urk. IV, p. 1085-1093; 1103-1161.

وتوجد ترجمتها باللغة الانجليزية فى كتاب :

BREASTED, A.R., II § 665-762.

SETHE, K. "Einsetzung des Veziers unter der 18. Dynastie", Untersuchungen V, 2, Leipzig, 1902.

The Autobiography of Rekhmeré, ZÄS, 60 p. 62-76.

— عن معبد مدينة هابو ، ارجع إلى مطبوعات المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاجو ، أما برديه هاريس فاقرأ عنها :

SCHAEDEL, H.D., Die Listen des grossen Papyrus Harris Leipzig, 1936.

ERICHSEN, W., Papyrus Harris I, Bibliotheca Aegyptiaca V, 1933 Breasted, A.R.

النصوص فقط وترجمتها باللغة الانجليزية فى :

— عن القصص المختلفة والأغانى والأناشيد التى يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، ارجع إلى كتاب إرمان عن الأدب المصرى القديم . أما عن بردية شستربيتى وبخاصة عن بعض الأغانى الغرامية :

GARDINER, A. The Chester Beatty Papyri No. 1, Oxford, 1931 p. 27-38; pl. 16, 17, 22-26; 29-30.

أما قصة النزاع بين حورس وست فهى فى البردية نفسها من ص ٨ — ٢٦ ولوحات ١ — ١٦ ، ارجع أيضا الى ما كتبه شپيجل

SPIEGEL J. Die Erzählung vom Streit des Horus und Seth, Leipzig (Aegypt. Stud, 9), 1737.

الفصل الثامن

« العصر المتأخر - الأسرات ٢١ - ٢٤ »

— عن نشأة الأسرة :

KEES, H, "Herihor und die Aufrichtung des thebanischen Gottesstaates" Nachrichten d. Gesell. d. Wissen. Zu Göttingen, 1936.

BECKERATH, J.V. Tanis und Theben.

MEYER, ED., "Gottesstaat, Militärherrschaft und Ständewesen in Aegypten", Sitzungberichte d. preuss. Akad. d. Wissen. Zu Berlin, 1928, p. 495 ff.

— عن لوحات السرابيوم :

MARIETTE, A., Le Sérapeum de Memphis découvert par Auguste Mariette, Paris 1857.

— عن المومیات والاهتمام بها بعد سرقة المقابر :

MESPERO, Les Momies royales de Deir-el-Bahari, (Mém. miss. Archéol. Fr. au Caire, I), 1889.

— عن الزوجة الالهية لأمون :

SANDER-HANSEN, C.E., Das Gottesweib des Amun, Kopenhagen, 1940.

— عن رحلة «ون أمون» يرجع القارىء إلى الكتب المختلفة عن الأدب المصرى القديم فهى مترجمة فيها جميعا .

— عن صان الحجر وحفائر مونتيه والجبانة الملكية ، كتب مونتيه عدة كتب عن حفائره وما عثر عليه فيها ، وهو يعطى فكرة عامة عن تاريخ هذه المدينة وآثارها فى كتابه :

MONTET, P., Tanis, Douze années de fouilles, Paris, 1942.

— عن حكم أمنمؤوبى الشهيرة :

LANGE, H.O., "Das Weisheitsbuch des Amenemope", Kgl. Danske Vidensk. Selskab, Fil-hist. Medd. 11, 2, Kopenhagen, 1925.

— عن الأسرة الثانية والعشرين فى الواحات :

AHMED FAKHRY, Bahria Oasis, Vol. 1 (Cairo 1942), p. 19 ff.
GARDINER, A.H. The Dakhleh Stela, J.E.A. 19 (1933), p. 19 ff.

الفصل التاسع

«اليقظة : الاسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون»

ZEISSL, H. von, Aethiopen und Assyrer in Aegypten, Aegyptische Forsch. 14, 1944.

— عن نصوص لوحة بعنخى ، فان أفضل نص هو الذى نشره شيفر فى .

SCHAEFER, H., Urknnden III, p. 1-56.

أما عن ترجمتها ودراسة أسماء الأماكن الواردة فيهـــا فاننا مازلنا نعتمد على ترجمة برستد (Breasted, Ancient Records: IV) §§ 796-833 •

وهناك ترجمة عربية لهـا منشورة فى كتاب : سليم حسن - مصر القـديمة الجزء ١١ (القاهرة ١٩٥٦) ص - ٩ وما بعدها .

— عن الصراع بين مصر وأشـور ، يمكن الرجـوع إلى ما كتبـه إدوارد ماير فى تاريخه (الجزء الثالث ص - ٣ وما بعدها) ، وإلى كتاب :

LUCKENBILL, Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 Vols. 1926-1927.

انظر أيضاً مقال بيت : PEET, T.E., J.E.A., XI (1925), p. 117.

— عن منتوحات : LEGRAIN, Receuil des Trav. 27 (1905), 80-81.

— عن الأسرة السادسة والعشرين فى تاريخ هيرودوت :

MEULENAERE, H. DE, Herodotos over de 26 ste Dynastie, Bibl. de Muséon 27, Leuven 1951.

KEES, H., "Zur Innenpolitik der Saitendynastie", Nachr. G.W. Göttingen, 1935.

— عن موضوع عصيان حامية إلفنتين :

SCHAEFER, H. Die Auswanderung der Krieger unter Psammetich I. und der Söldneraufstand in Elephantine unter Apries, Klio IV, 1904, p. 152 ff.

— عن الصلات الخـارجية بين ملوك الأسرة السادسة والعشرين وغـيرهم من الشعوب :

VIEDEMANN, Geschichte Aegyptens von Psammetich I, bis auf Alexander den Grossen.

— عن اهتمام ملوك الأسرة السادسة والعشرين بالواحات :

FAKHRY, A., Bahria Oasis, Vol. I (Cairo, 1942), Vol. II (Cairo, 1950).

الفصل العاشر

« مدوجزر : الأسرات ٢٧ - ٣٠ »

يجد القارىء فى هوامش صفحات هذا الفصل أهم المراجع ، وأضيف عليها هنا بعض المراجع الأخرى :

— عن معبد الواحات الخارجة ، يمكن الرجوع إلى المجلدين اللذين نشرها متحف المتروبوليتان وأولهما عن العمارة والثانى عن نقوش المعبد التى قام برسمها المرحوم نورمان دى جاريس ديفز وقام بإعدادها للنشر المرحوم لدلو بل فى عام ١٩٥٢

— عن مجموعة الأوراق البردية الآرامية التى عثر عليها فى جزيرة إلفنتين :

MEYER, ED. Der papyrusfund von Elephantine, Leipzig, 1912.

VINCENT, A. La religion des Judéo-Araméens d'Eléphantine, Paris 1937.

— عن الصلة بين الإغريق ومصر فى هذه الفترة من تاريخها :

MILNE, J,E.A., XXV (1939), p. 177-183.

— عن ترتيب تتابع كل من نختنبو الأول ونختنبو الثانى والآثار المنسوبة إلى كل منهما :

CAPART, J. Chronique d'Egypte, 29 (1940).

— عن هذا العصر بوجه عام :

OTTO, E., Die Endsituation der Aegyptischen Kultur, Die Welt als Geschichte, 1951.

— , Die Biographien der Aegyptischen Spätzeit, Problem der Aegyptologie II, Leiden 1954.

— عن زيارة الاسكندر الأكبر لهيكل الوحى فى سيوة :

FAKHRY, A., Siwa Oasis (Cairo, 1944), p. 35-44; p. 84-96.

الفهـــارس

١ ــ آلهــه

٢ – أهم الملوك والملكات

٣ — أسرات

٤ ـ أشخاص

٥ ــ مدن وبلاد وأماكن

٦ ـ عمـــومى

أهم الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤	٨	ماذ	منا
٦٢	١	ثمانية	ستة
٦٩	٢٢	أصبح	أصبحت
٧١	١٩	أنموا	أتموا
٧٩	٢١	ع	رع
٨٨	١٧	الملوك	الملك
٩٦	١	الصرع	الصراع
٩٨	٢	مولدهن	مولدهم
١٢١	٨	درافور	دارفور
١٥٢	٢	الوراى	الوراثى
١٦٣	١٦	احربوا	احرثوا
١٧٧	٢٢	مقا هم	مقابرهم
٢٠٨	٥	لملك	الملك
٢٣٢	١	متخصبن	مغتصبين
٢٤٤	١٥	مربيه	مربيه
٢٤٦	١٠	المك	الملك
٢٧٦	٦	تتلق	تتلقى
٢٨٨	٩	عليه	على
٢٩٩	١٦	وداى	وادى
٣٢٤	١٠	الغراوة	الغرارة
٣٣٧	١٥	يوضع	يوضح
٣٥٣	٦	وهكذ	وهكذا
٣٥٧	١٩	ه ه	هذه

دار ممفيس للطباعة
٥٦ شارع منصور ــ باب اللوق ــ بالقاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

دار ممفيس للطباعه
٥٦ شارع منصور - باب اللوق
ت ٢٦٨١٨ - القاهرة

الثمن ٨٠ قرشاً